أوروبا

من مطلع العصور الحديثة حتى سقوط نابليون بونابرت

أ.د صلاح أحمد هريدى

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

كلية الآداب - فرع دمنهور - جامعة الإسكندرية





توزيع
دار المعارف
بستان المعرفة
لنشر وتوزيع الكتب
٠١٢١١٥١٢٣٧ - ٠٤٥٢٢١١٤٩٥

أوربا

من مطلع العصور الحديثة

حتى سقوط نابليون بونابرت ١٨١٤م

أوربا
من مطلع العصور الحديثة
حتى سقوط نابليون بونابرت ١٨١٤ م

دكتور

صلاح أحمد هريدى على

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب بدمنهور
جامعة الإسكندرية

2010

مكتبة بستان المعرفة
طباعة ونشر وتوزيع الكتب
☎: ٠٤٥/٢٢١١٤٩٥&٠١٢/١١٥١٢٢٣٧



بطاقة فهرسة

على، صلاح أحمد هريدى- أوربا من مطلع العصور الحديثة حتى سقوط نابليون بونابرت ١٨١٤،

صلاح أحمد هريدى على - كفر الدوار: مكتبة بستان المعرفة، ٢٠٠٩.

ص؛ ١٧× ٢٤سم

تدمك: ٠ ١٣٩ ٣٩٣ ٩٧٧

أ- العنوان.

العنوان	أوربـــا من مطلع العصور الحديثة حتى سقوط نابليون بونابرت ١٨١٤،
اسم المؤلف	صلاح أحمد هريدى على
رقم الإيداع	١٧١٠٤ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولى	I.S.B.N. 977 - 393- 139 - 0 -
الناشر	مكتبة بستان المعرفة كفر الدوار ـ الحدائق ـ ش سور المصنع ـ أمام أبراج الحلوانى ☎: ٠٤٥/٢٢١١٤٩٥ & الإسكندرية ٠١٢١١٥١٢٣٧ Email: bostan_elma3rafa @ yahoo.com

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.. وبعد، أقدم كتاب تاريخ أوروبا الحديث بدءاً من عصر النهضة إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى. ولقد رأيت أن أبدأه بعصر النهضة لما له من أهمية بالغة مهدت لظهور أوربا الحديثة.

لقد شهد عصر النهضة لكثير من الأحداث التى عملت على التطور السياسى والاقتصادى والاجتماعى والفكرى والثقافى فى أوروبا، فهو فى الواقع يمثل الفترة الانتقالية من العصور الوسطى إلى العصر الحديث.

ولتعدد الأحداث والظواهر والمؤثرات، فقد قسمت الكتاب إلى ثلاثة عشر فصل، تحدثت فى الفصل الأول عن أوروبا فى فجر عصر النهضة، فألقيت نظرة عامة عن العصور الوسطى، وما حدث فى أواخرها من تطورات مهمة تتمثل فى التأثير الإسلامي فى الآراضى الإيطالية وشبه جزيرة أيبريا، وتحرير العبيد وانهيار النظام الاقطاعى.. الخ، وأثر ذلك على المجتمع الأوربى وخاصة فى النواحى الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، وما تبع ذلك من ظهور المدن الحديثة، وعلى رأسها خمس مدن اشتهرت فى إيطاليا، وإن صح القول خمس ولايات استطاعت أن تلعب دوراً مهماً فى تقرير مصير إيطاليا، وهى: البابوية ونابلى وميلان والبندقية وفلورنسة.

وخصصت الفصل الثانى لدراسة عصر النهضة فبدأته بالنهضة الإيطالية، ومميزاتها، والعوامل المؤثرة فيها مثل: ظهور اللغات الحديثة والآثار والتاريخ والفنون الجميلة، ثم انتقلت بعد ذلك إلى الحديث عن النهضة خارج شبه الجزيرة الإيطالية، فى فرنسا وألمانيا وانجلترا وأسبانيا والبرتغال.

أما الفصل الثالث، فقد تحدثت فيه عن حركة الكشوف الجغرافية وتأسيس الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية الأولى: البرتغالية والأسبانية والإنجليزية والفرنسية والهولندية، وأنهيت هذا الفصل ببحث نتائج حركة الكشوف الجغرافية.

وفى الفصل الرابع تحدثت عن فرنسا والحروب الإيطالية وقسمت تلك الحروب إلى قسمين: القسم الأول يبدأ من عام ١٤٩٤م، حين قام شارل الثامن ملك فرنسا بغزو الآراضى الإيطالية، ثم تلاه الملك لويس الثانى عشر الذى صار على نفس سياسة سلفه، مما ترتب عليه قيام التحالف الأوروبى ضده، كما استغل البابا فى روما ذلك، وأقام التحالف المقدس الذى أنتهى عام ١٥١٥م.

أما القسم الثانى فكان عن الحروب الإيطالية، ويبدأ بعام ١٥١٥م وينتهى عام ١٥٥٩م بعقد معاهدة كاتوكمبرسيس، ولقد شهدت هذه الفترة الكثير من الحروب وعقد المعاهدات إلى أن أنتهى الموقف بالمعاهدة المذكورة.

أما الفصل الخامس، فقد خصصته للإصلاح الدينى فى أوروبا، وهو يتناول الإصلاح الدينى فى ألمانيا، وما ترتب عليه من قيام الحروب

أوروبا الحديثة فى فجر عصر النهضة

والثورات والأحلاف التى تكونت حتى أتمام صلح أوجبرج عام ١٥٥٥م.

أما الفصل السادس فهو بعنوان فرنسا وحركة الإصلاح الدينى، ويتناول هذا الفصل عن موقف فرنسا من هذه الحركة.

ويتناول الفصل السابع الإصلاح الكاثوليكى أو انتعاش الكنيسة الكاثوليكية منذ أن عقد مجلس ترنت والنتائج التى ترتبت عليه مثل إنشاء جماعة الجزويت أو اليسوعيين والفهرس ومحاكم التفتيش.

أما أسبانيا وثورة الآراضى المنخفضة فقد كان عنوان الفصل الثامن، وتحدثت عن الأسباب التى أدت إلى قيام هذه الثورة حتى عقد معاهدة غنت نوفمبر ١٥٧٦.

ويأتى الحديث بعد ذلك عن انجلترا فى القرن السادس عشر، ذلك عنوان الفصل التاسع، الذى تتبعت فيه أسرة تيودور، وكيف فازت هذه الأسرة بحكم انجلترا والاجراءات التى اتخذها ملوكها مثل هنرى السابع وهنرى الثامن. والظروف التى أدت إلى قيام حركة الإصلاح الدينى فى انجلترا التى استغلها هنرى الثامن لتحقيق مكاسبه الشخصية. مع بيان تطور نظام الحكم هناك.

أما الفصل العاشر فقد تحدثت فيه عن حرب الثلاثين عاماً ١٦١٨ - ١٦٤٨، وشرحت الأسباب التى أدت إلى قيام مثل هذه الدول التى اشتركت فيها مثل هذه الحرب التى بدأت فى بوهيميا وألمانيا، وأدوار الدول التى اشتركت فيها مثل الدور الدنماركى والسويدى، والسويدى

الفرنسى،، حتى عقد صلح وستفاليا سنة ١٦٤٨ والنتائج السياسية والدينية التى ترتبت على هذا الصلح.

أما الفصل الحادى عشر، فقد تحدثت فيه عن عصر التفوق الفرنسي "عصر لويس الرابع عشر"، وجهوده في سبيل ذلك واستعانته برجال عظماء مثل كولبير كوزير للمالية، وحروبه لخارجية مثل حرب الوراثة الأسبانية، وآثر ذلك على فرنسا من أحداث حتى نهاية القرن الثامن عشر.

وبالنسبة لبريطانيا في القرن السابع عشر فهو عنوان الفصل الثانى عشر، حيث شهدت بريطانيا ظهور أسرة آل ستيورات وثورة البيورتان والتطورات السياسية التى أشهدتها بريطانيا خلال هذه الفترة.،

أما الفصل الأخير فيتناول أوضاع فرنسا من ١٧٨٩م وحتى ١٨١٤ أى سقوط نابليون

وبعد فهذه محاولة جادة لإلقاء الضوء على تاريخ أوربا الحديث، وأرجو من الله العلى القدير أن أكون قد وفقت فى ذلك، وعلى الله قصد السبيل.

الإسكندرية فى سبتمبر ٢٠٠٩

دكتور

صلاح أحمد هريدى

أوروبا الحديثة فى فجر عصر النهضة

نظرة عامة إلى العصور الوسطى:

يظن بعض الناس أن العصور الوسطى عصور تأخر وانحطاط وهو وصف لا يمثل الحقيقة تمثيلاً صحيحاً، ولعل هذه الفكرة ترجع إلى الأثر الذى أحدثه انبثاق العصر الحديث بما حمل من نهضة وتقدم فى أذهان الناس، فقد كان هذا الأثر قوياً إلى الحد الذى حجب الماضى عن أعينهم فكان فى نظرهم ظلاماً كله.

وواقع الأمر أن العصور الوسطى تعتبر من أهم فترات التاريخ الأوروبى، بل هى الأساس الذى نستطيع من خلاله أن نفهم التاريخ الحديث وذلك بدراسة أهم مظاهر العصور الوسطى فى أوروبا.

وتشمل هذه العصور تلك الفترة التى بدأت بسقوط الدولة الرومانية الغربية على أيدى البرابرة بعد منتصف القرن الخامس الميلادى، واستمرت حتى منتصف القرن الخامس عشر – وهو تحديد تقريبى – وفى خلال تلك القرون حدثت تغييرات هامة فى المجتمع الأوروبى. وأول هذه التغيرات هى تلك التى حدثت بسبب محاولة رجال العصور الوسطى اصلاح ما افسدته غزوات البرابرة والعمل على استقرار الأحوال بعدما حدث من فوضى وارتباك. فكان عليهم أن يخرجوا من أوروبا من هذا المعترك الصاخب ليصلوا بها إلى حياة هادئة نسبياً

وقد افلحوا فى تحقيق تلك الأمنية واستقرت الأوضاع ونعم الناس بفترات من الأمن والسلام، ولكن تلك الفترات لم تكن متشابهة فى مظاهرها على مدى القرون الوسطى، فالفرد الذى عاش فى القرن العاشر كان أبعد حياة ومدنية عن شخص عاش فى القرن السابع أو الثامن، فقد كان هناك نمو دائم ومطرد يبشر بحياة

مستقبلية أرقى منزلة وأكثر حرية وأعظم تقدماً. حتى أواخر القرن الثانى عشر ظهر نشاط ملحوظ فى الحياة العلمية، ولو أن الاهتمام بالعلوم كان محصوراً بين جدران الكنائس والأديرة التى كان لها الفضل فى حفظ التراث القديم وصيانته وتسليم هذا التراث الضخم للعصور الحديثة.

وفى القرن الثانى عشر يحدث اتصال بين حضارة الشرق والغرب وبدأ عصر الترجمة، حيث ترجمت علوم اليونان عن العرب، وتأثر المجتمع بالفلسفة اليونانية القديمة، ولكنهم فى تلك الفترة كانوا يدرسون العلوم كما وردت دون إثباتها علمياً. وهذا هو الفرق بين العقليتين، عقلية العصور الوسطى وعقلية العصور الحديثة.

فأهل العصور الوسطى كانوا يأخذون العلوم على علاتها وشعارهم فى ذلك "أعتقد لأفهم" أما عندما أشرفت العصور الوسطى على الانتهاء، وانبثق عصر النهضة سادت الفكرة التى تقول بأن لا يجوز الاعتقاد فى شئ قبل فهمه .Nothing to be believed unless it is to be understood

وعلى ذلك بدأت العقول تتحرر، واتجه الناس إلى نقد ما كان شائعا فى العصور الوسطى حتى فى الدين نفسه، فقد وجد من ينقد الكنيسة، وظهر "الهراطقة" الذين تعرضوا لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية بالنقد والتقريع، ونمت تلك روح التقديس فى أوائل العصر الحديث ونتج عنها حركة الإصلاح الدينى البروتسنتى.

كذلك كان من مميزات أواخر العصور الوسطى ظهور الجامعات وما تبع ذلك من انتشار العلم وتعميق الثقافة، فنشأت جامعات بدأت باجتماع الطلبة حول أستاذ من أساتذة الفلسفة أو الرياضة، ولم يكن ضرورياً وجود البناء الذى يجتمع فيه الأساتذة بطلابهم، بل كانوا يجتمعون حيث يطيب لهم المقام، إلى أن أصبحت الحاجة ملحة فى إيجاد رابطة تجمع بينهم وتحقق الغرض العلمى من اجتماعهم فنشأت الجامعات فى أماكن مختلفة، وشجعها البابوات الذين أصدروا قرارات بإنشائها ومدها بالمال والتسهيلات، وأنشئت كليات لدراسة العلوم الإلهية ومختلف الفنون

والعلوم الإنسانية والقانونية ولكن الطابع الديني، كان قوياً في هذه الدراسات بداية العصور الحديثة.

اختلف المؤرخون حول تحديد بداية العصور الحديثة، وهناك ثلاثة آراء رئيسية، يستند أصحاب كل منها إلى أدلة وبراهين يرون أنها تؤيد وجهة نظرهم:

الرأي الأول: يعتقد أصحاب هذا الرأي وبخاصة المؤرخين الفرنسيين أن عام ١٤٩٢، وهو العام الذي بدأ فيه كشف العالم الجديد، يعتبر بداية طيبة للتاريخ الأوروبي في العصر الحديث، لما ترتب على هذا الكشف من نتائج ذات أهمية بالغة في التاريخ الأوروبي في القرون التالية، نتيجة للتنافس الاستعماري من أجل السيطرة والاستحواذ على هذه المناطق الجديدة. وما ترتب على استعمار أسبانيا للمكسيك وبيرو، من تدفق معدني الذهب والفضة من هذه المناطق الغنية بهذه المعادن النفيسة إلى أوروبا فأدى ذلك إلى إنعاش التجارة، وخفض قيمة العملة وارتفاع أثمان السلع، مما أدى إلى رفع مستوى المعيشة، وازدياد نفوذ الطبقة الوسطى، التي أصبحت تلعب دوراً بارزاً في بناء الدولة القومية. ولذا فإن هذا الكشف يعتبر إنجازاً عظيماً للإنسانية عامة، وللإنسان الأوروبي خاصة، حيث تغيرت في ذهن هذا الإنسان الصورة الجغرافية التي كانت لديه عن العالم.

كذلك ترتب على متابعة حركة الكشف الجغرافي، سيطرة البرتغال على تجارة الشرق الأقصى، بعد أن تم كشف طريق الرأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨م وتم للبرتغاليين ربط آسيا بأوروبا بواسطة هذا الطريق المائي الجديد، وتمكنوا من السيطرة على تجارة التوابل المربحة إلى جانب نقلهم لبعض السلع الأخرى مثل العاج والحرير والسكر ونقل هذه السلع إلى غرب أوروبا عن طريق هذا الطريق التجاري الجديد، مما أدى إلى فقدان مدن وثغور حوض البحر المتوسط لأهميتها الاقتصادية، وانتقال هذه الأهمية إلى المدن الواقعة على شاطئ المحيط الأطلنطي

مثل أنتورب Antwerp وأنفرس ببلجيكا، ونانت على ساحل فرنسا الغربي، كما احتلت لندن مكانة اقتصادية مهمة.

كما ترتب على حركة الكشف الجغرافي بدء تكوين الشركات الرأسمالية التي أخذت تنشط في القيام بالمشروعات التجارية المتعددة الأغراض والقيام بالمشروعات الزراعية، ومشروعات البحث والتنقيب عن معادن الأرض وجواهرها، وبذلك نمت قوة الرأسمالية وعظمت آثارها في الحياة الاقتصادية والسياسية، حيث نشط النظام المصرفي والتجارى بصورة فعالة، وازداد نفوذ رجال المصارف والبنوك وكونوا فيما بينهم اتحادات توظف رءوس أموالها ثم تتقاسم الأرباح وقفزوا إلى مراكز ذات نفوذ سياسي، مثل جاك كور Jack Couer في فرنسا وفوجر Fugger في أوجسبرج ببغاريا بألمانيا وربرتو ستروزى Roberto Strozzi في فلورنسا، ولذا فإنه عندما بدأ تدخل الدولة الحديثة في أمور التجارة لتحتفظ لنفسها بجزء مما تدره من أرباح عن طريق تنظيمات عملية، ولتسد نفقات الإدارة، بدأ أصحاب رءوس الأموال يضيقون ذرعاً بتدخل الدولة ويستخدمون نفوذهم في تقويض السياسة ونجحوا في مسعاهم، وفرضوا الحرية الاقتصادية أو مذهب الرأسمالية الفردية.

كذلك ترتب على هذا الازدهار الاقتصادى الذى نتج عن عملية الكشف الجغرافي نمو تدريجي في الصناعة ونظام المصنع، فأدى ذلك بدول أوروبا إلى السعي جادة في السيطرة على مواطن المواد الخام والأسواق الخارجية، ووجدت الميدان أمامها رحباً في العالم الجديد وأفريقيا، فتسابقت فيما بينها على الاستحواذ على هذه المناطق، وكان ذلك بداية لحركة الاستعمار التي نشطت بصورة فعالة في القرن التاسع عشر.

وبذلك يرى أصحاب هذا الرأى أن أوروبا شهدت بعد حركة الكشف الجغرافي نشاطاً اقتصادياً لعب دوراً بارزاً في تغيير وجه الحياة الأوروبية في مطلع العصور الحديثة، وبهذا النشاط، وذلك التغيير كانت أوروبا تفتقر إليهما في العصور الوسطى.

ولذلك يعتقدون أن حركة الكشف الجغرافى والوصول إلى العالم الجديد ١٤٩٢م ، خير بداية لتاريخ أوروبا الحديث.

الرأى الثانى: يرى أصحاب هذا الرأى أن عام ١٤٩٤م خير بداية للتاريخ الأوروبى الحديث ويعتمدون، فى رأيهم هذا على اعتبارات سياسية كان لها أثرها فى توجيه العلاقات الأوروبية فى الفترات التالية، فقد كان هذا العام بداية لما عرف بالحروب الإيطالية ليس هذا فقط، وإنما لما انطوى عليه هذا التاريخ من أهمية بسبب ذلك التكوين السياسى والقومى الجديد، بعد أن كان الاتجاه السائد أثناء العصور الوسطى فى التكوين السياسى لأوروبا يسير نحو الوحدة السياسية، وكان الأفراد مدفوعين نحو هذا الاتجاه بالوازع الدينى، فقد كانت هناك وحدة دينية مسيحية كاثوليكية فى غرب أوروبا، وكانت الكنيسة لكاثوليكية بمثابة منظمة كبرى عاش الأوروبيون قروناً عديدة فى كنفها، وكان هدف اتباع هذه العقيدة هو النجاح فى تحقيق وحدة سياسية شاملة، تضم البقاع التى تدين بالمسيحية، وعلى هذا الأساس كانت هناك امبراطورية على رأسها الامبراطور يحكمها حكماً زمنياً، إلى جانب البابا الذى يدير أمورها من الناحية الدينية، ولكن هذه الوحدة السياسية كانت تحمل فى طياتها عوامل الضعف، وكان من العسير الاستمرار فى الاحتفاظ بهذه الوحدة لاختلاف أجناس أوروبا بعضها عن بعض واختلافها فى العادات والتقاليد من ناحية، ولمنافسة البابوية لسلطة الامبراطورية الزمنية، ومحاولة بعض البابوات أن تكون لهم السلطة الزمنية إلى جانب السلطة الروحية، من ناحية ثانية، ولذا فإنه ما كاد الفكر يتحرر، حتى اتجه الإنسان إلى البحث عن المجتمع الذى يكفل له الطمأنينة والاستقرار، وأصبح الأوربيون يعتقدون أنه لا مبرر للاحتفاظ بعالم مسيحى موحد من الناحيتين السياسية والدينية وبدأ التفكير الجدى نحو إقامة ما عرف بالدولة القومية الحديثة، وبدأ كل شعب يسكن رقعة معينة من الأرض لها معالمها الجغرافية الخاصة وعاداتها وتقاليدها المميزة له عن غيره من الشعوب، يرى أهمية الانفصال عن التكوين السياسى الشامل لأوروبا (الامبراطورية) الذى لم يكن

ليستطيع أن يرعى مصالح هذه الشعوب المختلفة، وقد وجدت ظروف محلية وخارجية. ساعدت بعض هذه الشعوب على تحقيق هدفها القومي، بينما عجز البعض الآخر عن تحقيق وحدته السياسية فى مطلع العصور الحديثة.

وكانت الشعوب التى استطاعت أن تحقق هذا الهدف القومي هو الشعب الفرنسى حيث استقرت الملكية الجديد فى أسرة فالوا Volois بتولى لويس الحادى عشر العرش (١٤٦١ - ١٤٨٣م) وفي عهد خلفائه، ظلت الملكية توسع نفوذها باستمرار عن طريق الميراث والزواج والحرب والغزو، وبذلك استكملت فرنسا وحدتها القومية والشعب الإنجليزى حيث جاء الحكم الملكى الجديد بأسرة آل تيودر Tudors(١٤٨٥ - ١٦٠٣م) حيث وحد أول ملوكها هنرى السابع (١٤٨٥ - ١٥٠٩م) فى شخصيته مطالب المدعين السابقين بالعرش ووضع حداً لحروب الوردتين (١٤٥٥ - ١٤٨٥م) الفوضوية، ثم الشعب الأسبانى حيث تمت وحدة مملكتى أراغون وقشتالة بزواج فرديناند ملك أراغون بايزابيلا ملكة قشتالة Castilla ١٤٦٩ حيث ظهرت أسبانيا المسيحية موحدة لأول مرة.

ولذا فإنه ما كاد القرن الخامس عشر يشرف على نهايته حتى توطدت الحكومات القومية فى انجلترا وفرنسا وأسبانيا. وأخذت كل من هذه الدول تعمل جاهدة على مراعاة مصالحها الخاصة. وتدعم أنظمتها القومية الداخلية، ثم بدأت تتطلع إلى التوسع على حساب الشعوب التى لم تستطع أن تحقق وحدتها القومية عند مطلع العصور الحديثة وكانت إيطاليا ميداناً للأطماع المختلفة، فبدأت فيها الحروب المعروفة بالحروب الإيطالية عام ١٤٩٤م. وانتهت بمعاهدة كاتوكمبرسيس Cateau Cambersis ١٥٥٩م وقد ترتب على هذه الحروب أنه عندما اجتاحت الجيوش الفرنسية فى عهد شارل الثامن، شبه جزيرة ايطاليا من جبال الألب شمالاً حتى نابلى جنوباً أن أشتد قلق الدول الأوروبية فتحالفت على رد ذلك العدوان حتى لا يخل تفوق فرنسا فى إيطاليا بالتوازن الدولى. وكان ظهور مبدأ التوازن

الدولي من الأهمية بمكان، فقد حرصت الدول الأوروبية منذ ذلك الوقت على هذا المبدأ، ودخلت في سبيل تلك المحافظة عليه حروباً متعددة، ومن هنا فإن الحروب الإيطالية تعد في رأى هذا الفريق بداية للعصر الحديث.

الرأى الثالث: يعتقد أصحاب هذا الرأى أن عام ١٥١٧م هو بداية التاريخ الأوروبى الحديث، حيث أعلن مارتن لوثر Martin Luther في ٣١ أكتوبر من هذا العام، هجوم على الفساد الذى كان يسود الكنيسة الكاثوليكية وخاصة بيع صكوك الغفران، وترتب على هذه الثورة الدينية، أن عدداً كبيراً من الأوروبيين، بل ومن سكان العالم الجديد، أعتنقوا المبادئ التي نادى بها مارتن لوثر Martin Luther وغيره من المصلحين أمثال جون كلفن Jean Calvin وأولريخ زونجلي Urich Zwingli، وبهذا لم يعد المذهب الكاثوليكي هو السائد في أوروبا، وإنما بدأ المذهب البروتستنتي يسود معه جنباً إلى جنب، وترتب على ذلك كثير من الحروب الدينية، التى كان على أثرها في التاريخ الأوروبى الحديث، كما أدت إلى تفتيت الوحدة الدينية التى كانت تتمتع بها أوروبا في العصور الوسطى، وقد شغلت الحروب الدينية أوروبا طوال القرن السادس عشر والنصف الأول من القرن السابع عشر، وتداخلت معها الأطماع السياسية في كثير من مراحلها حتى غدت في كثير من الأحيان حروباً سياسية وأصبحت من أهم سمات التاريخ الأوروبى في تلك الفترة. لذا فإن هذا الفريق يتخذ من هذه الثورة بداية للتاريخ الأوروبى الحديث.

أما أوروبا الجديدة وأهم مميزاتها، نستطيع أن نقول أن لكل عصر من العصور التاريخية في العالم مميزاته الخاصة، ولما كانت هذه المميزات مرتبطة بتكوينها بمجهودات الإنسان فأصبح من الطبيعي أن تكون بطيئة في تكوينها وتحديد معالمها وأدى ذلك كله إلى أن تتخلل كل العصور التاريخية المختلفة مراحل انتقال، تتبلور أثناءها هذه المميزات وتلك السمات.

ولا يختلف عن ذلك تاريخ أوروبا الحديث الذى بدأ فى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر بعد فترة انتقال استمرت زهاء قرنين من الزمان لمعت أثناءها بعض الشخصيات أمثال "دانيتى البحيرى" (١٢٦٥ - ١٣٦١) مؤلف الكوميديا الإلهية، وقد اشتهر بعرضه لطائفة من صور الحياة فى العصور الوسطى، والشاعر "بترارك" (١٣٠٤ - ١٣٧٤م) ويعرف بأبى الحركة الإنسانية، وقد خلد الحروب البونية بملحمة "أفريقيا" المكتوبة باللاتينية، كما نظم بالإيطالية" كتاب الأغاني" الذى يتضمن مقطوعته الغنائية الرائعة التى أستوحاها من صديقته "لورا" وكان بترارك يعتز بمؤلفاته اللاتينية، ولا يفخر بمعرفته للإيطالية. والروائى الشاعر "بوكاشيو" (١٣١٣-١٣٧٥)، اشتهر بمؤلفه الخالد "الديكامرون" وهو من المؤلفات العالمية المشهورة، ويعد من أبرع الكتاب فى سرد القصة وتحليلها. ويعد "دانتى وبترارك وبوكاشيو" أئمة للأدب الإيطالى الحديث.

وتتنوع هذه المميزات بين فكرية وسياسية ودينية واقتصادية واجتماعية.

أولاً: المميزات الفكرية:

مما لاشك فيه أن التحرر الفكرى فى أوروبا من أهم مميزات العصر، وكان ثورة على الجمود الذى ساد الحياة الأوروبية خلال العصور الوسطى، لذلك كانت ميزة لهذا العهد أن الفرد قد أصبح حراً فى أن يختار من العلوم وألوان الثقافة ما يلائم طبيعته وتفكيره غير مقيد بتقاليد الكنيسة وتعاليم رجال الدين الجافة، وهم الذين كانوا يسيطرون على العقول والاتجاهات الفكرية فى العصور الوسطى، وكان لهم تأثير واضح على الأذهان، لأنهم كانوا الفئة الوحيدة المتعلمة إلى جانب من الطبقة الأرستقراطية فى المجتمع.

وهكذا أصبح التفكير حراً يهدف إلى الوصول إلى الحقيقة، ويعمل على توفير كل أسباب السعادة والحياة التى توفر الراحة للفرد، ولم يعد التفكير فيما بعد

الموت وأداء الوجبات الدينية هو وحده الذى يشغل الخواطر الإنسانية، ومن ثم ظهرت الحركة الواسعة النطاق الشاملة التى عرفت بالحركة الإنسانية.

هذه الحركة تزعمها جماعة يعرفون بالإنسانيين. ومن ذلك التسمية نتبين أن الإنسان كان موضع البحث والاهتمام. فلم تعد هناك حقائق خفية لا يجب التعرض لها كما كان يوحى بذلك رجال الدين من قبل. وأصبحت المعرفة فى حد ذاتها معرفة كل شئ التأكد من حقيقتها هو الاتجاه الجديد، وقد ترتب على ذلك أن هذه الحركة الإنسانية اهتمت بالبحث عن تلك الحقائق فى كنوز المعرفة القديمة الرومانية والإغريقية بصفة خاصة، فاكتشفت المعلومات الحديثة التى كان يجهلها الغربيون من قبل.

وقد تأثر الأوربيون باتصالهم بالعرب فى الشرق أيام الحروب الصليبية. وفى الغرب أيام حكم العرب فى الأندلس، تأثروا بما أطلعوا عليه من معلومات مختارة فى الطب والجغرافيا والرياضة والجبر، وما لمسوه من تقدم فى بعض الصناعات مثل صناعة الورق والحرير والسكر، كل هذه الاتصالات جعلتهم يؤمنون بضرورة جمع المخطوطات القديمة ودراستها نقلها والتعليق عليها.

ولما كانت هذه المخطوطات مكتوبة باللغتين الإغريقية أو اللاتينية فقد عكف بعض الإنسانيين على إتقان هاتين اللغتين. وكانت اللاتينية معروفة لدى الفئات المتعلمة فكانت هى اللغة التى تكتب بها الأبحاث العلمية والأدبية. فازداد عدد المقبلين على تعلمها، إلى جانب إقبالهم على تعلم اللغة الإغريقية حتى يستطيعوا تفسير ما جاء فى الوثائق المكتوبة بهما. وعندما تم لهم ذلك أظهروا اهتماما بالغاً بلغاتهم القومية كالإيطالية والإنجليزية والفرنسية وغيرها.

وهكذا أصبحت اللغات القومية غير قاصرة على التخاطب والتفاهم بل عدت ذلك إلى البحث والتأليف، ومن ثم كانت النهضة بهذه اللغات واستخدامها على

النحو الذى قدمنا سبيلاً ميسراً إلى توصيل المعلومات المتنوعة إلى مختلف الشعوب الأوربية.

وكان لهذه الناحية أهميتها العظمى، لأن حركة الترجمة من اللغات القديمة إلى اللغات الحديثة أدت إلى ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغات القومية فأصبح من السهل على المسيحى المخلص أن يطلع بنفسه على المعلومات الدينية الأصلية وأن يعرف ما أدخل عليها من إضافات تتعارض مع أسس الدين، وقد كان رجال الدين يحتفظون بسرية هذه المعلومات ويحرصون على عدم تسربها إلى فئات الشعب حتى يكتسبوا مكانة ومهابة فى نفوس المسيحيين، وحتى يستغلوا هذه المعلومات لخدمة مصالحهم المادية المختلفة. ومن ثم كانت صيحة الإسلام الدينى التى نادى بها "مارتن لوثر" فى ألمانيا "وجون كالفن" فى فرنسا وسويسرا وغيرهما من المصلحين الدينيين.

وكان لهذه الصيحات المطالبة بالإصلاح الدينى أثرها العميق فى توجيه الأذهان والنفوس إلى إصلاح الكنيسة بشتى الطرق والوسائل. فكانت بذلك حركة الإصلاح الدينى الواسعة النطاق. والتى شملت بعض الدول الأوروبية وترتب عليها اعتناق بعض شعوب أوربا العقيدة البروتستنتية.

وترتب على الحركة الفكرية الجديدة اكتشاف بعض الحقائق التى كانت خافية على المجتمع الأوروبى منذ العصور الوسطى مثل كروية الأرض وحركتها حول نفسها، كما كان لتقدم فن الملاحة وتطوير بعض الأجهزة مثل البوصلة، والأسطرلاب أثره البالغ فى نجاح بعض المغامرين الغربيين فى تحقيق أهدافهم الكشفية والاستعمارية، فخطوا خطوات واسعة فى هذين المجالين، واستطاعوا أن يكتشفوا عالماً كبيراً فيما وراء البحار، كما اكتشفوا الأمريكتين وجزر الهند الغربية، واكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح إلى الشرق الأقصى فكان لهذه الكشوف آثارها البعيدة فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

وكان من نتيجة ذلك ظهور طبقة وسطى قوية ثرية، الأمر الذى أوجد تغييراً جذرياً فى المجتمع الأوربى الذى كان يحيا فى العصور الوسطى حياة تتسم بالتخلف والجمود فهى لا تعدو الزراعة والفروسية. ولكن هذا المفهوم تغير من ذلك الحين.

ومما تميز به الفكر الحديث ظهور عدد كبير من المؤلفات الحديثة فى ميادين العلم والأدب والفنون المختلفة، وكان من حسن حظ هذه الحركة – الحركة الإنسانية – أن ظهرت الطباعة، ويضاف إلى هذا الظهور طائفة من العلماء الباحثين المدققين المتحمسين للبحث عن كل ما هو قديم. ظهرت الطباعة فى ألمانيا حوالى منتصف القرن الخامس عشر وانتقلت منها إلى أنحاء أوروبا فساعدت على ظهور هذه المؤلفات والأبحاث التى قام بها الإنسانيون فى كل الميادين، مما سهل انتشارها ورواجها، فشاهدت العصور الحديثة إنتاجاً علمياً وأدبياً وفنياً لم تشاهده أوروبا من قبل منذ نهضة الإغريق فى عصر بركليس فى القرن الخامس قبل الميلاد.

ثانياً: المميزات السياسية للعصور الحديثة

كانت أوروبا، تتمتع فى العصور الوسطى بوحدة سياسية شاملة، على رأسها امبراطور الامبراطورية الرومانية الغربية المقدسة، ولم تكن فكرة الدولة والأمة بالمعنى الذى نفهمه بها الآن، مفهومه فى العصور الوسطى، فعلماء النظريات السياسية فى العصور الوسطى، كانوا يؤمنون أن المسيحية تكون دولة واحدة، يحكمها البابا والإمبراطور فيما بينهما بتفويض من الله تعالى، الأول فى الشئون الدينية، والثانى فى الشئون الدنيوية، ولهذا فإنه يجب على كل الملوك إطاعتها.

ولم يكن هناك أى تفكير حول نظام حكومى أفضل من هذا النظام الشمولى، حتى كانت فترة الانتقال هذه، حيث بدأ التفكير فى النظم الحكومية ومهمة الحكومة التى تبلورت فى النظرية التى تقول بأن مهمة أى حكومة هى السهر على مصالح الأمة، وكان هذا التفكير بدء ما نسميه بالعلوم السياسية وكان الرائد فى

هذا الميدان نيقولا ميكافللي Nicolas Machiavelli (١٤٦٩-١٥٢٧م) القاضي والمؤرخ الدبلوماسي الإيطالي الذي وضع كتابه المشهور "كتاب الأمير" بعد أن تدرج في عدة وظائف، وندب لمهمات سياسية في إيطاليا وفي الخارج وحصل على ثقافة تاريخية وسياسية واسعة، وآمن أن القوة وحدها هي التي تعيد إيطاليا وحدتها، ولذا وضع هذا الكتاب، الذي درسه كل من شغلته السياسية، كما انتفع به كثير من ساسة العالم، لما فيه من شرح مستفيض لأصول الحكم وفن السياسة، وطرح لقواعد العصور الوسطى، ولذا فإن ملوك أوربا في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ساروا على نسقه، ثم خلف ميكافيللي سير توماس مور Sir Thomas More ابن البرجوازية البريطانية وصديق أرزمس Erasmus الذي وضع كتابه "يوتوبيا Utopir" والذي نشر عام ١٥١٦ وبسط فيه وبطريقة غير مباشرة آراءه الاقتصادية والدينية والسياسية واقتبس فكرته من جمهورية أفلاطون، يقصد إظهار المساوئ المنتشرة في عصره، ونقدها، مع مقارنتها بالمثل العليا التي هداه تفكيره إليها.

هكذا ظهرت في فترة الانتقال نظريات سياسية جديدة، قادت إلى انهيار النظريات السياسية التي كانت سائدة في العصور الوسطى، وخاصة أنه لم يأت القرن الخامس عشر، إلا وكانت بعض الدول الأوروبية قد اكتملت لها شخصية الأمم الحديثة، وبدت واضحة بكيانها القومي المستقل مثل انجلترا وفرنسا وأسبانيا، وبهذا تميزت فترة الانتقال بوضوح الفكر السياسي وقيام الأمم الحديثة، وهذا لم يكن معروفاً من قبل.

ثالثاً: الخصائص الاقتصادية والاجتماعية وانهيار نظام الإقطاع:

أما من الناحية الاقتصادية والاجتماعية، فقد تميز العصر الوسيط بالنظام الإقطاعي Feudal System الذي بدأ تتلاشى مظاهره في العصور الحديثة، فقد كانت الأرض موزعة بين أشراف يمتلكونها بما عليها من إنسان وحيوان، ويحكمون اقطاعاتهم بمعلق آراؤهم، يقضي بين الناس بما شاء له حكمه، وبذلك كانت الأرض

هى عماد الثروة الاقتصادية، لذلك انعدم وجود الطبقة الوسطى التى تعتبر عماد الحياة، أو كانت قلة معدومة الأثر فى البلاد، ولذلك كان المجتمع طبقتين: أشرافاً يتمتعون بكل شئ وفلاحين يعتبرون أرقاء للأرض.

أما عندما بدأت العصور الحديثة أخذت الأوضاع فى بعض البلاد الأوربية تأخذ أشكالاً اقتصادية متغيرة، ففى فرنسا مثلاً حيث كان النظام الإقطاعى سائداً، كان الملك نفسه يحكم إقطاعاً فى باريس ولا يتعداه إلى بقية الإقطاعات على الرغم من اعتراف الأشراف به وبأسرته. إلى أن حدث تطور أضعف قدرة الأشراف بعد أن أنهكت قواهم الحروب المتتالية . وعندئذ بدأ بعض الملوك يحطمون نفوذهم ويبسطون سيطرتهم خارج باريس، فقام صراع طويل بين الملكية والأشراف أنتهى بهدم النظم الإقطاعية وتحرر الفلاحون من ورق الأرض، ومنحوا حق الملكية، فكان هذا التحول الاقتصادى على أكبر جانب من الأهمية.

وقد أعان الملكية فى النصر الذى حازته على الإشراف أن الناس بدأوا يشعرون بأن الأرض لم تعد المصدر الأساسى للثروة، فقد أينعت التجارة وراجت الصناعة، وظهرت على أثر ذلك طبقة وسطى تشتغل بالتجارة، ونالها ثراء دفعها إلى النفوذ الذى حرمت منه فى العصور السالفة، وعلى الأخص عندما اتسعت العلاقات التجارية بين أوربا والعالم الجديد بعد حركة الكشوف الجغرافية، ومن جهة أخرى ازدادت العلاقات الأوروبية بالشرق الغنى بغلاته ومنتجاته.

وانتعشت أحوال أوروبا الاقتصادية بانتعاش تلك الطبقة الجديدة التى كان من مصلحتها تدعيم نفوذ الملكيات ليسود الاستقرار والأمن حتى تستطيع ممارسة نشاطها ومضاعفة ثرواتها. وبذلك ارتبطت مصلحة الملوك بمصلحة الطبقة الوسطى فى الصراع ضد الأشراف ورأت الملكية أن من مصلحتها الاستعانة بمواهب رجال الطبقة المتوسطة والانتفاع بأموالهم. فعين الملوك منهم أعضاء فى البرلمان وحكاماً فى الأقاليم، وقضاة، ومشرعين.

وقد غيرت تلك الظروف نظرة الملوك فى الحكم، فبعد أن كانوا يحكمون معتمدين على الجيوش التى يجمعها الأشراف فى زمن الحرب، عمدوا إلى إنشاء الجيوش الثابتة التى تبقى زمن الحرب وزمن السلم، كحارس ومدافع ضد أطماع الأشراف وضد العدو الأجنبى. وتقوم تلك الجيوش بالغزوات والفتوحات التى يفكر الملوك القيام فيها. وجاء اختراع البارود والمفرقعات فى نهاية العصور الوسطى أكبر معين للملوك ضد فروسية العصور الوسطى فساعد ذلك على دك معاقل الأشراف وتحطيم حصونهم وقد استغرق القضاء على الأشراف زمناً ليس بالقصير.

كذلك ظهرت فى العصور الحديثة روح جديدة، وهى النزوع إلى التفكير الحر، أما أطلق عليه بكلمة الفردية، Individualism أى روح الفردية أى انفصال الفرد عن التقيد بما ليستسيغه أو يعتقده فى داخلية نفسه. ظهرت تلك الروح فى التفكير الدينى. وكان من نتيجتها ظهور حركة الإصلاح، ومحاولة المصلحين تغيير ما يرونه ضد العقيدة الحقة والدين الصحيح. على أن ذلك لا يعنى أن الفرد كان حراً فى العصور الحديثة، بل أنه كان مقيداً فى بلده برأى حكومته، إنما كان باستطاعته أن يهاجر إلى بلاد أخرى. فمذهب لوثر كان مذهباً عاماً ودولياً ظهر فى ألمانيا، فمن لم يرتح إليه من الألمان يستطيع أن يرحل من ألمانيا إلى دولة أحرى لا تعتنق هذا المذهب.

كذلك ظهرت الروح الفردية فى الحكم والسياسة، ونجدها واضحة فى الظروف التى نشأت فيها الدولة القومية، ولو أنها لم تنشأ فى أوائل العصور الحديثة بل احتاجت إلى ثلاثة قرون حتى تم نضجها فى أوروبا، فإيطاليا لم تحقق وحدتها إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، وكذلك ألمانيا بل أن شعوباً كثيرة ظلت تجاهد من أجل قوميتها واستغرق جهادها سنين طويلة امتدت إلى نهاية الحرب العالمية الأولى، على أن روح الفردية لم تظهر فجأة فى تاريخ محدد، بل احتاجت إلى أجيال متعاقبة تنمو فيها وتتطور، فالفكرة وجدت فى بداية العصور الحديثة ولا تزال الدولة هى صاحبة الحق فى كل شئ والفرد خاضع لها ويسير على دربها، حتى

إذا جاءت الثورة الفرنسية، وأعلنت حقوق الإنسان، ورفعت شعار الحرية والإخاء والمساواة. بدأت الفكرة تنساب من فرنسا إلى الشعوب المتعطشة لتحقيق تلك الشعارات، ومع ذلك لم يكن تحقيقها سهلاً ميسوراً، وحتى في فرنسا ذاتها أحتاج الشعب إلى زمن طويل للحصول على هذه الحقوق وفي حدود ضيقة.

وكان من الظواهر التي اتسمت بها المدينة تقسيمها إلى وحدات تبلغ مساحة كل منها ربع المدينة، وكانت لكل منها كنيستها أو كنائسها، وكثيراً ما كانت لها سوق محلية للحاجات الغذائية، وكان لها دائماً موردها المحلي للمياه، كبيراً أو نافورة، ولم تكن شوارع مدينة العصور الوسطى ضيقة، وفي حالات كثيرة غير منتظمة فحسب، بل كانت تكثر بها المنحنيات الحادة، إذ كان من شأن هذا التخطيط أن تحد من قوة الريح ويقلل من مساحة الأوصال.

واهتمت المدينة بحماية مشروعاتها التجارية والصناعية ومنع تجار مدينة منافسة من دخول المنطقة الريفية التي تمارس فيها نشاطها، وفرضت الضرائب الجمركية على البضائع المستوردة إلى داخل أسوارها من المدن الأخرى. كما فرضت رسوماً خاصاً على التجار القادمين من الخارج لمزاولة التجارة في داخل المدينة. ولجأت بعض المدن إلى سك عملتها الخاصة وتحديد نسبة استبدال عملة بأخرى.

وكان لأهل الحرف والتجار نقابات طائفية Guilds نزعت إلى احتكار نوعاً معيناً من الصناعة والتجارة، وكانت تتولى المحافظة على النظام في داخل بيئتها، توقع الغرامة والعقاب على مرتكبي الجرائم الصغرى في حق رابطة الأخوة، وكان لها وحدها أن تشترى المواد ثم توزعها على الأعضاء، وأن تسن ما تراه من قوانين وأحكام بصدد الأسواق، وشروط العمل والأسعار، ومستويات الإنتاج من حيث الجودة، وأن تحدد عدد المشروعات والحوانيت الجديدة، وذلك تفادياً لتكدس الإنتاج الذي يؤدي بالضرورة إلى انخفاض الأسعار. وعلاوة على ذلك كله. فقد

كانت النقابات الطائفية تنظم توريد الأطعمة لمدنها ونقل فضلاتها، وتشرف على رصف الشوارع وإنشاء الطرق والأحواض وتعميق الموانئ.

وكانت المدن عادة تحكم بواسطة مجالس بلدية Municiptat Councils أو حكومات محلية تمثل مصالح النقابات الطائفية. وكانت الحكومة المحلية هي ونقابة التجار الطائفية فى بعض الأحيان هيئة واحدة، على حين أن بعض المدن القديمة كانت تحكم بواسطة دوقات توارثوا مناصبهم، وكانوا ذراري رجال إدارة غدوا ملاكاً للأرض.

وفى إيطاليا بوجه خاص، اتجهت المدن لتصبح مدن – دول City States أو جمهوريات حرة، ولتشن الحرب ضد بعضها بعضاً، بسبب الخلاف على الحدود الإدارية والحقوق ضد بعضها بعضاً، بسبب الخلاف على الحدود الإدارية والحقوق الإقطاعية، أو بسبب الأسواق وضرائب الطرق والجسور، أو بسبب التنافس على الأراضى الزراعية وغير الزراعية المجاورة، أو بسبب المشاركة فى العداوات القديمة والضغائن المتوارثة بين البيوت الكبرى، حتى أصبحت الجيرة فى حد ذاتها – على حد قول فشر – من أقوى العوامل فى إثارة الأحقاد الطويلة الآماد.

ومنذ أواخر القرن الثانى عشر، فإن سكان المدن فى إيطاليا لحاجتهم الماسة إلى يد قوية تدرأ عنهم خطرا داهماً لجأو إلى نقل كبير من السلطة التنفيذية إلى موظف خاص يدعى البودتستا Podesta، كان يتولى وظيفته لمدة سنة واحدة أو لبضع سنين معدودة، ولكنه كان يتحرر عنه الضرورة من قيود القانون. وكان هذا – من بعض الوجوه – منشأ حكم الطغاة DesPosts فى ايطاليا، بعد أن غدت وظيفة البودتستا مستديمة قابلة للتوريث خالفاً عن سالف. وكانت المدن الإيطالية أحياناً أخرى تستخدم الجنود المرتزقة فى الحرب ضد فلورنسا. وإزاء الشدائد الحربية، كانت المجالس البلدية هى أول من قلب عملية الحصول على الحرية رأساً على عقب. ورغم ما كان يحدوها من أمل فى اعتبار استخدام المحترفين من المأجورين

تدبيراً مؤقتاً ما وجدت أن القائد الأجير Condottiere يصبح في مقابل انتصاره حاكماً للمدينة التي كان قد استؤجر للدفاع عن حريتها .

ومن جهة أخرى فلما كان سكان المدن دائماً وتحت رحمة الاضطرابات السياسية والمغارم الثقيلة واعتداءات البارونات اللصوص وقراصنة الأنهار، لم يكن غريباً أن تعمد مدن كثرة خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر إلى تكوين عصبة تضم مدن وادي الراين وعصبة أخرى تضم المدن الألمانية الجنوبية، بيد أن أعظم هذه العصبات كلها وأطولها عمراً، كانت عصبة المدن الهنسية التي امتدت شبكة علاقاتها التجارية من القنال الإنجليزي إلى خليج فنلند، ومن لندن إلى نوفجورود، ومن كولون Cologne إلى برجن Bergen. ومن الصعوبة تحديد عدد المدن التي ضمنتها العصبة. لأن عددها كان متغيراً باستمرار. ولكن التقدير المعتاد لعدد مدن العصبة في ذروتها قوتها هي ثمانين مدينة، ولا تقع هذه المدن على طول الساحل فحسب، بل أيضاً على طول المجاري المائية في السهل الألماني الشمالي. وقد نظمت العصبة على هيئة أربعة "دوائر" لكل منها مركز، وهذه المراكز الأربعة هي لوبيك Lubeck ودانزيج Danzig وبرنزويك Brunswick وكولون. وكانت همبورج Hamburg وبرمن Bremen عضوين بارزين بالعصبة.

وبلغت عصبة المدن الهنسية ذروتها وقوتها وعظمتها في القرن الرابع عشر، حيث سنحت الفرصة في هذا القرن للتاجر الألماني – دون غيره من التجار – أن يصبح وسيط المبادلة والمتاجرة بين بلاد الشمال الغربي من أوروبا وكثر عدد التجار الألمان الذين أثروا من حمل الصوف الخام والمنسوجات الصوفية والغلال والأنبذة والفراء الثمينة والمنسوجات الرفيعة. وأن التجار الألمان وأشباههم من تجار البلاد الأوروبية الواقعة شرقي انجلترا، هم الذين أطلق عليهم الإنجليز اسم "ايسترلنج" Easterling أي الشرقيين، وهم الذين أصبحوا عاملاً مهماً في تجارة انجلترا الخارجية، بل غدوا شخصيات مألوفة في لندن قبل بداية القرن الرابع عشر. وبلغ

أولئك التجار من الثراء والاستقرار بنقاباتهم Hans الخاصة بهم فى لندن وبالغرفة التجارية Guild Hall الخاصة بالعاصمة الإنجليزية نفسها، أى صيغة مختزلة من لفظ ايستلنج – أى استرلينى Sterling – صارت علماً على الوحدة الذهبية فى النقد الإنجليزى حتى الوقت الحاضر.

أما نمو التجارة والصناعة فمنذ أن ظهرت المدن حوالى عام ١٠٠٠ الميلادى، نمت التجارة والصناعة، نموا مضطرداً حتى ظهرت النهضة الأوربية، وقد تميزت المدن الإيطالية بالذات عن غيرها بذلك النمو فتلك المدن تقاليدها التجارية منذ العهد الرومانى، عندما كانت إيطاليا مركزاً لتجارة العالم وظلت ذائعة الصيت فى عالم التجارة وقد ساعدها على ذلك موقعها الجغرافى فى منتصف حوض البحر المتوسط، ذلك الموقع الذى جعلها على مدى العصور الوسطى وفى عهد النهضة الأوربية أعرق البلاد الأوروبية حضارة وأكثفها سكاناً، وبذلك تفوق المجتمع الايطالى على غيرها من المجتمعات التى تعيش فى أسبانيا وفرنسا وانجلترا وألمانيا.

وظلت التجارة الدولية الأوروبية فى عام ١٥٠٠ على ما كانت عليه خلال القرنين السابقين فظلت الفلندر وشمال إيطاليا أكثر بلاد أوروبا تقدماً فى الصناعة فكانت تصنع فى كل منها أحسن أنواع الأقمشة الصوفية فى أوروبا كما تخصصت إيطالياً فضلاً عن هذا فى صناعة الحرير، والفلندر فى الأقمشة الكتانية والدانتلا والنسيج المزدان بالصور المستخدمة فى كسوة بعض الأثاث، كما تقدمت فى كلتيهما صناعة بناء السفن والمطبوعات المعدنية. واحتكرت البندقية تجارة التوابل القادمة من الشرق وغيرها من سلع الترف التى كان تجار البندقية وألمانيا يوزعونها على أوروبا.

وكان الاتصال بين إيطاليا والفلندر ميسرا براً وبحراً، كما توافرت الخطوط الجانبية لهذا المحور "ايطاليا – الفلندرز" فى الاتجاه الغربى والجنوبى نحو فرنسا وأسبانيا والاتجاه الشرقى والشمالى نحو ألمانيا والبلطيق، ويلاحظ أن اتصال هذا

المحور ممتد نحو الشمال الغربى أى إلى إنجلترا التى لم تعد المورد للصوف الخام الذى أثرى صناع الأقمشة فى جنت وفلورنسا - وإن كانت لا تزال تصدر إلى الفلنـــدرز وبربـــان Flanders, Brabant الأقمشـــة نصـــف المصـــنعة Semi – Finished لتقوم على إتمام تصنيعها. وقد احتلت أسبانيا مكانة انجلترا، فأصبحت المورد الرئيسى الدولى لأحسن أنواع الصوف الخام.

على أن التجارة الخارجية لم تقتصر على المنسوجات والتوابل، فالأخشاب والحبوب والفراء كانت تصدر من النرويج والبلطيق فى مقابل الملح والنبيذ من فرنسا والبرتغال. كما كانت الأسماك والجبن والنبيذ والبيرة وكل أنواع الأسلحة تصدر إلى جهات بعيدة. ولم تكن تجارة الرقيق أقل أهمية من كل ذلك، فلم تتوقف فى جنوب أوروبا على الإطلاق فخلال القرن السادس عشر أصبح تجنيد العبيد المجدفين فى السفن الشراعية الكبيرة من مختلف الجنسيات للخدمة فى السفن الحربية بحوض البحر المتوسط يتم بطريقة وحشية.

وكانت السلع المنقولة براً تشحن على ظهور البغال والخيول فى طرق غير بعيدة، بينما كان البعض ممن تسمح ظروفهم يفضلون نقلها بحراً عن طريق البحار أو الأنهار نظراً لأنها الوسيلة كانت أقل النفقات، وأسرع كما كانت أسلم فى كثير من الأحيان. وكانت الرحلة من البندقية إلى بروكسل تستغرق عشرة أيام وإلى باريس أثنى عشر يوماً، وإلى لندن أربعة وعشرين يوماً وإلى الآستانة ما يتجاوز الشهر. على انه قد استغرقت أقصر رحلة من البندقية وباريس سبعة أيام، وإلى القسطنطينية خمسة عشر يوماً. ولكنها فى الأغلب الأعم كانت تستغرق أكثر من ذلك بكثير.

وكانت أهم المدن الرئيسية التى اشتهرت بالتجارة والغنى والثروة هى المدن القريبة من ممرات الألب شمال شبه الجزيرة الإيطالية، لأن تلك الممرات الجبلية ساعدتها على نشر تجارتها فى أوروبا، لذلك استحضرت ميلان وجنوا وبولونيا وفيرونا وبادوا، وفاقتها جميعها مدينتا البندقية وفلورنسة أهم مركز لتوزيع تجارة

التوابل ونفائس الشرق وكانت فلورنسة المركز الرئيسى لصناعة النسيج من صوف وحرير.

على أية حال كانت هذه المدن التى تكون ولايات صغيرة تختلف حجماً وبعضها كان من صغر المساحة بحيث لم يكن لها أثر فى تاريخ إيطاليا، ولكن استطاعت خمس ولايات إيطالية أن تنمو وتطور نفسها حتى أصبحت مراكز قوة لتقرير مصير إيطاليا بأكملها فيما بعد، تلك كانت الولايات البابوية، ونابلى، وميلان والبندقية وفلورنسة.

الولايات البابوية:

أما الولايات البابوية فكانت تمتد فى وسط شبه الجزيرة الإيطالية من جنوب مصب التبير إلى مصب نهر البو وتشتمل على عدة مدن وحصون تحت سلطة حكام يعترفون بسيادة البابا ويخضعون لسلطانه، ونظراً لأهمية مركز البابا أصبح له مركز الصدارة فى قيادة السياسية الإيطالية، إذ لم يكن مركزه دينياً فحسب بل لقد اشتغل عدد كبير من الباباوات مراكزهم وزجوا بأنفسهم فى السياسة وعاشوا حياة الغنى والترف.

وكانت فكرة الذين يؤمنون بحكم البابا الدنيوى نبع من اعتقادهم بأن زعامته الروحية فى العالم المسيحى لا تكون فعالة إلا إذا أيدها ملك دنيوى. ومن هنا كان تدخل البابوات فى السياسة الإيطالية والأوروبية حتى أصبحوا عنصراً فعالاً فى العلاقات الدولية بين إيطاليا كلها وبين الدول الأوربية الأخرى.

ميلان:

وهى دوقية تمتد فى الشمال وسط سهل لمباردى الخصيب، ولذلك توفرت لديها ثروة زراعية كبيرة وإلى جانب ذلك ازدهرت صناعتها التى كان أهمها صناعة المنسوجات الحريرية.

وكانت ميلان تحت حكم أسرة عريقة هي أسرة فسكونتي Visconti التي سعت لجعل ميلان مركزاً للتوسع نحو المدن المجاورة وتأسيس حكومة تميل نحو الدكتاتورية العسكرية. وقد قام أحد الحكام من أسرة فسيكونتي بتحويل ميلان إلى دوقية وأطلق على نفسه لقب الدوق، وقام التنافس بين دوقية ميلان وبين الدولتين الكبيرتين المجاورتين لها وهما البندقية وفلورنسة.

وفي عام ١٤٥٠ انتقل الحكم في الدوقية إلى شخصية عسكرية، وهو فرانسسكو سفورزا، الذى أسس أسرة جديدة بعد أن اقتنص الحكم من آخر سلالة أسرة فسكونتي وهو صبي صغير. وكانت هناك صلة قرابة تربط الأسرة الملكية في فرنسا بأسرة سفورزا مما جعل لميلان أهمية سياسية قصوى بالنسبة لفرنسا، وظلت ميلان محتفظة باستقلالها إلى أن أقدم أحد أفراد هذه الأسرة وأسمه "لودفيكو سفورزا" على الاتصال بفرنسا لتساعده على انتزاع الحكم من ابن أخيه القاصر والذى كان لودفيكو وصياً عليه. ولذلك يعتبره المؤرخون المسئول عن غزو شارل الثامن ملك فرنسا للأراضي الإيطالية، مما دعا الأسبانيون للتدخل وقيام الحروب التي عرفت في التاريخ باسم الحروب الإيطالية.

البندقية

كانت الحكومة تتركز في أيدى الأقلية من عائلات البندقية الكبيرة العتيقة، وكان على رأسها حاكم Doge يعين بالانتخاب، وهو الصورة الفخمة والرمز الباهر لعظمة البندقية. وفي القرن الخامس عشر وجد إلى جواره مجلس من عشرة أعضاء يمارسون سلطة عليا. وقد كان للبندقية من استقرار في النظم والثروة التجارية والنجاح في سياستها الحريصة ما بهر أعين الساسة والفلاسفة معاً فيأوروبا. وكانت البندقية تملك منذ القرن الثالث عشر ممتلكات مهمة في شرقي أوروبا وشرقي البحر المتوسط. كما كونت الثروات الضخمة نتيجة لتجارتها مع الشرق، وصارت لها ممتلكات في الأدرياتي في ساحل دالماشيا وفي جزائر ايونيان والبحر الايجي وفي شبه الجزيرة نفسها ولكن بتقدم الأتراك العثمانيين تضاءلت تجارة أهل البندقية وأملاكهم.

ولما سقطت القسطنطينية في يد الأتراك العثمانيين عام ١٤٥٣م وجدت البندقية نفسها وقد وقع عليها عبء مقاومة العثمانيين، وذلك بحكم موقعها وعلاقاتها مع الشرق، بدأ النزاع معهم -٠ العثمانيين -عام ١٤١٦م في عهد السلطان محمد الأول ثم تطور بعد ذلك بشكل أزعج البنادقة بعد أن اقترب العثمانيون من أرض البندقية نفسها ولكن الحزب المنادى بالسلام بها قاوم سياسة الحاكم العدائية إزاء العثمانيين، وعقدت البندقية معاهدة منفصلة مع السلطان محمد الثاني عام ١٤٥٤ للصداقة وحسن الجوار، وبها أمنت مصالحها على حساب أوروبا. ثم تعقد بعدئذ اتفاقية القسطنطينية ١٤٧٩ الدفاعية الهجومية وفيها تتعهد البندقية بمساندة الفاتح بأسطول من مائة سفينة في حالة الهجوم عليه، كما سلم اهل البندقية جزءاً كبيراً من أراضيهم للعثمانيين ورضوا بدفع الجزية السنوية على أن يسمح لهم بالتجارة داخل الأراضي العثمانية، ولكي يعوضوا ما فقدوه في الشرق اتجه أهل البندقية إلى ايطاليا نفسها، وتنازعوا السيطرة على شمالها مع ميلان التي كانت تسيطر على وادى البوالغني، كما صاروا دائمي النزاع مع الولايات الإيطالية، وصارت سياستهم في شبه الجزيرة مبنية على أساس من الأنانية، هذا الاتجاه الجديد لأهل البندقية قد أنحرف بهم عن طبيعة عملهم وهو التجارة، وعمل في النهاية على القضاء على عظمتهم كما أضر بإيطاليا كلها.

فلورنسة

إذا نظرنا إلى فلورنسا من الناحية الاقتصادية، فسنجد أن تلك المدينة قد لعبت دوراً مهماً في الاقتصاد الأوروبي خلال عصر النهضة، إذ سيكون من نتيجة تركيز الأموال الطائلة التي جمعتها تلك المدينة عن طريق التجارة إلى أن تكون فلورنسا من أوائل الدول - إن لم تكن الأولى - في تأسيس البنوك والمصارف لخدمة الاقتصاد الفلورنسي وتنمية المشروعات المختلفة. بل ستقوم تلك البنوك بإقراض بعض الملوك والبابوات في أوروبا،فمثلاً ستقرض فلورنسا الملكية الإنجليزية

فى حرب المائة عام. كما ستقرض بعض ملوك فرنسا لتنفيذ بعض المشروعات كإنشاء المبانى والمنشآت الضخمة التىتحتاج إلى أموال كثيرة. ومن هنا نجد أن فلورنسا كانت تتمتع بدرجة من الثراء. واستخدمت هذه المدينة تلك الثروة الطائلة فى بعث التراث اليونانى القديم والنهوض بمختلف الفنون والآداب.

أما من الناحية السياسية فقد امتازت فلورنسا بالنظام الحزبى وبالصراع الداخلى العنيف، وقام هذا الصراع بين حزبين كبيرين أحدهما يسمى حزب الجبليين والآخر حزب الجولف: أما الحزب الأول فكان يناصر الإمبراطورية، بينما وقف الحزب الثانى إلى جانب البابوية. فكان هذا الصراع الحزبى العنيف يستند إلى جذور تعمقت فى الماضى البعيد، وترجع إلى أيام الصراع الطويل الذى نشأ خلال العصور الوسطى بين الإمبراطورية والبابوية.

كما ساعدت عوامل أخرى جديدة على غذكاء هذا الصراع وإلى استمرار النزاع الداخلى والتطاحن بين الطبقات كالمنافسة بين المدن الإيطالية المختلفة أو المنافسة بين الأسر الحاكمة، أو تعارض المصالح السياسية أو الاقتصادية لتلك المدن.

مملكة نابلى:

أما البلاد الإيطالية الواقعة فى أقصى الجنوب فكانت تختلف اختلافاً بيناً عن غيرها من الولايات فمملكة نابلى كانت حكومة اقطاعية يحكمها ملك، ولم تتأثر بالنهضة التى نمت فى الولايات الإيطالية فى الشمال،واحتفظ مجتمعها بطابع العصور الوسطى، ولكن نظراً لاتساع رقعتها. فقد كان لها أثرها القوى فى مجرى السياسة الإيطالية، وبعد أن حكمتها فى العصور الوسطى ثلاث أسرات ملكية، انتقل العرش فى القرن الخامس عشر إلى أسرة كان لها صلة قوية بالأسرة المالكة فى أراجوان الأسبانية.

وكانت نابلي لعدة قرون – فريسة لصراع الدول الأوروبية خارج إيطاليا ويرجع ذلك إلى عام ١٢٦٥ عندما منح البابا مملكة نابلي –بما فى ذلك صقلية إلى شارل أنجو شقيق الملك لويس التاسع ملك فرنسا (وكان ذلك خلال صراع البابا مع الامبراطور). وفى سنة ١٢٨٢ قام الصقليون بالثورة ضد أسرة أنجو ، ودعوا ملك أراجون بأسبانيا لتولى عرش بلادهم، وظل الأمر كذلك إلى أن استطاع ملك أراجون أن يغزو مملكة نابلي وبضمها إلى حكمه، وظلت نابلي وصقلية تحت حكم أسرة تمت بصلة القربى لأسرة أراجون، إلا أن فرنسا لم تسلم أبداً بأحقية تلك الأسرة في تاج نابلي وتتطلع إلى الفرصة التى تسنح لها لاسترداد عرش نابلي وقد تجلى ذلك فى الحروب الطويلة التى نشبت بين فرنسا وأسبانيا فى أواخر القرن الخامس عشر عندما أقدم الملك شارك الثامن ملك فرنسا على غزو إيطاليا عام ١٤٩٤م. وقد غير هذا الغزو وجه شبه الجزيرة الإيطالية وأحدث أثراً واضحاً فى تاريخ أوروبا الحديث، وذلك عندما قام النزاع بين أسبانيا وفرنسا كل منهما تدعى حق وراثة العرش ففى مملكة نابلي وتسعى كل منهما إلى التوسع فى شبه الجزيرة الإيطالية.

تلك صفحة من صفحات تاريخ الأراضى الإيطالية فى عصر النهضة ومستهل التاريخ الحديث، ونخرج منها بفكرتين: الأولى أن إيطاليا لم تستطع لعدة قرون أن تحقق الوحدة القومية التى ظلت أملاً بعيد المنال، نظراً للظروف السياسية والاجتماعية التى عاشتها فى فرقة وخلاف رغم أن أبناءها أبناء جنس واحد، ويتكلمون لغة واحدة، ولم تتحقق لهم الوحدة الشاملة إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، والثانية أن إيطاليا كانت مهد حضارة عريقة وكان الشعب الإيطالي فى الولايات المختلفة يتمتع برخاء اقتصادى ورقى علمى ، وحب عميق للفنون والآداب جعل إيطاليا مركز إشعاع للنهضة الأوربية.

الفصل الثانى

عصر النهضة Renaissance

أو النهضـــة الإيطـاليـة

عصر النهضة Renaissance

أو النهضة الإيطالية

وصف يطلق على حركة إحياء العلوم والآداب والفنون القديمة التي امتازت بها إيطاليا منذ القرن الرابع عشر والدول الأخرى فيما بعد، وليس معنى هذا أنه لم يكن هناك دراسة للقديم في العصور الوسطى، وإنما أساء العلماء حينئذ فهم العالم القديم اليوناني والروماني، كما أساءوا معرفته بما نبذوه جانبًا من مبادئ هذه الحضارة ومظاهرها، وخاصة ما كان منها في نظرهم يتعارض مع تعاليم رجال الدين وتقاليد الكنيسة. بل ويتعارض كذلك في نظرهم مع أصول الدين.

ولكن هذه الحركة تميزت بأن القائمين عليها من العلماء والأدباء والفنانين قد أولوها عنايتهم التامة، وبذلوا في سبيلها كل ما يملكون من جهد، فدرسوا كل ما هو قديم من آثار الأقدمين الإغريق والرومان من مؤلفات علمية وأدبية ومخلفات فنية فذة في عالم النحت والرسم والنقش والمعمار فاستطاعوا في هذه الحركة الواسعة العملاقة أن يبعثوا التفكير القديم من مرقده، في كل اتجاهاته المختلفة، غير مكترثين بتعاليم رجال الدين ولا تقاليد الكنيسة. كما أنهم أضفوا على القديم من شخصيتهم وأحاسيسهم ما جعل لهذه الحركة طابعها المميز، يضاف إلى ذلك طبيعة البيئات المختلفة التي عاشوا فيها. وكان من نتائج ذلك كله ظهور حضارة منقطعة النظير، لها طابعها الخاص في كل من الدول المختلفة التي ظهرت فيها.

ووسط حماسة العلماء والفنانين العظيمة في إيطاليا نجدهم يحتقرون كل ما ظهر قبلهم من حضارات أو تقدم فني أو أدبي أثناء العصور الوسطى ويعتقدون أن الحضارة الحقيقية التي اختفت بسقوط الامبراطورية الرومانية إنما أصبحت بفضل جهودهم، ومن ذلك أطلقوا عليها اسم "الرونسانس" Renaissance أي الأحياء.

على أن هذه التسمية تعسفية إلى حد بعيد فإن صفة الإحياء لا يجب أن تطلق على الحضارة، لأن هذه الأخيرة لم تمت في القرون السالفة وإنما يكفي أن

نطلق على هذه الحركة حركة بعث القديم أو بمعنى أوسع حركة انبثاق الحضارة الحديثة للنهضة وانتشارها فى بقاع أوروبا المختلفة عوامل متعددة من أهمها: -

١- الاتصال الحضارى بين غرب أوروبا ومراكز الحضارة الإسلامية وكانت هذه المراكز هى:-

أولا: بلاد الشرق الأدنى التى وقع عليها عدوان الغربيين باسم الصليب.

ثانيًا: شبه جزيرة أيبريا.

ثالثًا: جزيرة صقلية.

يطلق اسم العصور المظلمة فى التاريخ الأوروبى على الشطر الأول من العصور الوسطى خلال الفترة الواقعة بين سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية فى أواخر القرن الخامس الميلادى وقيام "النهضة الوسيطة" فى أواخر القرن الحادى عشر، وقد رانت على أوروبا خلال هذه القرون الستة سحابة كثيفة الإظلام من التخلف الحضارى: توارت معالم الحضارة الرومانية تدريجياً من إيطاليا وفرنسا وأسبانيا وإنجلترا وغيرها من البلاد التى كانت خاضعة للامبراطورية الرومانية، واضمحلت المدن الزاهرة وأغلقت المدارس وانتشرت الجهالة. ولم يبق أثر للحضارة والعلم والثقافة فى أوروبا الغربية إلا بصيص خافت ينبعث من المؤسسات الدينية الجديدة مثل المدارس الديرية والمدارس الأسقفية أو الكاتدرائية. وكانت البابوية تشرف على توجيه الدراسة فى هذه المدارس وتخطط السياسة التعليمية فيها بما طبع الثقافة بطابع دينى متزمت.

وقد ساعد على انتشار الجهل والانحطاط العلمى أن الجرمان الذين أقاموا لهم ممالك فى غرب أوروبا على أنقاض الدولة الرومانية كانوا يظهرون نفورًا شديداً من التعليم. كما أن البابوات كانوا لا يشجعون سوى الدراسات الدينية المسيحية ويحاربون ما عداها من دراسات محاربة عنيفة لا هوادة فيها. وكان من بين هؤلاء البابوات البابا الذى أطلق عليه مؤرخوا العصور الوسطى جريجورى العظيم [٥٩٠ - ٦٠٤].

حدث هذا فـي الوقت الـذي كان فيه المسلمون يمضـون قدمًا في إقامة بنـان حضاري شامخ، ويضربون أروع الأمثلة في حرية الفكر وتشجيع البحوث وسرعة التطور. وقد كان أثر الإسلام والمسلمين فـي ا اريخ خلاقًا مبدعًا لم يقف عند حـد التغييرات السياسية التي أحدثوها في أوضاع العـالم المعروف، وإنما كـان هـذا الأثـر أشد ما يكون وضوحًا في الميدان الحضاري.

وقد أخذت الحضارة الإسلامية تزحف إلى أوروبا منذ أواخر القـرن الحـادى عشر الميلادى، وسلكت في طريقها عدة معابر أهمها ثلاثة، هي شبه جزيرة ايبريا أولا، وجزيرة صقلية ثانية، وبلاد الشرق الأدنـى القديم وما أرتبط بها من حـروب صليبية ثالثاً.

فلما أفاقت أوروبا الغربية فـي أواخـر القرن الحـادى عشر من سبات الفترة المظلمة وجدت نفسها أمام حضارة إسلامية عملاقة أسـهمت بنصيب موفـور فـي كـل ميادين العلم والمعرفة، وكان أن هرع طلاب العلم مـن مختلف أنحـاء أوروبـا الغربيـة إلى مراكز الحضارة الإسلامية ينهلون من مواردهـا: يدرسـون ويترجمون ويقتبسـون الكثير من معالم هذه الحضارة. وقد ترتبت على هذه الدراسـة والترجمة والاقتباسـات نتيجة مهمة، هي قيام وثبة حضارية ازدهرت في القرن الثاني عشر يطلـق عليها اسـم "النهضة الوسيطة"، وكانت هي في حد ذاتها ثمرة من ثمار الاتصـال الحضـارى بين غرب أوروبا ومراكز الحضـارة الإسـلامية. وقد أدت هـذه النهضـة الوسيطة إلى تمهيد طريق الرقي وتحريـر العقـل الأوروبي مـن "قيـود الثقيلـة التـي فرضتها عليه الهيئـات والأنظمة المختلفة وأصبحت النفوس مهيأة لقبول الانقلاب العظيم الذى حـدث بعد قـرن . أي فـي بداية القرن الرابع عشر حـوالي. سنة ١٣٠٠، ونعنـى بهذا الانقـلاب النهضة الأوروبية الحديثة.

إن الحضـارة الأوروبيـة الحديثـة تستمد أصولها مـن النهضـة الأوروبيـة التـي بزغت في إيطاليـا منـذ مطلـع القرن الرابـع عشر، وهـذه ترجـع جذورهـا إلى النهضـة الوسـيطة في القـرن الثـاني عشر والتـي هـي ثمـرة مـن ثمـار الاتصـال الحضـارى بين

أوروبا الغربية وبين مراكز المدنية الإسلامية ومعنى ذلك أن الحضارة الأوروبية الحديثة قامت على أساس واضح من المدينة الإسلامية بجميع فروعها ومظاهرها.

وكانت أيبريا حيث ساد حكم العرب ما يقرب من ثمانية قرون [من معركة توربوايته ٧٣٢م إلى طرد عرب بنى الأحمر من غرناطة ١٤٩٢م] - موردا فياضا للعلم والمعرفة والفنون، ومقرًا لدور العلم والمعاهد والمدارس، وقد أصبحت جميعًا قبلة لطلاب العلم من كل صوب ومكان فازدهرت فيها لطلاب الدراسات الطبية القديمة والعلوم الفلسفية والرياضيات بأنواعها، كما أرتقت دراسة الأدب والشعر.

وكانت صقلية المصدر الثالث للحضارة العربية، بدأ غزو العرب لها عام ٨٢٧م وفى عام ٨٧٨م تمت سيطرتهم عليها وظلت خاضعة لهم مدة ٢٦٣ عامًا عندما غزاها النورمان عام ١٠٩٠م، وقد استمرت الحضارة الإسلامية قائمة فى عهد الحكم النورماندى.

وقد نقل الغربيون عن المسلمين كثيرا من العلوم ولاسيما الطب والعلوم الرياضية إلى جانب بعض الصناعات مثل صناعة الحرير والسكر والورق...

٢- الاطلاع على مؤلفات وكتابات الأقدمين من يونان ورومان دون قيود والعمل على تصحيحها ومقارنة بعضها بالبعض الآخر، ثم الأجتهاد فى ادخال تعديلات أو تعليقات هامة عليها ثم محاولة محاكاتها والاستفادة من طريقة البحث مع ظهور عنصر الابتكار والتجديد. وقد دفع هذا الاطلاع المهتمين بهذه الدراسات إلى الرغبة الشديدة فى الوصول إلى مزيد من الحقيقة والمعرفة، كما حررهم تمامًا من القيود والأغلال التى كانت تشل تفكيرهم أيام العصور الوسطى، وبعدهم عن ميادين البحث والمعرفة.

٣- استجابة عدد كبير من المفكرين لهذه الحركة وتكريسهم للجهد والمال فى سبيل ازدهارها، فتسابقوا فى البحث عن كل ما هو قديم ودراسته، وتقديمه للأذهان سهلًا مستساغًا. وقد استطاعوا تحت تأثير آداب القدماء وفنونهم بعث التفكير

القديم في كل نواحيه المختلفة؛ وأضافوا عليه ما تميز به كل منهم من مميزات خاصة في كل من الدول المختلفة؛ فنتجت عن ذلك حضارة منقطعة النظير، ليس لها طابعها الخاص في كل مكان ظهرت فيه. ويعرف هؤلاء المفكرون بجماعة الإنسانيين، الذين كرسوا حياتهم لدراسة الأدبيات القديمة، فاستطاعوا بمجهوداتهم أن يقربوا لمعاصريهم مؤلفات وأفكار كتاب العهد القديم. كان هؤلاء الإنسانيون كتابًا إجتهدوا في تقليد الأساتذة القدامى في طريقتهم وأسلوب تفكيرهم، كما كانوا كذلك جمّاعين لكل ما تقع عليه أيديهم مما كتبه القدماء، واتصفوا بأنهم كانوا علماء يعملون على تصحيح كلِ ما يجدونه من منقول للمخطوطات الأصلية. وأساتذة بدأوا دراسات جديدة مبنية على أساس العلوم القديمة، وما تعلموه من الاطلاع على حضارة المسلمين الشامخة.

- قامت هذه الحركة على دراسة المخطوطات القديمة. وكانت الكاتدرائيات والكنائس والأديرة تزخر بعدد وافر من هذه المخطوطات وكانت على نوعين المخطوطات الإغريقية والمخطوطات اللاتينية. وقد نشط البحث أولا عن المخطوطات اللاتينية في شبه الجزيرة الإيطالية وفي سويسرا والولايات الألمانية وغيرها من بقاع أوروبا، وقامت الأسرة الحاكمة في المدن الإيطالية بتمويل عمليات البحث عن المخطوطات وشرائها حتى أصبحت هذه الظاهرة بارزة مشتركة بين حكومات المدن الإيطالية انقلبت إلى منافسة حادة بينها. أما المخطوطات الإغريقية فقد اتجهت الأنظار بشأنها إلى القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية. ونشأت تجارة واسعة نشيطة للمخطوطات، وكانت القسطنطينية قبل سقوطها في يد الأتراك العثمانيين مركز هذه التجارة. وكان يقصدها عملاء من حكومات المدن الإيطالية يقتنون المخطوطات الإغريقية، أو دارسون موفدون من قبل هذه الحكومات يدرسون اللغة الإغريقية في القسطنطينية، ويجمعون في

أثناء دراستهم عددًا وافرًا من المخطوطات، وعن طريق العملاء والدارسين معًا انتقلت مجموعات ضخمة من المخطوطات الإغريقية إلى مدن شبه الجزيرة.

ويقول عبد العزيز الشناوى أنه تأسيسًا على هذه الوقائع الثابتة تاريخيًا، يبين خطأ الرأى الشائع بين جمهرة كبيرة من الباحثين، وهو أن فتح الأتراك العثمانيين القسطنطينية سنة ١٤٥٣ أدى إلى ظهور حركة إحياء الدراسات الإغريقية فى شبه الجزيرة الإيطالية بسبب هجرة عدد ضخم من العلماء البيزنطيين من وجه الأتراك العثمانيين والتجائهم إلى إيطاليا حيث استقر بهم المقام وباشروا نشاطا علميا واسعا. والحق أن هذه الحركة الفكرية - حركة إحياء الدراسات الإغريقية - قد ظهرت فى ايطاليا قبل سقوط القسطنطينية بخمسين سنة على الأقل حين جذبت طلائع الحركة الفكرية عددا من العلماء البيزنطيين إلى الهجرة فى مطلع القرن الخامس عشر إلى أيطاليا، حيث طاب لهم المقام فى مدنها لما كان يغمرهم به حكام هذه المدن من رعاية مادية وأدبية. وعلى ذلك فإن سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك العثمانيين لم يكن السبب الرنيسى فى ظهور حركة إحياء الدراسات الإغريقية فى شبه الجزيرة الإيطالية. ويمكن تعليل ذلك الحادث الحربى لم يكن سوى عامل ساعد على ازدهار هذه الحركة. ومن الحقائق الثابتة أيضًا أنه حدث قبل سقوط القسطنطينية تقارب فكرى بين الدولة البيزنطية وبين المدن الإيطالية التى اشتهر حكامها بتشجيع العلوم والفنون والآداب، وتبودلت الزيارات العلمية بين الجانبين، فقام عدد من الدارسين الإيطاليين بزيارة القسطنطينية للتخصص فى دراسة اللغة الإغريقية ذات المستوى الرفيع، كما وفد تباعا إلى فلورنسا وغيرها من المدن الإيطالية نخبة من العلماء البيزنطيين، ويمثل الفريق الأول بوكاشيو Ghiovanni Bocaccio [١٣١٣ - ١٣٧٥] ذهب إلى القسطنطينية ينشد التعمق فى الدراسات الإغريقية. ويمثل الفريق الثانى كريزولوراس Chrysoloras من أهالى القسطنطينية أوفده امبراطور الدولة الرومانية الشرقية فى مهمة سياسية لدى الحكومات القائمة فى شبه الجزيرة الإيطالية يسعى للحصول على مساعدتها ضد الأتراك العثمانيين الذى ازداد ضغطهم العسكرى

على آسيا الصغرى في زحفهم المرتقب نحو القسطنطينية. وحدثت اتصالات علمية في فلورنسا بين كريزولوراس وبين علمائها الذين قدروا فيه غزارة العلم. فلما عاد إلى القسطنطينية ظل علماء فلورنسا على اتصال وثيق به، وعرضوا عليه القدوم إلى فلورنسا ليتولى تدريس اللغة الإغريقية بها. وقو وافق على العرض وعاد إلى فلورنسا وحاضر بين عامي ١٣٩٧، ١٤٠٠ ثم انتقل منها ليحاضر في ميلان والبندقية ومنهم "بساريون Bessarion الذي نجح في جمع حوالي ستمائة [٦٠٠] وثيقة يونانية كلفته نفقات طائلة، وخلفها في النهاية للبندقية، فأصبحت نواة لمكتبتها الشهيرة. وهكذا استمرت دراسة اليونانية بين عامي ١٤٠٠، ١٤٥٣ بفضل أمثال هذين العالمين أي أنها لم تكن لاحقة لعام ١٤٥٣ فحسب بل وجدت من قبل.

ففي خلال نصف القرن الذي سبق سقوط القسطنطينية سافر عدد كبير من العلماء إلى اليونان للدراسة فيها أو لمجرد الزيارة. ومنهم جيوفاني أوريسبا "Giovani Aurispa" وقد أحضر معه إلى ايطاليا ٢٣٨ وثيقة، وكان العلماء البيزنطيون عند قدومهم إلى إيطاليا يحملون الوثائق اليونانية، فيستقبلون استقبال القواد المظفرين، وقد نتج عن سقوط القسطنطينية بعد ذلك ضياع عدد كبير من المؤلفات اليونانية، ومع ذلك فقد أنقذ عدد كبير من الكتب والمخطوطات.

٥- ولقيت الدراسات الإنسانية في اختراع الطباعة خير معين لها على الذيوع والانتشار. والطباعة - شأنها في ذلك شأن الدراسات الإنسانية - مظهر من مظاهر النهضة الأوروبية، وهي أهم اختراع ظهر في عصر النهضة، بل هي من أعظم الاختراعات التي شهدتها الإنسانية وأسهمت في إثراء الحياة العقلية على مر العصور والأحقاب. وإذا كان حنا جوتنبرج Jean Gutenberg الألماني وهو من مدينةماينز Mayence على الصفة الغربية لنهر الراين - قد أدخل على الطباعة تحسينات كثيرة قفزت بها إلى الأمام خطوات واسعة. فسرعان ما أتقنها الإيطاليون وأدخلوها بحروف معدنية إلى بلادهم في سنة ١٤٦٥. وكانوا في هذا المضمار

أسبق من الفرنسيين الذين جاءوا بها إلى باريس فى سنة ١٤٧٠ ومن الإنجليز ١٤٧٧ وأهل السويد (١٤٨٣) والأسبان (١٤٩٩). ويتصل الورق بالطباعة اتصالًا وثيقًا. فى العصور القديمة كان ورق البردى يستخدم فى الكتابة، وفى العصور الوسطى حلت محله رقائق جلود الأغنام، وكانت هذه الرقائق باهظة التكاليف. فكان الناس يعمدون إلى محو الكتابات القديمة من الرقائق لإعادة استخدامها أكثر من مرة. وفى عصر النهضة كشف الورق. وكان النجاح فى صنعه هو الذى مكن الطباعة من أداء رسالتها[1] .

ظهور اللغات الحديثة

يعتبر نمو اللغات الوطنية واعتداؤها التدريجى على اللغة اللاتينية التى كانت لغة الأدب والعلم حلقة الاتصال بين عصر النهضة والعصور الحديثة، - وهو بالتالى يعد من مظاهر النهضة[2] .

فقد عمد بعض الكتاب والأدباء المتحررين من قيود العصور الوسطى إلى الكتابة بلغة شعوبهم، فنشأت فى إيطاليا وفرنسا وأسبانيا لهجات مستقلة تعتمد على الأصل اللاتينى وظهرت فى شمال أوروبا لهجات أخرى ترجع إلى أصل تيوتونى. وعمد علماء كل لغة إلى نحت كلمات وعبارات جديدة والارتقاء بمستواها، حتى أصبحت هذه اللغات صالحة لتدوين العلوم والآداب بها وعاملًا مهمًا طرأ على نشر الأفكار الجديدة التى اتسمت بها النهضة. كما أوجد نمو هذه اللغات الوطنية طائفة من القراء والأدباء فى إيطاليا وفى فرنسا وغيرها فأضحى الأدب ملكًا للشعب.

وإذا اتخذت إيطاليا مثلا، فإن لهجة توسكانيا هى التى أصبحت أساس اللغة الإيطالية. ويرجع ذلك إلى تفوق لهجة توسكانيا إلى أنها كانت بعيدة عن التأثر بلهجات الغزاة البرابرة بحكم موقع توسكانيا فى إيطاليا، وظهور شعراء ممتازين توسكانيين فرصوا الشعر باللهجة العامية.

وكان أول كاتب في إيطاليا يستخدم اللغة الإيطالية الحديثة في التعبير هو دانيتي اليجيري [١٢٦٥ – ١٣٢١م] Dante Alighieri الذى ألف كتابه المشهور الكوميديا الالهية Devina Commedia باللغة الإيطالية، وهو عبارة عن رحلة خيالية إلى العالم الآخر، يؤكد بعض الباحثين أن دانتي تأثر في كتابتها بـ "رسالة الغفران" لأبي العلاء المعرى من ناحية الفكرة، وإن اختلفت من حيث البناء والتفصيلات والمضمون والأهداف.

وتنقسم الكوميديا إلى ثلاثة أقسام متساوية تقريبا، وهى الجحيم Infero والمطهر Purgatorio والفردوس Paradiso وكل قسم ينقسم بدوره إلى مجموعة من الأناشيد متقاربة الطول.

ويصور دانتى في الجحيم عالم الخطيئة والإثم والعذاب، وهو يقسم تسع درجات، ويتصور أنه شاهد في كل درجة عددا من أعاظم رجال الشعر والحرب والفلسفة والسياسة.

أما المطهر فهو يمثل النصح والتوبة والتطهر والأمل. وهناك فرق بين الجحيم والمطهر، ففى الجحيم يبقى الآثمون فيه أبدا، أما فى المطهر فيوجد به الآثمون بصفة مؤقتة لأنهم تابوا وكفروا عن ذنوبهم قبل موتهم.

أما الفردوس فيمثل عند دانتى الطهارة والصفاء والحرية والنور الإلهي، ويضم أرواح الصالحين الإتقياء ويصوره دانتى على شكل سماوات عشر ترتقى حتى تصل إلى الذات الإلهية. وقد اتخذ دانتى من الشاعر فرجيليوس Virgilius [٧٠– ١٩ ق.م] الشاعر اللاتيني القديم صاحب الألياذه والذى عاش في القرن الأول قبل الميلاد. مرشده فى الجحيم والمطهر. أما فى الفردوس فاتخذ من بياتريشى Beatrice التي كان يحبها وماتت في الخامسة والعشرين من عمرها وحزن عليها دانتي حزنا شديدا دليلا ومرشدا.

هذا فى إيطاليا أما فى فرنسا فقد كتب مونتانى De Montaigne [١٥٣٣ - ١٥٩٢م] باللغة الفرنسية رسائل رائعة فى الأخلاق عرفت باسم Essais وكتب فرانسوا رابليه Rabelais قصته عن مخاطرات بتنجرول دجارجانتوا Pentegruel et Gargantua، ولما كان النثرالفرنسى حين بدأ رابليه كتابته لا يزال وليدًا، فقد استطاع أن يقلب الألفاظ ويؤلف منها تراكيب غربية.

وفى أسبانيا ألف سرفانتيز Cervantes [١٥٤٧ - ١٦١٦م] باللغة الأسبانية قصته المشهورة دون كويكزوت Don Cuixote أو دون كيشوت Don Quichotte سنة ١٦٠٥م، وقد قصد بها السخرية بروايات الفروسية التى كتب معظمها قبل ذلك العهد بجيلين أو أكثر، ونقد مساوئ المجتمع فى عصره.

وفى إنجلترا كتب تشوسر Chaucer [١٣٤٠ - ١٤٠٠م] قصص كانتربرى Canterbury باللغة الإنجليزية. وقد تأثر تشوسر فى شعره ببوكاشيو أبو النثر الإيطالى. كما ظهر سبنسر Spenser [١٥٢٢ - ١٥٩٩م] ثانى الشعراء الإنجليز العظام. وقد ظل موضع فخار انجلترا الأدبى حتى ظهور شكسبير فى أخريات عهد النهضة.

كل هؤلاء إلى جانب عدد كبير آخر ممن ظهروا فى مختلف البلاد الأوروبية، وكتب كل منهم بلغة وطنه. وبفضل التطوير والتحديث الذى طرأ على هذه اللغات الحديثة، أصبحت أداة لها شأن فى نشر العلم وإعداد أفراد المجتمع لتقبل الآراء الجديدة والمفاهيم الجديدة.

الآثـــار

لقد خرجت دراسة الآثار من حركة البعث. فالإيطاليون فى العصور الوسطى كانوا ينظرون إلى الآثار الرومانية القديمة نظرة ملؤها الخرافة. ولم تكن هذه الخرافة مصحوبة بأى تقدير أو إحساس بقيمتها الفنية أو بالرغبة فى المحافظة عليها كما أن أهل روما فى العصور الوسطى كانوا ينزعون الرخام من هذه الآثار القديمة لحرقه واستخراج الجير منه. كما استخدم نبلاء العصور الوسطى المخلفات الرومانية

ولاسيما الحمامات والقبور لحاجاتهم الخاصة فتعرض الكثير منها للتلف. غير أنه منذ بدء حركة الإحياء أخذ شعور جديد نحو هذه المخلفات طريقه إلى نفوس الناس. وكان أول مظهر بهذا الشعور إحساس الإيطاليين بذلك التناقض الصارخ بين العظمة القديمة التى تشير إليها هذه المخلفات وتدهور روما الحديثة. وكان أول رجل فى النهضة يعمل على دراسة آثار روما بطريقة علمية ففى بحثه الذى سماه وصف روما Urbis Romae Descriptio كتب بوجيو يوضح عرض للآثار الرومانية كما وجدت فى النصف الأول من القرن الخامش عشر ثم خلفه فى هذا الميدان عالم الآثار الكبير فلافيوبيوندو Falvio Biondo [ت ١٤٦٣] الذى جمع موسوعة قسمها إلى أقسام ثلاثة هى: "بعث روما" (Roma Jnstanrata) و"انتصار روما" [Roma Triumphans} و"وصف إيطاليا"[Italia illustrata] ، والكتاب يعالج تاريخ وأنظمة وعادات الرومان القدماء وتخطيط وآثار إيطاليا القديمة. وعاش بعد ذلك ليكمل أكثر من ثلاثين كتابا عن تاريخ الفترة التى تبدأ باضمحلال الامبراطورية الرومانية القديمة تحت عنوان [Historiarum ab Inelination Romanorum] ويعتبر بيوندو بحق مؤسس علم الآثار الرومانية. وقرب نهاية حياته أصدر البابا بيوس الثانى [Pius II] فى ١٤٦٢ أمرًا بابويًا يقصد حماية مخلفات روما القديمة من التلف والضياع. ورغم أن البابوات الذين خلفوا بيوس لم يسيروا على سياسته إلا أن الفترة ما بين ١٤٧٠ و١٥٢٥ شاهدت تقدمًا محسوسًا فى العناية بالآثار القديمة ودراستها فخلال هذه الفترة أسس متحف الكابتول ومتحف الفاتيكان كما ظهر الاهتمام بالآثار عند رافليو Raffeaelo – فقد كان رافليو مفتشا عامًا للآثار، تولى هذا المنصب فى ١٥١٥ وشغل لفترة طويلة من حياته بدراسة هذه الآثار. وخلال السنوات الاثنتى عشرة التى قضاها رافيلو فى روما أخذ يرسم مشروعًا هامًا للتنقيب عن الآثار الرومانية وصيانتها والمحافظة عليها من التلف ولكنه توفى ١٥٢٠ فلم يتمكن من أن يضع مشروعه موضع التنفيذ.

ولقد كان لدراسة الآثار القديمة فروع متعددة منها علم النقوش الذى برز فيه يعقوب مازوكى Jacop Mazochi وزميله فرانشسكو البرتينى Francessco

Alpertini فألفا معًا فى ١٥٢١ كتابا تحت عنوان "نقوش من مدينة روما القديمة" [Epigrammato Antiquae urbis Romae] من هذه الفروع علم التبوغرافية (الخطط) الذى برز فيه بارتلميو مارليانو "Bartolommao marliano" الذى نشر كتاب "خطط روما" (Romae Topographie) فى ١٥٣٧.

التاريخ

لم يحظ علم بالانتعاش فى حركة النهضة الإيطالية بقدر ما حظى التاريخ. فلم تعد الفكرة التى تجعل التاريخ يعتمد على السماع والرواية وقبولة وحل محلها دراسة التاريخ على أساس إعادة المادة العلمية الموثوق بها الأمر الذى أدى إلى ظهور مدرسة فى النقد التاريخى كان من أبرز كتابها لورنزو فالا - فمع أنه كان لاتينيًا ممتازًا إلا أنه قام فى ١٤٤٠ حين كانت نابلى خاضعة لنفوذ البابوية بكتابه عن "هبة قسطنطين Donation of Consrantine" وبرهن فيه على أن هذه الوثيقة زائفة وكان البابا فى ذلك الوقت هو نيقولا الخامس وكان باحثًا وسياسيًا فاعجب ببحث فالا وعينه موظفًا فى الحكومة البابوية - ويعتبر ذلك الحادث نقطة تحول فى موقف البابوية من الحركة الإنسانية إذا أضحت البابوية منذ ذلك الوقت وحتى ظهور حركة الإصلاح لدينى - باستثناء فترات قصيرة - نصيرة الدراسات الإنسانية.

كما قام العالمان اللغويان برونى وبوجيو - وهما من فلورنسة - بكتابة تاريخ مدينتهما، ولكن يؤخذ على كتابتها التاريخية أنها كانت تقليدا صارحا لكتابات المؤرخين القدماء. غير أن هذا التقليد أخذ يختفى فى الجيل الذى تلى هذين اللغوين وتكونت مدرسة تاريخية فى فلورنسة لها طابعها المميز والتى تعتبر كتاباتها بداية للكتابة التاريخية الحديثة. وكان من أعلام هذه المدرسة "جويتشاردينى Guicciadini" [ت١٥٤٠] ونيكولوميكافيلى "Nicolo Machiavell" [١٤٦٩ - ١٥٤٢] فكتب الأول "تاريخ إيطاليا" وهو أول تاريخ من نوعه يشمل شبه الجزيرة

كلها، وكتب الثاني [تاريخ فلورنسة] كما كتب في ١٥١٢ دراسة واسعة عن الاستبداد من الناحيتين النظرية والعملية سماه "الأمير Principe" .

وورثت أوروبا عن إيطاليا النهضة فكرتين قيض لهما أن يكون لهما أثر دائم في مجال السياسة والتعليم. أما الفكرة الأولى عن السياسي الخالص أو المنقطع للسياسة فقد احتواها كتاب الأمير لميكافيللي وهو الذي كتب عام ١٥١٣ والفكرة الثانية عن السيد المهذب الشغوف بالدراسة احتواها كتاب "رجل البلاط" لكاستليوني Castiglione الذي وضع بعد ثلاثة أعوام من هذا التاريخ. أما مكيافللي فقد كان دبلوماسيا فلورنسيًا ووطنيًا إيطاليًا متحمسًا، استغل الفراغ الذي فرض عليه في المنفى في تصوير نوع الحاكم الذي يؤهل خير تأهيل لتحرير أرض إيطاليا من دنس الغزاة ويبعث أمجاد روما القديمة. والمثير في هذا البحث أنه موضوعي، فالأمير متمرس في سياسة القوة: فهو يلجأ إلى أساليب القوة والغش دون وازع أوتكيت، لا يعبأ بشئ في سبيل توسيع رقعة أملاكه، واحاطتها بالضمانات الكافية. وهو واقعي يرى الحياة كما هي عليه، ويحيط بالتيارات المعاصرة بمن كتب، ولا يتوقع في الحياة أحسن أو أكثر مما تستطيع هي إعطاءه. وهكذا كان "أميرمكيافللي" مختلفا كل الاختلاف عن أرواح القديسين الذي جعلت بهم مؤلفات القسيس في العصور الوسطى. وإن مبدأ سياسة القوة الذي سفر للناس دون مواربة أو تحفظ ممثلا ما هو جار في الواقع في ذلك العصر، قد جاء بمثابة صدمة للرأي العام - إذ الناس لم يعتادوا أن يطلع عليهم بحث سياسي عار من الأخلاق والدين. ثم إن بطل ميكافيللي كان قيصر بورجيا ابن أخ اسكندر السادس البابا. وبالرغم مما قام به قيصر بورجيا من أعمال شخصية براقة، تقد عرف في الناس جميعًا بنجاحه في تدبير جرائم القتل وأعمال الغدر والخيانة، وهذا كله مما أضاف صفة الجرأة إلى هذا الكتاب الذي تحدى المألوف عند الناس.

وبقدر ما مثل "الأمير" الروح الإيطالية في ذلك العصر، مثلها أيضًا كتاب "رجل البلاط" لكاستليوني. وقد استقى المؤلف انطباعاته من بلاط إيطالي على

درجة كبيرة من الثقافة، هو بلاط الدون جويدوبالدو Guidobaldo في أورينو ثم رسم لرجل البلاط صورة نالت شهرة طبقت الآفاق في طول أوروبا وعرضها. فرجل البلاط لا ينبغي أن يقصر تدريبه على مدرسة البلاط، بل عليه أن يتلقاه أيضًا في المعسكر، فينبغي عليه أن يكون مدججًا بالسلاح، وأن يكون رياضيًا يعنى بصحته، وذو ثقافة أدبية بحيث يندمج في كل مجتمع فيقرأ الإغريقية واللاتينية والإيطالية جيدًا، مع بعض الإلمام عمليًا بالرسم والموسيقى وإظهار اتقان يخيل إلى الناس وكأنه ليس نتيجة مجهود كبير، لكل ما يسود عصره من أذواق وأفانين. وتمشت هذه النظرة إلى التعليم مع روح العصر، فترجم كتاب "رجل البلاط" إلى عدة لغات، ويمكننا مطمئنين أن نعزو فكرة ملتون عن تعليم متعدد الجوانب من شأنه "أن يعد الإنسان للاضطلاع في مهارة واتقان بكل المناصب العامة والخاصة سواء في الحرب أو السلم، وفقا لمقتضيات الظروف" - يمكننا أن نعزو فكرة ملتون هذه إلى الترجمة الإنجليزية الجذابة التي قام بها سيرتوماس هوبي Thomas Hoby في عام ١٥٦١.

ولكن هذا الفيض المفرط من العبقرية الإيطالية لم يكن لدى أي صدى في العالم الإغريقي الأرثوذكسي سواء في أملاك السلطان العثماني أو في أملاك قيصر روسيا. فلم تكن النهضة الإيطالية تعني شيئا للروس أو للعثمانيين؛ وبغض النظر عن بعض المؤثرات القليلة المتناثرة كصورة محمد الفاتح التي رسمها أحد البنادقة ووضعت في قصر السلطان، أو كبناء الكرملن في موسكو الذي أخذ عن ميلان، أو بعض اللفتات المتقنة في اكرا ودلهي، ظل أثر الذوق الإيطالي والعبقرية الإيطالية مقصورًا على العالم المسيحي اللاتيني. أما روسيا فقد كانت عالمًا منفصلًا قائمًا بذاته، ولم تكن عاملًا يعتد به في السياسة الأوروبية في القرن الثامن عشر.

الفنون الجميلة

لقد كانت الفنون الجميلة أكثر اعتدالا وانتظامًا فى تطورها فى عصر النهضة من دراسة الأدب ولذلك فالفنون الجميلة يمكن أن تعطى صورة أوضح مما يعطيه الأدب فيما يتعلق بطبيعة العصر. ورغم ذلك فلا يمكن فهمها كبقية مظاهر النهضة بالتعرف على الإنتاج الفنى فى أواخر العصور الوسطى. فالواقع أن البناء والنحت والرسم كانت قد وصلت فى العصور الوسطى إلى مستوى مرض. فالبناء هو فن العصور الوسطى فى أوروبا والكاندرائية القوطية أثر مهم جدا من آثار البناء فى تاريخ الفنون الأوروبية. ورغم أزدهار النحت والرسم كذلك إلا أن هذين الفنين سخرا لخدمة أعمال البناء – فتداخل الفنون الجميلة فى العصور الوسطى وعدم استقلال كل فن بذاته جعل منها كلها وحدة. وكانت هذه الوحدة راجعة إلى أن الفنون كلها خضعت لخدمة الكنيسة أو الغرض الدينى.

وفى القرن الرابع عشر بدأت روح علمانية تأخذ طريقها إلى الفنون الجميلة فى إيطاليا. ففى البناء كان هذا المجدد فيليبوبرونلسكى Filippo Brunelleschi [١٣٧٧ – ١٤٤٦] وهو فلورنسى المولد، سافر إلى روما لدراسة المعبد والمسرح الرومانيين القديميين. ولما عاد إلى فلورنسا ترك فيليبو الأسلوب القوطى السائد الذى كان يتميز بكثرة "الدعائم الطائرة Flying battresses والأقبية العالية، وعاد بالبناء إلى الشكل الكلاسيكى الذى يتميز بالعمود والعتب [Column - and - Lintel] أو العمود والقوس (Column - and arch) وبتطبيق هذا الشكل القديم فى الأبنية المعاصرة مثل الكنائس وقاعات المدن وللقصور الخاصة شاع نموذج العمود الذى ينتهى بالتاج.

ولقد بدأ فى البناء الجديد فى فلورنسة فى النصف الأول من القرن الخامس عشر ثم انتشر فى بقية أنحاء إيطاليا حتى احتلت روما والبندقية فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر مكانة فلورنسة وحتى وصل فن البناء درجة الكمال

عند ميشيلانجلو "Michel Angelo" [١٤٧٥ - ١٥٦٤] ففي فن ميشيلانجلو بقيت العناصر الكلاسيكية التي ظهرت في فن برونلسكي، العامود والتاج والمثلث القائم على الأعمدة [Pediment] والفص أو الكتف [Pilaster] هذا بالإضافة إلى دقة في التفصيل وتناسب في الأبعاد تكشف عن دراسة دقيقة في التفصيل وتناسب في الأبعاد تكشف عن دراسة دقيقة للنماذج القديمة.

أما فن النحت فقد انجب عصر النهضة نخبة ممتازة من النحاتين تفوقوا على أسلافهم الرومان. ومن أشهر أساتذة فن النحت لورنتزودي تشينوجيبرتي Lorenzo di cino Ghiberti [١٣٧٨ - ١٤٥٥] الذي حفر الأبواب البرونزية بمعمودية كنيسة فلورنسا وكذلك أبواب معمودية كاتدرائية سيينا. وبرغم إعجابه بالتماثيل الإغريقية، فلم يلجأ جيبرتي إلى تقليد أساتذة النحت الإغريقي أو بعث الأفكار الهللينية، بل استوحى الطبيعة في إنتاجه.

ومن أشهر أساتذة فن النحت كذلك، أندريا ريكيو Andrea Riccio [١٤٧٠ - ١٥٥٢] الذي اشتهر بتماثيله البرونزية، ودوناتللو Donatello [حوالي ١٣٨٦ - ١٤٦٦] الذي برع في تجسيد الحركات المحزنة كالصلب أو الحركات السارة كالرقص، وأبدع تمثيل حياة الإنسان - وخاصة الأطفال - في تماثيل من المرمر والبرونز. ومع أن دوناتللو بلمسات يده السحرية لم يقلد الطبيعة، بل سما عليها. ويعد دوناتللو أعظم نحاتي فلورنسا قبل ميكلا انجلو، وقد انتقل أثره إلى البندقية. ومن أهم روائعه تمثال من البرونز "للمجدلية" Magdalen في معمودية كنيسة فلورنسا وتمثال ليوحنا المعمدان Baptist في كاتدرائية سيينا وتمثالان "لداود" أحدهما من البرونزو الآخر من المرمر، ويوجدان بمتحف البارجلو Bargello في فلورنسا .

وقد عبر ميكلا انجلو بتماثيله العظيمة عن عصر جديد تسوده القوى والحرية ومن أعماله تمثال باخوس Bacchus وداوود David وموسى Moses

والعذراء والطفل Madonna and the Child والأسيران المقيدان. Bound Captive فى كاتدرائية فلورنسا وتمثالان للورع Pieta أحدهما فى كاتدرائية فلورنسا والآخر فى كنيسة القديس بطرس فى روما والليل Night والنهار Day على قبر جوليانودى ميدتشى والفجر Dawing والمساء Twilight على قبر لوتنز ودى مديتشى فى فلورنسا.

فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر أخذت النهضة الإيطالية تحبو بدأ هذا فى عام ١٤٩٤ ثم انطفأت الشعلة تمامًا فى ١٥٢٧ بنهب الجيوش الأجنبية لمدينة روما. ففى ١٤٩٤ غزا شارل الثامن ملك فرنسا إيطاليا عبر الألب ومنذ ذلك الوقت أصبحت إيطاليا مرتعا للصراع الحربى بين الدول الأوروبية الكبرى كما اشتركت فى هذا الصراع الإمارات الإيطالية نفسها، فأسرة مدتشى طردت من فلورنسا التى أصبحت مجالًا للصراع بين أسرتى بيانونى Piagnoni وأويتماتى Ottimati ونابلى استولى عليها فرناند ملك أراجون فى ١٥٠٤ وميلان خربت على يد الجيوش الأجنبية الفرنسية والألمانية والسويسرية. ولم ينج من هذا الخراب إلا عدد قليل من الإمارات الإيطالية مثل فرارا ومانتوا وروما، فأصبحت روما حتى الربع الأول من القرن السادس عشر مركز الإشعاع للنهضة الإيطالية كما كانت البابوية هى الدولة الوحيدة من الدويلات الإيطالية. ويعتبر البابا ليو العاشر [١٥١٥ - ١٥٢١] محور الحركة الإنسانية فى هذه الفترة الأخيرة من تاريخ النهضة الإيطالية. فقد كان ليو العاشر شديد التحمس للدراسات الكلاسيكية وفى عهده بالذات كانت روما مركزًا أوسع وأكبر من فلورنسة فى عهد لورنزو ومدتشى وأن كانت أقل منها فى عمقها وعبقريتها. ودور الفاتيكان فى الدراسات الإنسانية فى هذه الحقبة يختلف تماما عن دوره فى القرن الخامس عشر. ففى القرن الخامس عشر كانت صلة البلاط البابوى بالحركة الإنسانية تتمثل فى استخدام أصحاب هذه الدراسات ككتاب للاتينية فى الحكومة البابوية Curia فبوجيو وبرونى وفالا شغلوا مناصب كتابية فقط ولم يتولوا مناصب كنسية فى السلك البابوى ولذلك ظلت الدراسات الإنسانية بعيدة عن

المناصب الكنسية. أما في أيام ليو العاشر فقد تطورت علاقة البابوية بالحركة الإنسانية أو اشتدت إذ أصبح الامتياز في الدراسات الإنسانية سبيلا للوصول إلى مناصب الكنيسة الكبرى. وهكذا وصل عدد كبير من الإنسانيين إلى مناصب كنسية هامة. كان منهم بولوس جوفيوس Paulus Jjovius وفيدا Vida وماركوس موسورس Marcus Mosurus الذين أصبحوا أساقفة. كما عرف عن ليو نفسه رغبته الصادقة القوية في نشر الثقافة الفكرية الجادة فجامعة روما Sapienza كانت حتى عصره أقل بكثير من مستوى الجامعات الإيطالية الأخرى في الدراسات الإنسانية. فكان هم ليو أن يرفع من شأن جامعة روما في هذه الدراسات فعدل من نظمها ولوائحها وانشأ كراسي جديدة للأستاذية وشجع الأساتذة الممتازين على الالتحاق بها. وقد اهتم ليو بصفة خاصة في اصلاحه الجامعي بتشجيع الدراسات اليونانية وكانت روما متأخرة إلى حد كبير في هذه الدراسات فانشأ ليو مطبعة يونانية في روما ولكن سقوط روما في ١٥٢٧ في يد القوات العسكرية الأجنبية كان السبب المباشر في انهيار النهضة الإيطالية انهيار تاما، فقتل ومات بالمرض بعض العلماء وهرب البعض الآخر من المدينة خارج إيطاليا. وبعض الفارين من روما بقى في إيطاليا حتى هدأت الأحوال قليلا أو حتى كانت الأحوال تهدأ أحيانا فيتابعون دراساتهم. ومن هذا الفريق الأخير بتروس فيكتوريوس [Petrus Victorius] (١٤٨٩ – ١٥٨٤). الذى حاضر في الأدب والفلسفة في فلورنسا ابتداء من ١٥٣٧. والواقع أنه بعد نهب روما عاد بضيص من الكلاسيكية إلى مركزها الأصلي في سهل لمبارديا. ففي فرارا تمثلت الدراسات الإنسانية في "ليتيوس جيرالدس Litius Gyraldus" [١٤٧٩ – ١٥٥٢] الذي كان كتابه في تاريخ الشعر [Historia Poetarum] في مقدمة الكتب عن تاريخ الأدب الكلاسيكي وكذلك "روبرتلوس Robertlus" [١٥١٦ – ١٥٦٧] وهو إنساني كبير درس في بافيا وغيرها وتخصص في النقد الأدبي.

وثمة عامل مهم مسئول عن أفول النهضة في روما بالذات لا يقل أهمية عن الغزو الأجنبي لشبه جزيرة إيطاليا ونقصد بذلك حركة الإصلاح الديني في أوروبا. إذ لما كانت حركة الإصلاح الديني تحمل معنى التحرر الديني، والتحرر من سيطرة الكنيسة الكاثوليكية ورجالها فقد كانت على الأقل في نظر الكنيسة الكاثوليكية ثمرة من ثمرات الحركة الإنسانية - ولذلك فقد أخذت البابوية تعارض الحركة الإنسانية بقوة منذ ظهور بوادر حركة الإصلاح الديني في الربع الثاني من القرن السادس عشر فتواطأت البابوية في عهد كلمنت السابع في ١٥٢٠ مع شارل الخامس ملك أسبانيا الكاثوليكي على تصفية الحركة الإنسانية في إيطاليا.

النهضة خارج شبه الجزيرة الإيطالية :-

قبل أن يبدأ اضمحلال النهضة في شبه الجزيرة الإيطالية كانت روحها ومظاهرها قد تسربت عبر الألب إلى اصقاع شتى من القارة الأوروبية على يد الطلاب الذين كانوا قد توافدوا من أنحاء أوروبا إلى المدن الإيطالية ينهلون من مراكز النهضة فيها ما شاء لهم شغفهم بالتحصيل العلمي. ولما عاد هؤلاء الوافدون إلى بلادهم دفعهم حماسهم إلى نشر الآراء الجديدة بين مواطنيهم. وقد اتسمت النهضة في كل دولة أو إقليم بطابع خاص ومظاهر معينة حسب خصائص كل شعب وأحواله السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية.

ويعتبر "ديديه إرزمس Didie Erasmes" [١٤٦٧ - ١٥٣٦] أكبر داعية للنهضة خارج شبه الجزيرة الإيطالية، وهو عالم هولندي ولد في روتردام، طغت شهرته دول أوروبا حتى أن فرنسا وانجلترا وألمانيا كانت تدعيه لنفسها استنادًا إلى أنه أقام بكل منها زمنًا يحاضر في اللغتين الإغريقية واللاتينية، وتجمع حوله علماء تلك البلاد وصفوة المثقفين فيها. وقد شغف بالبحث عن الكتب القديمة وجمعها والتعليق عليها ونشرها للإفادة منها، وقد وضع عدة مؤلفات باللغة اللاتينية.

كان إرزمس يرى أن الدراسات الإنسانية وسيلة لغاية، هي إصلاح المجتمع الأوروبي وتخليصه من الشرور والآثام والفضائح الخلقية التي كانت ترتكب جهارًا، وكذلك من الجهالة المتفشية فيه، وبعبارة أخرى كان يرى أن الدراسات الإنسانية يجب أن تهدف أولا وقبل كل شئ إلى علاج الأمراض الاجتماعية والمساوئ الخلقية.وكانت الناحية الدينية بارزة في إرزمس، فدراسة الإنجيل هي الدراسة المفضلة لديه. وقد نشر النسخة الإغريقية الأصلية للانجيل وأرفقها بترجمة لاتينية سليمة وتعليقات جديدة مبسطة، وكان يريد أن يعود الناس في أوروبا إلى المسيحية الأولى في بساطتها ونقائها، ولكنه كان يخشى أن يؤدي إحياء الدراسات الإغريقية إلى بعث الوثنية أو الأبتعاد عن القيم الدينية المسيحية. وكان يدرك إدراكا تاما التدهور الذي أصاب الكنيسة نتيجة سلوك كبار رجال الدين، وحياة البذخ والفساد التي يحيونها، وضعف مستواهم العلمي والإهتمام بظواهر الدين دون لبه، واعتقاد الناس في الخرافات الدينية. فكان إرزمس في طليعة الرواد الذين دعوا إلى الإصلاح الديني، ولكن لم تتجاوز رغبته في انهاض الكنيسة الثورة عليها أو الخروج عل روما، وقد ظهر قبيل مارتن لوثر بفترة وجيزة.

ويختلف إرزمس عن الإنسانيين الإيطاليين في أنه لم تظهر في كتاباته أية نزعة وثنية. بل كان مسيحيًا متدينًا مستنيرًا معتدلًا، اتسمت كتاباته بالطابع الأوروبي العام والبعد عن العنف، واستبدت به رغبة قوية في نشر الدراسات الإنسانية وتثقيف الناس بها حتى عقدت له الزعامة الثقافية في أوروبا، وكان يرى أن التعليم أرقى مهنة. وقد توفي في مدينة بال بسويسرا سنة ١٥٢٦ حيث كان يستعد لطبع مؤلفاته. وقد أطلق عليه بعض المؤرخين: "فولتير اللاتيني **Le Voltare Latin**".

النهضة في ألمانيا :-

تميزت النهضة في ألمانيا باتجاهها الديني والعلمي، على العكس من إيطاليا التي اقتصرت الدراسات الإنسانية فيها على الطابع الوثني. وكانت طلائع النهضة في

ألمانيا جماعة من المبتدئين الذين جذبتهم الدراسات القديمة في إيطاليا ونقلوها بمجرد عودتهم إلى ألمانيا. وكان هدف الألمان من دراسة الأدب القديم تهذيب النفوس وتربية النشئ وتنمية شعور التقوى.

ويرجع الفضل في إثارة الاهتمام بهذا الدراسات الجديدة في ألمانيا إلى "جوهان رويخلن Johann Reuchlin [١٤٥٥ - ١٥٢٢] الذى درس الأدبين اليوناني واللاتيني. ثم انصب اهتمامه على العبرية باعتبارها مفتاحًا لدراسة العهد القديم. وهكذا كان اهتمام رويخلن بالعبرية لخدمة المسيحية.

وفي الواقع أن هذا هو الاتجاه المميز للحركة الإنسانية في مرحلتها الأولى في ألمانيا. فقد اخضع الإنسانيون الدراسات الإنسانية لخدمة الكتاب المقدس، فكان الأئتلاف قويا بين الحركة الإنسانية وحركة الاصلاح الديني، فكما أن الدراسات الإنسانية تعتمد على الدراسات القديمة، فكذلك حركة الإصلاح الديني تعتمد على الرجوع إلى المصادر الأولى للمسيحية دون فلسفة العصور الوسطى لذلك اتجهت النهضة في ألمانيا لخدمة الإصلاح الديني واتخذت أشكالها في دراسة الكتاب المقدس كما كتب باليونانية، وفي مهاجمة رجال الدين ومحاربة البدع والخرافات الدينية. وقد تبلور هذا الاتجاه بصورة صارخة فيما بعد في قيام حركة الإصلاح الديني Reformation المعادية للكنيسة الكاثوليكية والتي انتهت بحروب دينية مدمرة.

النهضة في فرنسا

ومن ايطاليا أيضا سرت النهضة في فرنسا، فوجد العلماء والشعراء والفنانون أرحب صدر في ملوك فرنسا وأمرائها، من لويس الحادى عشر إلى فرنسوا الأول، على أن روح النهضة تتمثل في مرجريت أخت فرانسوا، إذ كانت - مرجريت - شاعرة فنانة واسعة الاطلاع لا تنقطع الرسائل بينها وبين إرزمس، حتى أنها لتعد تلميذته،

وقد بسطت كرمها على الشعراء والعلماء، ولم يحرم من كرمها أصغر ملتجئ إليها من المنتسبين إلى الأدب.

ومن أدباء فرنسا "باديوس Badius" الذى اشتهر بمعرفة اللغة الإغريقية وعد من أعظم علمائها فى عصره فى جميع أوروبا، وهو الذى ساعد فرانسوا الأول وأخته مرجريت على إنشاء كلية فرنسا La College de France عام ١٥٣٠ ومن أساطين النهضة الفرنسية "فرانسوا رابليه France Rabelais (١٤٨٣ - ١٥٥٣م) وكان أول أمره راهبًا، ثم صار طبيبا وداعيًا إلى البحث العلمى وهو أول فرنسى خالف أمر البابا، وشرّح جثة إنسان وكان رابليه متعطشا لتحصيل العلم والفضيلة والتجربة، وبعبارة أخرى متعطشا لمعرفة الحقيقة، وكانت طريقة نشر الحقائق فى صيغة قصص خيالية ممتعة يتسلى بها العامة ويتعظ بها الخاصة.

ومنهم "ميشيل دى مونتانى Michel de Montaigne [١٥٣٣ - ١٥٩٢م] وهو أول فرنسى كتب المقالات التى جمع فيها خواطره العديدة وتجلت فيها فصاحته وسلامة أسلوبه واتخذها وسيلة للبحث على دراسة الطبيعة والتزام الفضيلة من غير تقشف ولا عبوس وعلى الصراحة فى القول، واتباع الطريقة الطبيعية فى التعليم: وتعد مقالاته خطوة جديدة فى الأدب، إذ وصف فيها أدق عاداته وأذواقه وخياله، وبذلك كتب لنفسه سيرة مفصلة، فآذن بالوقت الذى يظهر فيه علم النفس الحديث. وكانت أفكاره السياسية تشبه أفكار ميكافيللى.

أما الفن فساهمت فيه فرنسا بصفاتها الخاصة، ونعنى بذلك عبقريتها فى نقد الفن والحياة، وحسن ابتكارها فى إنشاء الحدائق وتشييد القصور. وقد بلغ الفن أوجه أيام فرانسوا الأول [١٥١٥ - ١٥٤٧]، وكان مولعًا بالعمارة، وما زالت آثاره قائمة فى "فنتبلوا Fontainebleau" وغيرها واقتدى به الأمراء فشيدوا على نسقه قصورًا منها عدد كبير على نهر لوار ومن أكبر المعماريين فى عصره "بيبرلسكوت Pierre Lescoht" وهو الذى أعاد إنشاء اللوفر Louvre" بأمر من فرانسوا، وجاء بعده "دى لورم Philobert De Lorme [١٥١٥ - ١٥٧٠] فانشأ بأمر هنرى الثانى قصر

التويلرى Tuileries في باريس ودى لورم، هو الفرنسى الوحيد الذى يشبه الإيطاليين من حيث النبوغ فى أكثر من فن. فإلى جانب خدمة هندسة البناء. كان يجيد الكتابة وفن التحصينات فى حين أن النهضة الفرنسية مشهورة بوجه عام بتخصص كل شخص فى الفن الذى اختاره لنفسه. بدلا من مجاراة الإيطاليين فى الأخذ من كل من بطرف، وإلى جانب التخصص احتفظ الفرنسيون بمزايا الشعب والبلاد، كما عبر عن ذلك "دى لورم" بقوله أحسن الوحى ما يجئ من البلاد التى نعيش فيها، ومما يعنينا على صوغ الأشياء المناسبة للتربة الفرنسية ولميول الفرنسيين، فقد كان الفنانون الفرنسيون يأخذون من الآداب القديمة ما يروقهم ويضيفون إليه - من عندهم ثم يبرزونه فى صورة جديدة وكذلك فعلوا فى فن البناء وفن النحت

النهضة فى انجلترا:

دخلت الدراسات الإنسانية انجلترا متأخرة بعض الوقت، لأن هذه البلاد كانت منصرفة إلى مشكلات الحرب التى قامت بينها وبين فرنسا، وهى المعروفة باسم حرب المائة سنة [١٣٣٧ - ١٤٥٣]، ثم لم تلبث أن شغلت مرة أخرى بحرب داخلية عرفت باسم حرب الوردتين [١٤٦١ - ١٤٨٥]. فلما وضعت هذه الحرب الأخيرة أوزارها أخذت الدراسات الإنسانية طريقها إلى انجلترا، وكان جماعة من الإنجليز قد شدوا رجالهم إلى شبه الجزيرة الإيطالية ونهلوا من الدراسات القديمة فى فلورنسا والبندقية وروما وغيرها ما شاء لهم فهمهم العلمى. وكان معظم هؤلاء الإنجليز من اكسفورد Oxford Reformers.

وقد أسهم إرزمس فى ازدهار الدراسات الإغريقية فى انجلترا، ففى زيارته الأولى لها سنة ١٤٩٩ حاضر فى جامعة اكسفورد، فى هذه الدراسات وفى زيارته الثانية لانجلترا وقد امتدت من سنة ١٥١٣ حتى ١٥٦٣ حاضر فى جامعة كمبردج وترعرت بينه وبين أعلام الانجليز فى الدراسات الإنسانية أواصر صداقة وثيقة. ويعتبر إرزمس من أعلام مصلحى اكسفورد وبسبب زياراته لإنجلترا.

اهتم مصلحوا اكسفورد بدراسة الأدبيات القديمة، ونادوا بضرورة إطلاق الفكر الإنساني من القيود التي كانت تفرضها الكنيسة على حرية البحث العلمي وحرية الفكر. وكان هؤلاء المصلحون متأثرين بروح النقد المنتشرة في عصرهم وكانوا لا يرضون عن مساوئ الكنيسة، ولكنهم لم يذهبوا في مطالبتهم بإصلاحها إلى حد المناداة بانفصالها تمامًا عن روما.

ومن أعلام النهضة في انجلترا توماس كولت Thomas Colet أدخل تعليم اللغة الإغريقية في جامعة اكسفورد، وسير توماس مور Thomas More وكلاهما كان صديقا لارزمس، وتعاون الثلاثة على نشر الإنجيل "حتى يصل إلى كل فلاح خلف محراثه، وكل ناسج خلف منواله، وحتى يكون سلوى كل مسافر".

وأخذت الدراسات الإنسانية طريقها من جامعة اكسفورد إلى جامعة كمبردج على يد إرزمس الذي حاضر في اللغة الإغريقية في رحاب تلك الجامعة حتى إذا جاءت سنة ١٥٤١ أصدر هنري الثامن مرسوما ملكيا بإنشاء خمسة كراسي أستاذية في جامعة كمبردج للغة اليونانية واللغة العبرية واللاهوت والقانون المدني والطبيعة.

وفي النصف الأول من القرن السادس عشر دخلت الدراسات الإنسانية برامج المدارس الإنجليزية، وكانت أقدم المدارس التي أسست لهذه الدراسات مدرسة سانت بول Saint Paul وتابع إنشاء مدارس أخرى على شاكلتها في لندن وضواحيها.

وأهم فارق بين النهضة في إنجلترا وبين النهضة في كل من إيطاليا وفرنسا أن النهضة في الدولتين الأخيرتين اتجهت اتجاها وثنيا. أما في إنجلترا فقد أخذت النهضة طابعا دينيا يستهدف خدمة المسيحية، ولذلك لم تكن النهضة في إنجلترا مقصورة على الآداب والفنون، بل شملت أيضا الدين، وحاولت التوفيق بين الفن والعقيدة، وبين الجمال والدين.

واتجهت النهضة فـي إنجلـترا أول الأمـر إلى جعـل الآداب القديمـة فـي متناول المثقفين، فأخرجت تراجم لأعلام الفكر القديم، مثل هوميروس، وفرجيل وبلوتارك وغيرهم، كما ترجمت إلى اللغة الإنجليزية ألوان من الإنتاج الأدبي لأعلام النهضة الإيطاليين، ولم تقدم انجلترا فى القرن السادس عشر روائع أدبية مبتكرة إلى الدراسات الإنسانية، حتى إذا جاء القرن السابع عشر، بلغ الإنتاج الأدبي فى اللغة الإنجليزية الذروة فى الروعة والإبداع وقد تمثل هذا الإنتاج فـى مؤلفات شيكسبير Shakes Prears [١٥٦٤ - ١٦١٦] وجـون ملتـون John Milton [١٦٠٨ - ١٦٧٤].

النهضة فى أسبانيا والبرتغال:

انتقلت بذور الحركة الإنسانية إلى شبه جزيرة ايبريا أسبانيا والبرتغال بمد عدد من الطلاب الأسبان الذين قدموا إلى إيطاليا فـى القرن الخامس عشر ودرسوا بجامعاتها، ثم عادوا إلى وطنهم وأخذوا يحاضرون فـى الدراسات الإنسـانية ومـن أبرزهم إليـو انطونيـو دى نبريا Elio Antonio de Nebrija [١٤٤٤ - ١٥٢٢]، وهرنان نانز Herman Nunez [١٤٧١ - ١٥٢٢].

وقد لعبت أيبريا دورا بالغ الأهمية فى التاريخ المبكر للحركة الإنسانية فـى أسبانيا، حيث قاد حملة نشطة ضد لاتينية العصور الوسطى، وحل كتابه "مقدمات فى اللاتينية Introduction Latinae محـل كتـب النحـو القديمـة المسـتخدمة فـى المدارس والجامعات. فإلى جـانب دراساته فـى ميدان النحـو والمعاجم، قـام بنشر وشرح عدة مؤلفات للكتاب اللاتين القدماء، وكان أول أبحاثه فى عصر النهضة يصـدر أحكامًا قاطعة بشأن نطق اللغة اليونانية القديمـة، وترك أيضًا أعمـالاً مهامـة عن الآثار الأسبانية القديمة والجغرافيين القدماء، وأبدى اهتمامًا متزايد باللغة العبرية.

أما هرنان ناتز فقد غدا أشهر علماء التراث الهليني الأسبان فـى عصره، وهـو من أنبغ تلاميذ العالم البرتغالى "أرياس بربوسا Arias Barbosa" الـذى كـان أول

من تولي تدريس الإغريقية بجامعة سالامنكا إبان السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر.

ومن أعلام الدراسات القديمة الأسبان في القرن الخامس عشر: فرنندو القرطبي Fernando de Cordoba" [١٤٢٥ - ١٤٨٦] الذي انصبت اهتماماته على محاولة التوفيق بين تعاليم أرسطو وأفلاطون، ثم مايسي رود ريجوي دي سانتيلا Maese Rodrigo Santaella [١٤٤٤ - ١٥٠٩] الذي وضع المعجم الكنسي Vocabularium Ecclesiasticum بهدف شرح مصطلحات الكنيسة الفنية لأولئك الذين لا يعرفون اللاتينية.

ومثلما حدث في أسبانيا، توافد عدد من الأساتذة الإيطاليين على البرتغال مثل أستاذ البلاغة الفلورنسي جاكو بو بوبليتشيو Jacopo Publicio الذي قام بالتدريس في البرتغال خلال جولاته بأوروبا بين عامي ١٤٦٥ و١٤٨٠، وفيما تبادل بوليتز يانو الرسائل مع ملك البرتغال يوحنا الثاني [١٤٨١ - ١٤٩٥] وكان من تلاميذ أرياس بريوسا وقام كاتلدو باريسيو Cataldo Parisio أستاذ البلاغة بجامعة بافيا بإلقاء محاضرات في كويمبرا Coimbra حتى عام ١٤٩٥، حين استدعاه ملك البرتغال يوحنا الثاني إلى بلاطه وطبع في لشبونه عام ١٥٠٥ كتاب استيفان كافيللرو Estevan Cavillero المعنون "مقدمة علم النحو Prosodia Grammatica. وهكذا كانت شبه جزيرة أيبريا مهيأة في مطلع القرن السادس عشر لحركة الإحياء الكلاسيكي ولكن هذه الحركة ما لبثت أن اهتزت في أسبانيا اهتزازا عنيفا.

على أن الخوف من بوادر حركة الإصلاح الديني دعا شارل الخامس والباب كلمنت السابع إلى الوقوف ضد الدراسات الإنسانية، مما جعل تأثير الدراسات الإنسانية في المجتمع الأسباني محدودا بصفة عامة. وكانت محاكم التفتيش الأسبانية سيفا على رءوس هؤلاء الإنسانيين.

على أن أثر حركة الإحياء في شبه الجزيرة الأيبرية تمثل بدرجة أوضح في استخدام اللغة الأسبانية القومية في مجال الأدب والمسرح. فكتب سرفانتيز Cervantes قصته المشهورة دون كيشوت وكتب لويس دى كاميونس De Cameons [١٥٢٤ – ١٥٨٠] ملحمته الشهيرة لوزيا Lusia وكتب لوب دى فيجا Lope de Vega المعاصر لسرفانتيز عدة درامات.

وإلى جانب الدراسات القديمة والأدب القومي، اقترنت النهضة في شبه جزيرة أيبريا بالاهتمام بالملاحة وصناعة السفن فضلا عن الفنون التى تأثرت بالناحية الدينية نظرًا لأن رعاة الفن من ملوك أسبانيا كانوا من الكاثوليك المتعصبين، ولذلك فإذا كان الفن الأسباني في عصر النهضة قليل الأهمية بالنسبة للمستويات الأوروبية، إلا أنه كان متميز الشخصية.

الفصل الثالث

حركة الكشوف الجغرافية

حركة الكشوف الجغرافية

كان من أهم مميزات تاريخ أوروبا الحديث حركة الكشوف وما تلاها من حركات استعمارية واسعة النطاق؛ فحركة الكشوف الجغرافية ظهرت مبكرة منذ بداية القرن الخامس عشر، واستمرت خلال ذلك القرن ولم تظهر نتائجها الحاسمة إلا فى نهاية وبداية القرن الذى يليه، وتلتها كذلك حركة استعمارية واسعة النطاق تميزت بها قلة من الدول الأوروبية، ثم لم تلبث أن انضمت إليها دول أخرى محاولة أن تحقق نصيبها من هذا الكسب المادي العظيم، وترتبت على ذلك حروب بين هذه الدول، لم تقتصر ميدانها على بقاع ومواطن هذه المستعمرات وإنما عداها إلى الأراضى الأوروبية نفسها.

وكان لظهور نزعة الكشف الجغرافي والاستعمار واشتدادها فى العصر الحديث بين الدول الأوروبية أسباب متعددة:-

١- نمو الروح القومية:

من أقوى الأسباب فى بعض دول أوروبا الغربية فى مطلع العصر الحديث، وما اقتضاه ذلك من اشتداد رغبة هذه الدول فى السيطرة على بقاع جديدة ترى فى شعوبها من الضعف والتخلف ما يعينها على تحقيق ما تريد، ولم تلبث هذه الدول أن وجدت فى العالم الجديد وعلى سواحل أفريقيا وجنوبى آسيا مجالاً واسعاً لتحقيق هذه الأطماع. وعلى صدى المحاولات التى قامت بها فى هذا المجال إيذاناً للحرب فاندلعت نيرانها فى أنحاء أوروبا وغيرها ثم انتهت إلى قيام الامبراطوريات الاستعمارية. وكان أعظم تلك الدول وأنشطها فى هذا الميدان أسبانيا والبرتغال وهولندا وفرنسا وإنجلترا، وهى دول كانت تحركها النزعة القومية، وكان لكل منها ظروف خاصة مهدت لتحقيق وحدتها القومية فى نهاية القرن الخامس عشر وخلال أيام القرن السادس عشر. وإذا كانت ألمانيا وإيطاليا لم تظهرا على مسرح تلك الحوادث، يرجع ذلك إلى أنهما لم تكونا قد استكملتا وحدتهما القوميتين. فلما تم ذلك فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ظهر اهتمامهما بالاستعمار واضحًا

وجليا، فأما النمسا التى لم تحركها النزعة القومية فقد تخلفت عن موكب الظهور فى هذا الميدان البغيض؛ ومن ثم لم يكن لها فى اسلاب الاستعمار نصيب

ومن هنا نجد أن الدول التى حققت وحدتها القومية حديثا اشتدت رغبتها الملحة في التوسع لنشر نفوذها ومبادئها حتى باتت تؤمن بأن بقاءها رهين ببقاء مستعمراتها أيا كانت مظاهر الأستعمار فيها، ولا أدل على ذلك مما جاء فى أقوال اللورد "كرزون" Curzon أحد مشاهير الساسة الإنجليز بشأن الهند حيث قال:

"هى محور عظمتنا ومقياس نجاحنا أو اخفاقنا، ولئن فقدنا الهند فليكونن هذا بغروب شمس حياتنا"

أما عن فرنسا فيقول أحد الكتاب الفرنسيين:-

"إن فرنسا لابد لها من امبراطورية أفريقية عظيمة، وإلا غدت دولة أوروبية من الدرجة الثالثة، وغدا شأنها فى ذلك شأن اليونان ورومانيا"

وكما تقول زينب عصمت راشد تلك أقوال معناها فى رأى الإنسانية الصادقة الرشيدة ضرب من الوهم السخيف إذ لا ينبغى لدولة عاقلة تؤمن بكيانها الإنسانى أن تعتمد فى بقائها وتثبيت عظمتها على المستعمرات، وإنما العظمة فى حكم العقل الرشيد تتمثل فى جهود كل دولة فى سبيل استقلال مواردها الخاصة، وفى المشاركة فى تحقيق السلام والخير للإنسانية كافة. وقد كانت ألمانيا القيصرية قبل محنتها فى أعقاب الحرب العالمية الأولى من أعظم الدول فى العالم وأقواها؛ ومع ذلك لم يكن لها من المستعمرات كما كان لغيرها من دول أوروبا. وكذلك كانت الحال بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية ثم فى إيطاليا وخاصة قبل ظهور روح الجشع والأوهام الباطلة التى بثها فيها موسولينى بغروره المسرحى، إذ كانت من المستعمرات نصيب موفور ، وليس لها مع ذلك فى ميزان القوى كفة راجحة ومن ذلك هولندا وبلجيكا والبرتغال.

٢- العامل الاقتصادى أو الكسب المادى:

كانت الطرق الرئيسية التى تسلكها المتاجر الشرقية إلى أوروبا فى العصور الوسطى، وأهمها طريق آسيا البرى من الصين شرقا إلى شبه جزيرة القرم والبحر الأسود والقسطنطينية غربًا، ثم طريق الخليج العربى والبحر الأحمر إلى موانىء الشام ومصر. وكانت سفن جنوا تجلب المتاجر الشرقية من شبه جزيرة القرم، حيث وجدت مراكز الجنويين التجارية. أما البندقية، التى حبتها الطبيعة بوضع جغرافى جعلها الطريق بين الشرق والغرب، فقد استطاعت بفضل تحالفها مع سلاطين المماليك – وكانوا يجمعون مصر والشام فى وحدة سياسية – أن تحتكر من المتاجر الشرقية معظم السلع الواردة عن طريق البحر الأحمر للتجارة بها فى أوروبا، مما مكنها من أن تجنى أرباحًا خيالية. وفى الوقت نفسه استطاع حكام الدول الشرقية التى تمر التجارة الشرقية بأراضيهم – وخاصة سلاطين المماليك فى مصر – أن يجنوا أرباحًا طائلة من الضرائب الجمركية الباهظة التى يفرضونها على مختلف أصناف التوابل قبل أن تصل إلى أيدى التجار الأوروبيين من البنادقة وغيرهم. ولذا أضحى التخلص من دفع هذه الضرائب الباهظة التى ملأت جيوب أولئك الوسطاء الشرقيين هدفًا اقتصاديًا لابد من تحقيقه عاجلًا أو آجلًا، بفتح طريق من طرق الاتصال المباشر مع بلاد الشرق.

ومنذ بداية القرن الثالث عشر لقيت جمهورية البندقية منافسة شديدة من جمهورية جنوا فى ميدان المتاجر الشرقية. ولم يكن ثمة سبيل إلى فك احتكار البندقية للسلع الشرقية إلا بوسيلة من وسيلتين: إما هدم قوتها بحرب تشنها عليها جنوا فى إيطاليا، وإما هدم ثروتها بسد منابع هذه الثروة قبل أن تصل إليها. وجربت جنوا وسيلتها الأولى، فدخلت مع البندقية فى صراع حربى بالغ العنف، استطال سنين عديدة، وانتهى بهزيمة جنوا وإبرام صلح تورنتو عام ١٣٨١. وفى غضون هذا الصراع الحربى لجأت جنوة إلى تجربة وسيلتها الثانية، فعكفت على دراسة الطرق والمسالك

الكفيلة بتحقيقها وقدرت أن باستطاعت أية سفينة تطوف حول أفريقية أن تأتى بالتوابل من وراء البحار إلى أوروبا، دون حاجة إلى استئذان العرب أو المماليك أو التعرض لضرائبهم الجمركية الباهظة.

والواقع أن الجنويين كانوا أول من حاول تنفيذ الفكرة، ففى عام ١٢٩١ أبحر الأخوان الجنويان أوجولينو ugolino وفادينو فيفالدو Vadino Vivaldo سرًا فى سفينتين كبيرتين للبحث عن الطريق البحرى إلى الهند، إلا أنهما غرقا بسفينتها فى قبالة ساحل مراكش، وليس من المعروف ما إذا كان الأخوان فيفالدو قد خططا للوصول إلى الهند عن طريق الالتفاف حول أفريقية أو بالإبحار غربا عبر المحيط الأطلنطى. وجاء القرن الرابع عشر وانتهى دون أن يحاول أحد تكرار مغامرة الأخوين فيفالدو، ولو أن جنويًا آخر يدعى لانزارتوتى مالوتشالو Lanzarote Mallocello قد اكتشف عام ١٣١٢ تقريبا جزر كناريا وأسس بها مستعمر استمرت قائمة لعدة سنوات، وفى تلك الأثناء تعلم البرتغاليون من الجنويين فنون البحار وبناء السفن الكبيرة نوعًا والسير بها فى البحار والمحيطات.

ولم يلبث أن وجد عامل كان له أثره فى تشجيع الأوروبيين على محاولة إيجاد طريق بحرى مباشر بالشرق، ذلك أن الأتراك العثمانيين كانوا بفضل الامبراطورية الكبيرة التى بدأوا ينشئونها وسقوط القسطنطينية فى أيديهم عام ١٤٥٣، قد عطلوا أو أعاقوا تجارة أوروبا الغربية مع آسيا عبر الطرق البرية التى كانت تسير فيها هذه التجارة من أيام ماركو بولو، ولو أنهم لم يغفلوا بصفة دائمة طرق التجارة الرئيسية بين الشرق والغرب وكان تعطيل أو إعاقة التجارة من الحوافز التى جعلت أوروبا الغربية تبحث عن طريق للتجارة مع آسيا.

٣- العوامل الدينية ونشر حضارة الدول المستعمرة

أما العوامل الدينية فكانت قوة دافعة لا ريب فيها ووراء حركة البعوث الكشفية. كانت البرتغال وأسبانيا أسبق الدول فى إيفاد هذه البعوث. وكانت الناحية الدينية تلعب دورًا كبيرًا فى تخطيط سياسة هاتين الدولتين، وكانت تكمن فى هذه

الناحية الدينية روح صليبية جارفة. فالكشوف الجغرافية يجب أن تكون من أهدافها - في نظر البرتغال - تحويل المسلمين في غرب أفريقيا وفي غيرها من المناطق الآهلة بهم إلى المسيحية الكاثوليكية. والكشوف الجغرافية فيما وراء البحار يجب أن يكون من مراميها - في نظر أسبانيا - نشر الديانة المسيحية وفق المذهب الكاثوليكي بين السكان الأصليين والوثنيين في تلك الأصقاع البعيدة. بل إن هذه الروح الصليبية استهدفت أيضًا تحويل الحبشة إلى المذهب الكاثوليكي وفصلها عن الكنيسة القبطية الأرثوذكسية في مصر.

من أهم الأسباب التي جعلت الناحية الدينية المسرفة في تعصبها تلعب دورًا طاغيًا في سياسة البرتغال وأسبانيا أن الروح الصليبية قد تسلطت على سكان هذين الإقليمين في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. أخذوا يضيقون الخناق على القوى الإسلامية في الأندلس، وكانت هذه القوى تزداد وهنًا على وهن في الوقت الذي أخذت فيه الإمارات المسيحية تأخذ بأسباب القوة والوحدة. وكان قد تم في سنة ١٤٦٩ زواج فرديناند حاكم أرجونة من إيزابيلا حاكمة قشتالة. وكان هذا الزواج بمثابة مولد دولة أسبانيا المتحدة في التاريخ الحديث. وسرعان ما أمعن هذان العاملان في أسبانيا سياسة الاضطهاد الديني واستئصال شأفة كل فرد لا يدين بالمذهب الكاثوليكي، وكانت أول الأعمال التي قام بها الاستيلاء على غرناطة وهي آخر معقل المسلمين في شبه جزيرة أيبريا. ويلاحظ أن سقوط غرناطة وطرد اليهود من أسبانيا وتعاقد ملكي أسبانيا مع كرستوف كولمبوس على القيام برحلته الكشفية الجغرافية الأولى كل هذه الأحداث التاريخية البارزة وقعت كلها في سنة واحدة هي ١٤٩٢، ولما تم إجلاء المسلمين عن الأندلس ازداد مسيحيو شبه جزيرة ايبريا تحمسًا وشراهة في مطاردة المسلمين خارجها، وانتقل نشاطهم إلى شمال أفريقيا وغربيها يتعقبون المسلمين، وراودتهم الآمال في إمكان محاصرة الإسلام عن طريق البحر وطعنه من الخلف وسحقه في آسيا وأفريقية، ولذلك فإن الشعور الذي

احتوى مسيحى شبه جزيرة أيبيريا بوجوب محاربة الإسلام كان شعورًا امتزجت فيه الروح الصليبية المتأججة العنيفة بالعاطفة الوطنية.

وظفرت الكشوف الجغرافية بأعظم اهتمام من البابوية، واصدر عدد من البابوات مراسيم متلاحقة يخولون بها ملوك البرتغال وأسبانيا الحق فى ملكية كل إقليم جديد أو كل بحر جديد يتم اكتشافه فى الحاضر والمستقبل وتورط بعض البابوات فى هذه المراسيم فوصفوا الإسلام بأنه طاعون The Plague of Islam وطالبوا ببذل الجهود لتنصير سكان المناطق التى كشف أو سوف تكتشف والحيلولة بينهم وبين "أصابتهم بطاعون الإسلام" وفى نفس الوقت بذلت البابوية نفوذها الأدبى لإغراء البحارة على الانخراط فى سلك البعوث الكشفية حين كان الأقبال على العمل فى سفن الكشوف الجغرافية فاترًا. وكان البابوات يعدون المشتركين فى تلك الرحلات بالعفو عند الحساب فى اليوم الآخر بالفوز بالجنة والنجاة من النار. وصدرت الأوامر برسم الصلبان على أشرعة السفن. وكان دعاة المسيحية من رجال الطوائف الدينية يرافقون الرحلات الاستكشافية للقيام بمهمة نشر المسيحية وفق المذهب الكاثوليكى فى العالم الجديد.

وجاء البابا نيقولا الخامس [١٤٤٧ - ١٤٥٥] فأدلى دلوه فى مجال الآمال الصليبية واستغرق هذا البابا فى خيال خصب. فوضع خطة تنفذ مع الكشوف الجغرافية لضرب المسلمين ضربة أخيرة والقضاء على الإسلام قضاء مبرماً، وأرسل فى سنة ١٤٥٤ إلى ملك البرتغال مرسومًا بابويًا تضمن ما يعرف باسم "خطة الهند" تقوم على إعداد حملة صليبية نهائية تشنها أوروبا الكاثوليكية للقضاء نهائيا على الإسلام بعد أن تحقق كشوف البرتغاليين أهدافها ويتصل البرتغاليون بالملوك المسيحيين سواء فى أفريقيا أو فى آسيا كى يسهم هؤلاء الملوك فى تمويل الحملة الصليبية بالأموال والرجال والعتاد ويتم تطويق البلاد الإسلامية.

وسيطرت على الأوروبيين فى عصر النهضة رغبة قوية لزيادة معلوماتهم الجغرافية، وكان مرد هذه الرغبة إلى ظهور البحث العلمى والتنقيب والكشوف

وتقدم علم الفلك والاهتداء إلى آلات لا غنى عنها للقيام برحلات بحرية طويلة، فقد عرف الأوروبيون الاسطرلاب والبوصلة أو الإبرة المغناطيسية والدفة المتحركة لعبور البحار مما شجع الملاحين على توسيع نطاق الملاحة، وبناء سفن كبيرة وقوية.

٤- العثور على أوطان جديدة

ورابع أهداف الاستعمار العثور على أوطان جديدة لمن ضاقت بهم بلاد المستعمرين، ولم يتضح ذلك الهدف قبل القرن التاسع عشر، بل كان هناك راشدون من الساسة البريطانيين فى مطلع حركة الاستعمار؛ يرون فى ذلك خطرًا على مصلحة الوطن. يتمثل فى حرمانه من جهود المهاجرين من أبناء الأكفاء.

هذا الأسلوب من أساليب الاستعمار كله شر إذ معناه الاغتصاب والسطو على بلاد آمنة مطمئنة. آهلة بالسكان، الذين نشأوا فيها وعمروها بعد أسلافهم، يحتلها المستعمرون لينزلوا بها من يدعون أنهم زادوا حتى ضاقت بهم أوطانهم، ومعنى ذلك أنهم يجيئون بهم ليشاركوا المواطنين فى أرزاقهم بعد أن كانت خالصة لهم من دون الناس. ولا يلبث هؤلاء النزلاء حتى يندسوا فى كيان هذه الشعوب، يمتصون دماءهم ويحرمونهم نعمة الحياة. وقد كانت إيطاليا الفاشية تستند إلى هذا اللون من ألوان الأستعمار، فالمناطق الأفريقية فى نظر الإيطاليين لم تكن غير مجال يتسع للجاليات الإيطالية؛ وذلك صدى لنغمة رومانية ألفها التاريخ منذ القدم، فالإيطاليون هم سلالة الرومان الذين أنشئوا الأمبراطورية الرومانية، وجعلوا من رحاب الدنيا مجالا لأهلها ومن محاصيلها موارد لأرزاقهم، ومن بحارها مرافق لحياتهم، وحسبهم أن يكون البحر المتوسط فى رأيهم حتى أيام موسولينى بحيرة رومانية.

وأن المطالبة بمستعمرات لإيواء من ضاقت بهم أوطانهم لم تكن فى أى وقت من الأوقات سوى ضرب من الزيف السياسى وذريعة لتحقيق المطامع المادية

ويضاف إلى كل ذلك عوامل أخرى مثل غريزة حب الاستطلاع ورغبة بعض الناس فى أن يحيوا حياة مفعمة بالحوادث والمغامرات ويتسع فيها المجال

للمغامرين في القرن السادس عشر خصوصا مثل الأسبان والملاحين الإنجليز في عهد الملكة إليزابيث الأولى، ثم رغبة البعض الآخر في الهجرة إلى بلدان مأمونة وأماكن جديدة يستطيعون فيها ممارسة شعائرهم الدينية وذلك عندما اشتد الاضطهاد الديني في أوروبا نتيجة لانتشار حركة الإصلاح الديني وانتعاش الكنيسة الكاثوليكية بها، وما ترتب على ذلك من حروب مهلكة واضطهادات عنيفة، كما حدث عندما اضطر البيورتان الإنجليز إلى الهجرة من إنجلترا والهجونت من فرنسا والهولنديون كذلك.

ومع هذا فإنه ما كان يتسنى في آخر الأمر المغامرة والقيام أصلاً برحلات الكشف الجغرافي من غير أن يكون قد حدث ذلك التغيير الكبير الذى طرأ على أفكار الناس عمومًا نتيجة لتنبه الذهن البشرى في عصر النهضة، كما كان لتقدم المعلومات الجغرافية وارتقاء فن الملاحة مع تقدم صناعة بناء السفن واستخدام البوصلة البحرية وآلة الاسطرلاب أكبر الأثر في تشجيع المغامرين على القيام بهذه الرحلات البعيدة. أضف إلى هذا أن استخدام البارود سرعان ما جعله ممكنا القضاء على مقاومة الأهالي والسكان الأصليين في البلدان التي قصدها هؤلاء المغامرين، على نحو ما يشاهد في تاريخ الاستعمار البرتغالي في بداية العصور الحديثة.

الكشوف الجغرافية البرتغالية :

يعود فضل اهتمام البرتغال بالكشوف الجغرافية إلى الأمير هنرى الملاح [١٣٩٤ - ١٤١٠] ابن الملك حان الأول الذى كان يرغب في السيطرة على شواطئ المغرب المطلة على المحيط الأطلسي بغية الوصول إلى غانا والاستيلاء عليها بدافع الحماس الديني من جهة والكسب المادى من جهة ثانية. ولتحقيق هذه الرغبة التي تبنتها البابوية أصدر البابا نقولا الخامس [١٤٤٧ - ١٤٥٥] مرسومًا بعث به إلى هنرى يشجعه على المعنى في عمله ويمنحه الحق في السيطرة على جميع البلاد التي تخضع للمسلمين."

"أن سرورنا العظيم أن نعلم أن ولدنا العزيز هنرى أمير البرتغال قد سار فى خطى أبيه، الملك جون، بوصفه جنديا قديرًا، من جنود المسيح ليقضى على أعداء الله وأعداء المسيح من المسلمين والكفرة".

بدأ هنرى عمله فى تأسيس أكاديمية بحرية ومرصدًا؛ وجمع لديه مجموعة كبيرة من العلماء الجغرافيين والخرائط التى كانت موضوعه حتى مصره. وفعلا بدأت تباشير النجاح عندما كشف البرتغاليون جزائر ماديرا وجزر آزور ومصب نهر السنغال ثم الرأس الأخضر حيث وصلوا إلى غانا. وقد سجل كشف غانا حدثًا مهمًا فى التاريخ الحديث، حيث بدأت منها تجارة الرقيق التى حققت أرباحًا طائلة على المشتغلين بها. وازداد الإقبال على هذه التجارة بعد حركة الكشوف الأميريكية حتى أدت إلى قيام مجتمع غير متجانس فى الولايات المتحدة الأمريكية ووضعت قضية الملونيين التى ما زالت حتى يومنا من المشاكل الإجتماعية التى يصعب حلها.

بعد الكشف البحرى إلى غانا، ازداد تطلع البرتغاليين إلى اكتشاف طريق يؤدى إلى الهند. فنجحوا فى عبور خط الاستواء سنة ١٤٧١. وتوصلوا بعدها إلى كشف مصب نهر الكونغو. وهكذا احتكر البرتغاليون طريق الملاحة البحرية على طول الشاطئ الأفريقى إلى غينيا.

وواصلت البرتغال سياستها الكشفية والاستعمارية تحت حكم جون الثانى الذى كان يرمى إلى إيجاد مملكة مسيحية فى غرب أفريقيا ليتخذها قاعدة يتوغل منها خلال القارة إلى الهند فوصلت سفن فرناندو جومز فى سنة ١٤٧٥ إلى ساحل غانا، بل وعبرت خط الاستواء. وكان قد حصل على امتياز من الملك يبيح له احتكار التجارة فى هذه الأنحاء، كما وصل الكابتن ديوجوكاو Diogo Cao أحد كبار الملاحين البرتغال إلى مصب الكونغو. ولم تكن تمضى أربع سنوات على ذلك حتى وصل برتلمودياز إلى أقصى جنوب القارة وأطلق عليه رأس العواصف فما كان سببًا فى بطء حركة الكشف إلى حين.

إلا أن فاسكودى جاما لم يلبث أن عاود الرحلة فوصل إلى نهاية القارة فى سنة ١٤٩٨، وأطلق عليها اسم رأس الرجاء الصالح. ودار حول القارة حتى وصل إلى الساحل الشرقى. وكان الملك جون الثانى يهدف من وراء ذلك تشجيع هذه الاستكشافات إلى هدفين هما العثور على القس حنا، واكتشاف التوابل التى يبيعها الإيطاليون إلى الأسواق الأوروبية. وكان الفلفل يسترعى اهتمام الملك بنوع خاص ويسعى لإيجاد سوق رائجة للفلفل الذى حمله إليه رجاله من ساحل غانا، والذى أرسلت منه إلى بروج Bruges وغيرها من مراكز التجارة الرئيسية، ولكنه تبين أن ثمنها أقل من ثمن الفلفل الهندى، فما زال حتى عرف السر فى ذلك، وأصر على ضرورة الوصول إلى الهند من أجل الحصول على هذه الأنواع الممتازة التى يجبى منها التجار الإيطاليون أرباحًا تفوق حد الخيال. لاسيما وقد حصل من البابا على إذن يهب له جميع ما يكتشفه من الأرض ويحرمه على غير رعاياه، كما أرسل إلى زميله الملك ادوارد الرابع ملك انجلترا ينبئه بما حصل عليه ويطلب منه إذاعة هذا النبأ على رعاياه كى يحرم عليهم الإتجاه إلى مياه غانا بسفنهم، واستجاب الملك ادوارد لهذه المطالب.

ولم يطق الملك جون صبر حتى يصل رجاله إلى أرض القس حنا، وأصر على أن يرسل إليها بعض رجاله. ووقع اختياره على الفونسودى بايفا وبدور ذى كوفلهام وزودهما بالأوراق اللازمة كى يبرزاها إلى كل ملك مسيحى رجاء معاونتهما فى رحلتهما، كما زودهما بالماس اللازم لافتداء نفسهما لو وقعا فى أسر أحد الملوك المسلمين. وبعد رحلة طويلة طاف فيل كوفلهام بآسيا وجزيرة العرب وصل إلى أثيوبيا سنة ١٤٩٠ حيث سر الإمبراطور برؤيته وعرض عليه المناصب الكبيرة ترغيبًا له فى البقاء حتى إذا رفضها وأصر على العودة رفض الإمبراطور أن يمنحه إذنًا بالخروج.

ورسا فاسكودى جاما بأسطوله عند مصب نهر أطلق عليه اسم نهر الرحمة "لأنهم وجدوا حاجتهم من لحوم وفاكهة كانت انجح علاج لمن استبد به المرض من رجاله. وقضى فيه عشرين يومًا أبحر بعدها وفى الطريق أسروا هنديًا اسمه دافان

كان يعمل في تجارة التوابل فكان لهم خير معين للوصول إلى ثغرموزمبيق في مارس ١٤٩٨ حيث وجد أربع سفن موسوقة بالتوابل والفضة والحرير قادمة من الهند. ولكنهم عجبوا حين شاهدوا سكان هذه المدن على غير ما ألفوا في شواطئ أفريقيا الغربية حيث السكان عراة الأجسام ولكنهم هنا يرتدون الملابس القطنية الملونة ويرتدى بعضهم الحرير وقد تدلت سيوفهم وخناجرهم من أحزمتهم العريضة، كما كان بالمدينة أيضًا بعض الأثيوبيين الذين خروا على وجوهم ساجدين حين شاهدوا الصليب مرسومًا على أشرعة السفينة فاغتبط دى جاما برؤيتهم وحادثهم وعرف منهم أن بلادهم قريبة والوصول إليها سهل.

على أية حال عندما وصل فاسكودى جاما إلى موزمبيق تعرّف هناك ببعض الملاحن العرب، وأخذ منهم مرشدًا بصيرًا بأمور الملاحة وطرقها وأسرارها اسمه [أحمد بن ماجد] وساعده ابن ماجد على الوصول إلى الساحل الغربى للهند، وهناك استطاع الاتصال بالأمراء الهنود وعقد معهم الاتفاقات التجارية، ثم عاد إلى بلاده سنة ١٤٩٩ وسفنه مشحونة بالتوابل والمنتجات الشرقية، وبذلك تحقق للبرتغال كشف طريق بحرى مباشر إلى الهند.

وكان هكذا الكشف أكبر ضربة اقتصادية وجهت للعالم الإسلامى وخصوصا في مصر، إذ انتقل المركز التجارى العالمى من حوض البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسى، وكان لهذا الانتقال أسوأ الأثر في تجارة الدول التى تمس سواحلها حوض البحر المتوسط كالبندقية ومصر. وكانت مصر المملوكية قد بلغت في العصور الوسطى انتهاء ببداية القرن السادس عشر درجة عظيمة من الثراء وكانت خزائن حكامها تفيض بالأموال الخاصة بالتجار الإيطاليين من البندقية وجنوة الذين كانوا ينقلون متاجرهم من الشرق إلى أوروبا عن طريقين تتحكم فيها مصر المملوكية: طريق الفرات وحلب واسكندرونه ومنها إلى أوروبا. وطريق البحر الأحمر والسويس ومنها بطريق القوافل إلى القاهرة، ثم على السفن في فرع رشيد إلى قرب الرحمانية

على النيل، ومنها إلى الإسكندرية وبعد ذلك تنقل إلى الموانئ الإيطالية في طريقها إلى الدول الأوروبية المختلفة.[1]

وهكذا انتهى العهد الذي در على العرب ثروات كبيرة أيام أن كانوا وسطاء ملاحة وتجارة بين الهند والصين من ناحية، وأوروبا من ناحية أخرى، وحتى نهاية القرن الخامس عشر، كانت السفن العربية تمخر عباب المحيط الهندي، وتشاهد دائما في موانئه، انتهى كل ذلك ليحل البرتغاليون محلهم في احتكار التجارة الشرقية ويطردونهم من البحار الشرقية، بعد الاستيلاء على مراكز حصينة كبعض الموانئ والجزر التي يستطيعون منها إغلاق البحر الأحمر، والخليج العربي في وجه الملاحة العربية. أما في الهند نفسها فقد عمد البرتغاليون إلى امتلاك أجزاء من الساحل، ووضعوا فيها بعض قواتهم البحرية والبرية، ليخضعوا أمراء المسلمين في الهند، ويجبروهم على توقيع معاهدات تلزمهم بقصر التجارة على البرتغاليين.

واستصرخ الأمراء وسلاطين الهند المسلمون حكام البلاد العربية الإسلامية ليمدوا لهم يد المساعدة في تلك الحرب المقدسة، ووجد استصراخهم صدى لدى سلطان مصر المملوكي، الذي أعد أسطولا ضخما لمنازلة البرتغاليين في أعالي البحار الشرقية، وقد استطاع الأسطول المملوكي أن يحقق انتصارا أولا في شهور سنة ١٥٠٨، ولكن تمكن الأسطول البرتغالي بقيادة الميدا من أن يهزم الأسطول المملوكي في معركة ديو البحرية عام ١٥٠٩.

وواصل البرتغاليون تدعيم تفوقهم البحري وسيطرتهم التجارية في البحار الشرقية والمضي في تنفيذ سياستهم التوسعية، فكلفوا أحد كبار قوادهم البحريين وهو الفونسو البوكيرك d'llburerque [١٤٥٣ - ١٥١٥] فرسم خطته في ضرورة السيطرة على بحار الهند باحتلال المنافذ البحرية الموصلة إليها أي احتلال مدخل البحر الأحمر من جهة ومدخل الخليج العربي من جهة أخرى. فاستولى على مسقط مفتاح باب المندب في أغسطس سنة ١٥٠٩ ثم سلمت إليه هرمز في الخليج العربي،

فاستطاع البرتغال بفضل هذا الانتصار السيطرة على تجارة الهند عن طريق الخليج العربي إلى فارس والعراق وحلب وبيروت، ثم استولى ألبوكيرك على جوا في نوفمبر سنة ١٥١٠ على ساحل الملبار، وقد جعلها البرتغاليون من ذلك الحين المركز الرئيسي لممتلكاتهم الآسيوية. وفي عام ١٥١١ استولى ألبوكيرك على ملقا ثم حاول السيطرة على عدن في البحر الأحمر ولكنه أخفق في عام ١٥١٣ وفي عام ١٥١٥ تم له إخضاع هرمز نهائيا.

وتعتبر هذه الفترة التى تميزت بنشاط البوكيرك بداية تكوين الإمبراطورية البرتغالية، وحاول خلفاؤه صيانة المراكز التى أوجدها ألبوكيرك والمحافظة عليها، ثم السير على سياسته ومتابعة أعماله واستطاع البرتغاليون أن يحتفظوا بممتلكاتهم في ديو وغيرها. بيد أن الضعف سرعان ما أخذ يدب في جثمان هذه الإمبراطورية ابتداء من منتصف القرن السادس عشر تقريبًا لأسباب منها النزاع بين البرتغال ودولة المماليك والدولة العثمانية، ثم انتشار النفوذ الأسباني في البرتغال نفسها التى كانت قد ضعفت حتى استطاع ملك أسبانيا فيليب الثاني أن يستولى على عرشها بعد وفاة ملكها هنرى في سنة ١٥٧٠ بسبب ادعاءات وراثية ناشئة من الزيجات المتعددة بين الأسرتين البرتغالية والأسبانية. ولما كان فيليب لا يعنى بأمر هذه الإمبراطورية وتركها وشأنها فقد بدأ الهولنديون منذ ذلك الحين يهاجمون مراكز البرتغال ويحلون محلهم في الشرق، ولم تستطع الإمبراطورية الدفاع عن نفسها لأنها كانت ضعيفة. وأما أسباب ضعف هذه الإمبراطورية فمرجعها إلى نظام الاستعمار البرتغالي نفسه.

نظام الاستعمار البرتغالي:

أراد البرتغاليون من مجهوداتهم الحصول على تجارة التوابل واحتكار هذه التجارة ولذلك اصطدموا مع العرب الذين استأثروا بها، وزادت الاختلافات الدينية بين الفريقين من حدة هذا الاصطدام وكان البرتغاليون يريدون توطيد نفوذهم على ساحل الملبار مركز تجارة التوابل والسيطرة على الملاحة في البحار الهندية، وإغلاق

أبواب أو منافذ هذه البحار دون منافسيهم المسلمين والعرب خاصة كما يتضح ذلك كله من نشاط فاسكودا جاما، والميدا والبوكيرك وغيرهم.

ولما كان غرض البرتغال الاستحواذ على تجارة التوابل واحتكارها، فقد قصروا جهودهم على إنشاء المحطات المسلحة التى تستطيع أن تمون أساطيلهم بما يلزمها من المؤن، وأن تكون بمثابة قواعد ثابتة لمراقبة منافذ البحار الهندية وحراستها، وهذا إلى جانب اتخاذها مراكز مهمة لتجارة التوابل، ولذلك فإن وصف هذه المراكز بالإمبراطورية مع ما يستلزمه إنشاء الإمبراطورية من وجود تنظيم وتوطن واستقرار وغير ذلك أمر لا يصور الحال على حقيقته.

فأقام البرتغاليون فى الشرق جملة محطات. كانت مراكز استعمارهم فى ساحل الملبار حيث أبقوا بها أكثرية الحكام الوطنيين حصلوا منهم الجزية ثم منعوهم من التجارة، وأقاموا الحصون والقلاع لدعم سيطرتهم البرتغالية، وكذلك انشأوا المحطات المسلحة فى سوقطرة ومسقط وعدن وهرمز وملقا - وهذه كانت جميعها محطات رئيسية لوقوعها على منافذ البحار ومسالكها. وأما فى الجهات التى لم يخشى فيها البرتغاليون المنافسة الشديدة من جانب العرب، فقد اكتفوا بإنشاء المحطات البسيطة فى جزر الملقوس وفى بحار الصين[١] .

وأقام البرتغاليون فى هذه الممتلكات نظامًا من الحكم كان فى النهاية أحد أسباب انحلال إمبراطوريتهم. ذلك أنهم جمعوا السلطة فى شخص نائب الملك، الحاكم المقيم فى جوا والذى تمتع بسلطة مطلقة، ولم يكن مسئولا عن حكومته إلا أمام ملك البرتغال نفسه. ولما كانت مدة حكمه فى العادة قصيرة لا تتجاوز الثلاثة أعوام فقط، فقد اشتد نواب الملك فى معاملة الأهالى وابتزاز الأموال منهم لملء جيوبهم. وللإنفاق منها على شئون الإدارة التى صارت لاتساعها المستمر فى حاجة متزايدة للمال. فساءت الأحوال، وكان من أسباب زيادة سوءها تشدد البرتغاليين فى احتكار التجارة، فاحتكر الملك تجارة الهند، ثم أعطيت حقوق التجارة إلى

الحكام والضباط البرتغاليين، فصار هؤلاء يقسون في معاملة الأهالي. وعندما صحب هذا كله رغبة البرتغاليين، في نشر المسيحية بين أمم نشأت بينها ديانات قديمة وكانت لها عقائد ثابتة، زاد طغيان البرتغاليين وتحمل الأهالي صنوف الإرهاق والعسف، وتطرف البرتغاليين في أعمال لاضطهاد والتعذيب عندما أدخلوا في جوا محاكم التفتيش فتي سنة ١٥٦٠.

ولكن البرتغاليين أستطاعوا أن يؤسسوا في أفريقيا مستعمرات حقيقية في جزر ماديرا، آزور، وفي الرأس الأخضر، هذا إلى جانب المراكز التي تم إنشاءها على الشاطئ الأفريقي، وكانت هذه منيعة وقوية. وكذلك أسس البرتغاليون مستعمرة حقيقية كبيرة في البرازيل، وعينوا لها حكامًا أدخلوا بها زراعة قصب السكر، وتربية الماشية، وأنشأوا المعامل لصناعة السكر، كما أسسوا المدن الجديدة. وكان لتدفق رؤوس الأموال على هذه البلاد أكبر الأثر في نشاط الزراعة بها خصوصًا في أواسط القرن السادس عشر. ثم أمكن إتمام تنظيم إدارة هذه المستعمرة في نفس الوقت تقريبًا على أساس تركيز السلطة في شخص حاكم عام [١٥٤٩]. وكذلك اهتم البرتغاليون بنشر المسيحية في هذه المستعمرة فقصدها الجزويت الذين وجدوا في البرازيل مجالا واسعا لنشر التعاليم المسيحية وتأسيس المعاهد الدينية والعلمية وساعدوا بجهودهم العلمية والتبشيرية على استقرار النظام بالمستعمرة الجديدة.

غير أن انتقال مملكة البرتغال إلى التاج الأسباني في عام ١٥٨٠ – أيام فيليب الثاني ملك أسبانيا – لم يلبث أن أفقد البرازيل أهميتها، لأن الأسبان أهملوا شأنها واعتبروها في مرتبة ثانوية بالنسبة لممتلكاتهم الأخرى الغنية بالمعادن النفيسة واستمر الأمر كذلك مدة خضوع البرتغال لأسبانيا أي إلى منتصف القرن السابع عشر تقريبًا [١٦٤٠].

ولكن مما يجدر ذكره أن البرتغال نفسها لم تستفد من امبراطوريتها هذه الفائدة المرجوة. فمع أن لشبونة العاصمة كانت في رخاء وازدهار في القرن السادس عشر لكونها مركز تجارة الهند في المملكة، فإن داخل البلاد كان في تأخر

ظاهر. والسبب في هذا الفلاحين البرتغاليين صاروا يتركون حقولهم للاشتراك في الرحلات والحملات والحروب. فصارت الزراعة مهملة. وكثرت الأرض البور. واضطر البرتغاليون إلى استخدام الرقيق بدرجة كبيرة. وانتشر البؤس في داخل البلاد.

وعلى ذلك كانت عظمة البرتغال الظاهرية تخفي وراءها في الحقيقة بؤسا وتعاسة في داخل البلاد لدرجة يمكن معها إيجاز النتائج التي عادت على البرتغال من استكشافاتها في العبارة الآتية. مجد كبير وربح قليل.

حركة الكشوف الأسبانية

بدأت الكشوف الأسبانية بمهمة خريستوف كولمبس Christopher Columbus [١٤٥١ – ١٥٠٦]، وهو تاجر وملاح إيطالي من جنوا، بدأ حياته بالاشتغال بتجارة الصوف والحرير، وجال لهذا الغرض بموانئ البحر المتوسط، وهو صبي لا يتجاوز عمره الرابعة عشر عامًا. وقد سمع باستكشافات "الشماليين" غرب ايسلنده. وفي عام ١٤٧٦ استقل كولمبس سفينته جنويه إلى لشبونة، ونزل على أخيه برتولومي Bartolome بائع الكتب ورسام الخرائط. ولما كان قد ذاع الاعتقاد بين أكثر الجغرافيين في هذا العصر بأن الأرض كروية، فقد نبتت فكرة أن الإنسان إذا أبحر غربًا من شبه جزيرة أيبيريا عبر المحيط الأطلنطي، فإنه يصل حتما إلى شواطئ آسيا إما إلى الصين أو الهند.

وعاد كولمبس إلى لشبونة عام ١٤٨٢ "وفكرة" الأرض الواقعة صوب الغرب تلح عليه ويحلم بالقيام برحلة استكشافية عبر المحيط الأطلنطي أو البحر المحيط Sea Ocean للعثور على هذه الأرض، وعرض مشروعه على ملك البرتغال يوحنا الثاني كما عرضه عن طريق أخيه برتولومي على هنري السابع ملك إنجلترا وعلى شارل الثامن ملك فرنسا، فلم يظفر منهم بطائل. ويقال إنه عرض مشروعه كذلك على سلطات جنوا ولكن دون جدوى. وإزاء ذلك، قرر أن يجرب حظه مع البلاط الأسباني، ووصل إلى دير لارابيرا ١٤٨٥ La Rabida، حيث وجد تشجيعاً من

رهبانه. وفي عام ١٤٨٧ عرض مشروعه على البلاط الأسباني في قرطبة ولكن ايزابيلا رفضته بلطف متعللة بانشغال التاج بمحاصرة معاقل المسلمين في البلاد. ولم يتطرق اليأس إلى قلب كولمبس، فظل منتظرًا حتى سقطت غرناطة آخر معاقل المسلمين عام ١٤٩٢، فعاود السعي لدى إيزابيلا مستعيناً بجوان بيريز Juan Perez رئيس رهبان دير لارابيدا وكاهن اعتراف الملكة، وتكللت مساعيه بالنجاح، فقبل مشروعه نهائيًا في ٣٠ ابريل ١٤٩٢، بشروطه الخاصة، وهي أن يعين أميرالا وحاكما على الأرض التي يعثر عليها وأن يرخص له باحتكار تجارة "الأراضي الجديد" وأن يكون له نصيب في الثروة التي تكتشف هناك.

وفي ٣ أغسطس ١٤٩٢ خرج كولمبس في رحلته الأولى من ميناء بالوس Palos متجهًا صوب العالم المجهول. وكانت الحملة تتألف من ثلاث سفن رسمت الصلبان على أشرعتها وهي سانتا ماريا Santa Maria ويقودها كولمبس بنفسه، وبنتا Pinta ونينا Nina، ووصلت في ٩ أغسطس إلى جزر كناريا، ثم استأنف إبحارها غربًا، وشاهد البحارة في سبتمبر طائرًا مائيًا شبيهًا بالنورس وآخر من نوع عريف الملاحين، وتملك اليأس والخوف لدى البحارة، ولكن كولمبس هدأ من روعهم. وظهرت لهم الأرض بعد ذلك، فشاهدوا جزيرة يطلق عليها الأهالي اسم جوانا هاني Guanahani وهي إحدى جزر الباهاما Bahamas القريبة من الطرف الجنوبي الشرقي لشبه جزيرة فلوريدا في قارة أمريكا الشمالية. ولكن كولمبس سماها سان سلفادور San Salvador [وتعرف الآن بجزيرة وتلنج Watling] ثم ابحر على طول الشاطئ لشمالي لجزيرة جوانا Juana[كوبا]، وقام قبطان السفينة بنتا باستكشافها. أما كولمبس فقد كشف جزيرة هايتي Haiti أو سان دومنجو Sant Domingo وسماها هسبانيولا Hispaniola وبعد أن انشأ بها حصنا سماه لانفيداد La Navidad وترك بعض رجاله وعاد إلى أسبانيا. وهو يعتقد أنه ضل الطريق للوصول إلى آسيا، إذ ظن أن كوبا هي اليابان. وكان يحمل معه عينات من نباتات الأراضي الجديدة وأخشابها وكمية من الذهب ومجموعة من السكان الوطنيين

الذين سماهم بالهنود. وفي ١٥ مارس ١٤٩٣ استقبلته جماهير الشعب الأسباني في ميناء بالوس استقبال الأبطال.[1]

وكان لنبأ نجاح الأسبان في رحلة كولمبس الكشفية رد فعل قوى في نفوس البرتغاليين لأنهم اعتقدوا أن الأسبان قد وصلوا إلى الهند بالسير إليها غربًا. وكان البرتغاليون جد حريصيين على الاحتفاظ بالأقاليم الجديدة ملكًا خاصًا لهم، فظهر لهم منافس جديد يبغى الاستحواذ عليها،وزاد الموقف حرجًا أن البرتغال كانت قد ظفرت من البابا في روما بمرسوم بابوى يخولها الحق في تملك جميع القارات والجزر التي تكتشفها البرتغال فيما وراء رأس بوجادور. وأقر هذا المرسوم ثلاثة بابوات آخرون، ورأى البرتغاليون عدم جدوى المرسوم البابوى الذى منحهم جميع البلدان الواقعة في طريق الهند من الشرق إذا كان الأسبان قد سبقوهم من الغرب وانتزعوا منهم الهند.وكادت تقع هذه الحرب بينهما لولا أن لجأت الدولتان إلى البابا اسكندر السادس تلتمسان تدخله بينهما لتسوية المسألة سلميًا، واستجاب البابا لطلبهما، وكانت المسألة سلميًا، واستجاب البابا لطلبهما، وكانت أسبانيا والبرتغال أحب الدول المسيحية إلى قلب البابا لأنها أكثر الدول طاعة له، وكانت أسبانيا بوجه خاص تضع مواردها في خدمة المذهب الكاثوليكي. وأصدر البابا قراره سنة ١٤٩٤، بتصور خط تقسيم من القطب إلى القطب يمر في المحيط الأطلسي على مسافة ٣٧٠ فرسخًا [١١٠ ميل] غربي جزائر آزور فكل ما يكتشف شرقي هذا الخط يكون من نصيب البرتغال، وما يكشف غربيه يكون لأسبانيا ومعنى هذا أنه حرم على غير الأسبان والبرتغاليين أن يشتركوا في عمليات الكشف وأخذ نصيب من الكشوف الجديدة، ولكن الدول الأخرى لم تكترث لهذا الحكم ولم تلبث أن نزلت الميدان منافسة للدولتين، مما أفضى في النهاية إلى اشتعال نار الحروب بين المتنافسين واستمرارها عدة قرون.

ومن نتائج هذا القرار كذلك أن أراضي البرازيل وقعت شرقي خط التقسيم فأصبحت من نصيب البرتغال ولما أيقن ملكها ذلك أرسل البعوث تلو البعوث للكشف عنها، وضم كل ما يكشف منها إلى أملاكه وأصبحت من ذلك الوقت تابعة للبرتغال، واستمرت كذلك نحواً من ثلاثة قرون حيث كان يعتبرها البرتغاليون جزءا من أملاكهم.

وفي ١٥ سبتمبر ١٤٩٣ خرج كولمبس من ميناء قادش في رحلته الثانية على رأس أسطول كبير من ١٧ سفينة تقل ١٥٠٠ رجل من الجنود والصناع والفلاحين والقسس والمتطوعين. ولم يكن هدف هذه الرحلة بالقطع فتح طريق تجاري، بل إنشاء مستعمرة في هسبانيولا واستغلال أراضيها الزراعية واستخراج الذهب من مناجمها، ونشر المسيحية، وفي ٣ نوفمبر وصلت الحملة إلى إحدى جزر الأنتيل وسماها كولمبس "دومنيكا" Dominica وسمى جزيرة أخرى ماريجلانتي Marigalante باسم سفينته ونزل إليها وأعلن امتلاكها لها وكذلك الجز المجاورة – باسم العاهلين الأسبانيين. وبعد أن اكتشف عدة جزر من جزر الأنتيل، أبحر إلى هسبانيولا، ووجد أن رجاله الذين تركهم في حصن لانقيداد قد هلكوا وعلم من الأهالي أن إحدى القبائل المجاورة قد قضت عليهم. واختار بقعة جديدة أنزل بها المستوطنين الجدد وسماها "ايزابيلا" ثم ارتاد شاطئ كوبا الجنوبي واكتشف جزيرة جاميكا، ولم يعثر على الذهب بها بكميات كبيرة. وعند عودته إلى مستوطنة "ايزابيلا" وجد أن المستعمرين الأسبان قد انتشرت بينهم الأمراض ودخلوا في عداء صريح مع الوطنيين، فانقلب ضد الأخيرين، وقنص عدداً كبيرا منهم مستعينا برجاله المسلحين وكلابه المتوحشة. وأرغم الأسرى على العمل كرقيق، وشحن بضعة مئات منهم على ظهر السفن الأسبانية وأرسلهم إلى أسبانيا. حيث توفي معظمهم وأطلق سراح البقية وأعيدوا إلى بلادهم بأوامر الملكة. وفي ١١ يونيو ١٤٩٦ عادت الحملة إلى قادش.

وفى ٣٠ مايو ١٤٩٨، خرج كولمبس من ميناء سان لوكار San Lucar فى رحلته الثالثة [١٤٩٨ - ١٥٠٠] وشاهد أثناءها الساحل الشمالى لقارة أمريكا الجنوبية، وأرسل مندوبا من طرفه نزل بهذا الساحل فى ١٠ أغسطس ١٤٩٨، فكان أول رجل أبيض تطأ قدماه أرض أمريكا الجنوبية منذ أيام الشماليين"وفى ربيع عام ١٤٩٩ عين فرنسيسكو دى بوباديلا de Bobadilla حاكمًا على هسبانيولا بدلا من كولمبس وليحقق فى الشكاوى المقدمة ضده، فاعاد الحاكم الجديد كولمبس مكبلا بالأغلال إلى قادش فى أكتوبر ١٥٠٠ ولم يلبس أن قام كولمبس برحلته الرابعة والأخيرة عام ١٥٠٢ - ١٥٠٤] ولم يكن موفقًا فى هذه الحالة كما كان الحال فى رحلته الثالثة.

والواقع أن كولمبس كان قد خسر كثيرا من سمعته الطيبة بسبب وشايات أعدائه وحقد المضاربين من التجار الذين كانوا يحومون حول بلاط برشلونة، والذين بدا لهم أن رحلات كولمبس الباهظة التكاليف لم تحقق آمالهم فى جلب توابل الشرق التى يتطلعون إليها، ولعدم توفيق كولمبس فى إحضار الذهب الكثير الذى انتظره فرديناند، ولأن كولمبس أخضع أهالى الممتلكات الجديدة من الهنود .. للأسترقاق معتقدًا أن ذلك هو خير ما يمكن عمله لهم، فأثار بذلك غضب الملكة ايزابيلا، ولأن الممتلكات الجديدة عمومًا سرعان ما صارت فريسة للاضطرابات والقلاقل بسبب الانقسامات بين أعوان كولمبس ورجال حملاته. هذا علاوة على حقد المستثمرين الذين خابت آمالهم والغيظ الأشد من جانب المستعمرين العائدين إلى أسبانيا.

ولقد بقى كولمبس طوال حياته، ومعاصروه كذلك، يجهلون أنهم اكتشفوا عالمًا جديدًا، بل إن كولمبس ومعاصريه اعتقدوا أن الأراضى التى أمكن الوصول إليها هى جزر الهند الشرقية وليس جزر الهند الغربية والأخير هو الاسم الذى صارت تعرف به مجموعة الجزر التى اكتشفها - أى وصل إليها - كولمبس فى رحلاته الأربع [١٤٩٢ - ١٥٠٤] عبر المحيط الأطلنطى وذلك بعد وفاة كولمبس أن هذه الجزر جزء من عالم جديد، وليست جزر الهند الشرقية فى القارة الآسيوية ولم تلبث

الأذهان أن أخذت تشك فى أن هذه الأراضى التى وصل إليها كولمبس هو أسيا ولاسيما بعد تلك الرسالة التى نشرها أمريجو فسبونشى Amerigo Ves Pucci الفلورنسى، فأشار أن هذه الأراضى المكتشفة حديثاً بالعالم الجديد. وقد قام برحلته لحساب البرتغال فى أعقاب إتمام كشف البرازيل فاقترح إطلاق اسم أمريكا على هذه الأراضى المكتشفة عام ١٥٠٧ وقد تأكد هذا الاعتقاد عندما عبر بالوا Bahboa الجبال التى يتكون منها المضيق [مضيق بنما] ووجد نفسه تجاه محيط عظيم واسع الأرجاء فى عام ١٥١٣.

وقد استقر الأسبان فى أول الأمر فى جزر الهند الغربية، واتخذوا من كوبا قاعدة لهم وركزوا اهتمامهم فى الكشف على العالم الجديد واستعماره، ومن ثم أخذوا يرسلون الحملات الكشفية متوغلين فى أمريكا الجنوبية حتى غدت معظم أجزاء هذه القارة فى حوزة الأسبان وتحولت أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية إلى مناطق لاتينية على النحو التالى:

كشف المكسيك:

خرجت من جزيرة كوبا فى سنة ١٥١٩ حملة بقيادة فرناندكورتيز Fernand Cortez [١٤٨٥ - ١٥٤٧] لغزو المكسيك. وكانت تسكنها قبائل من الهنود الحمر تسمى الازتيك أو الازاتكة Azteques وهم قوم أقوياء ذو حضارة، ولكنهم لم يكونوا يدرون عن العملة كوسيلة للتعامل الاقتصادى ولا يعرفون دواب الحمل أو سلاح المدفعية، بينما كانت حملة كورتيز تعتمد على الخيول والمدافع وقد أشعر هذان السلاحان الرعب فى قلوب الأهالى، واعتمد كورتيز على الدجل السياسى. وفاق فى هذا الصدد، رجال الاستعمار اللاحقين فأدخل. فى روعهم أن الأسبان الذين هبطوا المكسيك إنما هم فوق مستوى البشر، وأنه إذا فكر أهل المكسيك فى مقاومتهم أو إغضابهم فإن الأخطار تحيق بهم من يمين ويسار.

اتجهت الحملة إلى شبه جزيرة يوكاتان yucatan وأسس قائد الحملة ثغرفيراكروز Vera - Cruz على خليج المكسيك ثم زحف على مدينة المكسيك، وهي مدينة قديمة أسسها الازاتكة حوالي سنة ١٣٢٥، واستعصت عليه بعض الوقت أمام البسالة التى أبداها الأزاتكة فى الدفاع عن عاصمتهم، وبفضل المدفعية وسلاح الفرسان استطاع كورتيز الاستيلاء على العاصمة فى أغسطس ١٥٢١ وألقى القبض على ملكهم مونتزوما Montezume وتركه يموت بعد قصة دامية من التعذيب الوحشى.

وقد أصدر الأمبراطور شارل الخامس امبراطور الأمبراطورية الرومانية المقدسة - وهو شارل الأول ملك أسبانيا - مرسومًا بتعيين كورتيز حاكمًا عامًا على أسبانيا الجديدة، وهو الاسم الذى حلا للأسبان إطلاقه على المكسيك. وأخذت كنوز المكسيك من الفضة تتدفق على خزائن أسبانيا حتى أصبحت مدريد عاصمة الفضة فى دنيا المال والأقتصاد فى أوروبا. وعلى الرغم من الخدمات التى أسداها كورتيز بطريق مباشر إلى بلاده، وبطريق غير مباشر نحو تقدم المعارف الجغرافية، فإن صفحته تظل مسوده لإسرافه فى التنكيل بقبائل الأزاتكة حتى اتسمت تصرفاته معهم ومعاملته لهم بالوحشية والضراوة.

كشف بيرو

أمكن بيزارو Pizzro الحصول على كميات وافرة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة التى كانت فى نظر الأسبان - الذين سيطر تفكيرهم الربح المادى - الهدف الرئيسى للمغامرة الاستعمارية. وكان بيزارو رجلاً غير مثقف احترف ركوب البحر كغيره من فقراء الأسبان فى ذلك الوقت. وفى خريف عام ١٥٢٢، كان يبحث عن رزقه فى بنما، وهناك اجتمع يومًا بأحد الملاحين الأسبان الذى أخبره أن أرضًا غنية فى أمريكا الجنوبية على ساحل المحيط الهادى يسكنها أقوام يعرفون باسم الأنكا Incas وكان بيزارو متعطشا للمغامرة من أجل الذهب، فجمع معه مائة

ملاح وأقلع إلى المكان الذى سمع عنه على ظهر سفينة واحدة، ورغم أن المحاولة انتهت بالفشل، إلا أنه جدد المحاولة بعد سنتين ١٥٢٦ وإذا به يرسو على أرض منزرعة، فلحت خير فلاحة، ورأى أمامه السكان الوطنيين وقد تحلو باللآلئ وزينة الذهب، ومنذ تلك اللحظة رأى أن يستعمر هذه الأرض ويقطع صلته بـ "بناما".

وقد تبين له أنه اكتشف فوق هذه الأرض دولة زراعية منظمة، تتميز بمدنية خاصة. ولسكانها أساليبهم المتقدمة فى الزراعة وتمهيد الأرض وحفر القنوات وهناك القصور والمعابد وغيرها من معالم متطورة.

وبعد أن تم لبيزارو اكتشاف مناطقها المختلفة عاد إلى أسبانيا حيث حصل على تفويض من الامبراطور خوّله سلطة نائب ملك فى البلاد التى كان لا يزال عليه أن يقمها.

وقد استعمل بيزارو منتهى القسوة والعنف مع حاكم بيرو الوطنى، فقد خطفه وجرده من ثروته وأحرقه على ملأ من الناس بل ومن الرهبان الأسبان المبشرين الذين أبدوا موافقتهم ولم يستنكروا إحراق الرجل. ولو أن التاريخ لا ينسى لبعض الإرساليات التبشيرية فى أماكن أخرى من المستعمرات وأقاموا به من محاربة المظالم التى كان يقترفها مواطنوهم فى المستعمرات الأسبانية ومحاولة الحد من طغيانها على أهل البلاد الأصليين، وكان الإمبراطور شارل الخامس ينحاز إلى جانب الرأفة والاعتدال، وكان إذا ما نشب النزاع بين الإرساليات التبشيرية العاملة لخير الإنسان وبين المستعمرين المستغلين كان ينحاز إلى جانب الإرساليات.

رحلة ماجلان [١٥١٩ - ١٥٢٢م]

أما رحلة ماجلان حول الأرض فقد كلفه الإمبراطور شارل الخامس فى١٥١٩ بالبحث عن الطريق الغربى إلى الهند تمهيدًا للوصول إلى الملقوس والنضال مع البرتغال فى الهند الشرقية، فغادر ماجلان ميناء سان لوكار San Lucar فى ٢٥ سبتمبر ١٥١٩ ووصل إلى شاطئ البرازيل عند ريودى جانيرو، ثم إلى مصب

نهر لابلاتا ثم دار حول أمريكا الجنوبية، ودخل في نوفمبر ١٥٢٠ المحيط الذى سماه بالباسفيكي [الهادى]. وبلغ الفلبين في مارس ١٥٢١. وعندما قتله الوطنيون في إحدى المعارك هناك في إبريل من السنة نفسها تمكن أحد رجال سباستيان ديلكانو] Sabstian del cano من قيادة الحملة والعودة بها عن طريق رأس الرجاء الصالح إلى أسبانيا فبلغ سان لوكار في ٦ سبتمبر ١٥٢٢ وبذلك تكون الرحلة حول الكرة الأرضية استغرقت ثلاثة أعوام.

وقضى نجاح هذه الرحلة على أخطاء كثيرة كانت شائعة وقتئذ، كما أن الرحلة صححت موقع الأراضي التي استكشفها كولمبس وغيره، وأظهرت أن هذه الأراضي المستكشفة حديثًا إنما هي عالم جديد لا صلة له بأوروبا أو بآسيا. وزيادة على ذلك أحدث نجاح هذه الرحلة أثراً سيكولوجيا بعيدا عندما صار شارل الخامس يعتقد أن العناية الإلهية تريد له السيطرة والحكم في العالم المعروف بأجمعه، لحدوث هذه الرحلة في بداية عهده وفي وقت اشتدت فيه صعوباته السياسية في أسبانيا وإيطاليا وفي علاقاته مع الأتراك العثمانيين. فأخذ من ثم يتوقع أن تصبح على يديه إمبراطورية واسعة وعالمية قولا وحقيقة في القارة الأوروبية ذاتها، وفيما وراء البحار في العالم الجديد أيضًا.

الاستعمار الأسباني

اختلف الاستعمار الأسباني عن الاستعمار الاستراتيجي الساحلي في أفريقيا وآسيا، في أنه كان استعمارًا استيطانيًا، أقرب في طبيعته إلى الاستعمار الروماني العسكري القديم.

ويرجع السبب في ذلك إلى أن الاستعمار البرتغالي في أفريقيا وآسيا قد دخل مناطق مأهولة بالسكان، كثيفة ومدارية، فلم يكن بوسعه أن يكون استعمارًا استيطانيًا هذا بالإضافة إلى أن البرتغال لم يكن لديها القوة البشرية لمثله. أما في حالة الاستعمار الأسباني، فقد حدث في مناطق مخلخلة قليلة السكان، يصلح كثير

منها بحكم ارتفاعية لتوطن البيض. كما أن أسبانيا كانت قوتها البشرية أكثر نسبيا، ولذلك فقد اتخذ هذا الاستعمار نمطًا استيطانيًا أخذ يشتد حتى تحول إلى خليط جنسي لم يسبق له مثيل.

وإذا كان اتجاه الأسبان في البداية موجهًا نحو تجارة التوابل، إلا أن هذا الاتجاه قد تغير بعد سيطرة البرتغال على هذه التجارة. فضلًا عن طول الطريق الغربي، الذي أثبت فشله تجاريًا، لأنه أطول بكثير من طريق البرتغال. هذا إلى جانب فشل الحملة التي أرسلت إلى جزر الهند الشرقية لانتزاعها من يد البرتغاليين كما أن المناطق التي دخلها الأسبان لم يكن لها توابل أو تجارة تستغل، وإنما كانت توابل هذه المناطق هي المعادن النفيسة، الذهب والفضة.

ولهذا اندفعوا في أمريكا اللاتينية مباشرة إلى المرتفعات الغربية، الغنية جيولوجيا بهذه الثروات، في المكسيك وبيرو. وسرعان ما أخذت السفن الأسبانية تذهب وتعود محملة الفضة من المستعمرات. وقد ازداد تدفق هذا المعدن على الموانئ الأسبانية في عهد فيليب الثاني [١٥٥٦ - ١٥٧١] لاسيما بعد أن اكتشفت مناجم الفضة في "بوتوسي" في بوليفا سنة ١٥٤٥.

وقد حاولت أسبانيا في أول الأمر الاحتفاظ بهذا المعدن النفيس داخل بلادها. ولكن عجز المصانع الأسبانية عن سد حاجة البلاد من المصنوعات اضطرها إلى شراء حاجتها من ذلك كله من المنطقة الشمالية الغربية الصناعية في أوروبا. وانتهى الأمر بأن أصبحت أسبانيا هي القناة التي تجرى منها الفضة إلى بقية أوروبا. ومن هذا الحين بدأ عصر الفضة في أوروبا، وبقي هذا المعدن خلال الخمسين سنة التالية يسيطر على تطور الحياة السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية فيها. أما بالنسبة لجزر الهند الغربية وشرق القارة وشيلي، حيث لم تكن بها ثروة إلا الزراعة المدارية. فقد تطلب الأمر الاستعانة بالأيدي العاملة.

ولما كانت الحروب والأمراض والاسترقاق قد قضت على العدد الكبير من الهنود الحمر سكان البلاد الأصليين، فقد جلب الأسبان الرقيق الأسود من أفريقيا

منذ سنة ١٠٥١م. لفلاحة الأرض والعمل في المناجم. وقد عمد الأسبان إلى تقسيم الأراضي إلى إقطاعيات وزعت بين الأسبان، وإرغام الهنود والرقيق الذين يعيشون عليها على العمل فيها دون أجر، وتسمى هذه الإقطاعيات الموزعة بما عليها من أيد عاملة، وعلى هذا النحو كانت البيئة الإجتماعية للمستعمرات الأسبانية تتكون من سادة ورقيق.

وأتمت الفتوح والاستعمار الأسباني بقسوة بالغة واستغلال الأهالي استغلالا شائنًا لا يعرف الرحمة. وكانت هذه القسوة محل تنديد شديد من بعض الأسبان أنفسهم ضد مواطنيهم. فكتبوا عن غرائز في التلذذ بممارسة القسوة مع الأهالي. وعلى رأس هؤلاء المنددين "لاس كاساس" الذى كتب كتابه" تدمير الهنود".

الكشوف الإنجليزية

أما دور إنجلترا في ميدان الكشف فيعد صغيرا للغاية إذا قورن بالدور العظيم الذى قامت به كل من البرتغال وأسبانيا. ويرجع الفضل فيه إلى إيطالي كذلك، من البندقية يدعى "جون كابوت John Cabot نزح إلى انجلترا وأقام في بريستول في عهد هنرى السابع مؤسس أسرة التيودور. وكان مولعًا بالسير وركوب البحر وعلى علم بأحوال الشرق إذ سبق له السفر إليه عن طريق القوافل في وسط آسيا إلى الصين، وقد سمح له هنرى السابع في عام ١٤٩٦ بالقيام على رأس بعثة لاكتشاف الأقاليم التي يحيا عليها "الكفرة غير المسيحيين" فابحر "كابوت" من ميناء بريستول ١٤٩٧ في سفينة إنجليزية، وعبر المحيط الأطلسي حتى وصل ساحل أمريكا الشمالية عند "نيوفوندلاند" New Found Land وهي أقدم الممتلكات الإنجليزية.

وأبحر كابوت مرة ثانية عام ١٤٩٨ في خمس سفن وارتاد الشاطئ الشرقي لأمريكا الشمالية حتى فلوريدا. وقد أدى ذلك إلى استعمار انجلترا للأقاليم المعروفة باسم الولايات المتحدة الأمريكية خلال القرن السابع عشر.

الكشوف الفرنسية :

أما فرنسا فكانت كشوفها قليلة ومتأخرة عن البرتغال وأسبانيا وإنجلترا، نلخصها فيما يلي:-

اتجهت نحو أمريكا الشمالية فاكتشفت كندا وكان الملاح الفرنسي جاك كارتييه [١٤٩١ - ١٥٥٧] Jack Cartier في طليعة الرواد الفرنسيين الذين كشفوا هذا الإقليم. عهد إليه الملك فرانسوا الأول في عام ١٥٣٤، بالقيام برحلات كشفية يعبر فيها المحيط الأطلسي في اتجاه الغرب نحو العالم الجديد. وقد وصل إلى، شاطئ جزيرة نيوفوندلاند المواجهة لكندا ثم بلغ شاطئ كندا، وكان "جون كابوت" قد سبقه إلي هذا الشاطئ عام ١٤٩٧ ولكن الملاح الفرنسي تميز عنه بكشف مصب نهر سنت لورانس وبتوغله داخل الأراضي الأمريكية. وقام "جال كاريتيه" بأربع رحلات في هذه المنطقة.

وأدت الاضطهادات الدينية في فرنسا إلى هجرة عدد كبير من الهيجونت إلى العالم الجديد. وكان لتجارة الفراء أثرها في تنشيط حركة الكشف. فقد أقبل عليها الفرنسيون إقبالا عظيمًا واستعانوا بالهنود الأصليين في الحصول على الفراء من الغابات.

وركز الفرنسيون جهودهم في حوض سانت لورانس طوال القرن السابع عشر. فتكونت الشركات التجارية لاكتشاف المناطق وبناء المستعمرات. وكانت أكبر الجهود في هذا المجال بفضل "صمويل شمبلان Samuel de Champlaine إذ أسس أول مستعمرة فرنسية في شبه جزيرة شرق كندا أطلق عليها "أكاديا" Acadia ثم عرفت "بنوفا سكوشيا" Nova Scotia. وفي عام ١٦٠٨ أسس مدينة كويبك Quebec على نهر سانت لورانس. وأطلق اسم "شامبلان على بحيرة تقع بين الولايات المتحدة وجنوبي كندا تخليدا لذكرى المكتشف العظيم.

وفي عام ١٦٨٢ نجح لاسال La salle [١٦٤٠ - ١٦٨٧] في اكتشاف نهر الميسيسبي، ونشأت فيه مستعمرة لويزيانا نسبة إلى لويس ١٤. وانتهى الأمر بالفرنسيين إلى تكوين مستعمرتي وقد أدى الاحتكاك بين مستعمرات إنجلترا وفرنسا إلى صدام حربي بينهما عام ١٧٥٤. وهكذا أسهمت فرنسا في مجال الكشوف الجغرافية بعمل رائع في أمريكا الشمالية يفوق عمل إنجلترا.[1]

الكشوف الهولندية :

لم تتقاعس هولندا عن المساهمة في حركة الكشوف الجغرافية رغم انشغالها بثورتها ضد الحكم الأسباني. ومع أن حرب الاستقلال الهولندية ظلت مشتعلة منذ عام ١٥٦٦، حين اندلعت الثورة بسبب سياسة فيليب الثاني المالية والدينية، حتى عام ١٦٤٨ عندما اعترفت أسبانيا أخيرا باستقلال هولندا وبلجيكا في معاهدة وستفاليا Westphalia إلا أن جميع الدلائل كانت توحي بأن الحرب قد كسبها ثوار الأراضي المنخفضة منذ عام ١٥٩٥، مما أتاح للهولنديين لكي يدلو بدلوهم في ميدان الكشوف الجغرافية.

وفي عام ١٦٠٩ كلفت شركة الهند الشرقية الهولندية Dutsh East India Company الملاح الإنجليزي هنري هدسون Henry Hudson الذي كان قد سبق له الملاحة في المياه القطبية، باستكشاف ممر شمالي شرقي إلى آسيا. وعلى ظهر سفينته الصغيرة "هاف موون Half Moon" أبحر هدسون من امستردام في إتجاه نوفازمبلا Nova Zembla، إلا أنه سرعان ما توصل إلى قرار مؤداه أن البحث عن هذا الممر الشمالي الشرقي لن يؤدي إلى شئ، فعبر شمال الأطلنطي للبحث بدلا من ذلك عن ممر شمالي غربي يؤدي إلى آسيا. ووصل هدسون إلى خليج نيويورك ونهر الهدسون [الذي سمي باسمه] واعتلى هذا النهر حتى موقع ألباني Albany.

وفي عام ١٦١٦ اكتشف القبطان الهولندي شويتن Willem Schouten طريق رأس هورن Cope Horn Route، الذي أصبح عندئذ طريقا ملاحيا هاما، كما يرجع إلى الملاحين الهولنديين اكتشاف استراليا ونيوزلندة. ففي عام لامس لقوين Leeuwin بعض أجزاء من سواحل استراليا الجنوبية والغربية. وتلاه أبل تاسمان Abel Tasman الذي أبحر خلال رحلتين في سنوات ١٦٤٢ - ١٦٤٣ ثم ١٦٤٤ حول استراليا، وتمكن من مشاهدة شواطئها الشمالية والشمالية الغربية. غير أن الهولنديين لم يتابعوا اكتشافات تاسمان. وعندما أقبل القرن الثامن عشر، لم يكن شكل قارة استراليا قد اتضح بعد، كما أن ساحلها الشرقي ظل مجهولا. ولذلك فإن المكتشف الحقيقي لكل من استراليا ونيوزلندة، كان الملاح الإنجليزي جيمس كوك James Cock، الذي قام بثلاث رحلات، سار في الرحلة الأولى بحذاء نيوزلندة وكل ساحل استراليا الشرقي، وأكمل في الرحلتين الثانية [١٧٧٢ - ١٧٧٥] والثالثة [١٧٧٦ - ١٧٨٠] مسح سواحل نيوزلندة بالإضافة إلى زيادة العديد من جزر الباسفيكي .

نتائج حركة الكشوف الجغرافية

من أهمها النتائج الاقتصادية: وتتلخص في انتقال مركز التجارة من حوض البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي، فانتقلت الأهمية التجارية من دول حوض البحر المتوسط إلى دول غرب أوروبا. ويعرف هذا بالثورة التجارية التي كان من أهم عواملها اتساع نطاق التجارة وتدفق معدني الذهب والفضة إلي أوروبا وكانا نادري الوجود بها في نهاية القرن الخامس عشر. فقد حصل البرتغاليون منذ البداية على كميات كبيرة من الذهب من الساحل الغربي لأفريقيا. وازداد تدفق الذهب إلى أوروبا نتيجة لاستيلاء الأسبان على المكسيك [بين عامي ١٥١٩ - ١٥٢٢] وعلى بيرو [١٥٣٢ - ١٥٤١]. وفي عام ١٥٤٥ اكتشفت جبال بأكملها من الفضة يصل ارتفاعها إلى سبعمائة متر في بوتسوى Postsoi بمرتفعات بيرو. وقد أصبح غنى بيرو

بعد ذلك مضرب الأمثال. وترتب على ذلك أنه منذ منتصف القرن السادس عشر أصبح في أوروبا من القطع الفضية والذهبية ما يعادل اثنتى عشرة مرة ما كان بها قبل ستين عاما، إذ اتسعت عمليات تصدير الذهب والفضة وغيرهما من المعادن النفيسة إلى أوروبا، وأخذت السفن الأسبانية منذ أواسط القرن السادس عشر تعود إلى أسبانيا وهي محملة بالفضة من المستعمرات الأسبانية في أمريكا الجنوبية عامة وفي بيرو خاصة، وغدت أسبانيا مركز الفضة وسوقها الرئيسية في أوروبا. وأخذت تصدر سبائك الفضة إلى سائر البلاد الأوروبية، وبدأ في عهد فيليب الثاني ملك أسبانيا [١٥٥٦ - ١٥٩٨] ما يسمى بعصر الفضة في أوروبا. وتوافر نتيجة لذلك النقد المتداول فزادت الأجور، وقفزت أسعار السلع والحاجيات وارتفع بالتالي مستوى المعيشة بين أفراد الطبقة الوسطى، فازدادت قوة وتدعم مركزها السياسي[١].

حاولت أسبانيا بما سنته من قوانين ونظم تجارية أن تحتفظ باحتكار هذه الثروات الطائلة التي كانت ترد إليها من العالم الجديد، ولكنها لم تستطع أن تحقق ذلك تمام التحقيق لأنها كانت لا تستطيع أن تزود مستعمراتها في العالم الجديد بما يلزمها من مصنوعات مختلفة؛ لذلك قام الأجانب غير الأسبان بهذا الدور من دول أوروبا البحرية في الجزء الشمالي الغربي منها وهي هولندا وانجلترا وفرنسا، مما ترتب عليه انتشار المعدنين النفيسين في هذه البقاع المختلفة في القرن السادس عشر. وقد تأثرت فرنسا تأثرا بالغًا بهذا المعدن فقد كانت تمد أسبانيا بكثير من مصنوعاتها وصناعها كذلك، فتأثرت طبقة الماليين فيها ورجال المصارف مما شجع الكثيرين من التجار على ترك أعمالهم التجارية للاشتغال بالمعاملات المالية.

ولم يقتصر الأمر على أسبانيا وفرنسا بل أصاب الغلاء سائر الدول التي وصل إليها هذا المعدن، ففي فرنسا ارتفعت فيها أثمان الغلال والمصنوعات والأراضي. وصلت هذه الأثمان في نهاية القرن السادس عشر إلى ثلاثة أمثال بل أربعة أمثال ما كانت عليه في بدايته.[٢]

نتج عن ذلك أيضًا ازدياد النشاط التجارى الاقتصادى، وقد ظهر ذلك فى إنشاء الصناعات الجديدة مما أدى إلى زيادة فى رؤوس الأموال، ووجه الأنظار نحو العمل على ضمان حرية التجارة، ومن هنا ظهرت كذلك الحاجة إلى الحصول على مستعمرات لتصريف مصنوعات الدولة، والحصول على المعادن والمواد الأولية اللازمة للصناعة. ومن بدأ التقدم والنمو الاقتصادى للدول البحرية ولاسيما الواقعة غربى أوروبا وشمالها الغربى، ولم تلعب فرنسا فى هذا المضمار إلا دورًا ثانويًا، ومع ذلك فقد نمت تجارتها مع الخارج وخاصة مع أسبانيا التى كانت فى حاجة إلى منتجاتها ومع إنجلترا التى كانت تبحث عن منتجات فرنسا الزراعية.

كما اهتمت فرنسا بالاتجار مع الشرق، وقد عقد ملكها فرانسوا الأول معاهدة الامتيازات مع سلطان المماليك فى مصر ثم مع السلطان العثمانى [سليمان القانونى] عام ١٥٣٦، واعترفت هذه المعاهدات بحماية فرانسوا الأول الشعوب الكاثوليكية فى أملاك الدولة العثمانية. وهكذا أصبحت فرنسا فى حوض البحر المتوسط تتمتع بمركز قوى لا تنافسها فيه إلا البندقية. كما كانت فى أمريكا الجنوبية تقوم تجارة التهريب، ونشأ من أجل ذلك ميناء "هافر" Havre فى عهد فرانسوا الأول، كما ازدهرت كل من "نانت Nantes" وبوردو Bordeaux" فى القرن السادس عشر.

ومع ذلك فقد ظهرت قوة هولندة البحرية فتفوقت على فرنسا فى هذا الميدان خلال ذلك القرن كما ساهمت إنجلترا فى النصف الثانى منه فى التجارة البحرية، فشجعت أسرة التيودور هذه الحركة وبدأت تصنع لنفسها سياسة بحرية فى عهد اليزابيث [١٥٥٨ - ١٦٠٣] وقد اصطدمت إنجلترا بأسبانيا فى هذا الميدان واستطاع "دريك Dreake" بين عامى ١٥٧٧، ١٥٨٠ أن ينزل بالمستعمرات الأسبانية خسائر فادحة.

نتج عن النشاط التجارى الإقتصادى المتزايد إنشاء البورصات المالية على نطاق عالمى، كما فى بورصة أنفرس Anvers وفى بورصة ليون Lyon ومن ثم

انطلقت الأهمية من الأسواق إلى البورصة التي ساعدت على تركيز العمليات التجارية والمالية وأصبحت مفتوحة أمام بضائع كل الأمم، كما تشير العبارة الموجودة على بورصة Anvers التي أنشئت عام ١٥٣١.

وازداد نشاط المصارف، وعددها زيادة عظيمة، وأحرز عمالها ومؤسسوها ثروات ضخمة مما جعلهم يشترون ضياعًا واسعة ويصبحون من كبار الأغنياء، وكان يحميهم عواهل أوروبا ومنهم الإمبراطور شارل الخامس [١٥١٩ - ١٥٥٥]⁽٢⁾ .

النتائج السياسية :

أدت الكشوف الجغرافية أيضًا إلى ازدياد حدة التنافس الاستعماري بين الدول الأوروبية وكان ميدان هذا التنافس هو الأقاليم التي كشفت فيما وراء البحار، فقد حرصت كل دولة كبيرة - بعد الظفر الذي حققته كل من البرتغال وأسبانيا - على أن تنال ما تدعيه لنفسها من حقوق في التوسع والتملك. وبوفر في أذهان الساسة أن الدول التي تمتلك عددًا كبيرًا من المستعمرات هي أكبر دول العالم، ومن ثم سيطرت عليهم رغبة جامحة في انتزاع الممتلكات من يد دول أخرى أصيبت في تقديرهم بالضعف والشيخوخة أو تصادمت مصالحها مع مصالح دولهم. وهكذا كانت الكشوف الجغرافية في مقدمة العوامل التي أدت إلى نمو الأطماع الاستعمارية بين الدول الأوروبية وقد ساقت هذه الأطماع كثير من الدول إلى الحروب. وازداد اهتمام الدول بإنشاء الأساطيل الحربية باعتبارها الوسيلة الأولى للاحتفاظ بأقطار فيما وراء البحار وبالاستيلاء على مزيد من الأراضي الجديدة أو الجزر الجديدة التي اتخذتها محطات بحرية وقواعد عسكرية تؤمن لها سبل الاتصال بأملاكها البعيدة.

٣- النتائج الإجتماعية

ونشأت في قاموس السياسات العالمية نظريات جديدة تنادي بسيطرة الرجل الأبيض، وتقر التفرقة العنصرية، وتبيح تملك الأرض التي تسكنها شعوب غير أوروبية

وغير مسيحية، وتبيح استغلال هذه الشعوب وجعل إرادتها وحياتها وجهود أبنائها سخرة لإرادة الشعب المالك وللسياسة التي يريد إنتهاجها.

وانخدع العالم بوجود مفكرين راشدين بين من زعموا أنهم ثاروا لدعوة الحق والحرية والعدل والإخاء والمساواة ومنهم من استحل ظلم الإنسان لأخيه الإنسان لشئ سوى بشرته "فهذا "منتسكيو" أحد أعلام المفكرين في الثورة الفرنسية وأمام من أئمة التشريع فيها وصاحب كتاب روح القوانين" يقول في تبرير استرقاق البيض للسود، ويعلل ذلك بأن البيض قد أنفوا سكان أمريكا الأصليين، وأنه لا ترى مانعًا من تسخير السود لخدمة البيض، وأنه لولا ذلك لارتفع ثمن السكن. إلى غير ما قال بخصوص ذلك.

٤- النتائج الثقافية :

تطلبت الحاجة الماسة إلى عبور المحيطات والقيام برحلات بحرية طويلة المدى إدخال تحسينات متتالية في صناعة بناء السفن التجارية من حيث حجمها وزيادة حمولتها وسرعتها ومتانة أجسامها فضلًا عن التقدم في وسائل إرشاد الملاحين. وكما حدث تقدم في صناعة بناء السفن وما يتصل بها من صناعات أخرى طرأ تقدم على عدد لا يستهان به من العلوم، فقد حدث انقلاب جذري في المبادئ الأساسية التي يقوم عليها علم الجغرافيا، وتهاوت الأفكار التي كانت سائدة وقتذاك عن الأرض وحجمها وشكلها وقاراتها ومحيطاتها. وفي علم الفلك ظهرت لعلماء الفلك مجموعات من النجوم لم يكن في الاستطاعة رؤيتها ورصد حركاتها إلا من النصف الجنوبي من الكرة الأرضية. واتسع مجال البحوث التاريخية. وبعد أن كانت متصورة على العالم القديم المعروف امتدت بحيث أصبحت تشمل البلاد التي كشفت.كما أضيفت معلومات جديدة إلى علوم النبات والحيوان والبحار والجيولوجيا وغير ذلك.

وكانت أغراض التاج الأسباني الرئيسية إلى جانب الحصول على إيرادات المستعمرات الوفيرة. نشر المسيحية بين سكانها الوثنيين (الهنود) وأراد ملوك أسبانيا أن تصبح هذه المستعمرات مكتفية بحوائجها، ثم إذا أمكن أن تكون مصدر ربح لأسبانيا. وأخيرًا طغت الرغبة في الربح على كل شئ آخر. فصار تشغيل الأهالي في المناجم وكثر استخدام الرقيق، وصار المستعمرون يقسون في معاملة الوطنيين بالعنف والشدة. وكان النظام الذى لجأ إليه التاج ونواب الملك لتحقيق الربح الوفير، يقوم على توزيع الأراضي بين الأسبان وإرغام الهنود الذين يعيشون عليها على العمل فيها من غير أجر في استغلال المناجم وفلاحة الأرض والعناية بالماشية، وعرف هذا النظام باسم Repartiminto أو encomienda وكان كولمبس أول من طبقه في هسبانيولا .

تلك صورة بشعة من صور الاستعمار الأسباني في القرن السادس عشر رسمها واحد منهم، وكان من المفروض أن يكون لها من الأثر الفعال ما يعظ النفوس ويردها عن الشر والضر، ولكنها كانت صرخة في الهواء ذهبت بها ربح الجشع والظلم إلى واد سحيق، فهؤلاء مستعمرو القرن التاسع عشر من البريطانيين والفرنسيين وغيرهم يفصلون مثل ذلك في أفريقيا، ويعيرون الأمريكيين بسلوكهم إزاء الهنود الحمر، ويبررون سلوكهم مع السود بأنهم قوم لم تكن لهم حضارة فحضّروهم وكان الظلام يغمر حياتهم فأخرجوهم من الظلمات إلى النور.

الفصل الرابع

الحــــروب الإيطـاليـــة

الحروب الإيطالية
مظهر للتنافس الدولى بين فرنسا وأسبانيا
(١٤٩٤ـ ١٥٥٩)

الحروب الإيطالية هى حروب متقطعة نشبت بين فرنسا وأسبانيا خلال فترة استطالت خمسة وستين عامًا [١٤٩٤ - ١٥٥٩]، وكانت هذه الحروب مظهرًا من مظاهر التنافس الدولى بين هاتين الدولتين من أجل السيطرة والنفوذ فى أوروبا والرغبة فى التوسع الإقليمى داخل القارة وقد بدأ هذا التنافس بين فرنسا وأسبانيا قبل أن ينتهى القرن الخامس عشر، واقترن بصراع حربى مرير خاضته الدولتان، وكانت شبه الجزيرة الإيطالية ميدانا لتصارع الجيوش الفرنسية والأسبانية خلال المراحل الأولى لهذه الحروب التى تطورت بعد ذلك إلى نضال أوروبى اتسع نطاقه وانتقل إلى ميادين متعددة خارج شبه الجزيرة الإيطالية.

وقد اختتمت الحروب الإيطالية بمعاهدة كاتوكمبرسيس Cateau Cambresis فى سنة ١٥٥٩، وتعتبر هذه المعاهدة أول تسوية عامة أوروبية فى تاريخ أوروبا الحديث.

فقد ظلت شبه الجزيرة الإيطالية فى بداية العصر الحديث منقسمة إلى جملة دويلات - كما تم التعرض لذلك سابقًا - صغيرة. فبينما استطاعت الدولة الوطنية الحديثة التى تم تكوينها فى كل من فرنسا وأسبانيا أن تجد فى إيطاليا مجالا لتوسعها وساعد على ذلك أنه كان لفرنسا ادعاءات بخصوص وراثة عرشى ميلان ونابولى، وأنه كان لأسبانيا أيضًا ادعاءات فى وراثة عرش نابولى. كما أنها كانت تطمع فى امتلاك ميلان لثروتها وغناها.

أضف إلى هذا أن الدويلات الإيطالية ذاتها كانت منقسمة على نفسها. فهناك نزاع بين جمهورية البندقية والولايات البابوية حول امتلاك إقليم رومانا Romana

الواقع بينهما، ثم إن البندقية كانت تريد امتلاك دوقية ميلان بينما أرادت الولايات البابوية امتلاك فلورنسة.

ولد نتج عن هذا الوضع فى شبه الجزيرة الإيطالية أمران:

أولا: أن النزاع الرئيسى من أجل السيطرة فى إيطاليا كان منحصرًا بين فرنسا وأسبانيا ثم أن الغرض من هذا النزاع لم يكن مجرد الاستيلاء على ممتلكات جديدة فى إيطاليا فحسب، بل وإحراز السيطرة والتفوق السياسى فى القارة الأوروبية كذلك.

ولذلك فإن الدول الأوروبية الأخرى ما كانت تعنى فى أثناء هذه الحروب بشئون إيطاليا إلا بالقدر الذى يمس مصالحها هى مباشرة فالامبراطور مكسيمليان [١٤٩٣ – ١٥١٩] يخشى من تفوق دولة قوية وسيطرتها على إيطاليا لأن أملاكه فى التيرول كانت متاخمة لجمهورية البندقية، وهو لذلك أيضا يخشى من اتساع وقوة نفوذ البندقية. وانجلترا كانت لا تزال من أيام حروب المائة سنة تحتفظ بثغر كالية فى الأراضى الفرنسية ولذلك فإن ملكها هنرى الثامن [١٥٠٩ – ١٥٤٧] كان يخشى من ضياع كالية إذا قويت فرنسا. ثم إن هنرى الثامن كان يريد من تدخله فى الحروب الإيطالية أن يصبح لإنجلترا، إذا استطاع هذا، مكانة الزعامة، السياسية بين الدول. وفى سويسرة وجد أهلها فى هذه الحروب سببا للارتزاق، فتألفت منهم الجيوش المرتزقة التى ساعدت الدول المتحاربة، ثم إن سويسرة اهتمت أيضا بخدمة مصالحها فى علاقاتها مع الإمبراطور ومع فرنسا.

وعلى ذلك فقد استرشدت الدول الأوروبية فى أثناء الحروب الإيطالية بالمبدأ الذى صار يعرف باسم مبدأ المحافظة على التوازن [توازن القوى بين الدول The Balance of Power.

ثانيا: أن انقسام الدويلات الإيطالية على بعضها بسبب أطماعها لم يلبث أن أوجد حالة فى شبه الجزيرة الإيطالية نفسها، تشبه بدرجة أقل الحالة السائدة فى أوروبا.

فنجد أن بعض هذه الدويلات تنضم إلى أسبانيا أو إلى فرنسا ضد البعض الآخر مادام في هذا التحالف أو التكتل خدمة لمصالحها، ثم لا يلبث أن يتغير هذا التحالف أو التكتل إذا ظهر خطر من ازدياد نفوذ وقوة دولة أخرى جديدة وهكذا.

وعلى ذلك فقد صار يطبق أيضًا فى شبه الجزيرة الإيطالية فى ذلك العصر المبدأ السياسى الذى يطبق فى بقية أوروبا، أى مبدأ المحافظة على ثورات القوى بين الدول.

ويمكننا أن نقسم الحروب الإيطالية إلى مرحلتين متميزتين: المرحلة الأولى [١٤٩٤ - ١٥١٦] وكان مسرحها شبه الجزيرة الإيطالية، فهاجمت فرنسا مملكة نابولى ودوقية ميلان فى هجومين متعاقبين تأييدا لادعائها فى وراثة عرش كل منهما.

وفى المرحلة الثانية [١٥١٦ - ١٥٥٩] خرجت فيها الحرب عن النطاق الإيطالى واشتركت فيها جوانب متعددة، وإن كانت قد تركزت حول الصراع بين الأسرتين الكبيرتين فى أوروبا حول التفوق والسيطرة وهما أسرة الهابسبرج والأسرة المالكة الفرنسية ممثلة فى أسرة الفالوا Valois فى إيطاليا.

المرحلة الأولى [١٤٩٤ - ١٥١٦]

وتبدأ هذه المرحلة بالحوادث الأساسية حيث كان جيش شارل الثامن عظيما فى عصره بالرغم من أنه لم يكن يتجاوز الثلاثين ألفا، وأكثر من نصفه فرسان، ويشتمل على جنود فرنسيين من مقاطعات جاسكوينا ودوفنيه وبيكارديا ونورمانديا. وكانت المدافع التى معهم ثقيلة خشيها الإيطاليون. وقد أعد الملك كل ما أستطاع فى سبيل النصر.

وما انحدرت الحملة من جبال الألب إلا وانهارت إيطاليا كالبناء المتوهن. ففى بافيا قدم لودفيك لتحية الملك وتوفى بعد ذلك جان جاليا دوق ميلانو الأسمى، وقيل أنه مات مسمومًا، واستقر الأمر للودفيك ونودى به دوق ميلانو. أما

فى فلورنسا فقد أخذ وعظ سافونا رولا شكل نداء للحرية وطرد الفلورانسيين آل ميدتشى، وفر بطرس وأخواته، وجاء سافونا رولا إلى المارشال "الثامن" "المسيحى" ليخفف من غضبه ويطلب منه وعدا بالمرور من فلورنسا التى أصبحت مملكة المسيح وأحرقت الأوثان التى غيرتها الوثنية الجديدة. ولكن سرعان ما تبدل هذا الأمل الباسم بيأس مرير ورأت إيطاليا نفسها قد خدعت، لأن الفرنسيين، بعد أن استقبلوا الإيطاليون عليهم، وكرهوهم لفظاظتهم، واعتدائهم على النساء، وتدخلهم فى المنازعات الإيطالية وكان النزاع يحتدم بين جماعة الملك ورجال فلورنسا.

وأصعب من هذا كان مرور الجيش من "الدولة الرومانية وذلك لأن الإرهاب كان عظيمًا فى روما حيث وصلت الأخبار عن فظاظة الفرنسيين فى الحرب. وكان آل كولونا حلفاء شارل الثامن قد استولوا على أوستى وهددوا الرومانيين بالمجاعة، وأبلغ شارل عن عزمه بقضاء عيد الميلاد فى المدينة المقدسة، ولم يدخلها إلا بعد مفاوضات طويلة جرت بينه وبين البابا اسكندر السادس بورجيا، وتم عرض عسكرى للجيش الفرنسى، وأن الملك طلب إلى البابا تسليم قصر آنج، وجم مرشح العرش العثمانى، وكان لاجئا عند البابا، وتسليم ابنه قيصر بورجيا رهينة ليرافقا الجيش إلى نابولى. ورأى الكرادلة الذين كانوا فى حاشية الملك، أن يخلع هذا البابا السيمونى وأن يدعوا إلى مجمع دينى لإصلاح الكنيسة. غير أن شارل لم يذهب بعيدًا. ءفى ١٥ يناير انتهى الطرفان إلى اتفاق. وفى ٢٧ منه ذهب الملك إلى نابولى ومات هذا الأخير موتًا طبيعيًا أو مغتعًلا كما قيل، منذ وصوله إليها. ثم فر قيصر بورجيا بعد ذلك. وترك شارل الثامن البابا وأعاد إليه مفاتيح المدينة. وقدم الملك بين يدى البابا يمين الولاء والطاعة ولكنه لم يحظ منه بتقليده عرش نابولى حسب المراسيم المتعارف عليها فى العصر الوسيط وكان زحف الجيش الفرنسى من روما إلى نابولى زحفًا سريعًا خاطفًا، ويقال إن المدن الواقعة على طول الطريق بين المدينتين كانت ترسل مفاتيح بواباتها إلى الجيش الفرنسى. ولكن حدث فى

الطريق أن استطاع قيصر بورجيا أن يهرب من الجيش الفرنسي إلى أبيه في روما. وكان الفونس الثاني Alphonse II ملك نابولي الذي تولى العرش بعد وفاة والده فرديناند الأول في سنة ١٤٩٤ قد تنازل عن الملك لأبنه فرديناند الثاني في هذا الوقت العصيب الذي كان الجيش الفرنسي يزحف على نابولي، ولكن أراد هذا الملك الشاب أن يتصدى للجيش الفرنسي وخرج بقواته ولكن تخل عنه كبار ضباطه على مقربة من مون كاسا Mont - Cassin. وقام أهل نابولي بثورة عارمة واقتحموا القصر الملكي وهرب إلى جزيرة تقع عند مدخل خليج نابولي. ودخل الجيش الفرنسي العاصمة نابولي في ٢٢ فبراير ١٤٩٥ وسط مظاهر الحفاوة البالغة. وتوج ملكاً في نابلي ذاتها.

على أن هذا التقدم السريع والحفاوة الكبيرة التي قوبل بها شارل الثامن سرعان ما تحولت إلى كراهية بعد أن استقر الحكم الفرنسي وبدأ في فرض الضرائب الفادحة لمواجهة نفقات الاحتلال، واستفاق الإيطاليون إلى أنهم كانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار، وهكذا واجه شارل الثامن أزمة داخلية إذ أدرك الإيطاليون سريعًا أن الوقت قد حان لكي يتحدوا ضد الغزاة، وأدرك شارل الثامن أن الغزو كان سهلًا ولكن الاحتفاظ بالأراضي المفتوحة أصبح من أشق الأمور.

وبينما كان شارل الثامن يحلم بأن إيطاليا أصبحت في يده، إذ بحلف يتكوّن ضد في شمال إيطاليا تحت زعامة البنادقة Venetians.

وأدت الانتصارات السريعة التي أحرزها شارل الثامن في إيطاليا إلى قيام تحالف دولي ضد فرنسا، فتكتلت الولايات الإيطالية لكي تتخلص من السيطرة الفرنسية فتكونت في مارس ١٤٩٥ حلف البندقية، وكان أعضاء هذا الحلف هم البندقية وميلان والبابا اسكندر السادس وماكسمليان الأول ملك أسبانيا، ويلاحظ أن لوفيكو سفورزا حاكم ميلان الذي استنجد بملك فرنسا وشجعه على الزحف الفرنسي أن توفي منافسة في حكم الدوقية فجأة [جان جلياوز] فخلا الجو أمامه وانتفت

بذلك مبررات التدخل العسكري الفرنسي. أما بالنسبة للأمبراطور ماكسمليان فقد ساءه هذا الكسب السياسي والعسكري الذى نالته فرنسا فى شبه الجزيرة الإيطالية أما فرديناند الكاثوليكي فقد كانت له ادعاءات في عرش نابولي.[1]

إذ أصبح مركزه علم شارل الثامن بهذه المحالفة - وكان في نابولي فى ذلك الوقت، ولكنها كانت مفاجأة أليمة فى غاية الحرج. وأدرك شارل أن الموقف يزداد خطورة وتعقيدا إذا مكث في إيطاليا، فقرر العودة إلى فرنسا وخرج من نابولي في ٢٠ مايو ١٤٩٥، والتقى الجيش الفرنسي عند انسحابه عند فورنو Fornovo ولكنه تمكن من مواصلة الانسحاب إلى فرنسا. ولقد كانت هذه المعركة كسب لا شك فيه للقضية الإيطالية، لأنها خلصت البلاد من الاحتلال الفرنسي، أو حالت على أقل تقدير دون جعل إيطاليا منطقة نفوذ فرنسية وأخليت نابولي والمراكز الأخرى من الحاميات الفرنسية.

وعندما مات شارل الثامن في ابريل ١٤٩٨ لم يكن لفرنسا شئ من المكاسب الإقليمية في إيطاليا. أما حلف البندقية فقد تفككت عراه بعد أن حقق هدفه. لأن الخلافات بين الدول الأعضاء في الحلف عادت أعنف ما تكون بعد خروج الفرنسيين من شبه جزيرة إيطاليا.

وبعد ذلك فقد تولى الحكم في فرنسا، دوق دورليان تحت اسم لويس الثاني عشر Louis xII وكانت توليته حدثًا مهمًا في تاريخ إيطاليا، فلم يكن كسلفه يدعي ملكية نابولي، بل كان يدعي ملكية ميلان أيضًا ومن ثم أخذ في الإعداد لحرب جديدة. في ذلك الحين كانت الظروف السياسية في إيطاليا تشجع على الغزو، فقد انحل حلف البندقية، ورجعت الخلافات القديمة إلى ما كانت عليه وانحازت البندقية إلى فرنسا بسبب أطماعها في ميلان.

وعلى ذلك ففي أغسطس ١٤٩٩م عبرت القوات الفرنسية جبال الألب مرة أخرى، ونزلت في سهول لمباردي دون أن تلقى مقاومة، ومرت في بلاد بيدمنت

بتصريح من دوق سافوا. وانضم إلى الفرنسيين خمسة آلاف من السويسريين أرسلتهم المقاطعات السويسرية التى تحالفت مع لويس الثانى عشر. ولم يلق المهاجمون إلا مقاومة بسيطة. وفى الوقت نفسه كانت قوات البندقية تزحف من الشرق على ميلان. ففر لودفيكو إلى الامبراطور ماكسمليان. وسلم الأهالى مدينة ميلان للفرنسيين. وفى مدى شهر استولى الفرنسيون والبنادقة على أراضى ميلان كلها بدون استثناء.

على أن لودفيكو لم يلبث أن عاد إلى ميلان بجيش كبير لتخليص بلاده. وأرغم الفرنسيين على إخلاء ميدان العاصمة، والتخلى عن فتوحاتهم بسرعة تفادياً للاشتباك، على أنهم عادوا فتمكنوا من أسر لودفيكو، واحتلوا العاصمة من جديد، وبذلك أستتب لهم الأمر فى ميلان.

وقد كان ذلك ما شجع لويس الثانى عشر على إعادة فتح نابولى، فعقد مع فرديناند الكاثوليكى معاهدة غرناطة فى نوفمبر ١٥٠٠م التى اتفقا فيها على إرسال حملات مشتركة. واقتسام نابولى. وقد توزع فى ذلك بتحالف ملك نابولى فردريك مع الأتراك العثمانيين. وبناء على هذه المعاهدة زحف الفرنسيون على نابولى من الشمال، فى حين زحف الأسبان من الجنوب فسقطت العاصمة نابولى فى أيدى الفرنسيين من غير قتال فى يوليو ١٥٠١ ووقع ملكها أسيرًا، وأرسل إلى فرنسا، وبقى بها أسيرًا حتى مات فى سنة ١٥٠٣.

على أن الخلاف على تقسيم نابولى لم يلبث أن دفع بالحليفتين الفرنسى والأسبانى إلى الحرب. وفى هذه الحرب منى الفرنسيون بالهزيمة واستولى الأسبان على العاصمة نابولى فى مايو ١٥٠٣، وسلمت آخر معاقل الفرنسيين فى جايتا Gaeta فى يناير سنة ١٥٠٤م، واضطر الفرنسيون فى مارس ١٥٠٤م إلى الاعتراف بامتلاك الأسبان لنابولى، وأصبحوا لا يملكون فى إيطاليا سوى ميلان.

على أن الظروف السياسية لم تلبث أن اضطرت الفرنسيين إلى التخلى عن ميلان أيضًا. ففى ذلك الحين أعتلى البابا يوليوس الثانى البابوية خلفًا للبابا اسكندر السادس فى عام ١٥٠٣، وكان يطمع فى استرداد أملاك الكنيسة، وبسط نفوذ البابوية

على إيطاليا كما كان فى الوقت نفسه يخشى من امتداد نفوذ البندقية إلى أملاكه فعمل على تكوين حلف ضد البندقية فى كمبراى سمى حلف كمبراى Leaugue of Cambaria فى ديسمبر سنة ١٥٠٨. وقد تكون هذا الحلف من كل من البابا وفرديناند الكاثوليكى، والأمبراطور ماكسمليان ولويس الثانى عشر. وبعض الولايات الإيطالية، فرارا، وأوربينو ومانتوا فى حين بقيت فلورنسة على الحياد.

وقد تمكن الجيش الفرنسى من إلحاق الهزيمة بالبنادقة فى معركة أجناديللو Agnadello فى ابريل ١٥٠٩م، فكادت البندقية تشرف على الهلاك حتى فكرت فى الاستنجاد بالدولة العثمانية.

على أنه فى تلك اللحظة انفضت المحالفة ضد البندقية، فقد رأى البابا أنه حصل على المدن التى يريدها، فى إقليم رومانا وهى رافنا: وريمينى Rimini وفاينزيا Faenza ولم يعد بالتالى - مبررًا لاستمرار الحرب ضد البندقية، وفى الوقت نفسه اعتبر وجود البندقية ضرورة لدفع خطر الأتراك على المسيحية وعن إيطاليا وعن أوروبا، فعقد الصلح مع البندقية فى ابريل سنة ١٥١٠م. وبذلك انفرط عقد محالفة كمبراى.

وقد أثار هذا التحول غضب ماكسمليان الأول امبراطور الدولة الرومانية المقدسة، ولويس الثانى عشر ملك فرنسا اللذين اعتبرا هذا التصرف من جانب البابا لونا من ألوان الضرر والتخلى عن القضية التى حارب من أجلها. وقرر الامبراطور والملك المضى فى الحروب. وقد رد البابا عليهما بإعلان عزمه على طرد هؤلاء المتبربرين من إيطاليا وظهر البابا أمام الإيطاليين بطلًا من أبطال القومية الإيطالية ووقف إلى جانبه فى هذه المرحلة البندقية وأسبانيا. ولكن استدعى لويس الثانى عشر الكرادلة الفرنسيين المقيمين فى روما وبدأ فى الأفق انقسام دينى خطير يهدد كنيسة روما. وفى ١٠ أكتوبر ١٥١٠ قامت الجيوش الفرنسية بمحاصرة البابا فى مدينة بولونا فى شمال إيطاليا حيث كان يقيم. ولكى يتخلص من هذا الموقف الحرج طلب الصلح كسبا للوقت وتراجعت الجيوش الفرنسية مرة أخرى فى مايو سنة

١٥١١م واضطر البابا إلى التقهقر إلى روما أمام الفرنسيين، وأخطأ الفرنسيون عندما توقفوا عن مطاردته إلى روما واتخذوا بدلا من ذلك تدبيرا آخر هو دعوة مجلس الكرادلة في بيزا ليعلن عزل يوليوس الثاني من البابوية ووجه الخطأ في ذلك أن هذه الحركة الانفصالية في الكنيسة ساعدت على تقوية مركز يوليوس بدلا من إضعافه. وقد استطاع البابا أن يستميل إليه الأعوان ليعقد محالفة جديدة – في هذه المرة موجهًا ضد فرنسا هي – الحلف المقدس [Holly League] الذى تألف في أكتوبر سنة ١٥١١م من البابا وملك أسبانيا فرديناند الكاثوليكى وهنرى الثامن ملك إنجلترا والسويسريون المرتزقة وجمهورية البندقية، ثم انضم إلى الحلف بعد قليل الامبراطور ماكسمليان وكان غرض هذا الحلف المقدس في الظاهر المحافظة على سيادة الكنيسة والقضاء على الحركة الانفصالية التى أوجدها مجلس الكرادلة في بنزا وأما غرض الحلف الحقيقى فكان استيلاء البابوية على المدن والأقاليم التى تطمع في امتلاكها أو في استرجاعها (مثل بولونا وفرارا .. إلخ) ثم استيلاء فردناند على مملكة نافار حتى تستكمل أسبانيا حدودها الطبيعية في الشمال وخوفا من أن تقع نافار تحت نفوذ وسيطرة فرنسا، ثم طرد الفرنسيين من إيطاليا ونص في قرار إنشاء الحلف ضد فرنسا على الإجراءات التنفيذية الآتية:–

أولا: يقوم ملك أسبانيا بمهاجمة فرنسا في جبهتين في شمال إيطاليا وفي إقليم نافار في أقصى الحدود الجنوبية الغربية لفرنسا، وبذلك يضطر لويس الثانى عشر ملك فرنسا إلى تشتيت قواته المسلحة.

ثانيًا: يتكون جيش الحلف من ٣٦ ألف مقاتل.

ثالثًا: يدفع البابا ودوج البندقية كل شهر عشرين ألف من العملة الذهبية المسماه دوقا Ducats لمساندة المجهود الحربى.

رابعًا: تقدم جمهورية البندقية أربع عشر سفينة وتقدم أسبانيا اثنى عشر قطعة من أسطولها البحرى.

خامسًا: يتولى القيادة العامة لقوات الحلف المقدس نائب ملك أسبانيا فى نابولى واسمه ريموند دى كارادانو Ragmond de Cardano.

ونجح الحلف المقدس فى تحقيق أغراضه، فاخلى الفرنسيون ميلان ماعدا قلعتها وتساقطت أملاك فرنسا فى شمال إيطاليا وعبرت فلول الجيش الفرنسى جبال الألب فى طريق عودتها إلى فرنسا واستولى الأسبان على نافار ١٥١٢. وإذا كان يوليوس الثانى يستعد لطرد بقية البرابرة من إيطاليا، وهم السويسريون والألمان والأسبان ويستعد للاستيلاء على نابولى من أسبانيا عندما عاجلته المنية فى فبراير ١٥١٣، وعند فشل الفرنسيون فى استرجاع ميلان، وأنزل بهم الإنجليز بعض الهزائم فى فرنسا الشمالية ذاتها عقد لويس الثانى عشر الصلح مع البابا الجديد ليو العاشر ثم مع أسبانيا والأمبراطور، وأخيرًا مع ملك إنجلترا فى أغسطس ١٥١٤. وتوفى لويس الثانى عشر فى أول يناير، وبوفاته انتهى الدور الأول فى الحروب الإيطالية.[1]

ويظهر من هذا الدور فشل فرنسا فى بسط سيطرتها على إيطاليا بل خرجت هى نفسها من شبه الجزيرة الإيطالية. وذلك بينما نالت أسبانيا بفضل سياسة فردناند ودهائه، مواقع ثابتة فى شبه الجزيرة فثبتت أقدامها فى نابولى، واقتسمت ميلان مع السويسريين، هذا إلى جانب أنها استولت على نافار فى حدودها الشمالية، أما البابوية فقد امتلكت رومانا ثم ظفرت بالسيطرة على فلورنسة عندما رجعت إلى الحكم فى فلورنسة مرة أخرى أسرة مديتش Medici وهى أسرة البابا ليو العاشر فكان من نتائج ذلك أيضًا أن فقدت فرنسا إمارة فلورنسة التى ظلت موالية لها مدة طويلة.

المرحلة الثانية [١٥١٥ - ١٥٥٩]

تولى فرانسوا الأول عرش فرنسا في سنة ١٥١٥ بعد وفاة الملك لويس الثاني عشر، وكان الملك الجديد من أسرة فالوا، واستهوته شبه الجزيرة الإيطالية طوال سنوات حكمه ميدانا عسكريا يصول فيه ويجول على غرار سلفيه الملك شارل الثامن والملك لويس الثاني عشر، وتذرع بحقوق له موروثة في دوقية ميلان. ولم يجد له في هذه المغامرة الإيطالية من حليف سوى جمهورية البندقية، بينما تحالفت ضده الامبراطورية الرومانية المقدسة وأسبانيا والبابوية. واستخدم هؤلاء الحلفاء الجنود السويسريين المرتزقة. وكان هؤلاء السويسريون يرابطون في ميلان ويشكلون خطرًا داهمًا على الفرنسيين. وقد حشد فرانسوا الأول جيشًا جرارًا، كان قوامه أربعين ألف جندي يؤيدهم سلاح مدفعية رهيب.

استطاعت القوات الفرنسية عبور جبال الألب في سرعة وكفاية جعلت المؤرخين الفرنسيين يحاولون تشبيه فرانسوا الأول بهانيبال، وقد أوقع فرانسوا الأول هزيمة منكرة بالحلفاء في موقعة مارينيان Marignan بالقرب من ميلان في ١٣ سبتمبر سنة ١٥١٥، وقد دامت هذه المعركة يومين كاملين، ولكن لم تشترك في هذه المعركة قوات فرديناند ملك أسبانيا، ولا قوات مكسمليان الأول امبراطور الدولة الرومانية المقدسة وبدأ أن فرانسوا الأول أوفر حظًا من سلفيه الملك شارل الثامن والملك لويس الثاني عشر، لأنه استهل حكمه بهذا الانتصار الرائع واستولى على ميلان وبجانب هذا الكسب الإقليمي فقد أسفرت هذه المعركة عن عدة نتائج هامة، نذكر منها ثلاثا:

أولا: اتفاق بولونا Le Concordat de Bologne عقده فرانسوا الأول مع البابا العاشر اتفاقا في أغسطس سنة ١٥١٦، وبمقتضاه تعهدت فرنسا بدفع الأموال الكنسية إلى البابا، إذ كانت فرنسا قد توقفت عن دفعها منذ سنة ١٤٣٨، كما تقرر في هذا الاتفاق تخويل ملوك فرنسا الحق في تعيين رجال الدين في المناصب

الكنسية العليا فى فرنسا. وصارت هذه الأمور طوال الثلاثة قرون حتى نهاية القرن الثامن عشر عندما قامت الثورة الفرنسية.

ثانيًا: سلم فريبورغ الدائم كان الجنود السويسريين قد تلقوا درسًا قاسيًا فى موقعة مارينيان، واستطاع فرانسوا الأول أن يعقد معهم فى نوفمبر ١٥١٦ معاهدة تقرر فيها عقد سلم دائم وتعهد السويسريون بألا يشتركوا فى أى حرب ضد ملك فرنسا فى مملكته أو فى ميلان أو أى إقليم آخر تابع له.

ثالثًا: عقد معاهدات أخرى: حقق فرانسوا الأول تفوقاً ونفوذا فى شمال إيطاليا. فقد عقد فى أغسطس ١٥١٦ معاهدات مع الإمبراطور ماكسمليان الأول ومع البندقية كفلت له الاحتفاظ بميلان وجنوة، وأصبحت له سيطرة تامة فى إقليم لمباردى فى شمالى إيطاليا، كما عقد معاهدة نويون Noyon سنة ١٥١٦ مع شارل أرشيدوق النمسا ووارث عرش أسبانيا منذ وفاة ملكها فرديناند، وقد جدد فيها وعده بأن يتزوج أميرة فرنسية، وأن يكون صداق هذا الزواج الجزء الخاص بمملكة نابولى الذى يدعيه لنفسه فرانسوا الأول.

وفى هذه المرحلة وجد من الحوادث ما جعل النضال يخرج من دائرته الضيقة فى إيطاليا، كى يصبح نزاعًا كبيرًا بين أسرتى الهابسبرج الجرمانية والفالوا الفرنسية من أجل الزعامة والسيطرة.

فقد توفى الإمبراطور ماكسمليان فى يناير ١٥١٩، وكان لابد من اختيار إمبراطور جديد يملأ كرسى الإمبراطورية الرومانية المقدسة. ومع أن تاج هذه الإمبراطورية بقى قرونا عدة من نصيب الأسر الجرمانية، فقد طمع كثيرون بالفوز بتاج الإمبراطورية. من هؤلاء فرانسوا الأول ملك فرنسا وهنرى الثامن ملك إنجلترا ثم شارل ملك أسبانيا وحفيدا الإمبراطور ماكسمليان من زوجته مارى صاحبة برجنديا. وانحصر الترشيح بين هؤلاء الثلاثة. وكان شارل ملك أسبانيا من أسرة الهابسبرج وكان لهذه الحقيقة أثر حاسم فى انتخابه على يد الدايت Diet أو

المجلس الأمبراطوري في ألمانيا إمبراطوريًا في يونيه ١٥١٩. ثم توّج شارل في إكس لاشابل في أكتوبر سنة ١٥٢٠م.

ولكن اختيار شارل الخامس للإمبراطورية كان خطر يتهدد فرنسا من ناحية ويتهدد مصلحة التوازن الدولي في أوروبا من ناحية أخرى؛ وذلك أولا: لأن أملاك الإمبراطورية الجديد كانت تشمل برجنديا بإقليميها الأراضي المنخفضة (الترلندية) وكومتية برجنديا أو فرانس كومتيه Franche Comte – وهذه على حدود فرنسا الشمالية الشرقية والشرقية. وخشيت فرنسا من أن يطوقها الهابسبرج من كل جانب، وبخاصة عندما ظلوا أصحاب النفوذ في ألمانيا بحكم منصب الامبراطورية.

وثانيا: أن شارل الخامس أراد أن يربط بين أملاكه المختلفة في الأراضي المنخفضة، وفرانس كومتيه من ناحية وبين أسبانيا من ناحية أخرى على أن يتم ربط هذه الأملاك على حساب فرنسا، وذلك بتقسيم هذه الدولة بصورة تضمن انحلالها فلا تستطيع معارضة سياسته وأغراضه. وعلى ذلك فقد إستمال شارل الخامس أعداء الملك الفرنسي والدول التي تطمع في امتلاك مقاطعات هامة في فرنسا، فتحالف مع هنري الثامن ملك إنجلترا، لقاء أن ينال هنري الثامن بيكارديا ونورمنديا في فرنسا الشمالية ليطمئن شارل الخامس على حدود أملاكه في الأراضي المنخفضة. ثم أنه عقد اتفاقا مع دوق بربون أحد نبلاء فرنسا الثائرين على ملكهم فرانسوا الأول وذلك في عامي ١٥٢٢ – ١٥٢٣ على أن ينحاز بربون إلى جانب شارل الخامس في النضال المتوقع في نظير أن يحصل بربون على مملكة مستقلة في فرنسا الجنوبية الغربية بضم مقاطعتي دوفينيه Dauphine وبروفنس Provence. ومصلحة شارل الخامس في ذلك هي أنه أولا يضمن سلامة حدود ممتلكاته

في برجنديا، وثانيا يربط بين برجنديا وأسبانيا بفضل وجود "مملكة" تكون خاضعة لنفوذه باعتبار أنه صاحب الفضل في تأسيسها.[1]

وعلى ذلك فقد بدأت الحرب بين شارل الخامس وفرانسوا الأول منذ ربيع ١٥٢١، وفي هذه الحرب اضطر فرانسوا إلى الجلاء عن لمبارديا وفقد ميلان، ثم انهزم هزيمة كبيرة في بافيا في فبراير ١٥٢٥، ووقع في الأسر فأرسل إلى أسبانيا حيث أرغم هناك على توقيع معاهدة مدريد في يناير ١٥٢٦ تنازل بموجبها عن أراضي فرنسية واسعة: من ذلك دوقيه برجنديا - [وهي غير كومتيه برجنديا أو فرانس كومتيه، ويفصل بينها نهر الرون، وتقع الدوقية ضمن الحدود الفرنسية) ثم تعهد فرانسوا الأول بالتنازل عن كل ادعاءاته في ميلان ونابولي وفلندرا وأرتوا. ثم تعهد بمساعدة نافار. وأعطى ولدين من أبنائه رهينة؛ وتعهد بأن يتزوج من شقيقه شارل، ملكة البرتغال (الأرملة) وبذلك أطلق سراحه فعاد إلى فرنسا ١٥٢٦.

ولكن هذه الهزيمة البالغة سرعان ما حركت مخاوف بقية الدول من زيادة سطوة أسرة الهابسبرج في أوروبا فتألف ضد الأمبراطور حلف كونياك في مايو ١٥٢٦ وكان أعضاؤه: فرانسوا الأول، البابا كلمنت السابع البندقية، ميلان، فلورنسة، إنجلتره، وذلك لتخليص إيطاليا من سيطرة شارل الخامس وإعادة التوازن الدولي إلى نصابه في أوروبا الغربية، فيتجدد القتال. وفي أثنائه ثار جنود شارل بسبب تأخر رواتبهم، فنهبوا روما في مايو ١٥٢٧، وحاصروا البابا في قلعة سان أنجلو. ومع أن فرانسوا الأول أحرز بعض الانتصارات وأمكنه تخليص البابا من الأسر، إلا أنه انهزم في النهاية واضطر إلى عقد صلح من الإمبراطور في كمبراي في أغسطس ١٥٢٩، وبمقتضاه خرجت فرنسا من إيطاليا. وعادت السيطرة في شبه الجزيرة إلى الامبراطور. وبذلك يكون قد اخفق حلف كونياك في الغرض الذي تألف لتحقيقه.[2]

وعلى الرغم ما أحرزه شارل من انتصارات متلاحقة على فرنسا، إلا أن تطور الأحداث في بلاده، وقيام حركة الإصلاح الديني وما كانت تتطلبه من تفرغ ومجابهة أضعف قدرته على الاستمرار، وفي الوقت نفسه كان فرانسوا الأول ملك فرنسا يتصل بالبروتستانت الألمان لمساعدتهم وإثارتهم ضد عدوه شارل رغم أن فرانسوا كان كاثوليكيا متعصبا.

ومن ناحية أخرى كانت فرنسا على وشك الانهيار بعد الهزائم التي منيت بها لولا انشغال الإمبراطور بمجابهة حركة الإصلاح الديني في ألمانيا. وعندئذ توافرت الأسباب والظروف لعقد الصلح بين الدولتين في كامبراي كما سبق القول، وحدثت بعض التطورات حيث أن شارل الخامس غادر إيطاليا سنة ١٥٣٠. بعد أن توّجه البابا رسميًا، وكان آخر إمبراطور في تاريخ أوروبا يتوّج على يد البابا، واتجه إلى ألمانيا لمحاولة القضاء على البروتستنت الخارجين على الكاثوليكية، وقضى هناك عامين [١٥٣٠ - ١٥٣٢] انشغل أثناءهما بالمشكلات الداخلية والخارجية. وكان أخطرها وصول الأتراك العثمانيين إلى الأراضي المجرية، واحتلال معظمها واستعدادهم بعد ذلك لمهاجمة فينا. واضطر الامبراطور إلى مهادنة البروتستنت فعقد معهم اتفاق في نورمبرج ١٥٣٢ وبذلك تفرغ للخطر الخارجي حيث قاد جيشا كبيرا استطاع به طرد الأتراك العثمانيين الذين تقهقروا أمامه.

وفي نهاية العام عاد إلى إيطاليا حيث قابل البابا، ثم عقد معاهدات دفاعية مع معظم الولايات الإيطالية ماعدا البندقية ثم غادرها إلى أسبانيا في ربيع ١٥٣٣.

وعلى الرغم من المعاهدات الدفاعية التي عمدها في إيطاليا فإن مركزه فيها لم يكن آمنًا. فإن ملك فرنسا فرانسوا الأول، كان يرنو إلى الانتقام وعدم التقيد بمعاهدة كمبريه، ولذلك رأى أن يقوى ساعده بالتحالف مع البروتستنت في ألمانيا، ومع السلطان العثماني. ورغم أن الحكومة الفرنسية كانت تضطهد البروتستنت في فرنسا نفسها. إلا أنها وجدت من مصلحتها أن تتصل البروتستنت. في ألمانيا وتساعدهم ضد الإمبراطور. وفي الوقت نفسه قام الملك بالاتصال بالبابا الذي كان

فى واقع الأمير يميل لملك فرنسا ويرغب فى إعادة ميلان وجنده للتاج الفرنسى. إلا أن وفاة البابا كلمنت السابع عام ١٥٣٤، وانتخاب البابا الجديد بول الثالث حرم فرنسوا من الوعد الذى قطعه البابا كلمنت على نفسه، وتحسن موقف الإمبراطور شارل.

وكان فرانسوا الأول قد اهتم بإعادة بناء القوات المسلحة البرية، ونال سلاح المشاة من الملك عناية خاصة بعد أن كان الاهتمام من قبل موجهًا إلى سلاح الفرسان، وأهم من هذا كله. نجح فرانسوا الأول فى التقريب بين الشعب والجيش وحدث التحام بين هاتين القوتين، واكتسب الجيش الفرنسى مزيدا من الطابع الشعبى الوطنى. ولما بدأ القتال زحف الجيش الإمبراطورى على فرنسا من ناحية الجنوب الشرقى، ولكنه لم يحرز انتصارًا ذا قيمة واضطر إلى الانسحاب بعد أن تكبد خسائر فادحة.

مضت العمليات العسكرية بين قوات فرنسا وقوات الإمبراطورية، تدور فى ضراوة بالغة، وتكبدت الدولتان خسائر فادحة. دون أن تنال إحداهما انتصارا حاسمًا. وتدخل البابا بول الثالث لوقف العمليات العسكرية بعقد هدنة بين المتحاربين. ولكن نجد أن هناك عوامل ساعدت على التقريب بين العاهلين، فقد كان الإمبراطور يعتقد أن ملك فرنسا هو العاهل الوحيد الذى يستطيع أن يقوم بدور الوسيط بينه وبين الأتراك العثمانيين لعقد هدنة بين هذين الجانبين. وكان البلاط الملكى الفرنسى يضم شخصيات قوية ذات تأثير قوى على الملك، وكانوا يرون أن تحالف فرنسا مع الأتراك العثمانيين يحمل فى طياته خطرًا على المسيحية. وكان الشعور الدينى عند هؤلاء المستشارين قويًا يفوق الاعتبارات السياسية، وفى نظرهم يجب أن تكون السياسة والدبلوماسية فى خدمة الدين المسيحى، وقد خلصوا إلى أن ضرر التحالف مع العثمانيين أكثر من نفعه. وكان الدوق دى مونتمورنسى Montosmrency على رأس هذا الفريق، وكان من أنصار إنهاء الحرب مع

الإمبراطور، فلما صدر في ١٠ فبراير ١٥٣٨ مرسوم ملكي بتعيينه في منصب الكونستابل خطت قضية السلام خطوات كبيرة نحو التقدم.

وتم عقد الهدنة في نيس سنة ١٥٣٨ وتقرر فيها وقف العمليات الحربية لمدة عشر سنوات. وأن يحتفظ كل من العاهلين بالأراضي والأقاليم التي في حوزته وقابل الرأي العام في فرنسا نبأ عقد الهدنة بمظاهر الابتهاج واعتبرها مقدمة لإبرام صلح نهائي.

على أن هذه الهدنة لم تستمر أكثر من أربع سنوات، ففي عام ١٥٤١ قتل السفير الفرنسي حينما كان يعبر ميلان في طريقه إلى القسطنطينية، وفي السنة التالية ١٥٤٢ أعطى شارل الخامس دوقية ميلان إلى ابنه فيليب، فنشبت الحرب بين الفريقين عام ١٥٤٢. وفيها تحالف هنري الثامن ملك إنجلترا مع شارل الخامس.

وقد انتصرت القوات الفرنسية في بيدمنت، ولكن قوات كل من شارل الخامس وهنري الثامن تمكنت من إخضاع لوكسمبرج كما توغلت قواتهما في فرنسا حتى هددت باريس. على أنه نظرًا لعدم اطمئنان شارل الخامس لحليفه هنري الثامن، ولرغبته في فض التحالف بين فرانسوا والعثمانيين. عرض على فرانسوا الأول الصلح وتم ذلك بمعاهدة كرسبي Crespy في سبتمبر ١٥٤٤ وبمقتضاها تركت الفتوح التي حصل عليها الطرفان بعد هدنة "نيس" وتنازل شارل عن ادعاءاته في نابولي وعن سيادته على الفلاندز وأرتوا، واتحد الطرفان في الدفاع عن المسيحية ضد العثمانيين وإعادة السلم والوحدة للكنيسة ضد البروتستانت.

على أنه في مارس ١٥٤٧م توفي فرانسوا الأول وخلفه على العرش ابنه هنري الثاني وبدأت الحروب الإيطالية تأخذ طابعًا آخر، ويرجع ذلك إلى ظهور الحركة اللوثرية، كما أن النزاع على إيطاليا كان من أهم أسباب استئنافها.

هنرى الثانى

وقع هنرى الثانى تحت تأثير أسرة جيز Guise الفرنسية. وكانت هذه الأسرة تنسب لبيت انجو Anjou صاحب الأملاك القديمة فى إيطاليا وفى بيت المقدس فكان لهذه الأسرة أطماع واسعة. أضف إلى هذا أن مارى لورين شقيقة دوق جيز والكاردينال شارل تزوجت من جيمس الخامس ملك اسكتلندة واستأثرت بكل سلطة فى اسكتلندا بعد وفاة زوجها لصغر سن ابنتها مارى استيوارت. وكانت سياسة أسرة جيز استئناف الحرب مع الامبراطور صاحب النفوذ الواسع فى إيطاليا. واعتمدت على الروابط العائلية لتقوية المحالفة بين فرنسا واسكتلنده فى أثناء هذا النضال. وكان مما شجع هنرى الثانى على تجديد الحرب أن البابا بول الثالث كان على خلاف مع الإمبراطور نشأت المسألة الدينية وذلك عندما طلب الإمبراطور سرعة النظر فى مسألة الإصلاح الضرورى للكنيسة الكاثوليكية واصدر النظام [أو العقيدة] المؤقتة Interim سنة ١٥٤٨ لإنهاء النزاع الدينى فى ألمانيا، وكان هذا النظام المؤقت يشتمل على بعض التساهل المحدود إرضاء للبروتستنت فغضب البابا الذى أراد قبل أى شئ آخر تعريف وتجديد العقيدة الكاثوليكية ذاتها. وزيادة على ذلك فقد أزعج البابا بول الثالث توطيد النفوذ الأسبانى فى لمبارديا. فقد ضمت أسبانيا بارما دبياكنذا Piacanza إلى دوقية ميلان وذلك بعد أن اغتيل حاكم بارما وبياكنزا الذى كان ابنا غير شرعى للبابا نفسه (١٥٤٧) فأخذ البابا يتفاوض مع ملك فرنسا لاستئناف القتال فى إيطاليا.

غير أن هنرى الثانى فى هذه الآونة كان مشغولا بالحرب مع انجلترا. وسبب هذه الحرب أن البلاط الإسكتلندى الكاثوليكى [والخاضع لنفوذ مارى لورين الفرنسية] امتنع عن تنفيذ خطوبة مارى استيورات إلى إدوارد السادس ملك إنجلترا الدولة البروتستنتية. فأرسل الإنجليز جيشا هزم الاسكتلنديين فى موقعة بينكى Piankie (١٠ سبتمبر ١٥٤٧) فاحتمت اسكتلندا فى فرنسا، وعقدت مارى لورين

خطوبة ابنتها إلى فرنسا، على الدوق أو ولى العهد فرانسوا ابن الملك الفرنسى (أغسطس ١٥٤٨). فانذرت هذه الخطوبة باحتمال أن ينضم التاج الاسكتلندى إلى التاج الفرنسى، فقامت الحرب بين إنجلترا وفرنسا واستمرت هذه الحرب حتى مارس ١٥٥٠. وخسر الإنجليز فى هذه الحرب ثغربولونى فى فرنسا الشمالية، فى نظير حصولهم على مبلغ من المال من فرنسا، وكان لهذا الانتصار أثر كبير فى تشجيع هنرى الثانى بعد ذلك على القيام بعمل حاسم ضد الإمبراطور شارل الخامس.

ورأى هنرى الثانى ألا يدع الأمور تسير فى مصلحة غريمه - شارل الخامس - فعمل على إثارة الأمراء البروتستانت ليعاودوا السعى فى مقاومة الإمبراطور واتصل بهم فى الخفاء وقدم لهم المعونات المالية رغم أنه كان متعصبًا للكاثوليكية، وعقد معهم معاهدة يقدم لهم بموجبها نفقات الحرب فى مقابل موافقتهم على أن تستولى فرنسا على تول ومتز وفردان وهى مدن على الحدود يتكلم معظم سكانها الفرنسية، وبذلك يمتد نفوذها إلى الألزاس واللورين.

وفى فبراير سنة ١٥٥٢ قام هنرى الثانى بالهجوم على الحدود الألمانية، فعبرت قواته نهر الميز واستولت على فردان وتول ومتز، واشتركت جيوش الأمراء الألمان المتحالفين معه فى الحرب ضد الإمبراطور. واضطر شارل الخامس إلى شن حملة مضادة لانتزاع متز - وهى أقوى حصن من حصون الحدود فى اللورين - فحاصرها بقوات أتى بها من ألمانيا وأسبانيا، إلا أن هذه القوات باءت بالفشل، فاسقط فى يده. ولم يستطع احتمال الكارثة. وتعب من طول الحروب التى خاضها، وبعد تفكير عميق، قرر أن يتنازل عن عرش الإمبراطورية الرومانية التى تشمل ألمانيا والنمسا لأخيه فردناند. وعرش أسبانيا الذى كانت تتبعه الأراضى المنخفضة والممتلكات الأسبانية فى العالم الجديد لابنه فيليب الذى سبق أن زوجه مارى تيودور ملكة إنجلترا وهو زواج سياسى يضمن وقوف إنجلترا فى صف أسبانيا. ولقد

تم التنازل الرسمي في أكتوبر ١٥٥٥. وقضى بقية حياته في أسبانيا حتى مات ١٥٥٨.[١]

وهكذا انقضت أحلام شارل الواسعة ولم يستطع تحقيقها إلا جزئيا وما لبثت أن تبددت أمام مقاومة فرنسا من جهة، وأمام انقسام ألمانيا إلى قسمين بسبب انتشار العقيدة اللوثرية من جهة أخرى. ولذا لم تستطع ألمانيا أن تقف صفًا واحدًا أمام الغرب في الساعة الحرجة، وأخيرًا بسبب الوفاق الفرنسي العثماني، الذي اضطر الريخ الألماني إلى الحرب على جبهتين وكان انقسام هذه القوى الألمانية قاضيًا على الأحلام.

إن انقسام امبراطورية شارل إلى قسمين نمساوي وأسباني لم يضعف، كما كان قد يظن، قوة آل هابسبورج، بل أنه زادها. ولهذا السبب نفسه كان شارل يؤمل أن يرى نجاح ابنه في الحقل الذي اخفق فيه. ففي عدة مناسبات كانت جهود النمسا وأسبانيا تنضم إلى بعض. وكان توزيع التبعات يخفف عن كاهل الامبراطور بعض الضغط ويجعل هذه التبعات سهلة على ورثته. إلا أن نقص الموارد المالية ظل فادحًا كما في السابق. وهذا ما أصطدم به فيليب الثاني كأبيه، ونجت منه فرنسا في أحرج ساعاتها في عهد فرانسوا الأول وهنري الثاني.

أما هنري الثاني على ما عرف عنه من جلد في أيام الشدائد وميوعه في الأوقات العادية، فقد تجمعت حوله المؤثرات والدسائس وانقاد لها فمن ذلك أن زوجته كاترين ميدتش كانت عدوة إلى كوزم ميدتش الذي يحكم فلورنسا، وكان يساورها القلق الإيطالي. وكانت خليلته ديانا بواتيه توحي إليه بكثير من الأمور وتملي عليه نصائحها الثمينة حينا والسيئة حينا آخر، وكذلك مونمورانس، يطل فكرة السلام التي لم يتخل عنها أبدًا، كان يحاول الحفاظ على ثقة الملك به بجميع الوسائل. ولم يكن آل جيز أقل طمعًا من مونمورانس، بل كانوا ينازعونه تسيير المصالح ويرغبون بالحرب بقدر ما يرغب منافسهم بالسلام، وكان البابا بولس الرابع نابولي القلب والأصل ولذا كان خصمًا لدودًا لأسبانيا. وكان أخ البابا كارلو كاردينالا

طموحًا جشعًا لا يقل عن قيصر بورجيا. وابن أخيه عمانويل فيليبرت دوق سافوى كان رجل حرب، وقد عز عليه أن يرى بلاده محور نزاع بين الدول المجاورة فأراد أن يحافظ على سلامتها الصالحة.

وكان جرانفيل مستشار شارل الذى يصغى إليه ويعمل بنصحه، يوجه سياسة فيليب الثانى فى الأراضى المنخفضة. وكانت ماريا تيودور ملكة انجلترا وزوجة فيليب الثانى تساند تعصب زوجها للكاثوليكية ولذا لم يعملا شيئا من جهة فرنسا وفكرا أن تبقى بسلام. وقد عمل مونسورانس كل ما فى وسعه لصيانة هدنة فوسيل.

غير أن البابا وابن أخيه فكرا بما يخالف ذلك، فقد وجدا بغيتها فى فرانسوا دوق جيز، فلمحا له بنابولى، وفى هذه المرة نرى البابا بشخصه يشعل نار الحرب فى إيطاليا. أما هنرى الثانى فكان حائرًا، ثم انقاد إلى حليفه. وبينما كان جيز مندفعًا فى طريقه إلى نابولى اجتاح الأسبانيون فرنسا من الشمال، وانتصروا على الفرنسيين فى واقعة سان كانتان، وبدا طريق باريس مفتوحًا أمامهم. غير أنهم لم يعرفوا كيف يستفيدون من هذا النصر، لأن دوق جيز رجع فى هذه الأثناء بعد أن أسر موغورانس، وغسل عار الإخفاق بحصار كاليه وفتحها عنوة ١ - ٦ ديسمبر ١٥٥٨ .

معاهدة كاتوكمبرسيس ١٥٥٩

ولهذه المعاهدة أهمية كبيرة حيث تقرر فيها:

أولا : فى الحدود الشمالية الشرقية الفرنسية

أعادت فرنسا مارينبرج Marienburg وتيونفيل Thionville ودامفلير Damvillers ومونتوميدى Montmedy واستبقى فيليب هزدن Hesden وهذا فى نظير أن تحصل فرنسا على "سان كانتان، وهام Ham ولوكاتليس La Catelet

وتيرونان Terounanne وفى الوقت نفسه أرجعت فرنسا إلى اسقف لييج Liége بلدتى بوفين Béauvines وبويون Bouillon.

ثانيا : فى إيطاليا :

تنازلت فرنسا عن كل ادعاءاتها فى شبه الجزيرة الإيطالية وسلمت بالنظام الذى أرسى قواعده من قبل شارل الخامس للحكم الأسبانى فى إيطاليا، فظلت أسبانيا محتفظة بكل ميلان فى شمالى إيطاليا ونابولى فى جنوبيها. وبذلك أخلت فرنسا الطريق أمام أسبانيا لإحكام سيطرتها الفعلية على شبه الجزيرة الإيطالية. كما وافقت فرنسا على التنازل عن سافوى وبيدمنت إلى القائد العسكرى الذى كان يقود الجيش الأسبانى واجتاح به شمالى فرنسا سنة ١٥٥٧، وأوقع بالفرنسيين هزيمة ساحقة بالقرب من مدينة سان كانتان هذا القائد هو دوق سافوى ويسمى عمانويل فيليبرت Emmauuel Philibert. وقد اهتمت المعاهدة بأمر تزويجه. إذ نصت على أن يتزوج هذا الدوق من أخت ملك فرنسا - واسمها مرجريت - ويكون الصداق الذى تقدمه العروس إلى زوجها هو تنازل فرنسا عن دوقية سافوى. وكانت تشمل إقليمى سافوى وبيدمنت. ويعتبر هذا الدوق هو المؤسس الحقيقى لدولة بيدمنت وهو الذى جلب لها الاستقلال. وكانت تسمى أيضا مملكة سردينيا. وقد قامت هذه الدويلة إلى حد كبير وبمضى الأيام بدور الدولة الحاجزة بين فرنسا وشبه الجزيرة الإيطالية. وستقوم بدور حاسم وقيادى فى حركة النضال الوطنى لإتمام الوحدة السياسية لإيطاليا فى القرن التاسع عشر.

وكان تنازل فرنسا عن سافوى وبيدمنت خسارة كبيرة ومثار منافسة بين الباحثين الذين وجدوا صعوبة فى تفسير أو تبرير هذا التنازل. لقد كانت سافوى وبيدمنت بمثابة بوابة كبيرة تتسلل منها فرنسا إلى شبه الجزيرة الإيطالية.

وكانت فرنسا قد استطاعت قبل إبرام المعاهدة وبفضل وجودها فى سافوى وبيدمنت أن تحتل عددا من المدن الإيطالية فى شمالى غرب إيطاليا. وقد قيل فى

تبرير هذا التنازل إن فرنسا كانت فى حاجة ماسة إلى السلم لتسترد أنفاسها من حروب مضنية استطال أمدها. كما قيل إن الانقسام الدينى فى فرنسا بين الكاثوليك والهيجونت - وهم بروتستنانت فرنسا - كان قد تفاقم خطره وبات يتطلب تركيزا من اهتمام هنرى الثانى لمواجهته. ومهما يكن من أمر فقد تقرر فى المعاهدة أن تحتفظ فرنسا بمدينتى تورين Turin وكاسال Casal وبعض أماكن لفترة زمنية كضمان لتنفيذ المعاهدة.

والواقع أن ما قررته المعاهدة بخصوص الوضع السياسى فى شبه الجزيرة الإيطالية كان نصرا رائعا لأسبانيا بقدر ما كان إخفاقا مزريا بالنسبة لفرنسا.

ثالثا: احتفظت فرنسا لنفسها بالثلاث أسقفيات التى استولى عليها هنرى الثانى وهى متز وتول وفردان، على أن تظل من الناحية الأسمية تابعة للإمبراطورية الرومانية المقدسة، وقد كان لهذا الكسب الفرنسى أثره فى المستقبل. عندما أقدمت فرنسا على احتلال إقليم اللورين كله بعد قرنين من إبرام تلك المعاهدة.

رابعا: قررت المعاهدة أن تحتفظ فرنسا بثغر كاليه لبضع سنين ثم يعاد فى وضع هذا الثغر.

خامسا: لم تشأ فرنسا المطالبة بأى تعويض لحليفها ملك نافار، وتزوج فيليب الثانى من اليزابيث ابنة هنرى الثانى ملك فرنسا فى حين تزوج دوق سافوى من مرجريت أخت ملك فرنسا. ولكن فى أثناء احتفالات الزواج قتل هنرى الثانى حينما كان يقوم بأعمال الفروسية فى ١٠ يوليو ١٥٥٩م.

وتعتبر معاهدة كاتوكمبرسيس فاتحة عهد جديد فى العلاقات الدولية فى أوروبا. فقد كانت خاتمة حروب طاحنة استمرت نيرانها مدى أربعين عاما بين فرنسا وأسبانيا، إلا أن المؤرخين المعاصرين فى فرنسا اعتبروا هذا الصلح كارثة حلت بفرنسا، وأن هنرى الثانى كان متساهلا فى حقوق وطنه بمنح الملك الأسبانى فيليب

شروطًا سخية فى الوقت الذى كان الأخير فيه قد تعب من الحرب، وكان محتملا أن يفشل عن مواصلتها، ولكنهم كانوا يقرون تكالب الملك الفرنسى على الصلح أنه كان شديد الرغبة فى أن يتفرغ لمكافحة الخارجين على الكاثوليكية فى فرنسا عندما انتشرت حركة الإصلاح الدينى.

والواقع أن الحروب الإيطالية التى انتهت بمعاهدة كاتوكمبرسيس قد عاصرتها حروب دينية انتشرت بين كثير من الشعوب الأوروبية، وبقيت مستمرة هنا وهناك حتى عام ١٦٤٨، هو العام الذى انتهت فيه حروب الثلاثين عامًا بعقد معاهدة وستفاليا

الفصل الخامس

حركة الإصلاح الدينى

حركة الإصلاح الدينى

من الآراء الشائعة أن حركة الإصلاح الدينى حدثت فى أوروبا مفاجأة وأن الكنيسة الكاثوليكية عند حدوثها كانت تعيش فى هدوء واستقرار. ولكن الحقيقة فى كلا الحالين خلاف ذلك. فالكنيسة الكاثوليكية كانت معرضة من أيام نشأتها الأولى إلى إخطار متنوعة يمكن تقسيمها إلى قسمين:-

أخطار القسم الأول هى التى تعرضت لها الكنيسة فى عصورها الأول مثل الجدل الذى أثير حول طبيعة المسيح [فالأريوسية - أتباع أريوس Arius تقول أن المسيح محدث مخلوق ومشابه لله فقط، والأثنانيوسية - أتباع اثنانيوس Athnasins تقول أن المسيح لا يشبه الله فقط، بل إنه مماثل لله فى جميع صفاته] ومثل انتشار الإسلام، ووقوع القسطنطينية فى يد الأتراك العثمانيين الذين استمروا يهددون أوروبا زمنا طويلا، ومثل هجوم البرابرة الوثنيين من اسكندناوة. ولكن هذه الأخطار بدلا من أن تضعف الكنيسة كانت من عوامل تماسكها وقوتها حتى تتمكن من مقاومة هذا الضغط الموجه ضدها من الخارج.

وأما أخطار القسم الثانى فقد ظهرت بمجرد أن أخذ ضغط الأخطار الخارجية عن الكنيسة يخفف، ويمكن إيجاز هذه فيما يلى:-

١- قيام حركة الألبجنس Albigensian movement نسبة إلى بلدة ألبى Albi فى مقاطعة لا نجدوك بفرنسا - وكانت هذه حركة هدامة، لأن أصحابها نفوا وجود إله واحد وقالوا بوجود قوتين متنافستين إحداهما للخير والأخرى للشر، وانشأوا لهم نظاماأكليروسيا خاصا، وهددوا سلطة الكنيسة الكاثوليكية، حتى أمكن القضاء على هذه الحركة فى بداية القرن الثالث عشر.

٢- انتقال البابا كلمنت الخامس من روما إلى أفنيون فى بروفنس فى بداية القرن الرابع عشر (١٣٠٩) وخضوع البابوية لنفوذ فرنسا مدة الأسر البابلى Bablonic Captivity مدة سبعين عاما، إلى أن رجعت البابوية إلى روما (١٣٧٧) فقدت الكنيسة كثيرا من صفة الزعامة العالمية التى كانت لها.

٣- وعند رجوع البابوية إلى روما، حدث الانقسام العظيم Grand Schism (بسبب وجود بابا فى روما وآخر فى أفنيون) واستمرت الانقسامات مدة طويلة بين الكرادلة ورجال الدين حتى عام ١٤٤٧. فكانت البابوية عامل تفكك يعرض الكنيسة ذاتها إلى خطر الزوال، بدلا من أن تكون البابوية عامل قوة يضمن وحدة الكنيسة وبقائها. وكان من أهم آثار المساوئ التى نجمت من هذه الحوادث، خصوصًا حادثى الأسر البابلى والانقسام العظيم، أن سلطة البابوية نفسها صارت منذ هذا الوقت المبكر موضع نقاش من جانب فريق لا يستهان به من رجال الكنيسة أنفسهم.

٤- من الأخطار المادية التى ساعدت على تضعضع الكنيسة الكاثوليكية أثناء حوادث الأسر البابلى والانقسام العظيم انتشار وباء الطاعون المعروف باسم الموت الأسود Black Death الذى اجتاح أوروبا فى القرن الرابع عشر (١٣٤٨ - ١٣٥٠) فأهلك مئات الألوف من الأنفس، وفنيت مجتمعات بأسرها، وانقطعت الصلة بين المجتمعات المختلفة خوفًا من نشر العدوى عند الانتقال من مكان إلى آخر. فكان من أثر ذلك أن قضى فى بعض الجهات على طوائف من الأديرة بأكملها، وأن تفكك ذلك النظام الاجتماعى الذى قام على الإقطاع فى أوروبا، وقد حدث هذا التفكك نتيجة لتعزيز الشعور المحلى ثم الشعور القومى على أساس الانفصالات المحلية وأدى تعزيز الشعور المحلى بدوره إلى نمو وانتشار تعاليم دينية جديدة معارضة لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية.

٥- وكان أصحاب هذه التعاليم الخطرة الجديدة هما (جون ويكلف John Wycliff ١٣٣٠ - ١٣٨٤) فى إنجلترا [ويوحنا هوس John Huss (١٣٧٠ - ١٤٥٠) فى بوهيميا وخالفت تعاليمها تعاليم الكنيسة الكاثوليكية. ورفضت بعض العقائد الكاثوليكية، ونادت بوجوب الرجوع إلى الكتاب المقدس وحده والاحتكام إلى الضمير فى جميع المسائل الدينية كما هاجمت هذه التعاليم ذلك السلطان الدنيوى الى استأثر به رجال الدين، وتلك الثروة الطائلة التى تمتعوا بها؛ وأخيرا رفضت هذه التعاليم سيطرة البابوية.

٦- وعندما حاول رجال الدين الكاثوليك معالجة هذه المسائل وإزالة المساوئ التى أضعفت نفوذ الكنيسة وهددت كيانها، عقدوا المجالس الدينية لإدخال الإصلاح اللازم للكنيسة من داخل الكنيسة وبواسطة الكنيسة ذاتها؛ ولكن محاولتهم لم تنجح. بل إن آخر هذه المجالس وهو المجلس الدينى الذى عقد فى بال Basle فى سنة ١٤٣١ أراد أن يضع القرارات التى تصدرها المجالس الدينية فوق قرارات البابا، وأراد أن يحد من سلطة البابوية فى النهاية عندما اعتلى كرسى البابوية نقولا الخامس فى سنة ١٤٤٧م فدعم سلطانها. ولكن هذا الانتصار كان معناه من ناحية أخرى أولا: أن حركة المجالس الدينية قد فشلت فى إدخال الإصلاح المطلوب من داخل الكنيسة وبواسطة الكنيسة، وثانيا أن سيطرة الكنيسة الروحية تضعضت وبدأت الكنيسة الكاثوليكية تفقد من هذا الحين زعامتها الدينية، تلك الزعامة التى تمتعت بها أجيالا عديدة وهى تسيطر منفردة على العالم المسيحى فى كل أوروبا الغربية.

وعلى ذلك شعرت أوروبا، فى الأجيال الأخيرة من القرون الوسطى، باضطراب فكرى وقلق روحى عظيم، وكان وجود الكنيسة الكاثوليكية تحت سلطة البابوات بحالتها السيئة التى سبق وجنبها من عوامل هذا الاضطراب بدلا من أن تكون من أسباب تهدئة النفوس المضطربة. ذلك أن السيطرة التى تمتعت بها الكنيسة، من الوجهة النظرية على الأقل، كانت قد فقدت الكنيسة كل أساس أخلاقى (أدبى وروحى) تعتمد عليه ويبرر الغرض من وجودها. وفى هذه الحالة انصرف الناس من الكنيسة كى يبحثوا فى مكان آخر عن الهدوء الروحى والطمأنينة الفكرية التى ينشدونها، وتولد شعور ملح بالرغبة فى الإصلاح. حقيقة كانت هذه الرغبة مبهمة ولكنها على كل حال كانت تريد إصلاحًا يعيد إلى الكنيسة وإلى وحدة العالم المسيحى تلك القيم القديمة التى تمكن من عودة الهدوء والسكينة إلى النفوس القلقة والحائرة.

كان من نتائج تلك العوامل مجتمعة أن فقدت الكنيسة المكانة العالية التى كانت قد تبوأتها، واهتز الأساس الروحي والأخلاقى الذى أقامت عليه نفوذها بل جبروتها فى العصور الوسطى، وبات المسيحيون فى دول غربى أوروبا يتحدثون عن ضرورة إصلاح الكنيسة والقضاء على الانحرافات الخطيرة التى ظهرت بين رجالها وتطوير نظمها وتنظيم علاقاتها مع أرجاء العالم المسيحى.

كان هناك اتجاهات لإصلاح الكنيسة. الاتجاه الأول هو أن يقوم رجال الكنيسة أنفسهم بإصلاح الكنيسة من المفاسد التى لوثتها. يسمى هذا الاتجاه الإصلاح من الداخل. وكان قوام هذا الاتجاه عقد المجامع الكنيسة تباعًا وعلى فترات متقاربة. وكان على رأس المطالبين بإصلاح الكنيسة دون الخروج عليها و يوحنا روكلن [١٤٥٥ - ١٥٢٢] وارزمس Didie Erasmes [١٤٦٧ - ١٥٣٦]، أما الأول فقد أثار بكتاباته وانتقاداته تفكير المثقفين، وأصبح له أتباع وتلاميذ يبحثون فى مساوئ الكنيسة ومثالها، وينتقدون ما تفشى على يد الكنيسة من بدع وخرافات ونجحوا فى تهدئة الرأى العام بفكرة الإصلاح الدينى.

أما ديزيديريوس ايرازموس Desiderius Erasmes فهو إنسانى، وهو الزعيم المعترف به لحركة الاستنارة فى أوروبا حتى أيام فولتير، وقد نادى بإصلاح عيوب الكنيسة، وأسهم فى إثارة الرأى العام ضد البابوية والكنيسة، وإن لم يستهدف هو أيضًا الانفصال عن الكنيسة أو الانشقاق عنها.

وتتمثل أهميته، من ناحية الإصلاح الدينى فى ترجمته إلى اللغة اللاتينية القسم اليونانى من الكتاب المقدس، أى الإنجيل أو العهد الأعظم، وأرفق مع هذه الترجمة النص اليونانى القديم الأصلى، فكشف بهذه الترجمة الصحيحة ما فى الترجمة اللاتينية القديمة للكتاب المقدس، والتى راجعها القديس جيروم فى القرن الرابع، واعتمدتها الكنيسة الكاثوليكية The Vulgate، من أخطاء فى بعض مواضعها. وبذلك لم تعد نسخة الانجيل المكتوبة باللاتينية منذ القرن الرابع شيئاً مقدساً.

وقد كان تأثير ذلك على الفكر المسيحي عظيمًا. فإذا كان في وضع الرجل العلماني أن ينفذ من وراء اللغة اللاتينية، وهي اللغة الرسمية للاكليروس، إلى اللغتين الأصليتين اللتين كتب بهما الكتاب المقدس، وهما العبرية التي كتب بها العهد الجديد. أو الإنجيل. وإذا كانت نسخة الإنجيل المكتوبة باللاتينية والمعتمدة من الكنيسة الكاثوليكية، وقد فقدت دراستها، فقد كان لابد أن تظهر فكرة الإنسان يستطيع الاتصال بربه مباشرة دون وساطة القس.

ومع فشل الكنيسة في إصلاح نفسها بنفسها، وعدم استجابتها لرغبات المصلحين، انتقلت حركة الإصلاح الديني إلى مرحلتها الثانية، وهي مرحلة فرض الإصلاح من الخارج. وهذه المرحلة لا تقتصر فقط على إصلاح الكنيسة بل وإصلاح العقيدة ذاتها، وكان على رأس هذه الحركة مارتن لوثر Martin Luther (١٤٨٣ – ١٥٤٦) وأولريك زونجلي ulitich Zingli ويوحنا كلفن John Calvin.

حركة الإصلاح الديني في ألمانيا

مارتن لوثر Martin Luther (١٤٨٣ – ١٥٤٦)

نشأ في مدينة ايزليبين Eisleben في سكسونيا في أسرة قروية فقيرة وعاش عيشة بائسة، وكان أبواه يقسوان عليه. كما تأثر بشبح الخوف الذي كان متسلطًا على الأذهان إذ ذاك بسبب الفوضى الأخلاقية والدينية التي انتشرت عندئذ. تلقى دراسة القانون في جامعة "إرفورت Erfurt" وحصل على الماجستير في القانون من نفس الجامعة في عام ١٥٠٥. ولكنه لم يلبث أن انصرف عن هذه الحياة العلمية، ودخل في سلك الرهبان المعروفين بجماعة سانت أوغسطين في "ارفورت" وفي ذلك الدير أشبع رغبته في التأمل والتفكير في تخليص الروح. وبعد عامين التحق بجامعة فتنبرج Wittenberg ليتم دراسته الدينية. وكانت تلك الجامعة أحدث وأصغر جامعات ألمانيا. فقد أنشأها منتخب سكسونيا عام ١٥٠٢م وفي ذلك دليل على حماسة ألمانيا للحركة العلمية. ولم تكن الجامعة لحداثة عهدها من الجامعات

المشهورة. وقد استطاع لوثر بما جبل عليه من مثابرة وقوة أن يجعل لها مكانة عظيمة فيما بعد. أصبح في عام ١٥١٢ أستاذًا للاهوت في الجامعة. ونجح نجاحًا عظيمًا في مهمته في التدريس والوعظ.

وقد كانت السنوات التى قضاها فى هذه الحياة الدينية، ملآى بدراسته المستفيضة لعلم اللاهوت وبأعمال التقشف وتعذيب النفس، ومع ذلك لم يستطع أن يتخلص من حالة القلق التى كانت تساوره إلى أقصى الحدود، إلى أن توصل بعد اطلاعاته العديدة إلى أن "الإيمان" هو خير وسيلة لتخليص الروح و"أن التبرير يكون بالإيمان وحده "أى أن الإيمان المطلق برحمة الله وسيلة إلى الخلاص من عقابه. كانت هذه العقيدة أساسًا للثورة الدينية التى بشر بها، وكانت تضمن الغاء نظام الكنيسة الذى ساد أيام العصور الوسطى حيث كان الاعتماد كله يقوم على الاستمرار والتقاليد الدينية وأعمال البرالتي تقوم بها المنشآت الدينية. فكانت الكنيسة هى المتسلطة على أرواح الأفراد وحياتهم اليومية. وما من شئ كان يمكن من القضاء على تلك السلطة أكثر من عقيدة لوثر التى نادى بها. وقد رفضته عقيدته المشار إليها إلى مصاف أئمة المصلحين الدينيين، فهو قد وجه اهتمامه نحو مسألة الغفران وابتذال الكنيسة، في جمع المال عن طريق بيع صكوك الغفران، إذ أصبحت مسألة الغفران تشترى بالمال بعد أن كانت ترتجى أو يتوصل إليها بالتوبة والاعتراف والصوم.

بلغت مسألة بيع صكوك الغفران مبلغًا مزريًا حقًا عندما أصبحت معركة فى سبيل الحصول على المال يقوم بها "جون تتزل John Tetzel" الواعظ الدومينيكانى لحساب كبير أساقفة "ماينز Mainz" والبابا فى كل من Mainz و Magdburg" وكان البابا يشجع تلك العملية لأنه كان فى حاجة إلى المال لبناء كنيسة سان بطرس في روما. دفعت تصرفات "تتزل" هذه لوثر إلى تعليق احتجاجه على هذه المسألة على باب كنيسة "فتنبرج Wittenburg فى ٣١ أكتوبر ١٥١٧م.

وعبثا حاول البابا أن يجعل لوثر يتراجع عن آرائه. وأخذت الحركة الدينية تنمو بسرعة عجيبة، ولا سيما أن احتجاج لوثر قد لاقى هوى في كثير من النفوس التي رحبت بمهاجمة تلك "التجارة المقدسة" فطرد "تتزل" Tetzel من وظيفته ولم يعد أي ميدان لبيع هذه الصكوك، وطلب البابا "ليو العاشر يومئذ" من رئيس جماعة سانت أغسطين أن يضطروا مارتن لوثر إلى التقهقر والتراجع عن أفكاره الثورية. وفعلا نوقش لوثر في مجمع "هيدلبرج" Heidelberg في مايو سنة ١٥١٨م ولكنه فلم يتقهقر مطلقا عن مبادئه، بل استمر في حركته العدائية للكنيسة في روما التي رأت أن تقبض عليه ولكن رعاية منتخب سكسونيا له كان لها أثرها في حمايته.

وقد توصل مارتن لوثر في عام ١٥٢٠م إلى الاستنتاجات التالية:

أن كل مسيحي معمد قسيس وأن روما هي بابل وأن البابا هو المسيح الدجال، وأنه يجب السماح للقسيس بالزواج وأن الطلاق أمر شرعي. ثم أتم لوثر خصومته مع روما حتى عزت على كل علاج برسائله الثلاث المشهورة – الأولى نداء بالألمانية وجهه إلى العلمانيين حثهم فيه على تولي إصلاح الكنيسة بأنفسهم بعنوان "إلى هيئة النبلاء المسيحيين من الأمة الألمانية بصدد إصلاح العالم المسيحي؛ والثانية رسالة باللاتينية وجهها إلى رجال الفقه الديني بعنوان" مقدمة عن الأسر البابلي الكنسي "De Captivitate Bably Ecclesiae Praeludium" والثالثة رسالة غريبة بعنوان "فيما يمس الحرية المسيحية" وجهها إلى ليو العاشر في الظاهر على أنها نداء للسلام eirenicon. وقال مخاطبًا البابا بصدد هذا كله" وذلك لأنك ترى ما يسمى بهيئة الكهنوت الرومانية التي لا تستطيع أنت ولا غيرك أن تنكر أنها أفسد من بابل وسدوم، ولقد أظهرت احتقاري حقًا وأنتابني الغضب لأن الشعب المسيحي يخدع تحت شعار اسمك واسم الكنيسة المسيحية؛ لهذا قاومت، وسأظل أقاوم ما وجد فيّ عرق ينبض بروح الإيمان" وقد يعذر أي إنسان إيطالي حين لا يرى في مثل هذا التصريح مظهر للمصالحة – فكان أن أصدر ليو قرار بحرمان الثائر في

١٠ ديسمبر ١٥٢٠ بحرق القرار علنًا فأعلن البابا حرمانه من رحمة الكنيسة. ولكن مع هذا الحرمان من رحمة الكنيسة تمكن لوثر من المضى فى دعوته، وقد ساعدته بعض العوامل نذكر منها التأييد السياسى والدينى الذى لاقاه مما كفل له الحماية. فقد انتشرت كتاباته كما انتشرت كتابات "الريك دى هاتن ulrich de Hutten" وغيرهما باللغتين اللاتينية والألمانية. والفضل يرجع إلى اختراع الطباعة فى نشر تلك المؤلفات وإليها يرجع الفضل فى دعوة "هاتن Hutten" الألمانيين إلى السلاح ضد روما فى عام ١٥٢٠م. وقد وصل لوثر فى تلك الآونة إلى منزلة لم يكن يحلم بالوصول إليها، فقد كانت تسعة أعشار ألمانيا كما ذكر أحد أتباع البابا "الياندر Aleindre ينادون بحياته، بينما العشر الباقى الذى لم يكن يتبعه كان ينادى بسقوط روما.

أصبح لوثر بطلاً شعبياً، لأنه كان يعبر عن شعور الألمان فى الرغبة فى معارضة روما البغيضة إلى نفوسهم.

وعندئذ طلب البابا من الإمبراطور شارل الخامس (١٥١٩ – ١٥٥٥) أن يقتص من لوثر وأن ينفذ قرار الحرمان الصادر ضده. فعقد الإمبراطور مجمعا فى فورمز Diet of Worms فى يناير ١٥٢١ لمناقشة لوثر فى آرائه. وطلب إلى لوثر أن يسحب ما كان قد كتبه، ولكنه أجاب بأنه لن يسحب شيئا ما لم يكن متعارضا مع نصوص الكتاب المقدس أو المنطق الواضح فصدر قرار فورمز Edict of Worms بطرد لوثر خارج القانون وإهدار دمه.

وكان بسبب قرار فورمس أن اضطر لوثر إلى الالتجاء إلى قلعة وارتبرج Wartburg تحت حماية فردريك الثالث ناخب سكسونيا ومؤسس جامعة وتنبرج. وقد أقام فى هذا المخبأ لمدة عام تقريبًا، ترجم خلاله الانجيل إلى اللغة الألمانية. وكان لهذه الترجمة أثر كبير فى إحياء الأدب الألمانى، كما أنها جعلت إطلاع عامة الناس على كتابهم المقدس أمر سهلًا ميسورًا.

وفى أثناء اختفاء لوثر فى قلعة وارتبرج، انتشرت حركة الإصلاح الدينى فى ألمانيا عندما صار يروج لهذا الإصلاح أتباعه وتلاميذه، ثم حدث أن أخذ بعض المتحمسين يتطرفون فى دعوتهم، مما أدى إلى وقوع الاضطرابات والثورات وجعل حركة الإصلاح تقترن بالعنف والثورة فى كل مكان تقريبًا.

وكان منشأ هذا التطرف أن ألمانيا وقتئذ كانت تمر بأزمة اجتماعية واقتصادية وروحية نجمت عن انهيار العصور الوسطى بجميع ما كانت تنطوى عليه تلك العصور من مبادئ اجتماعية واقتصادية وسياسية ودينية فى القرن الخامس عشر وأواخر هذا القرن خصوصًا. وحينما بدأت الحركة اللوثرية كحركة احتجاج علنية ضد مساوئ ومفاسد الكنيسة فى سنة ١٥١٧ كانت الأعصاب فى حالة توتر شديد فى ألمانيا كلها. فالطبقة المتوسطة وهى التى سلبت منها ثروتها منذ أن بدأت السلسلة الفقرية الاقتصادية تنتقل تدريجيا إلى أوروبا الغربية، كانت تواجه مشكلة خطيرة، هى مشكلة التفوق بين فقرها الناجم من انتقال مراكز الثروة إلى الغرب وبين أملها فى استعادة المركز الاجتماعى المحترم الذى كان لها فى العصور الوسطى عندما كانت ألمانيا وأوربا الوسطى لا تزال غنية عمومًا ولذلك تغلب على هذه الطبقة التذمر والغضب من الأوضاع الجديدة وزيادة على ذلك فإن الفقر الذى أصاب الطبقة المتوسطة لم يلبث أن أدرك أيضًا طبقة الفرسان **Knights** فى ألمانيا (صغار النبلاء) التى تتألف من المقاتلين والمحاربين فى العصور الوسطى. وعندما انحلت أو تفككت ألمانيا فى بداية العصور الحديثة إلى إمارات محلية تحت سيطرة الأمراء فقد الفرسان أهميتهم القديمة، ونزلت مرتبتهم إلى مجرد مقاتلين يعتمدون فى عيشتهم على النهب والسلب، فامتلأت نفوس الفرسان لذلك بالضجر والتذمر أيضًا. أضف إلى هذا أن الأمراء لم يكن فى استطاعتهم الاطمئنان على سلامة إماراتهم، كما كثرت مطالبهم المالية لسد نفقات الإدارة وغيرها فى هذه الإمارات المتعددة، ثم اشتد تذمرهم عندما وجدوا أغلب موارد الأرض فى إماراتهم، وقد صارت فى يد الكنيسة الكاثوليكية، وهى كنيسة أجنبية عنهم وتعين للوظائف الكبرى من روما

مباشرة، أو تملأ هذه الوظائف بالرجال الذين يرسلون إليها عبر جبال الألب من ألمانيا الأموال الطائلة لإنفاقها على شئونها (أى الكنيسة) المحلية فى روما. وأما طبقة الفلاحين فى ألمانيا كان لا يقل تذمرها عن تذمر بقية الطبقات، وخصوصًا عندما وقع على طبقة الفلاحين هذه عبء المطالب المالية بأجمعها لسد حاجات الأمراء والفرسان والطبقة المتوسطة عمومًا.

ومع أن جميع هذه الطبقات كانت تنظر إلى وجود الإمبراطورية والكنيسة على أنهما دعامة النظام الذى يرتجون منه الخير والمنفعة المادية والروحية فقد تعذر على هذه الطبقات أن تعقد آمالها على هذا النظام منذ أن تضعضعت الإمبراطورية والكنيسة فى القرن الخامس عشر. وعلى ذلك فقد كانت الأفكار فى ألمانيا فى حالة اضطراب شديد عندما ظهر مارتن لوثر بدعوته الإصلاحية، وتوقعت هذه الطبقات المختلفة أن تجد فى الدعوة اللوثرية السبيل الصحيح لتحقيق الأغراض التى تريدها. وهكذا فإنه عندما بدأ تصدع الكنيسة الكاثوليكية على يد مارتن لوثر كان من المتوقع أن يشتط المؤيدين لحركته الإصلاحية فى الخروج على الأنظمة الموجودة، واختلطت مطالب الطبقات المختلفة الاقتصادية بدعوة الإصلاح الدينية المجردة، فنشأ من ذلك جميعه أمران:

أولا: حدوث الاضطرابات الواسعة فى ألمانيا فى هذه الفترة، أثناء لوثر فى عزلته فى وارتبيرج.

ثانيًا: خروج لوثر من عزلته حتى يدعو إلى ضرورة القضاء على هذه الاضطرابات والثورات، ويطلب تحرير الدعوة إلى الإصلاح الدينى من الأغراض الأخرى التى كانت فى نظره تلصق بالإصلاح الدينى المجرد من شوائب كثيرة يجب أن يكون هذا الإصلاح بعيدًا عنها.

وأما هذه الحركات الثورية المتطرفة فأهمها ثلاث: المطالبون بإعادة التعميد، وحركة الفرسان، وثورة الفلاحين.

المطالبون بإعادة التعميد Les Ansbsptistes

طالبت هذه الطائفة بعدم الاكتفاء بتعميد الأطفال. والتعميد Le Baptéme هو تغطيس الطفل في الماء ثلاث مرات على اسم الثالوث المقدس وهو الأب والابن والروح القدس. وقالت هذه الطائفة إن تعميد الأطفال وهم في سن مبكرة لا يتمشى مع تعاليم الإنجيل. وطالبت في سنة ١٥٢٥ بإعادة تعميدهم مرة أخرى حين يبلغون الحلم. وكانت حجة أفراد هذه الطائفة في اعادة التعميد أن أركان الحياة الدينية الصحيحة لا تتوفر إلا في التعميد المتأخر. وقد اطلق على رجال هذه الطائفة Les. Ansbatistes أي المطالبون بإعادة التعميد أو "المعمودية" ونادوا بأراء أخرى غير إعادة التعميد وإن ظلت التسمية الأولى عالقة بهم. ومن هذه الآراء لا يجوز لمسيحي أن يشهر السلاح في وجه مسيحي، لا يجوز لمسيحي أن يقاضي أخاه المسيحي، بل يجب أن تسوى المشكلات بينها بالتراضي، تحريم أداء اليمين، وقد بدأت هذه الحركة أول الأمر في جنوبي ألمانيا ثم اتخذت أصحاب هذه الحركة مدينة مونستر Monster مركزًا لنشاطهم، وانضم إليهم آلاف الفقراء والسذج والبائسين، وامتدت الحركة إلى أنحاء شتى من أملاك الإمبراطورية. وتطرف بعض زعماء الحركة، فنادى أحدهم بالشيوعية، وتعدد الزوجات، وجعل من نفسه قدوة لأنصار الحركة، فكانت له ست عشرة زوجة. ولذلك يطلق عليهم بعض المؤرخين شتى الأسماء: منها الفوضويون Les ansrchistes بلاشفة عصرهم Les Bolchevistes وكانوا لا يمثلون أي نظام ثابت محدد للعقيدة الدينية والعبادة، وقد تطرفوا في حركتهم ولجأوا إلى أعمال العنف، ووقعت اضطرابات دامية عرضت الحركة اللوثرية وأنصارها للخطر. وقد تعاونت السلطات المدنية وعلى رأسها الأمراء البروتستانت مع الهيئات الدينية في سحق هذه الحركة وضرب القائمين عليها دون شفقة ففي بافاريا على سبيل المثال - وضعت السلطات الحاكمة نظامًا موحدًا لمعاملتهم. فكل من انتمى يومًا ما إلى هذه الطائفة ثم نبذ آراءها وتخلى عنها كان يكتفي بضرب عنقه. أما من يظل على ولائه للطائفة متمسكًا بآرائها فإنه تحرق حيا. وسحقت الحركة في إقليم التيرول وفي سويسرا وهولندا وغيرها، أمـ ي مدينة

مونستر – معقل القائمين بهذه الحركة – فقد تخلصت منهم في يونيو ١٥٣٥م. ويذهب بعض المؤرخين الفرنسيين إلى القول بأن المطالبين بإعادة التعميد كانوا بمثابة اليسار بين المتطرفين في الحركة اللوثرية.

٢- حرب الفرسان Les Guerre des Chevaliers

كان الفرسان يكونون طبقة تختلف كل الاختلاف عن بقية أفراد الشعب، فقد كان الفارس يمتلك إقطاعية صغيرة من الأرض يتوسط قصره المشيد على هيئة معقل أو قلعة، ولا يعترفون بالسيادة إلا للإمبراطور نفسه، ولم يكن لأحدهم مقعد في الدايت الألماني، ومن هنا كان عليهم أن يعتمدوا على قوتهم وتضامنهم لكي يحتفظوا بمراكزهم ضد أمراء الولايات من جهة، وضد الإمبراطورية من جهة أخرى. ولكنهم في نهاية العصور الوسطى كانوا قد فقدوا ما كان لهم من هيبة وسلطان بعد انحلال العهد الإقطاعي، وقد دفعهم سوء حالهم إلى التعويض عما وصلوا إليه بمحاولة إظهار القوة والبطش، فكان بعضهم يهاجم أراضي الفلاحين لنهب محصولاتها، أو يبتز الأموال من التجار، فلما ظهرت الحركة اللوثرية، رأوا انتهازها كفرصة لاسترداد نفوذهم وثرائهم عن طريق ما نادى به لوثر من تحرير الكنيسة من أملاكها.

لذلك قاموا بثورة عارمة مستغلين الإصلاح الديني فهاجموا الكنائس والأديرة ودمروا ما كان بها من تماثيل ونفائس وطردوا الرهبان والأديرة وكان أبرز الفرسان الثائرين أولرخ فون هتن ulrich Von Hutten الذي تزعم حركة التأييد القومي لمارتن لوثر ضد البابا، باعتبار البابا غريبا عن الوطن يبتز الأموال من الألمان بدون وجه حق. وفي الوقت نفسه اتخذ الفرسان تلك الثورة وسيلة أخرى للتخلص من سلطان أعدائهم من الأمراء.

وقد ساعد هتن في حركته فارس مشهور آخر اسمه فرانز فون سكنجن Sickingen وهو الذي بدأ بحرب الفرسان عندما نشب الخلاف بينه وبين أحد رؤساء الأساقفة، وكان من الطبيعي أن يهب الأمراء لمساعدة الأسقف، ولذلك لم تقدر سكنجن على الصمود أمام أسلحة الأمراء الحديثة وهزم ثم قتل تحت أنقاض

قلعته، واضطر الفارس الآخر هتن إلى الفرار إلى سويسرا حيث توفي بعد فترة وجيزة(١٥٢٣).

وفشلت حركة الفرسان بعد أن تمكن الأمراء من دك حصونهم فخسروا الحرب وحرموا من امتيازاتهم السياسية التي تبقت لهم، واستبعدوا منذ هزيمتهم كعامل هام في الحياة الألمانية.

وقد تأثرت الحركة اللوثرية بهذه الأحداث، وعلى الرغم من أن لوثر نفسه لم يكن موافقًا على استعمال القوة لتأييد حركة الإصلاح الديني، وعلى الرغم من تصريحاته المتكررة بمعارضة الثورة المسلحة، إلا أنه اعتبر في نظر البابا وفي نظر السلطة الألمانية مسئولا عما جرى كله، كذلك أصبح الأمراء الألمان من أعداء الثورة، وكان ذلك إيذانًا بحدوث انقسام بين طبقات الشعب الألماني.

٣- ثورة الفلاحين ١٥٢٤: Peasans War

قامت هذه الثورة في التيرول واستريا وفرانكونيا وسوابيا وهي عبارة عن سلسلة من الثورات الأخيرة بالذات تميزت بأنها أشد عنفًا وأكبر خطرًا.

وكان الفلاحون قد جذبتهم دعوة لوثر إلى الحرية الإنسانية والإخاء الجرماني، فاعتنقوا هذه الآراء وأعجبتهم مهاجمة لوثر لرجال الكنيسة الذين كانوا يشكون منهم مر الشكوى، بسبب إسرافهم في فرض الضرائب والرسوم تحت مختلف الأسماء والفئات. ويلاحظ أن لوثر كان يفاخر بأنه ينحدر من أبوين اشتغلا بالفلاحة، وكان يدرك المظالم التي تنهال عليهم.

والرغم من أن بعض المؤرخين يرون أن الفلاحين الألمان لم يكونوا في وضع اقتصادي واجتماعي أسوأ من وضع غيرهم من الفلاحين في دول غرب أوروبا، حيث كانوا قد بدءوا في تحرير أنفسهم من حالة القنية، وكان الرخاء المادي قد بدا في طريقه إليهم، فإن دعوة لوثر أحدثت فيهم من الأثر مما أحدثته الأفكار الحرة التي أشعلت الثورة الفرنسية في استثارة الفلاحين إلى الثورة.

وقد بدأت ثورة الفلاحين في دوقية بادن متخذة طابع الاحتجاج على الإسراف في فرض نظام السخرة، ثم انتشرت في الجنوب الغربي من ألمانيا، وفي الحوض الأعلى لنهر الراين، وحوض الدانوب الأعلى، ثم امتدت شرقًا في إقليم التيرول وسالزبورج وكارينتيا Carinthia في النمسا، ثم اتجهت صوب الشمال في أراضي سكسونيا مسقط رأس لوثر.

وقد وضع الفلاحون بيانا بمطالبهم في مارس ١٥٢٥، طالبوا فيه بالغاء رق الأرض، وتحديد القيمة الإيجارية للأراضي تحديدا عادلا، وقصر ضريبة العشور على الحبوب فقط، وتحديد الخدمات الاقطاعية التي يؤديها الفلاحون للأمراء الإقطاعيين، وتقرير حق صيد الأسماك في الأنهار والقنوات التي يعملون في فلاحتها، وحق صيد الحيوانات في الغابات، ومنح كل جماعة الحق في اختيار وتعيين القسس في الكنائس والأساقفة في الأبرشيات. وقد طالب الفلاحون بأن تنظر مطالبهم في ضوء الكتاب المقدس مطالبين بإبراز الدليل من الإنجيل على أنهم أرقاء، وقالوا: "لن نكون بعد اليوم عبيدا، لأن المسيح جعلنا أحرارًا".

ولم تلبث هذه الحركة أن اتخذت طابعًا شيوعيًا على يدتوماس مونزر Monzer، حاكم "تزميكاو" وزعيم الأنابابتيين والذى نصب نفسه زعيما للفلاحين منذ أقام في إحدى مدن ألمانيا، وهي مدينة مولها وسن Mulhausen مجتمعاً شيوعياً يقوم على إلغاء الملكية الفردية، والمساواة المطلقة بين الأفراد وشيوعية الملك، ودعا إلى إقامة مجتمع مسيحي جديد يقوم على أساس المساواة المطلقة وشيوعية الملكية، وهو ما يقتضي التخلص من الأمراء ورجال الدين على بكرة أبيهم .

ولقد أدت هذه الاضطرابات والحركات الثورية إلى خروج لوثر من مخبأة، حيث راح يدعو إلى ضرورة القضاء على هذه الاضطرابات والثورات، ويطلب تحرير الدعوة إلى الإصلاح الديني من الأغراض التي كانت في نظره تلصق بالإصلاح الديني المجرد من شوائب كثيرة يجب أن يكون هذا الإصلاح بعيدًا عنها.

وفيما يتعلق بالذين يريدون إعادة التعميد، فقد خطب فيهم لوثر ودعاهم إلى التزام الهدوء والحكمة. وامتنع عن تأييد حركة الفرسان بسبب الشدة والعنف الذى اتصفت به حركتهم. كما أن الأمراء (كبار النبلاء) سرعان ما اتحدوا فيما بينهم كى يدفعوا عنهم خطر حركة الفرسان بالقوة المسلحة. ثم أن حركة الفرسان هذه لم تجد أى عطف من جانب الفلاحين الذين كرهوا الفرسان بسبب ما أنزله هؤلاء بهم من إرهاق شديد.

وأما ثورة الفلاحين، فقد قاومها لوثر بكل شدة، لأن المطالب التى أرادوا تحقيقها، وهى مطالب مادية واقتصادية واجتماعية، والمبادئ التى نادوا بها، كانت فى نظر لوثر مطالب ومبادئ لاتمت بصلة لحركته الإصلاحية الدينية، ومن شأنها أن تعرض هذه الحركة الإصلاحية إلى أكبر الأخطار. فوصف لوثر بأنهم "الفلاحون المخربون الذين يسفكون الدماء" وكانت هذه الثورة لذلك من أهم الأسباب التى جعلته يخرج من مخبأه، وأخذ لوثر يخطب فى الناس ويطلب من الأمراء أن يعملوا للقضاء على هذه الثورة. وسرعان ما اجتمعت قوة كبار النبلاء وصغارهم (الفرسان) ضد ثورة الفلاحين. واخفقت هذه الثورة تماما عندما انهزم الثوار فى مايو ١٥٢٥ وأعدم زعيمهم توماس مونزر مع غيره من كبار قادة الثورة.

وبالقضاء على هذه الحركات الثورية – وخصوصا الفلاحين تخلص لوثر من أكبر الأخطار التى هددت مذهبه الجديد فى بداية انتشاره.

على كل حال، فلم يلبث لوثر بعد القضاء على ثورة الفلاحين أن أخذ يتفرغ لبناء صرح كنيسته الجديدة ومذهبه الجديد، فأعلن إلغاء الديرية والرهبنه وتزوج من الراهبة كاترين فون بورا Von Bora فى سنة ١٥٢٥، وراح يشرع فى وضع أسس العقيدة.

وعندئذ طلب الأمراء الكاثوليك من الامبراطور شارل الخامس التدخل فى الأمر. على أنه من سوء حظ الكنيسة الكاثوليكية عموما أن الإمبراطور لم يكن متفرغًا لهذه المشكلة، ذلك أن اللوثرية انتشرت فى ألمانيا فى وقت هدد فيه الأتراك

العثمانيين أملاك الامبراطورية فى النمسا والمجر، وفى الوقت نفسه لم تكن علاقات شارل الخامس بالبابا علاقات تحالف ثابتة فى أثناء نضاله مع فرانسوا الأول ملك فرنسا، فكان البابا ينحاز إلى الامبراطور تارة وإلى فرانسوا الأول تارة أخرى. وقد أثرت هذه الأسباب على معالجة شارل الخامس للحركة اللوثرية.

موقف الامبراطور من الحركة اللوثرية :

إذا كان لوثر قد فقد تأييد بعض فقراء ألمانيا بسبب موقفه المعادى لثورة الفلاحين فهو قد كسب تأييد من هم أقوى، ونعنى بهم الأمراء ومنهم من اعتنق مذهبه فى صراحة مثل "جان الثابت Jean Le Constant منتخب سكسونيا وأخو فردريك الذى لم يعتنق المذهب الجديد، واكتفى بحماية لوثر وإيوائه، كذلك فيليب Philippe أمير مقاطعة "هس كاسل Hesse - Cassel" ثم دوق "مكلنبرج Meck Lenburg" ودوق "بوميرانيا Pomérania وكثير من المدن الألمانية.

ولكن أهم من هذا كله فى تلك الفترة كان اعتناق البرت صاحب براندنبرج Albert of Brandenburg" وكان رئيسا لطائفة الفرسان التيولوتيين Knights of Teutnic order اللوثرية، وتحويله بروسيا الشرقية من مقاطعة كنسية إلى مقاطعة زمنية وراثية تحت سيطرة بولندا، كما عقد معاهدة صداقة مع منتخب سكسونيا.

ومن المعروف أنه قد تم عقد اجتماع ورمز سنة ١٥٢١م. واتخذت عدة قرارات منها حرمان لوثر من حقوقه المدنية والدينية، وكذلك حرق مؤلفاته، لم يحرك الامبراطور بعد ذلك ساكناً ليقضى على اللوثرية إلا فى عام ١٥٢٦ عندما دعا للاجتماع فى سباير Speier على أن هذا الاجتماع دعى لبحث المسألة الدينية وتنفيذ القرار الصادر بحق مارتن لوثر بطرده خارج القانون (ومعنى ذلك إهدار دمه).

واجتمع مجلس سبيير حيث أصدر قرارًا في غير مصلحة الكنيسة الكاثوليكية، نص على أن لكل أمير الحق في أن يسلك السبيل الذى يراه صالحًا في موضوع قرار ورمز وهو في ذلك أنه أصبح لكل أمير الحق في اختيار المذهب الديني الذى يروق له في ولايته. وأصبح لأتباع مذهب لوثر مركز شرعي معترف به سرعان ما استغلوه. واستولى الأمراء الذين اختاروا المذهب اللوثرى في مقاطعاتهم على أملاك الكنيسة في بلادهم وطردوا رجال الدين الموالين للبابا والذين رفضوا قبول المذهب الجديد".

وقد ساعد الموقف السياسي في ألمانيا على إصدار هذا القرار، فقد كان البابا كلمنت السابع على رأس حلف كونتن عام ١٥٢٦، الذى تكون لطرد قوات الإمبراطور من إيطاليا، أضف إلى ذلك أن الإمبراطور كان في أشد الحاجة إلى المال بجمعه من رعاياه في كل مكان، ويريد كسب الوقت بأى ثمن ليتفرغ للمعركة الدائرة مع الأتراك العثمانيين الذين كانت قواتهم تجتاح المجر.

ثم تغير الموقف السياسي عندما هاجمت قوات الإمبراطور روما ونهبتها وأسرت البابا الذى لم ير بداً من مهادنة الإمبراطور وقبول الصلح الذى تعهد فيه الإمبراطور بالعمل على قمع الحركة اللوثرية.

تفاقم الموقف في ألمانيا بالنسبة للكاثوليك، لأن الزمن كان حليفًا قويًا لأتباع لوثر. ورأى الإمبراطور شارل الخامس ان يخطو خطوة أخرى لحل المشكلة الدينية التى باتت تهدد البلاد الألمانية بانقسام ديني مذهبي خطير، فوجه الدعوة لعقد المجلس الإمبراطورى مرة أخرى في مدينة سبيير في مارس ١٥٢٩ Deuxiéme Diéte de Spire وهو الذى يطلق عليه دايت سبيير الثاني، وشرح الإمبراطور موقفه من المسألة الدينية، فأعلن إصراره على تأييد الفكرة القائلة بعقد جمعية وطنية لدراسة هذه المسألة ابتغاء تجنب البلاد التعرض لأخطار الانقسام الديني المذهبي، وأبدى رغبته في ألا تطرأ تعديلات جديدة على الموقف حتى

تنعقد هذه الجمعية المرتجاة وألا يسمح لأحد باستخدام القوة أو العنف لحمل الغير على اعتناق عقيدة غريبة أو خاطئة أو لتغيير النظم والتقاليد التى عليها المسيحيون عبر القرون المتعاقبة.

ولكن وضح تخبط المجالس الامبراطورية فى سياستها وقراراتها. فقد تراجع دايت سبيير الثانى عن القرارات التى سبق أن اتخذت فى مجمع سبيير الأول، وسحب من حكام المقاطعات الحق فى اختيار المذهب الدينى الذى يريده كل منهم فى مقاطعته، وجعل قرار ورمز الصادر فى سنة ١٥٢١ بإعدام لوثر والقضاء على الحركة اللوثرية نافذة المفعول، مع أن هذا القرار اعتبر لاغيًا فى ضوء قرارات مجمع سبيير الأول. واتخذت قرارات أخرى كان من بينها السماح للكنائس اللوثرية التى أقيمت فى المقاطعات الألمانية بالبقاء وأداء رسالتها، وعدم السماح بمصادرة أموال الكنيسة سواء الأموال الثابتة أو المنقولة. وتقرر أن يسمح بإقامة القداس فى المقاطعات اللوثرية وفق النظام الكاثوليكى. ويلاحظ أن هذه القرارات قد صدرت بأغلبية الآراء. بينما صدرت قرارات مجمع سبيير الأول بإجماع الآراء.

وقد احتج معظم الحاضرين من اللوثرين وأعلنوا احتجاجهم، ومن هنا سمى أتباع مارتن لوثر "بالمحتجين" أى البروتستانت، تلك التسمية التى لم تلبث أن شملت سائر المذاهب المسيحية غير الكاثوليكية.

وبعد ذلك تقرر عقد مجلس أوجزبرج ١٥٣٠ الذى تميز بتوجيه الدعوة إلى الأمراء البروتستنت للاجتماع مع أندادهم من الأمراء الكاثوليك فى محاولة لفض النزاع والوصول إلى تفاهم يرضى الفريقين. كان ذلك فى عام ١٥٣٠م. وهو العام الذى عقد فيه صلح كامبرى Cambari والذى أراحه مؤقتًا من حروبه ضد ملك فرنسا. لذلك استطاع الحضور بنفسه إلى ألمانيا ورأس المجلس فى أوجزبرج، وكان موقف الامبراطور فى هذا المجلس موقف الحيرة والتردد، فقد تمسك كل فريق

بآرائه. وكان موقف الأمراء ورجال الدين الكاثوليك متعصبًا وأخذوا يهيبون بالإمبراطور أن يضرب بيد من حديد على أيدى البروتستنت. إلا أن الإمبراطور لم يكن فى وسعه أن يستجيب لهذا الرأى. وإلا أن يتعرض لاستقلال الولايات الألمانية. إلا أنه كان متأثرًا على أى حال بمن حوله من رجال الدين الكاثوليك وظهر فى موقف المعارض للبروتستنت.

ولقد طلب إلى ممثلى البروتستنت أن يتقدموا للإمبراطور بآرائهم ومشاكلهم كتابة. فقام بهذه المهمة أحد زعماء البروتستنتية. وهو فيليب ميلانكتون Melanchton ساعد مارتن لوثر الأيمن. وقد وضع ميلانكتين مبادئ العقيدة اللوثرية فى صيغة معتدلة غاية الاعتدال، وقد سميت باعتراف أوجستانا Confessio Augustana أو الاعتراف العظيم. وقد بذل الإمبراطور ما فى وسعه لمحاولة التقريب بين الطرفين، ولكن ظهر أن الشقاق بينهما أعمق مما كان يتصور. فقد وضع كبار الزعماء الكاثوليك وثيقة مضادة فندا فيها آراء البروتستنت. وأعلن الإمبراطور موافقة على ما جاء فيها.

وفى أواخر سبتمبر ١٥٣٠ انفض المجلس بعد أن أعطى الإمبراطور مهلة قصيرة للبروتسنت ليفكروا فى الأمر ويقلعوا عن آرائهم حقنا للدماء. وكان قد يئس من استعطافهم أو إيقاع الشقاق بينهم ولم يبق أمامه إلا أن يسلك سبيل الشدة. ولذلك صدر قرارًا بتخطئة معظم عقائد اللوثرية ودعوة الناس إلى التنحى عن المذهب المبتدع وإلا عوقب أنصاره أشد العقاب.

أدركت المقاطعات البروتستانتية الأخطار المحدقة بها بسبب تهديدات الإمبراطور وقراراته التى دلت على تحيزه الصارخ للكاثوليكية، فرأت توحيد صفوفها وتكوين حلف يضمها جميعًا فى وحدة عسكرية لمواجهة الأخطار وقد أمسك فيليب حاكم مقاطعة هس - ولقبه لاند جريف - زمام المبادرة ودخل فى مفاوضات مع المقاطعات الألمانية البروتستانتية. وفى فبراير ١٥٣١ عقد حلف شمالكد - وهى

مدينة تقع في مقاطعة هس Hess نفسها – وضم هذا الحلف حنا ناخب سكسونيا Jean Electeur de Saxe وابنه وحفيده. وما لبث أن انضم تباعاً كثير من الأمراء ومن إليهم من الحكام إلى حلف شمالكد الذى انتظم أيضًا عددًا من المدن الألمانية الهامة. وروعى فى هذا الحلف التمثيل الإقليمى لألمانيا، فقد اشتمل على الأقاليم الشمالية والجنوبية وكذلك من أنصار زونجلى Zwingle المصلح الدينى السويسرى الذى اتخذ من مقاطعة زيورخ Zurich مركزا لحركته الإصلاحية ولم يكن حلف شمالكد الأول من نوعه فى تاريخ ألمانيا، فقد حفل تاريخها سواء فى العصور الوسطى أو فى العصور الحديثة بالمعاهدات السياسية والاقتصادية والأحلاف العسكرية تعقد فى نطاق الدولة الرومانية المقدسة.

وقد قام هذا الحلف على أساس دينى بحت. وقد وقع حادث بشع دفع حلف شمالكد دفعة قوية إلى الأمام، فإن بروتستانت ألمانيا قد أثارتهم الهزيمة التى تعرض لها إخوانهم البروتستانت فى سويسرا ومصرع زونجلى الزعيم السويسرى البروتستانتى فى معركة كابل Cappel الثانية فى الحادى عشر من أكتوبر ١٥٣١ وقيام الكاثوليك بتقطيع جثته إلى أربعة أجزاء وحرقها. وقد أشاعت تلك الهزيمة وعملية التنكيل بالجثة مخاوف البروتستانت فى ألمانيا، وجعلتهم يستشعرون الخطر على حركتهم وأنفسهم من انتقام وحشى قد يتعرض له على يد كاثوليك ألمانيا والإمبراطور الذى يناصرهم.

وفى ديسمبر ١٥٣١ تم وضع دستور الحلف، وقد حدد أهدافه ونظم العلاقات بين أعضائه واجتماعاتهم وطريقة أخذ الأصوات. واستهدف عقد اتحاد تعاهدى une Féderation يربط بين المقاطعات والمدن الأعضاء فى الحلف بعروة وثقى ولذلك استبعدت قيام دولة متعاهدة Une Cofederation d' Etat. ونص على تنظيم جيش ثابت يتكون من سلاحى الفرسان والمشاه، وأن يشترك فى قيادته كل من ناخب سكسونيا وحاكم هس. وعلى هذا النحو استكمل البروتستانت تنظيماتهم الدينية والعسكرية والسياسية. فأصبحت لهم عقيدة محددة مدونة فى

اعتراف أوجزبرج، ولهم كنائس خاصة بهم يقام فيها القداس وفق طقوسهم الدينية، ولهم تنظيم سياسي وعسكري، وتتابع انضمام المدن الألمانية إلى هذا الحلف.

على أن الإمبراطور كان يرى في ذلك الحين أن وسائل الشدة والبطش في قمع الحركة البروتستنية سوف يؤدي إلى تمزيق وحدة الصف الألماني. ورأى أن مراعاته للبابا قد أضلته عن سبيل الصواب وأوقعته فيما لا يفيد السياسة الحكيمة لجمع كلمة الشعب، ولذلك لم يبذل أي مجهود لتنفيذ مراسيمه بالقوة ضد البروتستنتية، إذ كان أي إجراء من هذا القبيل يهدد بقيام حروب أهلية خطيرة في الوقت الذي كان الأتراك العثمانيين يدقون أبواب المجر.

لذلك قرر دعوة مجلس الدايت في مدينة نورمبرج La Diète de Nurmberg عام ١٥٣٢، وكانت مناقشات هذا المجلس ثم قراراته أكثر ميلًا إلى التفاهم وبعدًا عن روح البطش والتعنت، فقد أصدر قرارات أطلق عليها "سلام نورمنبرج" تدعو إلى وقف جميع المشاحنات والحروب الأهلية الدينية داخل الامبراطورية فإن عدو المسيحية المشترك يتوقف طرده على تحقيق السلام في الامبراطورية".

وقد كان صلح نورمبرج عاملا آخر نجم عنه انتشار البروتستنتية إذ انضمت إلى المذهب الجديد مدن أخرى هي أجزبرج وفرانكفورت وهمبرج وهانوفر. وقبل البروتستنت دعوة الإمبراطور لتوحيد الصف أمام العدو المشترك وأمد أمراؤهم بالعون العسكري حتى تم انسحاب الأتراك العثمانيين نهائيا عام ١٥٣٢م.

وعندئذ شكل الأمراء الكاثوليك حلفا ضد البروتستنت عرف باسم حلف نورمبرج Nuremberg League سنة ١٥٣٩، فعقد الامبراطور مجلسا في رايتزون Ratisoin سنة ١٥٤١م لحل الخلاف سلميا، ولما فشل في تحقيق هدفه أعلنت الإمارات الألمانية فاتبرج Wartburg وبادن Baden وهيس Hesse وبراندبرج Brandeburg انضمامها إلى المذهب اللوثري واحدة وراء الأخرى، فعقد البابا

مجلسًا دينيًا فى ترنت Trent لبحث الخلافات الدينية، ولكن الكاثوليك سيطروا على المجلس، كما رفض البروتستنت قبول الدعوة وحضور المجلس، وأخذ الإمبراطور يعد العدة للقضاء على الانقسام الدينى الذى هدد ممتلكاته، بالقوة، ولكن مارتن لوثر مات فى ١٧ فبراير ١٥٤٦، وانقسم البروتستنت بعد وفاته، فانحاز موريس دوق سكسونيا إلى جانب الإمبراطور فخسرت جيوش البروتستنت بذهابه قائدًا مدربًا، وحلت بها الهزيمة فى موقعة مهلبرج Muhlberg فى أبريل ١٥٤٨، ووقع قواد الجيش البروتستنتى فى الأسر، وباتت ألمانيا بأسرها تحت رحمة الإمبراطور.

وفى مايو ١٥٤٨ دعا الإمبراطور المجلس الامبراطورى للاجتماع فى أوجزبرج، وعرض عليه النظام الذى أراد فرضه على البروتستنت والكاثوليك، وينطوى فى جوهره على التمسك بالعقيدة الكاثوليكية مع بعض التسامح لإرضاء البروتستنت فى مسائل زواج القسس، وتناول القربان، والتبرير بالإيمان، وقد سمى هذا النظام بالنظام المؤقت Interim ، ولكنه اضطر إلى استخدام الجنود لتنفيذ النظام المؤقت فى ألمانيا الجنوبية، فى حين قاومت البروتستنتية بزعامة مدينة مجدبرج Magdburg فى ألمانيا الشمالية، واحتج موريس دوق سكسونيا على النظام المؤقت، وعاد إلى صفوف البروتستنت، فاكتسبوا بعودته قوة جديدة.

ولكن الحوادث سارت لصالح البروتستنت بسبب انشغال الامبراطور بمسألة الوراثة فى أملاكه وانضمام الأمراء البروتستنت إلى هنرى الثانى ملك فرنسا فى معاهدتى شامبورد Chambord (١٥٥٢). وفى عهد شارل الخامس إلى أخيه فردناند بالتوسط فى عقد معاهدة باساو Passau فى يوليو ١٥٥٢ التى نصت على دعوة المجلس الامبراطورى فى بحر ستة أشهر لتسوية جميع المسائل المختلف عليها نهائيًا.[1]

وقد قرر الأمبراطور توجيه دعوة فى مدينة أوجزبرج سنة ١٥٥٥ وتم توقيع معاهدة عرفت بصلح أوجزبرج ومن ضمن بنودها على النحو التالى:-

١- قرر صلح أوجزبرج الحرية الدينية للإمارات اللوثرية، وتعهد الإمبراطور والمنتخبون والأمراء بأن يتركوا الولايات البروتستنتية تؤدى شعائرها الدينية بكل حرية وبألا يتعرضوا لهم بأى أذى. كما قرر ذلك الصلح أن يحترم الأمراء البروتستانت والمقاطعات البروتستنتية الحرية الدينية للأمراء والمقاطعات التى ما زالت مخلصة للدين القديم ألا وهى الكاثوليكية.

٢- ونص ذلك الصلح فى قراراته على عدم الاعتراف بأى مذهب آخر غير المذهبين المذكورين. وهكذا لم يعترف هذا الصلح بمذهبى "كلفن وزونجلى".

٣- نص ذلك الصلح على أن يسمح للرعايا الراغبين فى الانتقال من ولاية إلى أخرى ببيع ممتلكاتهم دون التعرض لهم بسوء.

٤- نص هذا الصلح على أن تبقى الأراضى التى اغتصبت من الكنيسة الكاثوليكية قبل عام ١٥٥٢ فى يد مغتصبيها، بينما تعاد تلك التى اغتصبت بعد ذلك التاريخ إلى حالتها الأولى، وكان الغرض من ذلك النص المحافظة على أملاك الكنيسة الكاثوليكية.

لم يكن هذا الصلح إلا هدنة مؤقتة بين الطوائف البروتستنتية والكاثوليكية، ومع ذلك فقد كان كسبا عظيما للبروتستنتية، إذ أنها ضمنت للولايات البروتستنتية ولو إلى حين – السلام فى علاقاتها مع الولايات الكاثوليكية والإمبراطور. ولكن هذا الصلح لم يمنح الفرد حرية العقيدة وإنما منحها الولاية عامة، ومع ذلك فقد اعترف ببعض الحرية للفرد، ذلك عندما نص الصلح على تسهيل عملية انتقال الفرد من ولاية إلى أخرى، كما أن هذا الصلح لم يمنح المذاهب البروتستنتية الأخرى كمذهب كلفن وزونجلى الحرية الدينية مع أن مذهبها كان قد اعتنقه كثير من الألمان وسكان الإمبراطورية. وقد كان ذلك النقص فى شروط الصلح باعثا على استئناف الصراع الدينى وتحويل ألمانيا فى القرن السابع عشر إلى ميدان للنضال الدولى كما كان

الحال فى إيطاليا فى القرن السادس عشر. كما نتج عن هذا الصلح ازدياد نفوذ الأمراء على حساب الإمبراطور أن أصبح لهم حق تقرير مصير ولاياتهم الديني.[1]

وقد انتشر الإصلاح الديني في أوروبا الشمالية وفي ألمانيا الشمالية والجنوبية فى حياة مارتن لوثر نفسه، ثم فى إنجلترا التى توطدت دعائم الإصلاح الدينى فيها على أسس لوثرية فى جوهرها، كما انتشرت اللوثرية فى الدانمارك والسويد.

ويرجع السبب فى عدم ذيوع اللوثرية فى كل أوروبا إلى صعوبة فهم العقيدة اللوثرية، خصوصا فيما يتصل بتناول القربان، والتبرير بالإيمان. واعتماد لوثر على تعضيد الأمراء، مما جعل السواد الأعظم من الناس ينفضون من حوله. وعدم اهتمام لوثر بتجديد وتعريف العقيدة الجديدة، وعدم اهتمامه بنشرها فى خارج ألمانيا".

حركة زونجلى:

لقد فشل أباطرة الرومان فى أواخر العصور الوسطى فى أحكام السيطرة الفعلية على المقاطعات السويسرية. ومع أن الاتحاد السويسرى الذى تشكل أثر هزيمة القوات الإمبراطورية كان من حيث القانون الدولى العام يخضع لسيادة الإمبراطورية الاسمية، إلا أنه بقى محروما من ممارسة سيادته فى الشؤون الدولية حتى تحقق الاستقلال التام لسويسرا فى معاهدة وستفاليا سنة ١٦٤٨ التى اختتمت بموجبها الحروب الدينية التى وقعت فى أوروبا على مدار قرن من الزمن.

وعلى الرغم من أن الاتحاد السويسرى قد تشكل، إلا أن المقاطعات السويسرية لم يكن يربط بينها رباط متين. إذ كان على رأس هذا الاتحاد مجلس أعلى يطلق عليه اسم الدايت الفيدرالى (La Deité Fédérale) لذلك تمتعت الولايات وخاصة الجبلية منها بحرية تامة فى تصريف شؤونها الداخلية. فى حين أنه

قامت فـي مقاطعـات المـدن الكبـيرة كزيـورخ وبـرن وبـال الأنظمـة الأليجاركيـة المتعددة.

لقد مهدت الأوضاع السياسية والاجتماعية إذن فـي المقاطعات السويسرية خلق بذور حركة معادية للكنيسة الكاثوليكية. كما كان لانتشار أفكار الحركة اللوثرية أثر مهم في ازدياد الاستياء العام من تصرفات رجال الدين فـي المناطق السويسرية. فبدأت بعض المقاطعات ومنها زيورخ قد أخذت منذ القرن السادس عشر تشهد نشاطًا تجاريًا وصناعيًا مرموقًا، فقد أصبح من المستحيل أن يتلاءم هذا الانتعاش الاقتصادى وتطلعات طبقة التجار مـن مصالح رجال الدين الذين أعلنـوا عـن تمسكهم بجميع الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها سابقًا.

ومع أن دعـوة زونجلـى Zwingil (١٤٨٤ – ١٥٣١) قـد اتخـذت شـكلا دينيا خالصا في المقاطعات السويسرية إلا أنها فـي جوهرهـا تعتـبر حركة سياسية اجتماعية وقومية في آن واحد. وزونجلى بدأ حركتـه هـذه بهجوم شـديد على نظام المرتزقة الذى تفشى بين السويسريين الذين أخذوا ينخرطون في جيـوش دول أوروبا حتى ولـو كان ذلك علـى حساب مصالح اتحادهم، حتى أطلقـوا عليـهم لقـب "قـاهروا الملوك" وذلك للسمعة الحربية الحسنة التـى تمتعـوا بها فـى معاركـهم التـى خاضوها فى أوروبا. وقد أعلن زونجلى قائلا "أنه من العار أن تهدر دمـاء السويسريين فـي غير مصلحة قومية". ومن أقواله أيضا في مهاجمة نظام المرتزقة: "إذا قام جندى أجنبى واحتل بلادك بالعنف ودمر حقولك وأشجار العنب، وسلب ماشيتك واعتقـل أسيادك، وقتـل أولادك الذيـن هبـوا لحمايتك. واعتـدوا علـى فتياتك ووطأ زوجتــك بقدميـه وأشعل النار في منزلك وصرع خدامك العجز غير عابئ بتضرعك إليه، إلا تتضرع إلى الله أن تنشق الأرض لتلتهمه .. ولكن إذ قمـت بنفس العمـل تجـاه غيرك تقـول هـذه هى الحرب! وإلا فما معنى أن تكـون محاربا؟ ولكـن أوريبد أجـاب عـن ذلك بقوله: "فى الحرب لا يعتبر الرجل أكثر من ضفدعة".

وفعلًا أخذت معظم المقاطعات السويسرية على أثر دعوة زونجلي تمتنع عن تقديم الجنود المرتزقة بعد أن اشتدت الحاجة إليهم أثناء حروب شارل الخامس وفرانسوا الأول.

لم يكن زونجلي يقل حماسة عن لوثر في مهاجمة عملية بيع صكوك الغفران وعبادة الصور والتماثيل ومهاجمة دفع ضرائب العشور الكنسية. وتحت تأثير كتاباته وخطاباته التي اشتهر بها فقد انتشرت الحركة البروتستانتية في سويسرا انتشارًا واسعًا. وانضمت إلى زيورخ مقاطعات برن ثم مقاطعة بال حتى أصبح عدد المقاطعات التي تدين بالبروتستانتية ست مقاطعات أطلق عليها اسم المقاطعات المصلحة (Les Cantons reformes) ومعظم السكان فيها من التجار والصناعيين. بينما المقاطعات المتبقية وعددها سبع مقاطعات فقد أطلق عليها اسم المقاطعات الكاثوليكية (Les Cantons Cathollque) حيث كان معظم السكان فيها من العاملين في الزراعة والرعي مما أفقدهم الاتصال المباشر بدعاة الحركة البروتستانتية من جهة ومتابعة الجدل الفقهي الذي انغمس فيه سكان المدن المواكبين لثقافة العصر.

وأمام تحدي الكاثوليك وإحراقهم أحد أتباع المذهب البروتستانتي تشكل الحلف المسيحي من البروتستنت يقابله الاتحاد المسيحي للكاثوليك بمساندة النمسا التي كانت تتوق إلى استعادة أمجاد أسرة الهابسبرج في سويسرا أو على الأقل استرجاع بعض الأراضي التي كانت قد فقدتها سابقًا. وكادت الحرب الأهلية أن تقع في سويسرا لولا الوساطة التي قام بها زعيم مقاطعة كلاريس Claris واسمه ايبلي Aebill وهو أحد أتباع زونجلي. وفعلًا عقد صلح كابل (Cappel) عام١٥٢٩ وفيه تقرر حرية كل مقاطعة في اعتناق المذهب التي تختاره مع وجوب إلغاء الحلف الذي عقد بين الكاثوليك والنمسا حفاظًا على استقلال سويسرا وعدم إتاحة الفرصة أمام أية دولة أجنبية للتدخل في شؤونها الداخلية. وقد أعطت هذه المعاهدة اعترافًا مطلقًا بالمقاطعات البروتستانتية ومركزًا قانونيًا لاتباعها مما أتاح الفرصة لتنظيم صفوفهم والعمل على التبشير بمذهبهم الديني.

ولقد حاول زونجلي أن يقيم علاقات وطيدة مع الحركة اللوثرية في ألمانيا وأن تقيم اتحادا بين المقاطعات الألمانية والمقاطعات السويسرية التي اعتنقت المذهب البروتستانتي. ولكن المحاولة فشلت نتيجة للخلافات التي قامت على بعض المسائل الهامة وذلك على أثر الاجتماع الذي تم بين زونجلي ولوثر. كما أن محاولات زونجلي لإقامة علاقات سياسية مع فرنسا في عهد فرانسوا الأول قد فشلت أيضا. وعندما أمعن في سياسة التعسف ضد المقاطعات الكاثوليكية اشتعلت الحرب الأهلية في سويسرا وانزل الكاثوليك الهزيمة بالجيوش البروتستانتية في معركة كابل ١٥٣٢ التي قتل فيها زونجلي على أثر هذه الهزيمة عقد صلح بين الطرفين على أن يتعهد كل منهما بترك الآخر يعيش في أمن وسلام معتنقًا العقيدة التي يختارها على أن تلتزم المقاطعات البروتستانتية بدفع نفقات الحرب وإعادة الأراضي الكاثوليكية المصادرة. كما أجاز الصلح للمقاطعات الكاثوليكية أيضًا تحويل بعض المناطق القريبة إليها إلى الكاثوليكية. وهكذا توقف انتشار المذهب البروتستنتي في سويسرا على أثر صلح كابل حتى ظهر كلفن.

ومع مقارنة سريعة بين زعيمي الحركتين الإصلاحيتين لوثر وزونجلي يتضح أن كلاهما هاجم بيع صكوك الغفران الذي تقره البابوية. وأن كلاهما لم يعتمد في حركته على طبقة العامة الواسعة. فلوثر وقف مع الأمراء بعنف ضد ثورة الفلاحين في ألمانيا، وزونجلي لم يعط أهمية للفلاحين والرعاة المنتشرين في جبال سويسرا ووديانها، مما أفقد حركتهما الطابع الشعبي. وبينما كان زونجلي في تفكيره ديموقراطيا إنسانيًا عمل أن تكون الكنيسة مؤسسة تضم جميع المسيحيين. فقد اعتبر لوثر أن الحاكم يجب أن يجمع بيديه السلطتين الروحية والزمنية. ومع ذلك فإن الحركتين يعتبران جوهرًا وطابعًا: حركتان دينيتان اجتماعيتان لهما صلة قوية بالناحية القومية في كل من ألمانيا وسويسرا.

ب- حركة كالفن في جنيف

انتقلت زعامة حركة الإصلاح السويسرية إلى برن، ثم إلى جنيف، وهي مدينة كانت تقع خارج الاتحاد السويسري ولا يزيد عدد سكانها على ١٣ ألف؛ ولكن قيض لها بسبب موقعها الجغرافي (وكانت تقع على حدود أربع دول) وأكثر من هذا بسبب ارتباطها بأحد الزعماء الدينيين العظام في العالم، أن تكون عاصمة البروتستانتية الغربية، وعلى رأس المدن التي احتمت بها الأقليات المضطهدة من معتنقي هذه العقيدة لعدة قرون.

ولقد كانت جنيف تناضل منذ ثلاثين عامًا للتخلص من سيطرة دوق سافوى وأميرها الأسقف، واتخذ النضال شكل حرب أهلية مريرة. وأطلق خصوم حزب "حكومة الكنيسة بواسطة الأساقفة". على الحزب اسم المماليك. أما حزب الأحرار فقد عرف باسم Eidgenossen (بمعنى الرفاق الذين أدوا القسم) وما لبث هذا الاسم – في شكله الفرنسي المعروف بالهيجونت – أن طبق آفاق أوروبا. ولكن جنيف استطاعت تحقيق حريتها في النهاية (أكتوبر ١٥٣٦) مستعينة بمساعدة برن المدينة البروتستانتية. وأصبحت على استعداد للاحتفال ببعض الدعاة الفرنسيين الذين كانوا ينشرون التعاليم الإنجيلية عبر إقليم الشعور Pays de Vaud وكانت برن تشجعهم على ذلك. ولم يكن ثمة من هؤلاء الدعاة من كان أقوى أثرًا من وليم فارل William Fares الذى كان يتقد حماسة، وهو الذى أقنع باحثًا فرنسيا كان يتجول في رحلة خاصة ثم القى رحاله في جنيف في عام ١٥٣٦، أقنعه بأن يتوقف في هذه المدينة ويستبدل إلى الأبد بحياة البحث العلمي، حياة الخدمة الكهنوتية.

هذا الباحث هو جون كوفان John Cauvin وكلفن وهو ابن موثق عام، ولد في نويون Noyon في بيكاردى في عام ١٥٥٩ – وكان قد قفز إلى حيز الشهرة – حين نشرت له ثلاثة بحوث تستحق الإعجاب: الأول تعليق علمي على كتاب سنيكا "عن التسامح De Clementia" والثاني مقالة أكاديمية كتبها بقدر من الحماسة

للتعاليم الإنجلية بحيث اضطر إلى الرحيل عاجلًا عن باريس، والبحث الثالث مدخل إلى الدراسات الإنجيلية بعنوان "مبادئ الديانة المسيحية Christianae Religionis instituto وقد نشره في بال وأهداه إلى الملك فرانسوا الأول.

ولن نجد من هو أقل شبهًا بمارتن لوثر من هذا الشاب الفرنسي. كان كلفن ينتمي إلى الطائفة العليا من الطبقة الوسطى، وكان يغشى مجالس النبلاء من الرجال والنساء فلا يحس ضيقًا، وكان قد اعتصر كل ما استطاعت باريس أن تقدم له من العلوم الإنسانية وكل ما قدمته له أورليان وديورج Bourges من علوم القانون. ولم يكن في كلفن شئ من طباع لوثر: فلم يكن منه شئ من حيويته الدافقة، ولا من مرحه والمعيته، خشونته ودعابته، خياله الملتهب وروحه "المدرسية الضيقة، إيمانه الريفي الساذج بالخرافات ونقده لذاته لدرجة غير عادية. أما المصلح الفرنسي فكان هادئًا متحفظًا، مشرق التفكير والتعبير، دائم التفوق على كل من تصدى لمجادلته، وذلك بفضل ما لديه من ذخيرة *حاضرة* من *المعارف* عن آباء *الكنيسة* والإنجيل، كما كان ممتلكاً لتلك الميزة العظيمة التي لا يعرفها إلا أولئك الذين شقوا طريقهم حتى وصلوا إلى معتقدات راسخة آمنوا بها دون أن تبدو عليهم صراع داخلي. وكان في تفكيره يمتاز بالبساطة الجادة، مما منحه سلطانا على أصحاب العقول الرخوة *المترددة.. ومن الممكن وصفه بأنه بطل من أبطال الرياضة – لا رياضة الجسم،* ولكن رياضة الفكر – أو أنه قديس مجرد من النوازع العاطفية أو قد يقال عنه أنه قد ولد موجهاً للضمير. ولقد كرس جهده ليجعل من جنيف جمهورية إنجيلية وأن يقود حزب الإصلاح – أو الهيجونت – في فرنسا.

نجح كالفن في عصر وفي بلد كانا يطلبان العودة إلى المسيحية، بسبب بسيط وهو أنه كان أشد رجال جيله استمساكًا بالمسيحية، وكان كلفن مسيحيًا، بسيطًا مترفعاً في حياته الخاصة، مسيطرًا ساميًا في أهدافه. ولقد سخر كل قواه الجسمية والعقلية في محاولة هدفها أن يعيد إلى العالم مسيحية القرون الثلاثة الأولى التي

كون عنها بأسلوبه الذهني الهادئ المتوثب صورة مقنعة. كانت مراسلاته شديدة الوفرة، ومن المدينة التي اتخذها وطنا له أخذ يبث النصائح الروحية لكل هيئات الهيجونت في فرنسا: فهو يثبت إيمان المتشككين ويهز الكسالى ويشجع من وهنت روحهم المعنوية ويؤنب المتخلفين. ولكن لا ورعة المسيحي ولا نشاط قلمه الذي لا يهدأ كان كفيلا بأن يجعل منه قوة في فرنسا لولا ما كان عليه من قدرة فائقة من التراكيب المنطقية، مع إشراق العبارة ووضوحها وإيجاز العرض وحاسة الاتزان – وهي وحدها الصفات الكفيلة بأن تمكن فرنسيا أريبا أن مسموع الكلمة في فرنسا.

وكان كلفن – محقق سنيكا وناشر مؤلفاته – رواقيًا كأستاذه، فهو يؤمن بوجوب إتباع الفضيلة لذاتها دون أمل في جزاء أو خوف من عقاب. وهذا المثل الأعلى الرواقي الذي طورته تعاليم الإنجيل جزء لا يتجزأ من العقيدة الكلفينية. وكذلك لم ينل من نفوذها الأدبي ذلك المبدأ الآخر الذي نادت به العقيدة وهو مبدأ القدرية: بمعنى أن بعض الناس قدر لهم سلفًا أن يحيوا حياة سرمدية، بينما أعد للآخرين عذاب مقيم، وهو مبدأ لم يكن كلفن ليعثر عليه في الإنجيل، ولكنه استنبطه من تعاليم القديسين بولس وأوجسطين.

عاش كلفن في جنيف من ١٥٣٦ – ١٥٦٤ باستثناء فترة ثلاث سنوات من ١٥٣٨ – ١٥٤١. وفي جنيف شكل طرازًا جديدًا من الدولة الثيوقراطية فرضت نفوذها على روح الكنائس "الإصلاحية" وتكوينها في جميع أنحاء العالم. وسرّ التنظيم الذي وصفه كلفن ما أهتدى إليه من أنه خلال القرون الثلاثة الأولى من تاريخ المسيحية كان الذين لا يستحقون رحمة الله يحرمون من مائدة العشاء الرباني. لهذا عزم على إحياء هذه القاعدة القديمة، فيقصر الامتياز الاسمي بالانتماء إلى الكنيسة على المتعبدين الذين يثبت إيمانهم ويمنحون في تقواهم. ولم يثبط من همته أن مثل هذا الهدف لا يمكن تحقيقه دون إشراف دقيق شاق على الحياة الخاصة للفرد. وقد رحب بفرض شروط يخضع بمقتضاها رجال الدين والعلمانيون على حد سواء لرقابة صارمة. ورغم أن دعوة السلطة العلمانية لتأييد النظام الروحي

كانت مما يناقض تعاليمه فإنه كان مقتنعاً بأن من واجب الحاكم فى جنيف أن يعضد من الكنيسة. وأية تضحية لا يمكن تبريرها فى سبيل رد الناس إلى التقوى؟ لهذا أنشئ فى جنيف مجلس أعلى، بعض أعضائه من العلمانيين وبعضهم الآخر من الكهنوت، مهمته فرض طائفة من الجزاءات على كل من يتراخى فى سلوكه الشخصى وفى معتقداته الخاصة. كان الموت عقوبة الزنا والتجديف والهرطقة. وهكذا أضحت حكومة جنيف العابسة، المنقية عن أخطاء الناس، الشديدة البطش، وقد اتخذتها بلاد أخرى نموذجا يحتذى به – أصبحت مصدر قسوة ومكابدة للناس فى العالم الجديد والقديم على السواء أما فى جنيف ذاتها فقد تسبب فى حرق سرفيتوس Servetus الموحد unitraian وقد إشترك كلفن فى إصدار قرار الحرق ووافق عليه.

وأنه لمن دواعى عظمه كلفن أنه لم يكن فقط قطب الرحى فى حركة أوروبية واسعة، بل أنه كذلك قد جعل من جنيف – فى نطاقها الضيق المحدود، ضد كل ما يمكن تصوره من العراقيل – المدرسة الكبرى لعقيدة الإصلاح. وقد افتخر فى خطاب وجهه إلى الخريجين من رعاة الكنيسة فى جنيف بأنه فى خلال الفترة الطويلة التى قضاها يلقن تعاليم الإنجيل، لم يقدم قط على مسخ أى نص من نصوص الكتاب المقدس. وبفضل جهوده أصبحت جنيف مدينة على ثقافة عالية بل أنها غدت كذلك، وبوجه أخص منذ إنشاء الجامعة عام ١٥٥٩ مركزًا لتدريب الرعاة البروتستانت أو الهيجونت. وحين حل كلفن بجنيف كانت مدينة شديدة الصخب منقسمة على نفسها، يشيع فيها الفساد، فخلفها من بعده "اسبرطة" بروتستانتية وروحًا لكل ما فى الحركة الإنجيلية لذلك العهد من جرأة وإخلاص وإمعان فى التعصب.

كانت الكلفينية أكثر إشكال الإصلاح البروتستانتى اتساع مدى وأعمقها تأثيرًا، فقد خلفت الكنيسة البروتستانتية فى فرنسا. وشكلت الجمهورية الهولندية. وقبلها الاسكتلنديون ديانة قومية لهم. وقبل وفاة كلفن كانت المقاطعات البروتستانتية فى سويسرا الشرقية قد قبلتها، كما قبلتها البلاتينات، واعتنقها معظم

المجربين الذين خرجوا على روما. وحتى فى إنجلترا، حيث كان عليها أن تواجه تيارا جارفا من الروح المحافظة، كان لها أثرها البارز فى المواد التسع والثلاثين التى تؤلف العقيدة التى أقرتها الكنيسة القومية، وكان هذا الأثر من الوضوح لدرجة أن الملكة اليزابيث على قلة عطفها على جنيف، قد وقع عليها قرار الحرمان باعتبارها كلفنية. ومن بعد ذلك أصبحت الكلفينية قوة غالبة فى السياسة الإنجليزية. ولكن ذلك لم يستمر إلا فترة وجيزة فى عهد البرلمان الطويل الأمد، ولم يحدث إلا بقوة السلاح، لا نتيجة لتغيير فى مشاعر الشعب، حتى إذا عادت الملكية إلى إنجلترا تقهقرت الكلفينية مرة أخرى وأصبحت عاملا ثانويا وإن كان جنيف لم تلق ترحيبا فى بلاط شارل الثانى الطروب، فإنها بالذات كانت طلبة سكان المناطق الساحلية فى أمريكا الشمالية حيث ظل نفوذها العميق على الكنيسة والدولة – خاصة فى مستعمرات نيوانجلند – منذ رحلة السفينة ماى فلور maylower فى عام ١٦٢١ حتى أواسط القرن التاسع عشر. وأثارت تعاليمها الجامدة الخشنة تيارين متباينين ولكل منهما مميزاته الخاصة من تفاؤل البرجمانى المبنى على التفكير الذى يحث على العمل الإيجابى، والمثالية المتطرقة عند رجل العلم المسيحى الذى ينكر وجود الألم والشر.

الفصل السادس

فرنسا وحركة الإصلاح الدينى

فرنسا وحركة الإصلاح الدينى

كانت أسرة فالوا تحكم فرنسا عند بداية العصور الحديثة، وقد تربع على عرش البلاد فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر أقدر ملوك هذه الأسرة لويس الحادى عشر (١٤٦١ – ١٤٨٣) الذى يرجع إليه الفضل فى تدعيم التاج والقضاء على نفوذ الأشراف وتثبيت الحدود الفرنسية عن طريق القوة والعناية بتكوين جيش ملكى قوى – وحكم البلاد حكمًا فرديًا بعد أن عطل المجلس النيابى الذى كان قائما وهو مجلس الطبقات، الذى لم يجتمع طول مدة حكمه سوى مرة واحدة، فكان الملك يصدر المراسيم. ويسنّ القوانين على مسئوليته الخاصة، وقضى على الحقوق المكتسبة لعدد كبير من المدن وعلى استقلالها، وكان وحده يعقد المعاهدات ويقرر الشئون الخارجية لفرنسا.

وقد زجت فرنسا نفسها فى السياسة الأوروبية بمشروعها الذى بدأه ملكها شارل الثامن بغزو الأراضى الأوروبية عام ١٤٩٤، وبذلك زرعت بذرة الصراع بين ملوك أسرة فالوا وأباطرة أسرة الهابسبورج فى محاولات لمنع تسلط الأسرة الأخيرة على القارة الأوروبية، ومع انشغال ملوك فرنسا الذين تولوا العرش بعد ذلك بالحروب الإيطالية، إلا أنهم لم يفضلوا تدعيم عروشهم ضد الإشراف وضد النزاعات الإقليمية فى البلاد، وأصبحت السلطة الملكية أكثر تحكمًا وأشد قوة.

ولكن فى خلال الحروب الدينية التى أثارتها طائفة الهيجونت فى فرَنسا، تزعزت هيبة التاج فترة من الزمن، وخبا الشعار الذى يرفعه الملك فرانسوا الأول فى قوله"ملك واحد، ودين واحد، وقانون واحد".

ولكن بعد أن أعتلى هنرى الرابع العرش وعاد السلام عام ١٥٩٤ استطاع الملك بفضل وزيرين نابغين متتاليين الكاردينال ريشيليه والكاردينال مازاران Mazarin. أن تستعيد الملكية مكانتها ومهابتها وقوتها وتجلت تلك القوة بأحلى

مظاهرها في عهد الملك لويس الرابع عشر (١٦٤٨ - ١٧١٥). حيث كان له الفضل الأكبر في ازدهار النفوذ الفرنسي في القارة الأوروبية بأكملها.

لم تؤثر الدعوة البروتستنتية، في المجتمع الفرنسي كما أثرت في ألمانيا وسويسرا بسبب قلة تأثير رجال الدين على البلاط الملكي. إذ أن فرنسوا الأول ملك فرنسا، استطاع أن يحصل في عام ١٥١٦، من البابا ليو العاشر على حق تعيين الأساقفة والرهبان في مملكته. فيكون بذلك قد حقق ما طالب به لوثر بعد ذلك بعام بوجوب خضوع السلطة الدينية إلى السلطة الزمنية.

تأرجحت سياسة فرانسوا الأول تجاه البروتستنت وملاحقتهم بحسب مواقف البابا من خصمه شارل الخامس. إلا أنه لم يؤيد الانفصال عن روما لكونه من جهة متمسكًا بوحدة الإيمان في مملكته ومعارضًا لأية حركة ثورية ضد السلطة القائمة، ومن جهة ثانية أن أكثرية الشعب الفرنسي بقيت كاثوليكية محافظة نظرًا لتماسك النظام الإقطاعي وشدة تسلط الإقطاعيين. لهذا نجحت البروتستانتية في الجنوب الفرنسي حيث دعا إليها تجمع النبلاء المجردين من السلطة ومن الذين ناؤوا تحت عبء دفع الضرائب التي لا تحتمل ومن الطامحين السياسيين، وبورجوازي المدن الذين كانوا يواكبون حركة العصر الفكرية ويجدون في الحركة الجديدة إمكانية الحد من السلطة الإقطاعية الجائرة وأنظمتها المتعارضة مع طموحها الاقتصادي.

إن قوة النظام المركزي الذي عرفته فرنسا قبل عهد فرانسوا الأول لم تسمح بالدرجة الأولى بانتشار العقيدة البروتستانتية في فرنسا بينما كان تفسح السلطة في ألمانيا والأراضي المخفضة ومجمل شمال القارة الأوروبية مسؤولا إلى حد بعيد عن هذا الأنتشار. ففي حين مثلت الكاثوليكية عند الأسبان سلاحاً لتحرير بلادهم من "الكفرة" فقد بقيت سيطرة البابوية على إيطاليا مع تفسخ السلطة فيها عنصرًا مهماً لمنع عملية انتشار الأفكار الدينية "والهرطقات الجديدة".

لقد اشتد موقف فرانسوا الأول من البروتستانت بعد أن وصلته أنباء ثورة الفلاحين في ألمانيا. فأصدر القوانين الصارمة وانشأ المحاكم لملاحقة الهرطقة في بلاده وأصبح واضحاً لمعاصريه أنه لم يتسامح مع الحركة الجديدة إلا كونها سلاحًا يرفعه بوجه البابوية التي كانت تحاول بين فترة وأخرى كسب ود شارل الخامس في إيطاليا. لذلك فبعد أن عقد سلمًا مع شارل الخامس سنة ١٥٣٨ تخلى عن استرضاء البروتستانت حتى خارج حدود مملكته الذين كان يمدلهم العون لإشغال خصمه بالحركات الداخلية المعارضة.

ومع أن الحركة البروتستانتية قد تأخر انتشارها في فرنسا عن غيرها من المناطق التي اعتنقتها إلا أنها شكلت جزءًا أساسيًا في النصف الثاني من القرن السادس عشر من تاريخ فرنسا. إذ أن معظم الإحصاءات التي تناولتها المصادر المعاصرة أشارت إلى الكنائس الكلفينية في سنة ١٥٦٢ قد تجاوز عددها في فرنسا الألفي كنيسة. لهذا باتت الفترة التي عاشتها فرنسا حتى سنة ١٥٩٨،تاريخ صدور مرسوم نانت، فترة مشاكل وقلاقل داخلية أدت إلى انقسام حاد في المجتمع الفرنسي الذي كان حتى تلك الفترة أكثر المجتمعات تماسكًا. ولابد هنا من الإشارة إلى مشكلة وحدة الأمة الفرنسية التي طرحتها الحركة البروتستانتية على بساط البحث.

واصل الملك هنري الثاني (١٥٤٧ - ١٥٥٩) لما بدأه أبوه فرانسوا الأول من اضطهاد للبروتستنت بقصد القضاء عليهم واستئصال شأفتهم. فكان يأمر جنوده بمهاجمتهم وهدم منازلهم وحدثت مذابح راح ضحيتها آلاف من البروتستنت وبلغت حركة الاضطهاد حدًا لا يطاق حتى أن عددًا كبيرًا من زعماء الحركة حكم عليه بالموت حرقًا، ومع ذلك لم يستطع الملك وأعوانه أن ينزعوا العقيدة من نفوس المؤمنين بها، بل إن حركة البطش والاضطهاد التي لاقاها الهيجونت زادت عن عطف الجماهير على المضطهدين وانتشر المذهب الجديد بين طبقات الشعب من الفلاحين وأصحاب المهن والمثقفين، إلى جانب العدد الكبير من الأشراف الذين

اجتذبتهم الحركة البروتستنتية، لإعاقتهم بها فحسب بل لأنها ممتلكات تمنحهم الدرجة والذريعة للكفاح ضد التاج، ثم يحيى أملهم في الاستيلاء على الكنيسة.
وعندما توفي هنري الثاني (١٥٥٩ - ١٥٦٠) ابنه فرانسوا الثاني (١٥٥٩ - ١٥٦٠) وكان لا يبلغ السادسة عشر، بدأ الانقسام الذي كان يخشاه الملك المتوفي.

والسبب في ذلك أن فرانسوا الثاني وقع تحت تأثير زوجته (ماري ستيوارت) وكان شقيقي والدتها (ماري لورين زوجة جيمس الخامس ملك اسكتلندة) وهما فرانسوا دوق جيز وشقيقته شارل كاردينال اللورين من كبار زعماء الكاثوليكية فاستأثرت أسرة جيز الكاثوليكي بكل سلطة، وقبلت الملكة الوالدة كاترين دي ميدتشي هذه السيطرة، الأمر الذي أغضب الأسر البروتستنتية النبيلة وأهمها أسرة بربون وأسرة مونتمورنسي فأخذ هؤلاء يدعمون صلاتهم بقادة الإصلاح، واتخذت الكلفنية صبغة سياسية وثورية خطيرة إلى جانب صبغتها الدينية. فكان النضال على السلطة هو منشأ الحرب الأهلية أو الحرب الدينية في فرنسا.

وبدأت الاضطرابات عندما حاول الهجونت "أتباع الكلفينية، القضاء على نفوذ أسرة جيز واختطاف شخص الملك ودبروا مؤامرة للهجوم على مقر الملك في امبواز Ambise في مارس ١٥٦٠. ولكنهم أخفقوا وأوقع أعوان جيز والملك مقتلة عظيمة بالهجونت ومثلوا بهم تمثيلا فظيعًا حتى هلك منهم عدد كبير (حوالي ١٢٠٠ نسمة) ولكن هذه الفظائع التي حدد ارتكابها بداية للاضطراب الديني في فرنسا سرعان ما أثارت الشعور العام ضد أسرة جيز وأتاحت الفرصة للملكة الوالدة (كاترين مديتشي) حتى تطالب بالاعتدال فعينت لهذه الغاية في منصب الوزارة ميشيل لوبتال Michel L.Hopital أحد الساسة المعروفين بالحكمة والمهارة، ثم لم يلبث أن توفي فرانسوا الثاني، فتولى أخوه شارل التاسع العرش (١٥٦٠ - ١٥٧٤) وكان

صبيًا لا يزيد عمره على العاشرة فصارت كاترين مديتشي وصية على العرش، وبدأت في تنفيذ سياستها.

وكانت كاترين ميدتشي تريد إرضاء البربون (البروتستنت) وجيز (الكاثوليكي) معًا، ولو أنها أرادت كذلك أن تستميل إليها الهيجونت حتى تقلل من شأن أسرة جيز. وغرضها من هذه الخطة أن توازن بين الأسرتين حتى تستطيع أن تستأثر هي بكل سلطة في النهاية. واعتمدت في تنفيذ هذه الخطة على أشد خلصائها (ميشيل لوبتيال) الذي توخي الاعتدال وهذا كان مصيرها الفشل في عصر لا يعرف التسامح الديني.

فقد بدأت كاترين مديتشي تعمل للتوفيق بين البروتستنت والكاثوليك فمنعت الهيجونت من إقامة شعائرهم بطريقة علنية، ومنعت في الوقت نفسه تعطيل عبادتهم إذا هم أقاموها في داخل منازلهم. وجمعت الفريقين في مؤتمر انعقد في بواسي Poissy في سبتمبر ١٥٦١ للتوفيق بينها ولكن دون جدوى وعندئذ أصدرت مرسومًا في يناير ١٥٦٢ أباح للبروتستنت العبادة في خارج المدن المسورة فقط ومنعهم من إقامة شعائرهم في داخل المدن. ولكن هذا المرسوم أغضب الكاثوليك والبروتستنت على السواء. البروتستنت لتسامحه المحدود والكاثوليك بسبب هذا التسامح نفسه. وبقيت الأمور متحرجة إلى أن حدث في أول مارس ١٥٦٢ أن كان فرانسوا دون جيز يمر في طريقه إلى باريس بمدينة فاسي Vassy وهي إحدى المدن المسورة - فشاهد جماعة من الهجونت يتعبدون في داخلها فأمر بإطلاق النار عليهم وقتل وجرح منهم كثيرون. وكان لهذه المذبحة (مذبحة فاسي) آثار سيئة لأنه بمجرد ذيوع الخبر في الأقاليم، قامت مذابح عديدة تشبهها في عدد من المدن الأخرى، وقتل من الهجونت خلق كثير، وانتقم هؤلاء من القساوسة الكاثوليك كما خربوا الكنائس وعبثا حاولت كاترين مديش التأثير عليهم لقبول أي اتفاق سلمي.

وعندئذ أصدرت مرسومًا في يوليو ١٥٦٢ أعلن عصيان الهجونت وطردهم خارج القانون. وعلى هذا النحو قامت الحروب الدينية في فرنسا.

وقد اتسم هذا النزاع ليس فقط بأنه كان يعتمد على المرتزقة من الأجانب إلى حد كبير، بل أنه تميّز أيضًا بأنه كلما قامت الحرب أعقبها السلام بعد وقت قصير. وليس سبب ذلك توقع الطرفين تسوية يقبلانها حقًا، ولكنه يرجع إلى عوامل أخرى كفراغ أيدى المحاربين من المال أو مقتل قائد أو حدوث تخاذل أو ضعف مفاجئ في الشعور الذى كان لا يزال كامنًا بوحدة فرنسا باعتبارها كنزا. لا يجوز تبديده بسهولة، وهو الشعور الذى كانت تخالطه الأحقاد الدينية أو الشخصية العنيفة لذلك العصر.

هذه الأسباب تفسر كيف أن فرنسا كانت مضطرة إلى خوض حروب أخرى قبل أن يحسم النزاع بين الكاثوليك والهيوجنت.

ولم يتورع كلا الطرفان عن الالتجاء إلى المعونة الأجنبية، ولىّ الكاثوليك وجوههم شطر أسبانيا، على حين ولى الهيجونت وجوههم شطر إنجلترا، بل لقد ذهبوا في الحرب الأولى إلى حد وضع الهافر في أيدى الإنجليز ووعدهم بكاليه، ومع ذلك فإنهم لم يعقدوا قط حلفًا مع دولة بروتستانتية: فإن الصدع القائم بين اللوثرين الألمان والهيجونت الفرنسيين كان قوياً حقاً لقد شارك لوثريون من الألمان في الحروب الفرنسية، ولكن أكثرهم كان يقاتل في صفوف الكاثوليك لا الهيجونت.

وفي الحرب الأولى كانت كل المقدمات تشير إلى توقع انتصار الكاثوليك: فهم قد تسلطوا على الملك والملكة، وضمنوا تعضيد باريس، ومساعدة طائفة من المرتزقة الأسبان والألمان ممن مهروا في القتال - هذا إلى استيلائهم على روان ثم انتصارهم أخيرًا على قوات كولينى وكونديه في درية (في نورمندية) ولكن هذه

المميزات تبددت فجأة حين خر فرانسوا جيز صريعًا على يد سناك أمام أسوار أورليان.

ولكن الهيجونت لم يغيروا شيئًا من هذه الجريمة، فقد عزى مقتل فرانسوا جيز إلى كوليني، وأصبح لدى أسرة القتيل دافع للثأر أقوى بكثير من قوة معتقداتها الدينية.

ثم تلت ذلك سنوات أربع تخللها سلام غير مستقر جابت كاترين وأولادها خلاله ربوع الأقاليم وتيقظت شكوك حزب الهيجونت حين تمت في بايون Bayonne (مايو ١٥٦٥) مقابلة بين كاترين وأختها ايزابيلا ملكة أسبانيا التي كان يصحبها دون الفا. وكان من الواضح أن غرض كاترين الأساسي هو السعي لتزويج ابنتها مارجريت دون كارلوس Don Carlos بن فيليب الثاني ملك أسبانيا، ولكن نوقشت أيضًا في هذا الاجتماع مسائل أخرى، وبخاصة تعاون فرنسا وأسبانيا ضد الأراضي المنخفضة. وفي ذلك ما يكفي لإثارة مخاوف كولويني أنشط محركي حزب الهجونت؛ وحين علم أن الفا يزحف صوب الأراضي المنخفضة على طول حدود فرنسا الشرقية على رأس جيش أسباني ممتاز تصحبه فرقة استطلاع فرنسية، شعر الأميرال أن الوقت قد حان لتحرير البلاط من المؤامرات الأسبانية. ووضعت خطة لاختطاف شارل التاسع، وكان فشلها معجلاً بنشوب القتال من جديد.

ويمكن اعتبار الحربين التاليين سلسلة واحدة من العمليات إذ لم يفصل بينهما سوى صلح لونجيمو Lonjumeau القصير الأمد (١٥٦٨) ولهاتين الحربين أهميتهما لعوامل ثلاثة: ففي هذه الفترة بالذات برزت لاروشل لأول مرة باعتبارها حصناً بحرياً بروتستانتياً عظيماً قادراً على أن يصمد للحصار، وفي هذه الفترة برز هنري نافار ابن الملك انطوان، وهو الذي قدر له فيما بعد أن يصبح هنري الرابع ملك فرنسا – باعتباره قائدًا بروتستانتيا. ولكن أهم ما يلفت النظر في خصائص هذه الفترة أن النصر النهائي كان من نصيب كوليني، وذلك رغم سلسلة متلاحقة من الانتصارات الكاثوليكية وأسر كونديه ومقتله في جرناك وتغطية ساحة مونكتور

الملطخة بالدماء بحوالى ستة آلاف جثة من الهيجونت. ولقد قام هذا القائد المحنك بتقهقر رائع من اللوار صوب الجنوب، ثم كوّن جيشًا جديدًا زحف به على باريس حيث وجد البلاط خلوًا من كل قوة، فأرهب أعدائه وسيطر على الملك وانتزع لنفسه السيطرة على سياسة فرنسا. وكان شارل التاسع الذى قامت على تنشئته مربية بروتستانتية على استعداد للتفاهم.

اعترف صلح سان جرمان (أغسطس ١٥٧٠) أكثر من أى وقت مضى بأهمية حزب الهيجونت كهيئة ذات مصالح خاصة لها كيانها فى فرنسا. وسمح لكبار النبلاء - كما كان الحال من قبل - بأن يقيموا الصلوات طبقاً لمذاهب الهيجونت فى قلاعهم لكل من يرغب فى حضورها، ونص على بقاء شعائر العبادة البروتستانتية فى كل المدن التى تمارس فيها فعْلا، وفى مدينتين فى كل مقاطعة إدارية فى فرنسا، ووضعت ضمانات لمنع المظالم التى تتخذ شكل القانون، كما وضعت فى يد الحزب - لمدة سنتين - أربع أماكن لها أهمية حربية عظيمة، وذلك ضمانًا لتنفيذ المعاهدة وهذه الأماكن هى: لاروشل ومنتوبان Montauban وكونياك Coynac ولاشاريته La Charite.

وهكذا انفسح أمل جديد أمام الهيجونت. فحتى ذلك الوقت كانت الملكية الفرنسية فى دفاعها عن القضية الكاثوليكية وبفضل نفوذ آل جيز إلى حد كبير على استعداد للالتجاء إلى أسبانيا طلبًا للمعونة. فجاء كولوينى الآن يمهد الطريق لانقلاب سياسى كامل. كانت خطته أن يضمن حماية بنى ملته فى فرنسا عن طريق إشعال حرب قومية ضد أسبانيا فى الأراضى المنخفضة. ولتحقيق هذا الهدف عمل على تكوين حلف عظيم تتزعمه فرنسا وتسنده كل من انجلترا وهولندة وتسكانيا والبندقية وربما الأتراك العثمانيون، القصد منه إقرار السلام فى البلاد وضم الفلاندر وآرتو إلى أملاك التاج الفرنسى، وكانت المعاهدة الدفاعية التى وقعها كولينى مع انجلترا فى ابلوا فى ١٩ ابريل ١٥٧٢ الحجر الأول فى البناء الدبلوماسى الجديد.

وبين التدابير التى اتخذت في هذه الفترة التى ارتفع فيها نفوذ الهيجونت مشروع قدر له أن يؤثر تأثيراً قوياً في الموقف الداخلي في فرنسا. فقد تمت المباحثات في أمر زواج أبرم بالفعل (١٨ أغسطس ١٥٧٢) بين مرجريت فالوا أخت الملك وهنرى نافار، وكان هذا الزواج المختلط الأول من نوعه، فلقى المقت الشديد من كل كاثوليكي، وتساءل الناس: في أى طريق تسير فرنسا في ظل ملكها ضعيف العقل وقائدها الهيجونتي؟ أتسير في طريق تنتهى بها إلى منازلة أعظم القوى الكاثوليكية في أوروبا؟ أم في طريق يفضي إلى وقوعها في قبضة ملك بروتستانتي؟ كانت كاترين من الالمعية بحيث استبانت ما طرأ على الجو السياسى من تغيير: فقد كانت تعلم أن الأغلبية العظمى من الشعب الفرنسي لا تزال مخلصة للعقيدة القديمة رغم أن ما يقرب من ثلث النبلاء أصبحوا من الهيجونت. كانت تخشى الحرب وسطوة أسبانيا ونفوذ كوليني على ابنها، كما كانت تخشى أن يوجه آل جيز ضربتهم إذا ما بقيت ساكنة، ومن ثم ينتزعون لأنفسهم السيطرة على فرنسا، وكانت من الحذق بحيث أدركت أن حربًا تشنها فرنسا للاستيلاء ولو على شبر من أراضى الفلاندر لن تحظ بعطف الحكومة الإنجليزية لأمد طويل. لكل هذا قر قرارها على تدبير مقتل كوليني. ولكن الهجوم عليه فشل، ولم يكن الجرح الذى أصابه على يد كاثوليكى مسلح بالغًا (٢٢ أغسطس ١٥٧٢) ومن ثم أصبح مركز الملكة الوالدة دقيقاً. وكانت باريس مزدحمة بالهيجونت الذين أتوا إلى العاصمة لشهود حفلات الزواج الملكى، وقد استشاطوا غضبا للاعتداء على زعيمهم موضع حبهم وتقديرهم العميقين. وحتى لا يتطور الأمر من سئ إلى أسوأ، صممت الملكة على إعادة الكرة ليس ضد كوليني وحده في هذه المرة ولكن ضد الزعماء البروتستانت. وانخدع الملك الضعيف بقصة مؤامرة يديرها الهيجونت. وأمكن إقناعه بالموافقة.

وفى فجر يوم ٢٤ أغسطس - وهو يوم القديس بارثلميو - أعطت إشارة القيام بالمذبحة الكبرى التى قتل فيها بطريقة وحشية بضعة آلاف من الهيجونت وزعمائهم، ولم تقتصر المذبحة على باريس بل هوجم الهيجونت فى الأقاليم أيضًا،

وقد نفذت هذه المذبحة الوحشية آل جيز الذين انتظروا هذه الفرصة طويلًا حتى ينتقموا لأنفسهم شر انتقام، وقد لاقى "كولينى" حتفه فى المذبحة وأرسل رأسه إلى البابا الذى أمر بنقش ميدالية تخليدا لتلك الذكرى التى اعتبرها سعيدة وموفقة.

أما هنرى دوق نافار فقد نجا من الموت عندما عرض عليه فى البلاط الملكى أن يختار بين الإعدام والعودة إلى الكاثوليكية فقبل الكاثوليكية انقاذًا لحياته وكذلك فعل "كونديه".

وكانت تلك المذبحة صدمة كبرى لآمال البروتستنت لا فى فرنسا وحدها بل وفى أوروبا كلها. على أن تلك المذبحة لم تزد من بقى من الهيجونت إلا تحمسا وإصرارًا وقرروا ألا يستسلموا لليأس مصممين على مواصلة الكفاح فى سبيل عقيدتهم وكيانهم حتى آخر رجل منهم، وبدلاً من أن تحث المذبحة جماعة الهيجونت على التوقف كانت مقدمة لحرب أخرى، ولذلك لم يتوقف النضال مدى عشرين عامًا أخرى.

لم تسفر مذبحة سان برتلميو عن انتهاء متاعب كاترين ميدتشى من ناحية الهيجونت. لأن هؤلاء ازدادوا تصميمًا على المقاومة بعد المذبحة، وتحصن من نجا منهم حصن لاروشيل المنيع. وبذلك بدأت الحرب الدينية الرابعة.

وفى هذه الحرب الرابعة حاصر الكاثوليك لاروشيل ثمانى شهور ولكن من غير نتيجة، واضطر الملك إلى عقد سلام لاروشيل ونيم Nimes ومونتبان Montauban كما اعترف لهم بحرية العقيدة واستعادوا أملاكهم المصادرة واسترجعوا وظائفهم ومرتباتهم التى حرموا منها: وهكذا خرج الهجونت من هذه الحرب، وبعد مضى عام واحد تقريبًا على مذبحة سان برتلميو، مزرى الجانب أكثر من أى وقت مضى. وتوفى شارل التاسع فى مايو ١٥٧٤. واعتلى العرش هنرى الثالث ولكن قبل وفاة شارل التاسع كانت قد بدأت منذ فبراير ١٥٧٤ الحرب الدينية الخامسة.

ولكن مما يجدر ذكره أن تحولًا كان قد طرأ على موقف الهجونت أنفسهم منذ سنة ١٥٧٣ عندما أدركوا بعد مذبحة سان برتلميو أنه بات من المتعذر إنشاء دولة

كلفينية فى فرنسا على نمط الدولة التى انشأها زملائهم الكلفينيون فى اسكتلندا. فأخذوا يعملون من هذا الحين للاطمئنان على استقلالهم الدينى والعيش فى أمان ومن غير اضطهاد من جانب الدولة الكاثوليكية وقد أثر هذا التحول فى جماعة من المعتدلين الكاثوليك الذين رأوا فيه وسيلة لإنهاء الحروب الدينية وإعادة السلام إلى فرنسا على أساس إعطاء الهيجونت الحياة الدينية المستقلة التى ينشدونها فى نطاق الدولة الكاثوليكية الفرنسية، والقضاء على جميع الاضطرابات سواء كان منبع هذه الاضطرابات التعصب الكاثوليكى أو البروتستنتى وأما هؤلاء الكاثوليك المعتدلون فيعرفون باسم (السياسيين) Les Politiques ومن زعمائهم دامفيل Damville من أقرباء كولينى الكاثوليكى. ونال المعتدلون أو السياسيون كذلك تأييد شقيق الملك الدوق دالنسون d'Alencon وكان من أثر ظهور هذه الجماعة، أن قوى جانب الهجونت الذين انضم إليها هنرى نافار، وكان قد اعتنق الكاثوليكية أثناء مذبحة سان برتلميو حتى ينجو فارتد إلى الكلفينية. وكان ائتلاف السياسيين والهجونت سببًا فى تكوين جيش من الفريقين اشتبك مع قوات الملك هنرى الثالث والكاثوليك فى معارك الحرب الخامسة منذ فبراير ١٥٧٤م.

ولكن النصر فى هذه الحرب الدينية الخامسة كان من نصيب الكاثوليك وعندئذ فضلت كاترين مديتشى حريا على عادتها أن تعقد الصلح. فتوسط دالنسون شقيق الملك الأصغر فى ذلك فابرم صلح "بوليو" Beaulieu أومسيه Monsieur وهو اللقب الذى حمله دالنسون فى مايو ١٥٧٦ وكان هذا الصلح فى مصلحة الهيجونت وزعمائهم هنرى نافار والبرنس كونديه ومن مصلحة دالنسون نفسه، فحصل دالنسون على دوقية انجو. وهنرى نافار على حكومة جويين Guyenne، وكونديه على بيكاردى وبمقتضاه كذلك ألغيت كل الأحكام السابقة التى صدرت ضد الهجونت وحصل هؤلاء على ثمانى مدن. يلجأون إليها وأعطوا حق العبادة فى

أى مكان يريدونه عدا باريس وفى البلاط الملكى فاثار هذا الصلح غضب الكاثوليك وقامت الحرب الدينية السادسة.

لهذا تكون اتحاد كاثوليكى أو الحلف الكاثوليكى union Catholique ويسمى أيضًا بالحلف المقدس Saint - Ligue - يرعاه البابا وملك أسبانيا هدفه تثبيت دعائم العقيدة الكاثوليكية في فرنسا.

وفي عام ١٥٨٤ توفي الأخ الأصغر للملك، وكان أصغر أبناء كاترين والأخ الوحيد لهنرى على قيد الحياة. ولما كان الملك لم ينجب نسلا، فلا مناص من أن يكون هنرى نافار الوريث التالي للعرش. وأصبح مبدأ أعضاء العصبة الباريسيين أن "الجمهورية خير من تولي ملك من الهيجونت" وأصبح هنرى الثالث لسنوات طويلة لا حول له ولا قوة أمام آل جيز يؤيدهم إذ ذاك مثل هذا الشعور الحماسى الدافق، أحنى الملك رأسه، ومضى فى حماية السفاكين، تحيط به شبكة من المؤامرات، بينما انتزعت العصبة السلطة الحقيقية على فرنسا الكاثوليكية، وظهر مدى ضعف الملك في يوم المتاريس La Journée des Barricades (١٢ يوليو ١٥٨٩) حين رفضت باريس في ولائها لهنرى دون جيز - أن تسمح لقوات الملك بالدخول إلى المدينة، كما ظهر هذا الضعف مرة أخرى حين أصدر مجلس طبقات الأمة فى اجتماعه في بلوا Blois تحت نفوذ اليسوعيين -- سلسلة من القوانين التى كان من شأنها - لو نفذت - أن تؤدى إلى إفلاس الخزانة وحرمان الحكومة من آخذ مقومات سلطتها. ولقد حاول الملك أن يتخلص من هذه المهانات فلجأ إلى الاغتيال: فقتل دوق جيز كاردينال اللورين في قلعة بلوا قرابة عيد ميلاد عام ١٥٨٨م على يد بعض أتباع الملك.

وكانت الملكة الوالدة العجوز على فراش الموت حين حمل إليها أحب ابنائها الخير قائلا كما يروى "الآن غدوت ملك فرنسا، لقد قتلت ملك باريس فكان جوابها "أرجو الله أن يكون ذلك، حقًا، ولكن هل تأكدت من المدن الأخرى" .

وأعلنت العصبة الكاثوليكية خلع هنرى عن العرش وحاولت أن تحكم العاصمة والبلاد كان عدد كبير من الفرنسيين يتزايد يومًا بعد آخر - وهم ليسوا من الهجونت ولا من أتباع العصبة يتجهون بأفكارهم إلى هنرى نافار وارث العرش بحكم القانون، وكان مقربًا إلى الشعب وكان بروتستنتياً بعكس قريبه كاثوليكيا. ووجد ابنا العم أن مصلحتهما المشتركة تدعوهما إلى مهاجمة الكاثوليكية، تلك العصبة التى خلعت أحدهما وأعلنت أن الآخر لا يستحق العرش، ولكن بينما كانت جيوشهما تقف خارج باريس، خر الملك صريعا على يد يعقوبى "جاك كليمان Jacques Clement أول أغسطس ١٥٨٩ وبذلك انتهى حكم أسرة الفالوا الطويل فى فرنسا، وانفتح الصراع المباشر بين هنرى نافار و"العصبة".

وحكمت باريس باسم العصبة لجنة من ستة عشر بإشراف دوق ماين Mayenne الأخ الأصغر لهنرى جيز. وقد فرضت نظامًا من الإرهاب يشبه لجنة الأمن العام عام ١٧٩٤. ويستند المدافعون عن تلك اللجنة إلى أنها صانت لفرنسا عقيدتها الكاثوليكية وهى أكثر ملاءمة للناس من البروتستانتية، وأن الجرائم التى ارتكبها كرهت الناس فى النزعات الجمهورية مدى قرنين من الزمان. وكان من آثار حكمها العنيف المكروه رجوع فرنسا آخر الأمر إلى الاعتقاد بأن إعادة الملكية الوراثية من شأنه أن يقلل من فرص الانقسام، ولما كانت البلاد لا تقبل حكم أميرة أسبانية ولا حكم نبيل فرنسى ينتخبه مجلس طبقات الأمة، فإن الكتلة الرئيسية الارستقراطية الفرنسية قد التفت حول الأمير البوربونى. ولكن التعصب كان لا يزال حادا بلغ من حدته أن هنرى - حتى بعد تخليه عن عقيدته البروتستانتية فى كنيسة سان دنيس (٢٥ يوليو ١٥٩٣) - اضطر إلى الانتظار مدى ثمانية شهور خارج أسوار باريس قبل أن يتمكن من التغلب على مقاومة المدينة.

وأصدر مرسوم نانت الذى منح الهيجونت حقوقاً سياسية مساوية لحقوق الكاثوليك، ولكنه لم يضمن لهم على أى حال الحرية التامة فى ممارسة عقائدهم

الدينية. منح المرسوم حق ممارسة عقيدة الإصلاح للنبلاء الذين يملكـون حـق محاكمة المجرمين (الأسياد من علية القضاة) وللمواطنين فى عدد معين من المدن والبلدان، ولكنه حرمه فـى جميع المـدن الأسقفية أو التابعة لرؤساء الأساقفة، وفـى البلاط الملكى وفى باريس، وكذلك فى نطاق عشرين ميلا حـول العاصمة. وفتحت أبواب الوظائف العامة أما الهيجونت وانشئت المجالس النيابية المختلطـة وفـى البرلمان الأربعـة (فـى باريس، وتولـوز وجرينوبـل وبـوردو). وحصـل الهيجونت على بعض المدن المحصنة، واعترف بهم إلى حد ما كحزب سياسـى مسلح. ولم يسجل البرلمان مرسـوم نانت الا بعد تأخير طويـل. وإن كـان المرسوم لم ينشئ شيئًا مثل "كنيسـة حرة داخل دولة حرة"، فإنه قد اعترف قانونيًا بنوع من التسامح لم يكن بعد معروفًا بطريقة رسمية فـى أى مكـان آخر. وفـى معاهدة فرفـان (٢ مـايو ١٥٩٨) مـع أسبانيا، إعادة جميع الفتوح إلى فرنسا.

وإتباع الإجراءات العاملة على تحسين الحالة المالية والرفاهية العامـة، التـى تدهورت وبخاصة على يد روسنى فيما بعد دون سلى (١٥٦٠ – ١٦٤١) مشروع خيالى ينسب للملك أو إلى سلى لتأسيس جمهورية مسيحية عالمية فى أوروبـا، تشتمل على ست ملكيات وراثية (فرنسا – انجلترا، أسبانيا، دانيمرال، السـويد، لمبارديا) وخمـس ملكيات انتخابيـة (الامبراطوريـة البابويـة بوهيميا) وأربـع جمـهوريات (سويسـرا – إيطاليا، البندقية بلجيكا) التـى من المحتمـل أن تصبـح حلفـا ضـد سـلطان أسـرة الهابسـبورج العظيم ومع ذلك فإن هـذه الخطـة العظيمـة كانت سـابقة لمشـروعات متأخرة لتنظيم أوروبا دوليا. مسألة وراثـة إقليـم كليف جوليش، وهنرى الرابـع يؤيـد مطالب برندبرج وسط الاستعدادات العظيمـة للحرب قتـل هنرى فـى باريـس ١٦١٠ (١٤ مايو) على يد رفياك المتعصب.

أما الفترة العصيبة (١٦١٠ – ١٦٤٣)، فإنه بعد مقتل هنرى فقـد تـولى (لويس الثالث عشر) ابنه فى التاسعة من عمره، وصاية أمه عليه ميرى مديـش بعزل سـلى مـن

منصبه، أصبح كونسيني الإيطالي يسيطر على مقاليد الأمور، بلغ لويس الثالث عشر سن الرشد في ١٦١٤ ولكنه في الواقع كان طوال حياته تحت قيادة الآخرين. واجتمع مجلس طبقات الأمة ١٦١٤، آخر اجتماع قبل الثورة في ١٧٨٩. وقبض على كونسيني وقتله، نفي الملكة إلى بلوا (١٦١٧) الملك تحت نفوذ صفيه دوق لوينس. عن طريق وساطة أرمان جان دوبلتيس (١٥٨٥ - ١٦٤٢) كردينال دوق ريشيليو، ابرمت معاهدة بين لوينس والملكة الأم (١٦١٩) وبدأت حرب أهلية جديدة حيث ناضل الملك مع النبلاء والهيجونت بعد وفاة لوينس (١٦٢١) وتسيطر على الشئون ماري مديش وصبغها ريشيليو لم يلبث أن ساد نفوذ الأخير، فتشاجرت الملكة معه.

وأصبح ريشيليو (١٦٢٤ - ١٦٤٢) له نفوذ على الملك منذ ذلك الحين كاملا. دبرت عدة مؤامرات ضده حرّض عليها جستون أدرليان أخو الملك.. وقامت ثورة الهيجونت (١٦٢٥) تحت زعامة دوق روهان ودوق سوبيس. وحاصر ريشيليو لاروشيل (١٦٢٧ - ١٦٢٨) على الرغم من إرسال انجلترا ثلاثة أساطيل لمساعدة الهيجونت، سلمت المدينة في ٢٨ أكتوبر ١٦٢٨، بعد مقاومة فيها بطولة استمرت أربعة شهرًا. هزيمة دوق روهان وإخضاع الهيجونت إخضاعًا تامًا؛ لم يعد الهيجونت بعد ذلك حزبًا سياسيًا مسلحًا، وإنما مجرد مذهب له حريته الدينية، ودارت الحرب مع أسبانيا في إيطاليا؛ إخضاع سافوى، وريشيليو على رأس الجيش. وفي عام ١٦٣١ عقد معاهدة شيراسكو: تنازلت فرنسا عن كل فتوحاتها في إيطاليا، ولكن بمقتضى معاهدة سرية مع فيكتور أمديوس دوق سافوى تم التنازل لفرنسا عن بنيرول (كان المفاوضان في هذه المعاهدات؛ الأب جوزيف وهو موضع ثقة ريشيليو ومزران المبعوث البابوى.

وواجه ريشيليو العديد من المؤامرات منها مؤامرة مارى مديتشى الأخيرة لخلعه وفشلت هذه المؤامرة، ثم فشلت مؤامرة جستون ودوق مونتمرانس، وأعدم.

وفى عهده اشتركت فرنسا فى حرب الثلاثين عاما (١٦٣١ - ١٦٤٨). وتأسست الأكاديمية الفرنسية.

وعلى الرغم من أنه لم يكن مديرا ماليا طيبا، فإنه ساعد نوعا من أن يزيد من نفوذ البيرقراطية الملكية (عمال الملك) على حساب النبلاء، والهيجونت والبرلمانات. ومع ذلك فإن عظمته الحقيقية تظهر فى ميدان السياسة الخارجية. أعاد لفرنسا نفوذها فى إيطاليا والأراضى المنخفضة وألمانيا، وكذلك أقام هذا النفوذ فى السويد. وقد كان عمله هو الذى وضع أساس سلطة لويس الرابع عشر، كما أصبح الأساس التقليدى لسياسة فرنسا الخارجية.

الفصل السابع

الإصلاح الكاثوليكى أو انتعاش الكنيسة الكاثوليكية

الإصلاح الكاثوليكى أو انتعاش الكنيسة الكاثوليكية

حققت البروتستانتية مكاسب كبرى، واكتسحت أمامها الكاثوليكية، فإن ثلاثة أرباع ألمانيا قد نبذت ولاءها لكنيسة روما، وقطعت إنجلترا علاقاتها التى كانت تربطها بروما، واعتنقت الدانمرك والسويد والنرويج الحركة اللوثرية، وانتقلت حركة الإصلاح الدينى إلى فرنسا وهولندا، واجتذبت الآراء الجديدة جموعًا غفيرة من سكان بولندا وبوهيميا، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فإن شبه الجزيرة الإيطالية لم تخل من أنصار يؤيدون البروتستانتية قلبًا وقالبا. وفى خلال عشرين سنة كان نصف العالم المسيحى فى أوروبا الغربية قد خرج على كنيسة روما ونبذ ولاءه للبابا.

هال الكاثوليك هذا الانتشار السريع الذى حققته البروتستانتية وما تفرع عنها من مذاهب. كانت البابوية هى صرح المسيحية الشامخ فى أوروبا وتثير فى نفوس أتباعها ذكريات عزيزة عطرة: فهى القوة الوحيدة فى غربى أوروبا التى استطاعت حماية التراث الرومانى وسط الفوضى التى عمت أوروبا عقب سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية فى أواخر القرن الخامس الميلادى وهى القوة التى أثارت الحروب الصليبية وجعلت أوروبا تتدافع فى موجات بشرية متلاحقة نحو الشرق منذ القرن الحادى عشر وعلى مدى قرون متعاقبة ابتغاء تنصيره واستغلاله، وإنشاء كيانات سياسية كاثوليكية فى ربوعه، ثم غدت البابوية فى القرن السادس عشر الأمل المرتجى فى إذكاء الوعى الصليبى بين شعوب غربى أوروبا لمواجهة الخطر الإسلامى ممثلا فى الأتراك العثمانيين الذين روعوا هذه الشعوب بزحفهم الخاطف على قلب أوروبا ثم باستيلائهم على جزيرة رودس وغيرها من القواعد العسكرية والجيوب الصليبية فى حوض البحر المتوسط. فكان الرأى العام المتحمس لكنيسة روما، والذى يشتد تعصبًا، لا يطيق أية حركة انفصالية عنها تؤدى إلى إضعافها، وهذا الرأى العام نفسه، لم يكن يهتم ببقاء كنيسة القسطنطينية منفصلة عن كنيسة روما، لأن الغالبية العظمى من رعايا الكنيسة الشرقية أصبحوا خاضعين لحكم الأتراك العثمانيين من ناحية، وكان المجتمع الأوروبى لا يعرف كثيرًا عن دول شرقى أوروبا من ناحية ثانية.

ولما استفاق الكاثوليك على الحقيقة التى كانت مروعة بالنسبة لهم، وهى انتشار البروتستانتية في أوروبا طولا وعرضًا، أدركوا أنه لم يعد فى الإمكان تأجيل إصلاح الكنيسة الكاثوليكية الذى طالما تنادى إليه المصلحون من قبل ظهور لوثر ومن بعده. واتخذت البابوية منذ حوالى منتصف القرن السادس عشر إجراءات عملية لإصلاح الكنيسة. وكان هذا الإصلاح هو رد الفعل لحركة الإصلاح الدينى التى قام بها مارتن لوثر وغيره من المصلحين. ولذلك يطلق على حركة الإصلاح الكاثوليكى عبارة La Contre Reforme أى حركة الإصلاح الديني المضاد، كما كان يطلق عليها فى بعض المصادر الثورة الدينية المضادة فى القرن السادس عشر، ويطلق عليها البعض الآخر الانتعاش الرومانى الكاثوليكى أو رد الفعل الرومانى الكاثوليكى.

إن الإصلاح الدينى الذى تطلع إليه المخلصون من أتباع كنيسة روما - وهو الذى يطلق عليه الإصلاح الدينى المضاد - كان يختلف اختلافا تامًا عن الإصلاح الدينى الذى بدأ فى ألمانيا على يد لوثر ثم امتد إى أصقاع أخرى فى أوروبا. لقد كان الإصلاح الأخير حركة ثورية تناولت أساس العقيدة ونظم الكنيسة وطقوسها، وأوجدت هذه الحركة الثورية عددًا من الكنائس فى ألمانيا وسويسرا وفرنسا وغيرها قامت على أساس المبادئ التى تنادى بها لوثر وزونجلى وكلفن وغيرهم. كانت هذه الكنائس مستقلة استقلالا تامًا عن كنيسة تختلف عن نظم وطقوس الكنيسة الكاثوليكية. من ناحية ثانية، كما كانت هذه الكنائس الجديدة لا تجمع بينها رابطة الوحدة من ناحية ثالثة. فهذا الإصلاح الدينى كان له الطابع الثورى والطابع الانفصالى معًا.[٢]

أما الإصلاح الدينى المضاد فكان يهدف إلى تطهير الكنيسة الكاثوليكية مما لحق بها من ضروب الفساد فى أنظمتها وسلوك رجالها على أن يمتد الإصلاح فيشمل البابا ومن دونه من جميع فئات رجال الدين أو حسب التعبير اللاتينى الذى ترد على السنة دعاة الإصلاح فى ذلك العصر du Capite et in memberis "أى

الرأس والأعضاء". وقد عرفنا قبل ذلك أن النصف الأول من القرن السادس عشر، كان البابوات يطلق على عدد منهم "بابوات النهضة" حرفهم ضياء النهضة ووجهها الباسم المشرق عن الاهتمام برسالة الكنيسة، وعاشوا حياة حفت بها أسباب المجون والعشق، وزجوا بأنفسهم في غمار السياسة الإقليمية في إيطاليا حينًا وفي السياسة الدولية حينًا آخر سعيًا وراء تحقيق أمجاد ومغانم شخصية لهم ولعائلاتهم. وقد شغلتهم هذه الحياة الخاصة والعامة عن حشد جميع الطاقات للوقوف في وجه الحركة اللوثرية وهي لا تزال في مهدها. وكانت هناك حوادث مشينه في البلاط البابوية تتصل باستغلال النفوذ والتلاعب في أموال الصدقات والرشا والمحاباة وتعيين الأقارب في الأجهزة البابوية، وكانت أصابع الاتهام في معظم الحوادث تشير إلى البابا وإلى المقربين إليه.

ولم يكن الأساقفة أرقى خلقًا أو أفضل مسلكا من البابوات ولم يقيموا في مقار أسقفياتهم بل عاشوا بعيدين عنها حياة طليقة من كل قيد، يأتيهم رزقهم رغدًا من الإيرادات الضخمة التي تحصل عليها كل أسقفية. وامتد الجشع المادى والانحراف الخلقي إلى طائفة القسيسين فعاشوا حياة بعيدة عن روح الدين. كان القسيس الواحد يسيطر على عدة أبرشيات ويستولى على إيراداتها لنفسه الأمر الذى قضى على العدالة في شغل المناصب الدينية وعصف بمبدأ تكافؤ الفرص. وفشا المجون والفسق بين عدد كبير جدًا منهم حتى أصبح أمرًا عاديًا أن يكون للقسيس عشيقة لإرضاء مطالب جسده بدلا من أن يعمل على الاستعلاء بالغريزة إلى ما هو أسمى ومع ما يتفق مع رسالته في الحياة. ولم يهتم القسيسون بالناحية الشكلية أو المظهرية فسمحوا لأنفسهم بارتداء الملابس المدنية. وابتعدت المؤسسات الديرية عن حياة التقشف والورع والزهد وأقبل الرهبان على ألوان شتى من المتع يفترقون منها بأوفى نصيب، وتحول رؤساء الأديرة إلى شخصيات سياسية وباعدوا بين أنفسهم وبين المثل العليا والمبادئ الديرية.

وحدث إجماع فى الأوساط الكاثولية على أن المجتمع الكنسى يتضح بهذه الصورة المعتمة من الانحلال والفساد، وكانت هذه الأوساط ترى إصلاح الكنيسة عن طريق القضاء على هذه المساوئ ابتغاء الإبقاء على وحدة الكنيسة واسترداد مواقعها التى فقدتها واستعادة المكانة السامية التى تبوأتها البابوية فى العصور السابقة، ولكنها كانت حريصة على ألا يؤدى الإصلاح المنشود إلى إضعاف سلطة الكنيسة أو المساس بشخص البابا فهو نائب المسيح على الأرض وخليفة القديس بطرس، فلم يكن هدف حركة الإصلاح الدينى المضاد هدفًا ثوريًا هو الإطاحة بالكنيسة والبابوية، إذ كانت حركة اتسمت بالطابع المحافظ الذى يحرص على إبقاء القديم على قدمه مع الاهتمام بإصلاح النظم الكنسية وتجنب إدخال تغييرات أساسية فى العقيدة. وهكذا كانت نظرة الكاثوليك إلى إصلاح كنيستهم: العمل على إيجاد إدارة أمينة مخلصة على درجة عالية من الكفاية والنزاهة والالتصاق بالدين.

ولقد اتضح لكل العقلاء من الكاثوليك منذ زمن بعيد أن الكنيسة قد أضحت كومة عالية من المفاسد. سلم البابا أدريان السادس بالحاجة إلى الإصلاح، وكان قبل قد كتب عن كثير من الأمور المشينة التى استشرت فى البلاط البابوى ذاته، كما اعترف بذلك الداء المزمن الذى استشرى فى كيان الكنيسة برمتها بحيث كان من العبث إخفاؤه. نفس النغمة ترددت بشكل أكثر تجسيمًا فى وثيقة تستحق الاهتمام "(عن الإصلاح الكنسى المتعلق بنظم الكرادلة Constitutium quarindam Cardinalium emendenda ecclesia. قدمت إلى البابا بول الثالث فى عام ١٥٣٨: هذه المفاسد الصارخة كانت أوضح فى البلاط البابوى ومدينة روما منها فى أى مكان آخر.

كان البابا يتمتع بسلطان مطلق. فقد وقف – معتزًا بتقاليد طال عليها الأمد فى السلطة المطلقة – يقاوم بعناد أى اقتراح يرمى إلى أن يتم إصلاح الكنيسة على

أيدى مجالس قومية أو أن يطلق أيدى المجامع المسكونية للكنيسة فى إخضاع الملاحدة أو تعريف صلاحيات الكرسى المقدس أو تحديدها. فقد كان للكنيسة فى القرن الخامس عشر تجربة من تلك المجامع، وقد اعتبرتها شرًا ينبغى تجنبه، ولا يسمح به إلا إذا تلقت تلك المجامع أوامرها من روما.

مجلس ترنت،

ومع ذلك، فبعد كثير من التسويفات والاعتراضات دعى مجمع دينى إلى الانعقاد فى ترنت Trent، فكان مرحلة حاسمة فى تاريخ الكنيسة الكاثوليكية، وذلك رغم أن أعضاءه لم ينتظموا فى حضور جلساته، وأن هذه الجلسات أجلت عدة مرات استمرت إحداها عشر سنوات. وخرجت الكنيسة فى آخر الأمر بتعاليمها وقد تحددت ونظامها وقد توطد، وصلواتها وقد أثرتها روعة موسيقى بالسترينا. وقد دخلت البابوية المجمع عرضة للكثير من الاحتمالات، وخرجت منه منتصرة فى كل قضية. وبدلا من أن تضطر إلى التنازل مرضاة للوثرين، أصرت على أن تضع مبادئ العقيدة على رأس موضوعات المناقشة واستطاعت - بفضل ما كان لها فى أشخاص القساوسة الإيطاليين من أغلبية طيعة - أن تحصل خلال الجلسات الأولى على قرارات قاطعة بصدد المسائل الأساسية الثلاث: سلطة نصوص الإنجيل، ومبدأ التبرير بالإيمان وحده، وطبيعة القربان المقدس - وهى المسائل التى فصلت العالمين اللوثرى والكاثوليكى كلا عن الآخر. وبهذه القرارات ضيعت البابوية نهائيًا على الامبراطور أمله الذى طالما راوده فى أن يهتدى إلى خطة لتسكين ثائرة رعاياه اللوثريين ورسمت خطًا بينًا عميقًا وواضحًا فصل بين العقائد الكاثوليكية والبروتستانتية، ووضع بذلك حدًا لمحاولات التوفيق، وبدأ عهدا من الصراع الصريح بين الجانبين. ولقد قال بعض المؤرخين الكاثوليك إن الكنيسة بهذه القرارات قد "طبعت نفسها بطابع عصر متسم بالتعصب واستدامت روح الفساد." ولم ترجع قط بعد ذلك تلك التشريعات التى خرج بها مجمع ولم ينتظم حضور أعضائه وكان يتكون فى أساسه من

قساوسة إيطاليين يخضعون للبابوية - وهي باقية إلى اليوم باعتبارها عقيدة الكنيسة الكاثوليكية.

وقد تعرّض المجمع المسكوني لأزمات عنيفة وتوقفت أعماله هذه عدة مرات بلغت في إحداها عشر سنوات، واهتز مركزه اهتزازاً شديداً، وكادت أن تتبدد الآمال التي علقها عليه أنصار البابوية، مما جعل هذا المجمع من المجامع الفريدة في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية، فقد استمر ثمانية عشر عامًا (١٣ ديسمبر ١٥٤٥ - ٤ ديسمبر ١٥٦٣) وعاصر خمسة بابوات تعاقبوا على كرسي البابوية في هذه الفترة. ولقد وضح من أول الأمر أن المجمع يتضمن كتلتين رئيسيتين هما الكتلة البابوية وقوامها مندوبو البابا ورجال الدين الإيطاليين، ثم الكتلة الامبراطورية وتتكون من رجال الدين الأسبان وكانوا يمثلون اتجاها سياسيا معينا أقرب إلى تأييد الأمبراطور شارل الخامس منهم إلى مناصرة البابا بول الثالث. ويلاحظ أن رجال الدين الأسبان على الرغم من تعصبهم الشديد للمذهب الكاثوليكي، إلا أنهم كانوا ينظرون شذرًا إلى البابوية خشية تدخلها في الشئون الدينية في أسبانيا وتغلغل نفوذها في إدارة الكنائس الأسبانية، كما كانت الكتلة الامبراطورية تشمل ممثلي بروتستانت ألمانيا. وتشابكت الدوافع السياسية مع العاطفة الدينية في نفوس رجال الدين الفرنسيين، ولذلك كانت تغمرهم رغبة قوية في دعم الكنيسة الجاليكانية. وهي الكنيسة الفرنسية، وودوا لو استطاعوا تقليم أظافر البابوية وعدم التمكن لها في التغلغل في الشئون الدينية لفرنسا. ولذلك كان البابا يعتمد في هذا المجمع المسكوني على الأساقفة الإيطاليين، وكانت الكتلة البابوية أوفر عددًا من التجمعات الأخرى، كما كانت تعتمد في تمويلها ماليًا على كنيسة روما.

كان من أولى الأزمات التي واجهها المجمع المسكوني في ترنت المناقشات الصاخبة بين أنصار الكتلة البابوية وأعضاء الكتلة الإمبراطورية حول جدول أعمال المجمع وترتيب المسائل التي يتضمنها هذا الجدول وأيهما أحق

بالأولوية فى العرض والمناقشة والتصويت. كانت هناك مسألتان رئيسيتان تفرضان نفسيهما فرضا على المجمع: المسألة الخاصة بتحديد العقيدة الدينية، والمسألة الخاصة بإصلاح نظم الكنيسة. كان مندوبو البابا يرون البدء بالمسألة الأولى، واعترض رجال الامبراطور خشية أن يؤدى تحديد العقيدة إلى سد الطريق أمام أى صلح أو تقارب بين الكاثوليك والبروتستانت، وخضع المجمع لشتى أنواع التيارات المتضاربة.

وشعر البابا أن مناقشات المجمع لا تسير على الوجه الذى كان يبتغيه، فأوغر إلى أعضاء الكتلة التى تناصره بأن يطلبوا نقل المجمع إلى مدينة أخرى إذا كان مثل هذا النقل يتيح لهم جوًا مناسبًا للمناقشة دون أن يتعرضوا لضغط خارجى. واتخذ هؤلاء من انتشار وباء الحمى فى مدينة ترنت فى ربيع ١٥٤٧ ذريعة إلى نقل المجمع إلى مدينة بولونا Bologne فى إيطاليا وهى أقرب إلى روما من المدينة السابقة. ولما عرض اقتراحهم ظفر بأغلبية كبيرة. وانتقل إلى بولونا أعضاء الكتلة البابوية بينما ظل فى مدينة ترنت أعضاء الكتلة الإمبراطورية. وعقد المجمع جلساته فى المدينة الجديدة، ولكنه لم يستطع أن ينجز عملاً ذا قيمة كبيرة. وقد زاد هذا النقل من شقة الخلاف بين البابا والإمبراطور الذى أثار نقل المجمع إلى بولونا وطالب بإعادته إلى مقره الأول من ترانت. وأراد البابا أن يخفف من فوره غضب الإمبراطور فعرض مدينة أخرى ينتقل إليها المجمع هى فرار Ferrare لأن حاكم فرار كان يعتبر تابعًا للإمبراطور على أساس أنه يحكم مودينا Modena، ولكن رفض الإمبراطور هذا العرض وقدم فى يناير ١٥٤٨ احتجاجاً شديداً على نقل المجمع من ترانت.

واتخذ الإمبراطور إجراءً مهماً حين عرض على المجلس الامبراطورى - الدايت - فى ١٥ مايو ١٥٤٨ النظام المؤقت لحسم الخلاف بين الكاثوليك والبروتستانت وكان ينطوى على بعض التسهيلات إرضاء للبروتستانت واعتبر الكاثوليك هذا العمل إجراء غير ودى نحوهم. كما نظرت إليه الدوائر البابوية على

أنه اعتداء صارخ على سلطة البابا وتدخل من الإمبراطور في مسائل العقيدة الدينية وهي من أخص اختصاصات البابا.

وبذلت محاولة لنقل المجمع إلى روما ولكنها لم تنجح. وفي هذه الأزمة طلب أعضاء الكتلة البابوية إلى البابا أن يعفيهم من عضويتهم في المجمع أو يسمح لهم بالمضي في عملهم دون أن تطغى السياسة على المسائل الدينية التي يناقشها المجمع. وأصدر مرسومًا مؤرخًا في ١٧ سبتمبر ١٥٤٩ بإيقاف جلسات المجمع.

وعاود المجمع اجتماعاته حيث اجتمع المندوبون الإيطاليون في المكان والزمان المحددين في ترنت سنة ١٥٥١ ولكن أثار ملك فرنسا عقبات في طريق المجمع، وأحتج على اختيار مدينة ترنت مرة أخرى لتكون مقرًا لاجتماعات المجمع. وبنى احتجاجه على أسانيد مكررة كان من بينها أنها مدينة إمبراطورية، أي داخل نطاق الإمبراطورية الرومانية المقدسة فهي لا تمثل المدينة المحايدة. ولم يلبث أن قرن احتجاجه بإجراءات عنيفة وتهديد أشد عنفاً: منع رجال الدين الفرنسيين من الاشتراك في المجمع، واستدعى إلى فرنسا الأساقفة الذين كانوا موجودين في مدينة ترنت، ثم طرح أمام المجلس الملكي في باريس تشريعًا خطيرًا هو تأسيس كنيسة فرنسية مستقلة تمامًا عن كنيسة روما ولا تدين بالولاء للبابا في روما. ولم يكن مثل هذا المشروع جديد على أوروبا فقد نفذت إنجلترا مشروعا على غراره حين قطعت، علاقاتها بكنيسة روما.

وأما ضغط الإمبراطور وصل إلى مدينة ترانت مندوبون عن الأمراء الألمان البروتستنت. ولكن انطوى سلوكهم وتصرفاتهم بمجرد وصولهم على قدر كبير من التحدى والتعالي. رفضوا التقليد المعتاد وهو القيام بزيارة لمندوبي البابا في المجمع. وفي فيض لا ينقطع من التصريحات أعلنوا أن الإنجيل دون سواه هو الأساس وهو الفيصل في تفسير العقيدة الدينية. وطالبوا بتأكيد القرارات التي صدرت عن المجمعين المسكونين اللذين عقدا في مدينة كونستانس وفي مدينة بال -

وصرحوا بأن سلطة المجامع المسكونية تعلو على سلطة البابوات. وقد أبدى البابا جيل الثالث الكثير من ضبط النفس والمثابرة إزاء هذه التصريحات التى تتابع صدورها من المندوبين البروتستانت. وبات واضحًا أن الاتفاق بين البروتستانت والكاثوليك أمر بعيد المنال إن لم يكن فى حكم الاستحالة.

وعلى الرغم من هذا العقبات فقد واصل المجمع المسكونى عقد جلساته بعض الوقت وبحث موضوعات شتى، وفى أثناء المناقشات طلب بعض مندوبى الأمراء البروتستانت استدعاء فقهاء المذهب البروتستانتى لسماع آرائهم فى بعض النقاط، واستجاب المجمع لهذه الرغبة، وأرسل إليهم يدعوهم لحضور الجلسات وأرفق بالدعوة أمانا شخصيًا لكل فرد منهم وحدد لهم جلسة ٢٥ يناير ١٥٥٢ لعرض آرائهم. وحل هذا التاريخ دون أن يحضر أحد من الفقهاء البروتستانت إلى ترنت، فبعث إليهم المجمع المسكونى دعوة أخرى وأرفقها بأمان شخصى جديد، وأرجأ اجتماعه لجلسة ١٩ من مارس ١٥٥٢.

وبينما كان الموقف فى ترنت يموج بشتى التيارات إذا بالحرب تشتعل فى ١٢ فبراير ١٥٥٢ بين الإمبراطور شارل الخامس وبين هنرى الثانى ملك فرنسا. وفى هذا الوقت العصيب يكشف عن خبيئة الأمير موريس ناخب سكسونيا حليف الإمبراطور، فإذا هو ينقلب عليه ويرتد إلى صفوف البروتستانت ويتحالف مع هنرى الثانى ملك فرنسا - وأخذت قواته مع قوات الأمراء الألمان تزحف زحفًا خاطفًا وتطارد الإمبراطور فى إقليم التيرول وتملك الفزع الإمبراطور فهرب إلى شمال إيطاليا خشية أن يقع أسيرًا فى يد ملك فرنسا أو الأمير موريس. وأصبحت مدينة ترنت مهددة بالغزو من قوات الأمير موريس على أساس أنها مدينة واقعة فى نطاق الإمبراطورية. ورأى المندوبون الألمان فى هذا الموقف الخطير فرصة للكيد للمجمع المسكونى فغادروا مدينة ترنت، وبقى بها المندوبون الإيطاليون الذين عقدوا اجتماعًا فى ٢٨ من أبريل ١٥٥٢ قرروا فيه تعطيل جلسات المجمع لمدة

سنتين حتى ينجلي الموقف، وصدق البابا على قرار التعطيل. ولكن استطالت فترة تعطيل المجمع عشر سنوات من ١٥٥٢ إلى سنة ١٥٦٢.

وتنقسم القرارات التى استصدرها مجلس ترنت أثناء هذه المدة الطويلة إلى قسمين أحدهما يتعلق بنظام الكنيسة – وقد قررت هذه استعمال اللغة اللاتينية في الصلاة وحرمت زواج القساوسة ومنعت أن يجتمع عدد من الأسقفيات في يد شخص واحد، وحددت سن الذى يشغل منصب الأسقف بما لا يقل عن الثلاثين عامًا، وجعلت سن القساوسة خمسة وعشرين سنة، وحتمت إنشاء وفتح المدارس اللازمة لتعليم رجال الدين واجباتهم الدينية، ثم تناول المجلس سلطة البابوات فقرر أن البابا هو خليفة الرسل والسيد المسيح وله بسبب ذلك السلطة العليا في الكنيسة الكاثوليكية.

وأما القسم الثاني من القرارات فكان متعلقا بتحديد العقيدة الكاثوليكية. فتم هذا في جميع المسائل المختلف عليها، كما رفض المجلس عقيدة التبرير بالإيمان اللوثرية، ونفى مذهب القدرية الذى أتى به كلفن، ونص على بقاء أسرار الكنيسة السبعة، ورفض ما كان يدعو إليه اللوثريون والكلفينيون من حيث الاعتماد على الكتاب المقدس وحده في تفسير العقيدة، فتقرر أن عقائد الكنيسة تستند إلى الكتاب المقدس، ثم إلى ما أوجبته التقاليد القديمة، وقرر المجلس أن نسخة الكتاب المقدس اللاتينية Vulgate هي النسخة الوحيدة المعتمدة فقط.

ودل هذا كله على وجود انتعاش حقيقي في الكنيسة الكاثوليكية التى استطاعت ليس فقط أن تزيل المساوئ التى ضج من وجودها أتباعها ومؤيدوها أجيالا طويلة، بل تمكنت من تحرير العقيدة ذاتها من جميع الشوائب التى التصقت بها، وتعريفها في صراحة ووضوح ضمن حدودها القديمة المرسومة بشكل ساعد الكنيسة الكاثوليكية على مواجهة المذاهب المصلحة من جهة، ومما كان من نتيجته جميعه من جهة أخرى، أن انتقلت الكنيسة من كنيسة العالم المسيحي أى كنيسة

العصور الوسطى إلى عداد الكنائس الحديثة التى صارت فى مقدورها التوفيق بين واجبها الدينى فى العالم الحديث وبين مقتضيات الظروف التى استجدت فى هذا العالم الحديث من حيث تعدد الكنائس المصلحة، ونمو الشعور الوطنى القومى، وظهور الدولة الوطنية الحديثة أو الدولة المستقلة.

وأما أدوات نشر العقيدة الكاثوليكية الصريحة، ومقاومة العقائد المصلحة الأخرى، ومحاولة بسط سيطرة الكنيسة الكاثوليكية على أوروبا من جديد فكانت ثلاثا: جماعة الجزويت أو اليسوعيين والفهرس ومحاكم التفتيش.

الجزويت أو اليسوعيين:

كانت الكنيسة، عند كل أزمة تهددها بالخطر، تلتفت إلى نفسها وتستجمع قواها. ويتمثل رد الفعل عندها بإنشاء الطرق الرهبانية، فمن ذلك أن رهبان كلونى واللورين فى القرن الحادى عشر فى عهد بابوية جريجورى السابع، أخذوا على عاتقهم إصلاح الكنيسة عندما عمت فيها المساوئ والمفاسد. وفى القرن الثالث عشر لقى البابا اينوسان الثالث مساعدة الفرنسيسكان فى مكافحة الهرطقة التى انتشرت فى الحواضر المدنية، ومساعدة الدومينكان الذين أقروا نظرية السلطة البابوية وشرعية العقوبة بالموت ضد الهراطقة، ونظموا محاكم التفتيش.

وفى هذه المرة، أى فى القرن السادس عشر الذى تشكو فيه الكنيسة أزمة الانحلال الأخلاقى، ظهرت طرق جديدة أخرى: فمن ذلك أن الفرنسيسكيين جددوا طريقتهم وانتظموا تحت اسم الكبوشين ١٥٢٦ نسبة إلى الاسكيم الذى يضعونه على رؤوسهم. ومن الطرق التى تأسست حديثا طريقة التياتين ١٥٢٤ (بالنسبة إلى أسقف تيانو الكاردينال كارافا الذى أصبح فيما بعد بابا باسم بولس الرابع) وطريقة الأوزانورين (١٥٤٨) الذى أسسها فيليب نيرى. وقد أحدث من ١٥٢٤ إلى ١٦٤١ ما لا يقل عن خمس عشر طريقة ترمى إلى بعث الحياة الدينية وتثقيف الأكليروس وتعويده على النظام والتقى والصلاح والقيام بأعمال الإحسان على أن

الطريقة التي كتب لها أن تلعب دورًا هامًا في التاريخ هي طريقة اليسوعيين التي أسسها اجناطيوس لويلا.

أجناطيوس لويلا: ولد على الأكثر في آخر العام ١٤١١ من أسرة نبيلة أسبانية من بلاد البتكنس (الباشك) في قصر لويلا الذي يحمل اسمه في التاريخ. دخل في خدمة الملك فرديناند مرافقا ثم جنديًا، وأصابه في الدفاع عن قصر بامبلون ضد الفرنسيين في ٢٠ مايو ١٥٢١ جرح اضطره للعدول عن الحياة العسكرية. وكان في فترة استشفائه يطالع الكتب الدينية، فأعجب بالقديسيين فرانسوا أسيز ودومينيك، مؤسس طريقتي الفرنسيسكيين والدومينكيين وهما من طرق المتسولين. وأحب اجناطيوس أن يقلدهما ويكون جنديا للمسيح. وفي ٢ فبراير ١٥٢٨ ذهب إلى باريس وأقام فيها ست سنوات. وهناك ظهر تأثيره في نفوس رفقائه. فقد جمع حوله ستة طلاب ثم ذهبوا معًا إلى قابلّة القديس دوني في حي مونمارتز ونذروا أن يقودوا بالفضائل الرهبانية الثلاث يزوروا القدس، ويرصدوا أنفسهم لسلام الأرواح. وإذا استحال الحج إلى الأراضي المقدسة فإنهم يقدمون خدمتهم للبابا. وقضوا سنتين لإتمام دراستهم الكنسية. ولم يستطيعوا الذهاب إلى فلسطين، وبعد أن قاموا بالوعظ والإرشاد في أراضي البندقية قرروا أن يخدموا البابا وأطلقوا على أنفسهم "جمعية اليسوعيين" ١٥٣٧. وبعد ثلاث سنوات من تأسيس هذه الجمعية أي في ٢٧ سبتمبر ١٥٤٠ اعترف البابا بولس الثالث بهذه الجمعية ووضع أعضاءها تحت حماية الكرسي الرسولي. وفي ٢٣ أبريل ١٥٤١ انتخب اجناطيوس جنرالا لها وأقسم يمين الولاء والطاعة بين يدي البابا.

وكانت أنظمة الجزويت صارمة شبيهة بالأنظمة العسكرية، فكان كل فرد ينضم إليها الخضوع لأوامر رئيسه، وأن يطيع تلك الأوامر طاعة عمياء وكأنه لا يملك في نفسه شيئا وأن يرى في رئيسه المباشر العصمة الكاملة التي تتصف بها الكنيسة المقدسة، وأن يحلف يمين الطاعة لأوامر البابا دون تردد، وقد كان لظهور هذه الجمعية في الوقت الذي تداعت فيه سلطة البابا في أوروبا أكبر الأثر في إحياء

سلطان الكنيسة وإعادة النفوذ الروحي إلى البابا. كذلك نجح الجزويت في الوقوف إلى حد كبير في وجه تيار البروتستنتية المتدفق، وخصوصا في فرنسا وبولندة وممتلكات أسرة الهابسبرج وأوقفوا المدّ البروتستنتي في إيطاليا وأسبانيا اللتين ظلتا على ولائهما للكنيسة الكاثوليكية، ثم كان لهم الفضل في تدعيم موقف أولئك الذين تمسكوا بعقيدتهم الكاثوليكية في ألمانيا وإنجلترا واسكتلندا.

وقد لعبت جماعة الجزويت دوراً مهماً في الحياة العامة المسيحية وتدخلوا في السياسة خدمة للكنيسة وقد لاقوا نجاحًا في هذا السبيل فكان بعضهم مستشارين ووزراء ذوي نفوذ، على أكبر مجال نجحوا فيه هو اهتمامهم بالتربية والتعليم. وأشرفوا على مئات المدارس في أوروبا. وأمكنهم بما وضعوه لها من حسن النظام وكمال الرعاية أن يجتذبوا إليها الآباء الذين كانوا يتسابقون على إلحاق أبنائهم بها. وعندما توفي اجناطيوس لويلا ترك بعده مائة مدرسة وعدد من المعاهد الدينية، ثم لم يمض قرن ونصف على تأسيس هذه الجمعية حتى أصبح لها ما يزيد عن سبعمائة مدرسة، وبلغ من شدة تأثير الجزويت أنهم سيطروا على عقول رجال الأجيال التي تلت ظهور جمعيتهم، ولم يكن أمرهم قاصرًا على النهوض بالمذهب الكاثوليكي ونشره وسيادته في أوروبا، بل كان لأقدامهم ومثابرتهم وحماستهم اليد الطولى في نشر الكاثوليكية في مجاهل الأمريكتين والشرق الأقصى والجزر النائية.

وقد تميزت الجزويت عن غيرهم من الكاثوليك أنهم يقدسون الكنيسة نفسها باعتبارها مؤسسة إلهية في حين كان الكاثوليك أنفسهم قد بدأوا في ضوء حركات الإصلاح والفكر ينظرون إلى الكنيسة من زاوية الإطار القومي.

كان الكفاح ضد البروتستانت وصولا إلى القضاء على حركتهم هو الهدف الأول لجماعة الجزويت، ولذلك لم يكد يصدر المرسوم البابوي في سنة ١٥٤٠ بإنشاء جمعيتهم حتى اتجهوا في ذات السنة نحو وادي الراين وبدا تغلغلهم السلمي لرد البروتستانت إلى حظيرة كنيسة روما ونجحوا في شغل كراسي الأستاذية في

جامعة إنجو لشتاد Ingolostadt في إقليم بافاريا سنه ١٥٤٩ وكان اهتمامهم منصبا على كراسي الأستاذية المخصصة لعلم اللاهوت بطبيعة الحال. وكانت جمعية الجزويت تضم نخبة ممتازة من رجال اللاهوت والمؤرخين ومن إليهم من كبار العلماء في شتى المعارف الإنسانية. وفي سنة ١٥٥١ أعادوا تنظيم جامعة فينا لتكون أقدر على خدمة أغراض الجمعية وأسست الكلية الجرمانية في مدينة روما لإعداد صفوة ممتازة من الجزويت يدربون بعناية للعمل في ألمانيا ضد البروتستانتية، وأسسوا أيضًا الكلية الرومانية وتتابع نجاح الجزويت. ففي خلال سبعة عشر عامًا من سنة ١٥٥٦ إلى ١٥٧٢ أسسوا مراكز لهم في أمهات المدن الألمانية مثل كولني ميونيخ، تريف، ماينز، أوجزبرج، بوزن وغيرهم، ثم ركزوا جهودهم في خلال الخمسة عشر عامًا الأخيرة من القرن السادس عشر (١٥٨٥ – ١٦٠٠) على إنشاء العديد من الكليات الخاصة بهم في ألمانيا والأراضي المنخفضة وسويسرا، ومع ذلك فقد كانت مراكزهم الرئيسية في المدن الأربع، فينا كولني تريف وانجولستات، وكان يوضع بها مخطط العمل التنفيذي سواء في الحقل التربوي والتعليمي، أو مساندة الجهود التي تبذل في ألمانيا لمقاومة الحركة اللوثرية.

وفي البرتغال عظم تأثيرها في عهد جان الثالث، وفي أسبانيا انشأت كليتها التي كانت بمثابة حصن منيع للدين الحنيف، إلى جانب جامعة سالامنكا.

وفي إيطاليا كان تأثيرها عظيماً وعميقاً حتى أن عقليتها الاستبدادية التي فرضتها على القلوب والأفئدة، خنقت كل تفكير حر وجعلته يتقيد بالشكل أكثر من تقيده بالجوهر.

وفي فرنسا لاقت مقاومة الجاليكانية (أي الكنيسة الفرنسية الكاثوليكية) والبرلمان وهذا لم يمنع تأسيس ما لا يقل عن ١٤ كلية في المملكة كانت أداة لاستبداد هنري الرابع.

وهكذا استطاعت جمعية اليسوعيين، بفضل الجهود التى بذلتها، أن ترد إلى الكنيسة روح النظام والدين الحنيف، وتبعث فيها عموميتها وقوة شمولها. وحاولت أن تخضع الدولة إلى سلطة ر وما، وقامت بنشر الثقافة المتينة، إلا أنها كانت تراقبها وتسهر على منع كل تشبث يؤدى إلى التحرر الفردى. وفرضت سيطرتها الكلية، حتى أنها قضت على الحركة الإنسانية حيثما كتب لها النجاح والظفر. وإذن فقد كان عمل الجمعية اليسوعية خدمة المصلحة الكاثوليكية العامة وخدمة الكنيسة وخدمة البابا."

الفهرس: Index

وكان من الأمور التى تركها مجلس ترنت عند انتهائه فى سنة ١٥٦٣ ليتصرف فيها البابا نفسه بما يتفق والمبادئ الكاثوليكية التى أقرها هذا المجلس، اختيار فهرس كامل بأسماء الكتب التى تريد الكنيسة تحريم قراءتها على رعاياها. ولم يكن هذا العمل شئ جديد، لأن الباباوات من أواخر القرن الخامس عشر كانوا يعاقبون الطابعين والناشرين والمشترين والقارئين الذين يتداولوا الكتب المهرطقة. ومنذ سنة ١٥١٥ فرضت الرقابة الكاملة على جميع ما ينشر ويقرأ فى روما والولايات البابوية ومنذ سنة ١٥٤٣ أخذت على عاتقها محاكم التفتيش هذه الرقابة. ثم صار إعداد فهارس بالكتب المحرمة فى لوقان وكولونيا وباريس (جامعة السوربون) وكان أول الفهارس البابوية ذلك الفهرس الذى أذاعه البابا بول الرابع سنة ١٥٥٩ Index Libroium Prohibitouim وكان من ضمن الكتب المحرمة فى الفهرس رسائل وكتب المصلحين مثل لوثر وزونجلى وكلفن. ولقد نقد مجلس ترنت هذا الفهرس بقصورة ونقص محتوياته وعلى ذلك فقد اعد فهرس جديد فى سنه ١٥٦٤ ثم تكررت مراجعة هذا الفهرس مرات متعددة حتى سنة ١٥٩٦ واستمر معمولا بهذا الفهرس الأخير مع بعض إضافات عليه من وقت لآخر إلى أواسط القرن الثامن عشر.

كان لنشر هذه الفهارس آثار ظهرت على وجه الخصوص بين الأمم الجنوبية في أوروبا، فما لا شك فيه أن حرمان الأمم التى بقيت بها الكاثوليكية قوية فى أسبانيا والبرتغال وبافاريا وإيطاليا وبلجيكا من الإطلاع على ثقافة وعلوم الأمم الشمالية البروتستنتية قد عطل تقدم الحضارة، لأن العمل بهذه الفهارس كان حائلا دون انتشار العلم والمعرفة. كان الفهرس من بين الوسائل التى اعتمدت عليها أداة الكنيسة الأخرى وهى محاكم التفتيش فى تعقب الخارجين على الكاثوليكية واضطهادهم.

محاكم التفتيش L. Inquistion

أصدر البابا بول الثالث قرارًا بتأسيس محاكم التفتيش فى روما سنة ١٥٤٢. ولم يكن إنشاء هذه المحاكم أمرًا جديدًا. فقد ظهر الميل لأضطهاد المخالفين لعقائد الكنيسة وتعاليمها فى العصور الأولى، ولو أن محاولة تطبيق هذا الاضطهاد بصورة منظمة لم يبدأ إلا فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر بسبب انتشار الآراء المهرطقة فى أوروبا الغربية، وخصوصًا فى فرنسا الجنوبية، وخوف الكنيسة على كيانها ذاته. وقد نجحت الكنيسة كما سبق أن عرفنا فى القضاء على حركة الالبجنس فى بداية القرن الثالث عشر (١٢١٣). ثم استمرت المحاكم الأسقفية فى تعقب المهرطقين. وفى القرن الثالث عشر أنشأ الباباوات محاكم تفتيش عهدوا إلى الدومنيكان والفرنسيسكان بمحاكمة المهرطقين فى هذه المحاكم وبقيت المحاكم الأسقفية ومحاكم التفتيش (البابوية) تقوم بعملها جنبًا إلى جنب إلى القرن الخامس عشر ونجحت محاكم التفتيش البابوية فى عملها فى أوروبا الوسطى.

وقد لقيت محاكم التفتيش دفعة قوية على عهد البابا بول الرابع ونظر إليها على أنها وسيلة فعالة يجتث بها بذور الديانات والمذاهب التى تتعارض مع المذهب الكاثوليكى. وهى المذاهب التى يحلو للمؤرخين الأوروبيين ان يطلقوا عليها هرطقة. جاراهم فى هذه التسمية بعض الباحثين المصريين وهى هرطقة من وجهة

نظر الكاثوليك. ولكنها ليس كذلك من وجهة نظر أتباع لوثر أو كلفن أو زونجلى أو غيرهم من قادة الإصلاح الديني. ومما يذكر عن تحمس البابا بول الرابع على أيدى المخالفين لكنيسة روما.

وكانت محاكم التفتيش في أسبانيا تحاكم الأفراد الذين هم على خلاف في العقيدة الدينية مع المسيحية وهم اليهود والمسلمين. وفي نطاق هذا الاختصاص لم تكن محاكم التفتيش قد أصبحت بعد أداة من أدوات الإصلاح الديني المضاد وسوف تكتسب هذه الصفة بعد مضي خمسين عامًا على دخولها أسبانيا حين أخذت تحاكم أيضًا الأفراد المسيحيين الذين هم على خلاف مذهبي مع المذهب الكاثوليكي. وكان تسلل أنصار الحركة اللوثرية إلى أسبانيا موضع ألم عميق في نفس الملك فيليب الثاني بالذات، وهؤلاء كانوا يلقون أشد العذاب من محاكم التفتيش قبل إحراقهم أحياء. وكانت تحاكم كذلك الكاثوليك الذين تحوم الشبهات حول إخلاصهم للمذهب الكاثوليكي، وكانت تنظر إلى أفراد هذه الفئات جميعًا على أنهم كفرة يجب استئصال شأفتهم من المجتمع الأسباني وتطهيره تمامًا من هذه العناصر. وعلى هذا الأساس فإن محاكم التفتيش الأسبانية - من وجهة النظر الكاثوليكية البحتة المتعصبة وبتعبيرها غير الموفق - قد حفظت للمجتمع الأسباني "النقاء الديني" وبمعنى آخر عملت هذه المحاكم على فرض وحدة دينية مذهبية مسرفة في تعصبها بحيث لم يكن في الاستطاعة إيجاد مكان بجانبها لديانات أخرى أو لمذاهب مسيحية أخرى غير المذهب الكاثوليكي.

وبجانب هذه الأهداف الدينية البحتة قامت محاكم التفتيش بخدمة الأهداف السياسية لملوك أسبانيا حين تقرر منذ سنة ١٤٨٢ أن يكون من اختصاص هؤلاء الملوك تعيين قضاة محاكم التفتيش وموظفيها، فأصبحوا من الناحية الفعلية مندوبين للتاج يحتفظون له بمشاعر الولاء. وكان التاج يعهد إليهم بتنفيذ أغراضه وتحقيق أهدافه، واعتبرت محاكم التفتيش همزة الوصل بين التاج وبين الكنيسة،

كما كانت هذه المحاكم من أهم الوسائل التي استخدمها التاج في مراقبة رجال الكنيسة ومعرفة مدى ولائهم للسلطة الملكية. وعلى هذا النحو تطورت أوضاع محاكم التفتيش في إسبانيا فأصبحت أداة طيعة لينة في أيدي الملوك يحركونها أنى شاءوا ويدفعون بالخصوم إلى الوقوف أمامها لمحاكمتهم بتهمة الإلحاد والكفر. وما كان أسهل من إلصاق مثل هذين الاتهامين بالخصوم السياسيين وغيرهم فتصدر الأحكام في سهولة وسرعة ويسر متمشية مع أهداف دوائر القصر الملكي في مدريد. وعلى هذا الأساس فإن محاكم التفتيش في إسبانيا قد عملت على "النقاء" السياسي أو تطهير الحياة السياسية في أسبانيا من العناصر المعوقة لتوطيد دعائم الحكم الملكي الاستبدادي وساعدت على أن تسير أجهزة الحكم وأدواته طوعًا أو كرهًا في تناسق نحو هدف واحد هو تدعيم سلطة التاج الأسباني.

وبالنسبة لفرنسا فقد قامت معارضة قوية في عدة مدن منها تولوز، ألبي، ناربون كاركاسون ضد محاكم التفتيش في القرن الثالث عشر لم يهدئ من حدتها سوى تدخل فيليب الجميل، الذي وجد فيها فرصة للتدخل وفرض سلطته الزمنية عليها. مما وضعه بمواجهة البابا بونيفاس الثامن الذي أدان جميع حجج ملك فرنسا.

أما في إنجلترا فإن إجراءات محاكمة جان دارك قد أثبتت مدى استخدام السلطة الزمنية لمحاكم التفتيش. فقد حصل الحكام الإنجليز من الكنيسة نفسها على إدانة صريحة بحقها وقد أعلن أسقف بوفه Beauvais نفسه عن سلطة الحكام الإنجليز المباشرة عندما اعترضت جان دارك على الحكم، مصرحًا "أن الملك قد أمر أن أتهمك وقد فعلت ذلك".

أما نشاط محاكم التفتيش في الأراضي المنخفضة – بلجيكا وهولندا – وكانت تتكون من سبع عشر ولاية خاضعة لأسبانيا – وأراد فيليب الثاني ملك أسبانيا تعقب الخارجين على الكاثوليكية في ممتلكاته. وكان هذا العاهل أكثر ملوك أوروبا تحمسًا لنشر المذهب الكاثوليكي. سخر موارد بلاده لهذا الغرض الديني، وانتهى به

تحمسه إلى اعتقاده أنه مبعوث العناية الإلهية للقضاء على كل عقيدة دينية تخرج على المذهب الكاثوليكي. واتخذ من محاكم التفتيش أداة فعالة لاقتلاع بذور البروتستانتية من الأراضي المنخفضة. واستحثهم على مواصلة عملها بنشاط وعدم مبالاة، وكثر إحراق كل فرد تحوم حوله شبهة الخروج على المذهب الكاثوليكي فضلًا عن إحراق البروتستانت. وقد أثارت هذه المحاكمات البروتستانت والكاثوليك معًا في الأراضي المنخفضة، واجتمع حوالي خمسمائة من النبلاء الكاثوليك والبروتستانت ووقعوا على ميثاق لمقاومة محاكم التفتيش والعمل على إلغائها والتضامن فيما بينهم للدفاع عن أنفسهم ضد الاضطهاد الديني. وفد منهم يتكون من حوالي ثلاثمائة عضو إلى مارجريت دوقة بارما وحاكمة البلاد يطلبون منها إلغاء محاكم التفتيش، ولكنها رفضت أن تستمع إلى شكاية "الشحاذين" وهو اللقب الذي أطلقته عليهم، فكان هذا الرفض سببًا في اشتعال الثورة في أغسطس ١٥٦٦، وقد أسفرت هذه الثورة عن استقلال هولندا عن أسبانيا.

وقد بدأت حركة إصلاح الكنيسة الكاثوليكية في ألمانيا من إقليم بافاريا سنة ١٥٦٤ على يد الدوق البرت الخامس فقد أغلق أراضي المقاطعة في وجوه البروتستانت وأجر جامعة انجولشتاد على تغيير خطط الدراسة فيها ومناهجها إلى ما يتمشى مع العقيدة الكاثوليكية. وأحرق جميع الكتب التي تتعارض مع هذه العقيدة، واضطر عدد كبير من البروتستانت إلى النزوح من بافاريا لأن البرت الخامس جعل التعليم في مراحله المختلفة في يد الجزويت، وحقق الجزويت نصرًا آخر حين حولوا منطقة باد Bade التي كان يحكمها البرت الخامس من ميونخ بصفته وصيًا أو قيمًا على حاكمها الصغير مارجريف فيليب Margrave Philoppe إلى منطقة كاثوليكية لحمًا ودمًا. وسرعان ما نهج حكام ألمان آخرون عديدون نهج البرت الخامس. وبهذه الطريقة استردت الكنيسة الكاثوليكية عددًا كبيرًا من رعاياها السابقين في ألمانيا الجنوبية وكذلك في النمسا. ويلاحظ أن الأمراء الألمان الكاثوليك الذين أخذوا بحركة الإصلاح الديني المضاد لم يستخدموا في حركتهم

سوى الحق الذى خوله لهم القانون العام المعمول به فى ذلك الوقت فى ضوء المبادئ التى جاء بها صلح أوجزبرج الدينى فى سنة ١٥٥٥. ويقول الشناوى أنه من الإنصاف أن تقرر أن جهودهم فى هذا السبيل قد أثمرت بفضل أحد كبار أعضاء جماعة الجزويت وهو العلامة الهولندى بير كانيزيوس Pierre Canisius (١٥٩٧) فقد ظل دؤوبا على نشر دعوته خمسين عامًا على ضفاف نهرى الراين والدانوب دون أن يصبه كلل أو وهن أو استكانة. وكان له جولات حقق فيها انتصارًا للكاثوليكية فى كولنى وسيطر على التعليم فى النمسا سيطرة فعلية محكمة.

وقد نجحت محكمة التفتيش الرومانية هذه فى القضاء على البروتستنتية فى إيطاليا من جهة، كما نجحت فى إذكاء روح التعصب فى الكنيسة ويحدد تأسيس هذه المحكمة فى سنة ١٥٤٢، بداية عهد الإصلاح الكاثوليكى فى أضيق معانيه أى الإصلاح المستند على استخدام وسائل العنف والشدة والقوة التعسفية لإرجاع الكنيسة إلى مكانتها الأولى، وذلك بالقضاء على الذين يريدون الإصلاح الكاثوليكى على أساس التسامح والتساهل مع البروتستنتية من جهة، ثم بالقضاء على اتباع البروتستنتية أنفسهم من جهة أخرى.

الفصل الثامن

أسبانيا وثورة الأراضى المنخفضة

أسبانيا وثورة الأراضي المنخفضة

آلت هذه الأراضي إلى أسبانيا عندما مالت ماري البرجندية زوج الإمبراطور ماكسمليان في عام ١٤٨٢، وكان قد تزوج منها في عام ١٤٧٧، وقد أصبحت الأراضي المنخفضة عند وفاة زوجته تحت وصايته وحكمها نيابة عنه ابنه فيليب، وقد تزوج فيليب هذا في عام ١٤٩٦ من "جوانا" الأسبانية فورث ابنهما شارل عرش أسبانيا باسم "شارل الأول" ملحقا بها الأملاك البرجندية وأهمها الأراضي المنخفضة. ثم انتخب إمبراطورًا للإمبراطورية الرومانية المقدسة باسم "شارل الخامس"

ونتج عن هذا الإرث البرجندي أن أصبحت أسبانيا ترقب باهتمام بالغ كل ما يقع في بريطانيا وفرنسا وغرب أوروبا بصفة عامة؛ وإن كان لهذا الإرث مساوئه بالنسبة لآل هابسبورج أنفسهم وبالنسبة لألمانيا والأمبراطورية، فقد وزع جهود الأباطرة ووجهها نحو غرب أوروبا، بينما كانت مصالح الامبراطورية الرئيسية تقع في شرق أوروبا حيث تقع فيينا مفتاح الباب الشرقي لها. وكثيرًا ما تعرضت العاصمة فيينا لغارات الأتراك العثمانيين والمجريين والسلاف وغيرهم.

وبرزت أسبانيا في النضال الأوروبي الكبير الذي أثاره الإصلاح البروتستانتي أكبر نصيره للكاثوليكية. فبينما استقر في شمال ألمانيا لون من ألوان البروتستانتية وبينما كان لونا آخر يخوض في فرنسا معركة حياة أو موت، كانت أسبانيا ممتنعة وراء حدودها الجبلية الصلبة كاثوليكية من قمة رأسها إلى أخمص قدميها. ففي أسبانيا ارتبط الدفاع عن العقيدة الكاثوليكية ونشرها بنمو الأمة ومجدها على نحو لا تجده في أي مكان آخر في أوروبا. كان الرهبان والراهبات والقساوسة يشكلون جانبًا كبيرًا من السكان، واعتبرت محاكم التفتيش - وكانت تحت رقابة التاج - إجراء وقائيا ضروريا. وكان المشهد المثير لتنفيذ أحكام الحرق علنًا (١٨ أكتوبر ١٥٥٩) الضربة الأولى في حملة القمع التي وجهت ضد العقائد الجديدة التي جاءت من ألمانيا

إلى أسبانيا، وهي حملة لم تثر سوى احتجاجات متقطعة عقيمة. وقد بلغ من نشاط محاكم التفتيش الأسبانية - بتشجيع من فيليب الثاني - أن الهرطقة - وكانت لا تزال إذ ذاك في أسبانيا نبتًا جديدًا لم يألفه الناس قد اجتثت من جذورها قبل نموها. ومنذ ذلك الوقت غدت الكنيسة الكاثوليكية بمأمن من الأخطار، وتمتعت بهيمنة على التعليم وثبتت لكل تحد كانت ثورة ١٩٣١ حين جاء التحدي لها من جانب حركة نبعت من أسبانيا ذاتها وأيدتها - فيما يبدو - أغلبية الشعب الأسباني.

وكان فيليب الثاني حاكمًا كاثوليكيًا متدينًا شديد التمسك بواجباته، وكان يرى أن أسمى رسالاته في الحياة أن يستأصل الهرطقة من جذورها في البلاد التي يحكمها وأن يناصر عقيدة آبائه في شتى ربوع العالم.

وكان قوة أسبانيا كامنة في جيشها القائم، ولم تكن بأوروبا قوة مشاة أكثر مرانًا أو نظامًا أو حنكة في الحرب من مشاة الأسبان المشهورين الذين قدر لهم أن تكون إيطاليا ميدان تدريبهم. ولقد هرع نبلاء الأسبان إلى الانتظام في صفوف الجيش معتقدين أنهم لم يندموا على الانخراط في السلك العسكري تحت سماء إيطاليا. وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر كان ملك أسبانيا يتمتع بخدمة أمهر الضباط في أوروبا - وكان نفر منهم - مثل ألفا - من النبلاء الأسبان، بينما كان آخرون من الإيطاليين، ومن بينهم أعظم قواد ذلك العصر ألسندر فارنيز Alessandri Farnese دوق بارما. وهكذا كان من دواعي فخر السياسة الأسبانية أنها استطاعت أن تجتذب إلى خدمة التاج الأسباني بعضًا من أعلى الكفايات من أشد عائلات إيطاليا اعتزازًا بأصولها النبيلة.

على أن قوة أسبانيا البحرية كانت أقل خطرًا. فهي من ناحية دولة بحر متوسط، ثم هي دولة محيط أطلنطي من ناحية أخرى. وكان يواجهها في البحر المتوسط عبء تطهيره من الأتراك العثمانيين، ومساعدة البندقية وفرسان مالطة في وقف تقدم الزحف البحري المطرد لأسطول السلطان. وكانت هذه التبعات ثقيلة

ومرهقة. فهذا العدو السريع الحركة كان من قواعده فى الجزائر وتونس - يشن الغارات على جزائر البليار وشاطئ بلنسية. وكانت الدولة العثمانية ذات الطموح التى وطدت مركزها فى استانبول، تعتمد على بحارة من اليونان ومصدر تهديد مستمر لسلامة إيطاليا. حينئذ نشأ على مياه البحر المتوسط الهادئة على مر القرون - شكل من أشكال الحرب لم يكن يتناسب على الإطلاق مع مناخ المحيط الأطلنطى. فالسفن الواطئة التى تدفعها. المجاديف (Galleys) وهى السفن القديمة من أيام الجمهورية الرومانية والامبراطورية الرومانية، كانت لا تزال تستعمل، وطريقة التجديف صوب العدو والاشتباك معه، ثم حسم المشاة المعركة بالتلاحم بالأيدى على صفحات البحر، كانت لا تزال متبعة أيام فيليب الثانى لم تتغير عما كانت عليه فى أيام إجزرسيس وبومبى وأعظم معركة بحرية فى البحر المتوسط فى القرن السادس عشر - وهى معركة لبانتو Lepanto (١٥٧١) التى أوقع فيها دون جوان النمسوى - أخو الملك فيليب - هزيمة ساحقة بالجيش العثمانى، كانت معركة بين هذا النوع من السفن وبين السفن ذات المجاديف ولكن لم يترتب على هذا أن يحصل الرجال الذين مرنوا على القتال فى هذه السفن على أية خبرة تكون عونًا لهم فى تسيير السفن الشراعية عابرة المحيطات أو الغلايين (Galleons) التى أصبحت جزءًا لا غنى عنه فى القوة البحرية الأسبانية، بل العكس من ذلك، غدا استخدام النوع القديم من السفن، أى السفن الواطئة ذات المجاديف، فى وقت أصبحت لا تتمشى مع روح العصر، غدًا أمرًا شديد الضرر. واصبح بإمكان أسطول مزود ببحارة فى المحيط أو فى بحر المانش أن يثق فى قدرته على دحر عدو لا يزال أسير خطط حربية تقوم على حشو البنادق من الأمام، وهى الطريقة التى كانت متبعة فى حرب السفن الواطئة.

ومما عرقل جهود أسبانيا فى ذلك الوقت أنها - بسبب اضطرارها إلى الحرب فى جبهتين - كانت مضطرة إلى أن تستخدم فى نفس الوقت طرازين من سفن القتال: أحدهما قديم غاية القدم، والآخر حديث جدًا، وأن كثيرًا من بحارتها

قد تدربوا على الطريقة القديمة. ولكن كان من الممكن التغلب على هذه العراقيل لو قيض للمشرفين على شئون أسبانيا أن يلهموا التقدير الواعى لقيمة القوة البحرية فى القتال. ومن العجيب أن أسبانيا - برغم المصالح الضخمة التى تكونت لها فى العالم الجديد - لم تبذل جهدًا مستمرًا لكسب السيطرة فى المحيط الأطلنطى. ومن المؤكد أن تحرر الجمهورية الهولندية من السيطرة الأسبانية يرجع إلى حد كبير إلى ترك الثوار يسيطرون على البحر دون منازع.

ولكن ضعف أسبانيا كان فى اضطراب ماليتها لم توجد فى القرن السادس عشر حكومة أوروبية ذات اقتصاد قوى، ولكن إسبانيا ضربت مثلا فريدًا لبلد يمتلك مساحة واسعة من الكرة الأرضية فى كلا العالمين القديم والحديث. وفى متناول يديه أغنى الموارد المعدنية المعروفة حينئذ، ومع ذلك فهو فى حاجة مستمرة إلى المال، وهو غالبًا عاجز - لفقره المدقع - عن القيام بأبسط أعباء الحكومة. وأسباب هذا التناقض يرجع بعضها إلى سياسة عامة لا وعى فيها ولا ذكاء، وبعضها إلى جهل بالقوانين الاقتصادية وإلى نظام ضرائبى فاسد، ولا يقل عن ذلك أثرًا فقدان أى وقف جدى لأعمال المضاربة والتبذير. ولم يكن باستطاعة الملك أن يجمع الكثير من الأموال من أسبانيا نفسها - فاكليروس - برغم ثرائهم العريض - كانوا يعفون من الضرائب، وفى قشتالة كان النبلاء غالبًا عرضة لإجراءات ابتزاز من وقت لآخر، ولكنهم بسبب ما جرت عليه العادة لوقت طويل كانوا يعفون من المساهمة فى موارد التاج المنتظمة؛ وفى أراجونة أقر الكورتيز مبلغًا ثابتًا من المال ولكنه غير كاف بالمرة. ولما كان الانتهاب شائعًا فى المستعمرات الأسبانية، فلم يكن يصل إلى الخزائن الملكية سوى جانب صغير من الثروة التى كانت تجمع من المكسيك وبيرو. ولكن إذا كان فى الوسع علاج خراب الذمم بفرض رقابة أشد صرامة، فإن أخطر من ذلك أن النظام المالى العام فى الامبراطورية الأسبانية كان يقوم على نظرية خاطئة خاصة فيما يتعلق بالتجارة - إذ أن رضائها كان يتطلب أن يوفر لها أقصى ما يمكن القيام به من التبادل الدولى للبضائع. أما أسبانيا فقد اتبعت فعلًا خطة الحماية فى أضيق صورها وأشدها إسرافًا. ولم يكن فى أسبانيا إذ ذاك أى علم

أو صناعة؛ وعلى حين أنها كانت عاجزة عن أن ترسل إلى مستعمراتها ما كانت هذه الأخيرة تحتاج إليه، فإنها حرمت عليها المتاجرة مع الدول الأخرى. وكان من المتوقع أن تنتهي هذه السياسة إلى إحدى نتيجتين لا ثالث لهما: أما عرقلة التقدم المادى فى المستعمرات أو تشجيع التهريب على نطاق واسع. وقد أدت هذه السياسة فى الواقع إلى كلتا النتيجتين - هذا فى الوقت الذى عرقلت فيه خرائب داخلية لا حصر لها تجارة إسبانيا وزراعتها. كما أثقلت كاهلها كذلك ضريبة الكابالا alcabala وهي ضريبة كانت تفرض بنسبة ١٠٪ على المبيعات حتى أنه من العسير أن نتصور وجود وسيلة أخرى دبرت خيرا من هذه لتشل الرخاء الاقتصادى عند شعب من الشعوب.

وإذا كان من الممكن استخراج القليل من المال من إسبانيا. فلم يكن يتوقع منه شئ فى إيطاليا - وترتب على هذا أن تكون الأراضى المنخفضة هى مصدر الدخل المادى الأكثر قابلية للتوسع. وقد غدت انتورب إذ ذاك من أغنى المدن التجارية فى العالم، ولم تكن تعترض نشاطها القيود التى كانت تفرضها طوائف الحرف (Guilds) وغدت مركزا عظيما للمعاملات الدولية، وبرزت بسهولة بروج وغنت فى الثروة وحرية المواصلات، كما غدا لها - بفضل نمو التجارة بالمحيطات - ميزة على الفلاندر باعتبارها مركزا للأعمال المصرفية. وكانت امستردام - وهي إحدى مدن الهانسا - تسير بخطى واسعة نحو التقدم، وقد نما رخاؤها - الذى كان مستمدا فى الأصل من صيد الأسماك - بفضل الثروة النامية للدول الأوروبية القريبة من ساحل الأطلنطى. وهكذا تميزت الأراضى المنخفضة بالثراء، فكانت القلب المالي للإمبراطورية الأسبانية.

وكانت إنجلترا - التى حكمها فيليب بعض الوقت بصفته زوجًا للملكة مارى مرتبطة بالأراضى المنخفضة - التى كانت بالنسبة لأسبانيا أرض الذهب - بروابط المبادلات التجارية منذ أمد بعيد. وكان فيليب - كأبيه من قبل - يدرك تمامًا قيمة

إنجلترا كحليف وصديق. كان يقدر قيمة التجارة الإنجليزية بالنسبة إلى رعاياه الفلمنك والنتائج السيئة التي تترتب على وقف هذه التجارة، كما كان يعلم أن إنجلترا تستطيع لو ناصبته العداء - أن تعرقل المواصلات البحرية بين أسبانيا والأراضي المنخفضة، وأنها تستطيع - لو وهبته صداقتها أن تحمي المواصلات أحسن حماية، ولكنه كان كاثوليكيا مخلصًا، وكان يقدم الدين على أي اعتبار آخر. واحتفاظه بصداقة إنجلترا يتوقف - في النهاية - على العقيدة التي يعتنقها أهلها.

وأصبحت الأراضي المنخفضة المحور الرئيسي الذي تدور حوله السياسة الأسبانية. ومن الغريب أن الأراضي المنخفضة كانت تختلف عن أسبانيا تمام الاختلاف، فبينما كانت أسبانيا لا تزال إقطاعية أرستقراطية كانت الأراضي المنخفضة قطرًا مكونًا في غالبيته من مدن عديدة تعيش على التجارة. ونجحت أسبانيا إلى حد بعيد في توطيد الحكم المركزي فيها، بينما كانت الأراضي المنخفضة تتكون من سبعة عشر ولاية مستقلة لكل منها دستورها الخاص؛ حتى لتكاد كل منها تكون جمهورية مستقلة بشئونها الخاصة، كذلك كان شأن الحياة السياسية في ذلك الوقت. وقد نشأ عن صراع الأسبان مع العرب وعن طبيعتهم الخاصة إن أصبحوا شعبًا متعصبًا لكاثوليكيته، فقد تميزت أسبانيا بتعصبها الشديد الذي عرفت به منذ حكمها العرب.

وكانت الأراضي المنخفضة كاثوليكية كذلك في غالبتها وبقيت على هذه الحالة حتى انتهاء الصراع بينها وبين أسبانيا، ومع ذلك فقد كان يسود ربوع الأراضي المنخفضة الحرية والتقدم، كما كانت الآراء الحديثة تلقى ترحيبا، وأخذت اللوثرية تنتشر بين ربوعها. لذلك كانت العلاقات بين الشعبين من أصعب المشاكل القائمة، وقد يقال أنه من الممكن حل هذه المشكلة لو منحت تلك الولايات استقلالا داخليا واسعا، وحريات قومية، ولكن لم تكن هذه الآراء التقدمية التي تدفع إلى التسامح معروفة بعد (أي في القرن السادس عشر). فكان منح الشعوب المحكومة

بعض الحرية والاستقلال الداخلي يفسر على أنه ضعف من الحاكم. ولم يكن فيليب الثاني (١٥٢٧ - ١٥٩٨) المستبد المتعصب ليقبل أن تنعت أسبانيا بالضعف عندما تصل إلى هذه الدرجة التي تمنع فيها شعب الأراضي المنخفضة حريته واستقلاله الذاتي، لم يكن فيليب الثاني المغرور بسلطانه، المتصف بصلابة الرأي ليقبل ذلك العمل، مع أن الحكومة كانت تقتضيه أن يعمل على استمالة هذه الولايات الغنية بدلا من تنفيرها بوسائل الغش والخداع وتسليط رجال الدين عليها التماسا لجعلها خاضعة له خضوعًا تامًا. فوسائل السلم قد نجحت في النهاية في الإبقاء على الولايات الجنوبية من الأراضي المنخفضة (بلجيكا) تابعة لأسبانيا، تلك الوسائل التي رفض فيليب الثاني بادئ الأمر أن يستعين بها على استمالة هذه الولايات جميعًا.

وقد كانت الأراضي المنخفضة من الميادين التي اندلعت فيها الثورات التي اختلط فيها النضال الديني بالنضال السياسي. وكانت ثورتها أعظم كارثة حلت بأسبانيا في عهد فيليب الثاني. فقد أفضت إلى حروب طاحنة إلى تكبيدها خسائر كبيرة من الأموال والأرواح.

وكانت الأراضي المنخفضة أو البلاد الواطئة تشتمل على سبع عشرة مقاطعة حصل عليها في القرن الخامس عشر أدواق برجندية. ثم أصبحت تابعة للتاج الأسباني بزواج الإمبراطور مكمليان ماري البرجندية، ثم ورثها عنه حفيده شارل الخامس ثم ابنه فيليب وهي ولو أنها كانت جزءًا من الإمبراطورية إلا أنها لم تخضع لسلطانها المطلق. لما فطر عليه أهلها من حب الحرية والميل إلى الاستقلال. ولذلك كانوا يتعرضون للاضطهاد وخصوصًا في عهد شارل الخامس الذى استغل مواردهم في سد حاجة الإمبراطورية.

وكان أهم هدف يسعى إليه زعماؤها وحكامها هو توحيد حكومات تلك المقاطعات ولكن كان يحول دون ذلك ما كان بين الشمال والجنوب من الاختلافات الدينية والسياسية والعواطف القومية، إذ كان سكان المقاطعات الشمالية يدينون بوجه هام بالمذهب البروتستنتي ومعظمهم من الجنس التيوتوني، وينزعون

إلى الحكم الديمقراطي بينما كان الجنوب يتبعون الكنيسة الكاثوليكية في روما. وينتسبون إلى الجنس الكلي. ويميلون إلى أوتوقراطية الحكم.

وعندما آلت الأراضي المنخفضة إلى فيليب الثاني كانت فكرة الاتحاد المشترك وضرورة قيام كيان واحد للأراضي المنخفضة تتسلط على أذهان عدد كبير من المفكرين. وقد سنحت الظروف لهذه الفكرة أن تنمو وتتطور وتصبح ثورة هدفها التخلص من الحكم "الأجنبي" أو الأسباني في بلاد الأرض المنخفضة.

وقد عاش فيليب هناك فترة طويلة من عمره امتدت حتى عام ١٥٥٩ كان همه أثناءها تدبير الوسائل للقضاء على المذهب البروتستنتي لأنه كان يعتقد أن توحيد الملك لن يتأتى إلا بتوحيد الدين.

وكانت أول أخطائه السياسية أنه عند مبارحته الأراضي المنخفضة لم ينصب عليها حاكمًا من أبنائها. بل عهد إلى أخته مرجريت دوقة بارما. (١٥٥٩ – ١٥٦٧). وعين موظفي الحكومة من الأسبان ووضع فيها قوات أسبانية. فساء ذلك أهل البلاد. وتجمعت عوامل الثورة في ذلك العهد الذى اتسم بالبطش والغلظة. وكانت السلطة الحقيقية في يد الكردينال جرانفلا Granvalle البرجندى الذى كان حائزًا على ثقة الملك فيليب الثاني ومشهورًا بجوره وشدته. وقد بدأت المتاعب في الأراضي المنخفضة عندما اتسعت دائرة الحروب التي خاضتها أسبانيا واضطرت إلى مطالبة البلاد التابعة لها بالمساهمة بالمال والرجال بما يزيد عن طاقتها. كذلك اتسعت سلطات محاكم التفتيش التي كان والده قد أدخلها من قبل في الأراضي المنخفضة، وقد ترتب على ذلك اتساع نطاق تلك المحاكم حركة سخط على الحكومة من الكاثوليك والبروتستنت على السواء.

ولما كان فيليب يتوقع قيام الثورة، دفع إلى الأراضي المنخفضة بقوات عسكرية متلاحقة مما زاد في إذكاء الشعور القومي ضد الحكم الأسباني، ولما شعر فيليب بالخطر شرع في سحب تلك القوات وصرف النظر عن التمسك بما فرض على

البلاط من ضرائب فادحة واضطر إلى تخفيفها، إلا أن المعارضة أخذت تقوى وتشتد وتنذر بقيام الثورة بدرجة أن فيليب الثاني وعد بسحب القوات وبتخصيص المبالغ التي أراد جمعها من سكان هذه الولايات ولكن لم يلبث الأمر طويلاً حتى نشأت مشكلة جديدة، عندما ظهرت الحاجة إلى إعادة تنظيم الأسقفيات في الأراضي المنخفضة، كانت حالتها في حاجة إلى تغيير اقتضاه أمراه:-

أولهما: أن توزيع الأسقفيات لم يكن يتفق مع الواحدات السياسية.

وثانيهما: تبعية هذه الأسقفيات لرئيس أساقفة "كولونيا" Cologne "وريمس" Reims.

وإذا كانت الولايات قد رحبت بإعادة تنظيم الأسقفيات وإصلاح الأوضاع المتعلقة بتبعيتها، إلا أنها لم ترحب بمسلك أسبانيا في الإصلاح؛ ذلك لأن ملك أسبانيا كان يريد أن يجعل من حقه في تعيين الأساقفة الجدد وسيلة لتحويلهم إلى أعوان خاضعين لأسبانيا، فيراقبون بالتالي الأهالي مراقبة دقيقة، وينشئون في أراضيهم ما يماثل محاكم التفتيش وقد تزعم المعارضة وليم أورانج وهو بروتستنتي النشأة اعتنق الكاثوليكية عند التحاقه بخدمة الإمبراطور شارل الخامس. ولكنه ظل متعلقًا بالبروتستنتية، ويريد تخليص بلاده مما أسماهم (بالحشرات) الأسبانية. ولقد انعدم كل تفاهم بين أورانج وفيليب منذ أن قرر الأخير القضاء على البروتستنتية. ولكن أورنج اعتصم بالصمت ولذلك سمي (بالصامت) The Slient وأخذ يعمل في مثابرة وهوادة لتقويض دعائم الحكم الأجنبي في بلاده. وكان من الذين تزعموا المعارضة إلى جانبه الكونت اجمونت Count Egmont، وكان يملك ضياعًا واسعة، وقد قاد جيوش أسبانيا بشجاعة فائقة، وأظهر تفوقا عظيما في كل من موقعتي Gravelines st Quentin كان كريمًا محبوبًا صريحًا، ولكنه اتصف بالغرور والأميرال هورن Hoorn وكلاهما كاثوليكي.

ناضل حزب المعارضة كي يقضي على حكومة الأراضي المنخفضة، وقد أثار ذلك فيليب لدرجة عظيمة. ولكنه وجد من الضروري أن يرضخ للأمر الواقع، وأن يحني رأسه للعاصفة فاستبعد جرانفيلا Granvella عام ١٥٦٤، وتحقق بذلك أحد مطالب المعارضة. وقد ظنت مرجريت عندئذ أن في استطاعتها أن تحكم - بعد اقصائه - بالعدل وأن تصلح من شئون الأراضي المنخفضة. ولكن كانت المقاومة في هذه الآونة قد انتقلت إلى دائرة أوسع وظهرت فيها روح جديدة. ويرجع ذلك التطور إلى أن المذهب الكلفني بدأ يتوغل داخل الأراضي المنخفضة متخذًا طابعا ثوريا مليئا بالتعصب. ووجدت تعاليم المذهب الجديد ترحيبًا لدى الكثير من النفوس نظرًا لأنها كانت مكتوبة بالفرنسية مما جعلها مفهومة لدى الغالبية العظمى من السكان، كما أنها كانت تنادي بالحكم الذاتي المستقل وتؤيد مقاومة الحكام الذين يضطهدون الأفراد. لذلك انسجمت هذه التعاليم مع حركة المقاومة التي كانت قائمة في الأراضي المنخفضة ضد أسبانيا.

ولم يكن عزل جرانفيلايثني فيليب الثاني من عزمه في المضي في سياسته فقد أخذت محاكم التفتيش تعمل بعنف، كما أخذت قوانين الاضطهاد Palacards تنفذ بدقة. وزاد عليها فيليب الثاني بأن فرض على سكان الأراضي المنخفضة أن يوافقوا على مبادئ مجلس ترنت عندئذ قدم الثائرون بايعاز من وليم أورنج احتجاجًا على هذا الاضطهاد وسلمه اجمونت Agmont بيده للعمل في يناير سنة ١٥٦٥م.

ولما لم تجد هذا الاحتجاج اشتد هياج النفوس، وأخذت فئة من صغار النبلاء ومنهم "مونكس" الكلفني Brederode الكاثوليكي تقاوم بعنف محاكم التفتيش وفي ابريل سنة ١٥٦٦ قدموا التماسًا إلى الحاكم وعرفوا عندئذ بالمتسولين Gueux تسمية لحقت بهم كتلك التي لحقت ببروتستانت فرنسا بالهيجونت .Huguenots

ولما لم يجد الاحتجاج، بلغ الهياج أشده في الأراضي المنخفضة في هذه الفترة إذا امتنعت الحكومة عن إيقاف العمل بالاضطهادات الشنيعةو وإيقاف أعمال محاكم التفتيش. وانتشرت الفوضى فعمت الأراضي المنخفضة. ومع أن أعضاء المذهب الكلفني كانوا قلة إلا أنهم استطاعوا بمساعدة السلطات المحلية السلبية في موقفها أن يتمادوا في تخريبهم وهياجهم والإخلال بالأمن. فأعدت أماكن لإقامة شعائر كلفن علنًا، وأخذ الثوار في تخريب الكنائس الكاثوليكية لدرجة أثارت كلا من "وليم أورنج" وكونت اجمونت فهاجم الثوار كنيسة "أنتورب" Antwerp الغنية بمخلفاتها الفنية التي ترجع إلى العصور الوسطى فنفر هذا العمل الكاثوليك من الحركة وثار غضبهم عندما شاهدوا كنائسهم تمتد لها يد التخريب. فوقع الانقسام بين الكاثوليك والبروتستانت.

وانتهز فيليب فرصة الانقسام فأرسل أحد قواده المشهورين بالقسوة والصرامة وهو دوق الفا Alva مع جيش أسباني غادر ميلان إلى الأراضي المنخفضة في آخر ديسمبر سنة ١٥٦٦م. ثم استدعت مرجريت بارما. وبدأ ألفا سياسة الاضطهاد والشدة ضد البروتستنت فكان من أعماله إنشاء مجلس للقضاء على الفوضى والاضطرابات عرف باسم (مجلس الدم) بسبب أعمال الإرهاب التي أثارت الشعور العام في أوروبا بأسرها. فأعدم كثيرون من أتباع كلفن، كما أعدم اجمونت وهورن من النبلاء الكاثوليك في يونية ١٥٦٨، حتى يرتدع بقية النبلاء. وشرع ألفا يبذر بذور التفرقة بين الشمال والجنوب، واستطاع أن يخضع الجنوب للسيطرة الأسبانية فصارت انتورب مقر النشاط الكاثوليكي، بينما كانت امستردام في الشمال مقر النشاط البروتستنت. وهكذا نجح ألفا في تهيئة ذلك الانقسام الجنسي والقومي والديني بين الجنوب والشمال، وهو الانقسام الذي ترتب عليه ظهور الدولتين الجديدتين بلجيكا وهولندا.[1]

واستمر "ألفا" يعمل على تنفيذ سياسته الغادرة ست سنوات، أحرز في بدايتها بعض النجاح. فحكم بالموت عن طريق مجلس الدم على حوالي ١٨٠٠ نفس من الثوار والمارقين. وساهمت في النهاية عوامل عدة لم تكن في الحسبان في فشله في مهمته منها:-

١- المقاومة الشديدة العنيفة الصادقة التي واجهها من شخص التفت حوله قلوب سكان الأراضي المنخفضة وعقدت عليه أمانيها وهو الأمير أورنج، وقد حكم عليه مجلس الدم بالموت غيابيا أثناء وجوده في ألمانيا. وقد نشر عندئذ مقالاً وهو بعيد عن بلاده بعنوان "التبرير" هاجم فيه طغيان فيليب وظلمه مهاجمة سافرة، كما أنه لم يقبع في داره بل شن غارات مختلفة على الأراضي المنخفضة. ومع أن قواته كانت أقل عددًا وتنظيمًا من قوات "ألفا" وهزمت أكثر من مرة إلا أنها كلفت "ألفا" نفقات باهظة.

في تلك الأثناء اعتنق أمير اورنج الكلفينية، وأظهر إخلاصًا عميقا لها، كما تميز بروح تسامح دينية غير عادية، بل وغير مألوفة في ذلك العهد. نجح في أن يهاجم جيش ألفا وينزل به خسائر كثيرة وإن كان الانتصار في النهاية لدوق ألفا. ثم جمع جيشًا جعل قيادته لأخيه لويس ناسو Louis of Nassau. وقد نجح هذا القائد في بادئ الأمر فأحرز بعض الانتصارات في فريزلاند Friesland وكان يأمل في الحصول على معونة الهيجونت. ولكن ألفا بادر بمواجهة قواته في "بيمنجن Jemminingen فاضطرت قوات "لويس ناسو" غير المدربة إلى الفرار أمام المحاربين المدربين من الأسبان في ٢٢ يوليو ١٥٦٨، ونجح ناسو في الفرار ولكن لم تستطع غالبية جنده ذلك، ولم يقتل من المحاربين الأسبان في المعركة أكثر من سبعة. وكان واضحًا من ذلك مدى عجز الأراضي المنخفضة عن نيل استقلالها والمضي في مقاومتها.

على أن ذلك لم يثن اورنج عن عزمه وتصحيحه؛ ففي سبتمبر ١٥٦٨ دخل ولاية "بربانت Brabant ونازل قوات ألفا التي رفضت مواجهته، ومع ذلك فقد

نزلت بقواته خسائر فادحة؛ فاضطر إلى أن يعود من حيث أتى بعد شهر دون أن ينجح فى تحقيق أى نتائج حاسمة.

وانتصر ألفا من جديد، واشتدت وطأة قسوته واضطهاداته مما جعله يقيم فى "أنفرس" تمثالاً ضخماً لنفسه احتفالاً بهذه المناسبة: "لأنه أخمد الثورة وعاقب المتمردين، وثبت العقيدة وضمن العدالة، ووطد السلام".

على أن إجراءات ألفا الوحشية فشلت فى أن تحقق انتصارًا شاملًا، وكان ألفا فى نهاية عام ١٥٦٩ يفخر بأنه قد قضى على الهرطقة واخضع الولايات، ويرى أنه لم يعد أمامه سوى أن ينفذ بقية خططه الخاصة بجعل الولايات تكفر عما تسببت فيه من اضطرابات وتساهم بدرجة كبيرة فى تنمية الموارد الملكية فى المستقبل لتنفيذ ما أراد.

٢- العامل الثانى هو فرض ضرائب جديدة، وهنا أثبت "الفا" أنه قليل الدراية بالشئون المالية إذ غاب عنه أن هذه الضرائب التى فرضها على بعض السلع المهمة من شأنها أن تعوق التجارة، ولا تحقق الغرض الذى من أجله وهو زيادة موارد الدولة. كما أثبت قصر نظر وعدم حكمة عندما أثار الجميع ضده الكاثوليك والبروتستنت على حد سواء، فاتحدوا جميعًا عند المساس بمصالحهم التجارية، هذا مع العلم بأن الكاثوليك كانوا قد أيدوا من قبل إجراءات "ألفا" التعسفية للقضاء على أعداء الكاثوليكية، ولكنهم لم يلبثوا أن رفعوا ضده راية العصيان؛ فاشتدت المعارضة فى مدريد وفى الأراضى المنخفضة، وركدت التجارة وأغلق التجار محالهم مفضلين ذلك على تأدية الضرائب المطلوبة. وامتلأت نفوس الغالبية العظمى من الشعب بالاستياء العام والكراهية البالغة تجاة شخصى "ألفا".[١]

٣- أما العامل الثالث فهو جهود الثائرين فى البحر، اضطر كثير من السكان إلى الهجرة إلى البحر وانضموا إلى ملاحى سفن صيد الأسماك وقرصان البحر، واتخذ الجميع القرصنة وسيلة للهجوم على سفن أسبانيا ويهاجمون الموانى الصغيرة

الموالية لها بالأراضي المنخفضة، حيث كانوا ينقضون عليها فجأة وينتهكون حرمة الكنائس، يخربونها ويسلبون ما فيها من نفائس ويذهبون لبيعها في ميناء دوفر على الساحل الجنوبي الإنجليزي. وكانت انجلترا في أول الأمر تساعد هؤلاء القوم وتحميهم، ثم تنحت عن ذلك لأسباب سياسية وكان يرأس هؤلاء القراصنة وليم دي لامارك William de La March الذي هاجم بأسطوله سواحل نيوزيلنده واستولى على ثغر بريل الحصين سنة ١٥٧٢. ويعتبر استيلاء شحاذي البحر على هذا الثغر بداية للحركات التي ترتب عليها ظهور الجمهورية الهولندية.

قام الأسبان من جديد بإجراءات انتقامية شديدة العنف فصادروا الأملاك كتدابير مقابلة لما يقوم به الثوار من عنف ونهب، ونشطت محاكم التفتيش في إصدار أحكام التعذيب والحرق والشنق. ولم ير ذلك الشعب إلا زيادة السخط على الأسبان وعزمهم على المضي في الثورة على أشدها حتى يجلو آخر جندي أسباني وكانت الثورة على أشدها في الشمال حيث قرر نواب هولندة ونيوزيلنده وأترخت وجلدر لاند تنصيب "وليم أورنج" رئاسة الولايات الشمالية ودعوه إلى قيادة قواتهم.[1]

لقد كان النجاح في أول الأمر يبدو مستحيلاً، إذ كان من العسير أن تتغلب حفنة من الجنود غير المدربين على جيوش دولة كبيرة كأسبانيا. ولكن طبيعة البلاد التي يحاربون فيها قد ساعدتهم مساعدة فعالة. فقد كان الثوار في حروبهم ضد الأسبان يتجنبون الالتحام وبهم في ميدان مكشوف بل يتحصنون داخل مدنهم المنيعة. وعندما يحاصرون يلجأون إلى هدم الحواجز والسدود التي بنيت لتقي بلادهم من البحر فتنطلق المياه منها على القوات الأسبانية المحاصرة لهم فتشتت شملها.

ومما ساعد ثوار الأراضي المنخفضة أن أسبانيا - رغم قوة جيوشها - كانت تعاني إذ ذاك من أزمة اقتصادية شديدة نتج عنها عجزها عن الإنفاق على تلك

التوات حتى أن كثيرا ما تمر الشهور تلو الشهور دون أن تدفع مرتبات الجنود. أضف إلى ذلك أن حروب الأراضى المنخفضة لم تكن المسألة الوحيدة التى تشغلها، بل أنها كانت منشغلة فى حروب أخرى ضد فرنسا وضد إنجلترا.

لكل هذا استطاع الهولنديون الكلفينيون بصبرهم وثباتهم وصمودهم أن ينجحوا فى انتزاع جزء كبير من الأراضى المنخفضة ويؤسسوا فيه حكومة مستقلة.[1]

معاهدة غنت Ghent نوفمبر ١٥٧٦:

ومنذ ذلك الحين بدأت حروب عنيفة. وكان أظهر الحوادث فى المدة التالية إقالة دوق ألفا الذى فشلت سياسته، وتعيين جندى قدير مكانه هودى ركوسنس de Requessens الذى أحرز بعض الانتصارات، ولكنه توفى فجأة فى سنة ١٥٧٦، فأعطى موته الفرصة لأن تجمع الولايات الشمالية والجنوبية كلمتها، تحت زعامة أورنج، وكان السبب فى ذلك وقوع ما يعرف باسم الغضب الأسبانى The Spain Furry. وتفسيره أن الجنود الأسبان الذين تأخرت مرتباتهم لم يلبثوا أن قاموا بالثورة. وأرتكبوا الفظائع وأعمال السلب والنهب فى الولايات الشمالية (البروتستنتية) والجنوبية (الكاثوليكية) على السواء. واستباحوا مدينة انتورب – فى الجنوب – فأثار هذا العمل الكراهية ضدهم. ونجح أورنج فى جمع كلمة الشمال والجنوب فى اتحاد أطلق عليه اسم (سلام غنت) The Pacification of Ghent فى نوفمبر ١٥٧٦ على أساس الاعتراف بسلطان فيليب الثانى فى مقابل طرد الجنود الأسبان من البلاد ونشر التسامح الدينى وتأليف مجلس من الولايات يقوم بأعباء الحكومة.

ولكن حلف الاتحاد بين الشمال والجنوب بدأ يتصدع فى عهد حكومة دون جوان الذى خلف ركوسنس Requesens ثم تهدم نهائيًا فى عهد إسكندر فارنيز Farnese وابن مرجريت بارما. وهو الذى خلف دون جوان بعد وفاته (فى أكتوبر ١٥٧٨) فتألف بفضل سياسة التفرقة التى اتبعها (اتحاد اراش) union of

Arrass من الولايات الجنوبية للدفاع عن الكاثوليكية واضطر أورنج لتأليف حلف جديد من الولايات السبع الشمالية عرف باسم اتحاد أوترخت union of utrecht في يناير سنة ١٥٧٩ على أساس الدفاع عن حريات هذه الولايات ضد أسبانيا وعلى أساس حرية العبادة في كل ولاية ولو أن الولايات بقيت تعترف أسميًا بسلطان فيليب الثاني. وهكذا انقسمت الولايات إلى قسمين منفصلين لم يمكن التوفيق بتاتا بين مصالحها بعد ذلك وفي سبيل تحقيق هذا الهدف ورغم ما أبداه خيرة مؤيديه من أسف شديد، قرر أن يطلب المساعدة الفعالة بسبب كونه وريثًا للعرش الفرنسي وخاطبًا معروفًا ليد ملكة انجلترا. ولكنها كانت مضاربة فاسدة: فأنجوا كان خائناً، وجيشه عاصيًا وحمايته مكروهة، ولهذا لم ينتج خير من تدخله القصير الأمر. ولكن القدر كان يدخر للهولنديين في حربهم ضد أسبانيا حليفًا أقوى، لن يلبث قبل مضي وقت طويل حتى يحيط اللثام عن خلال مدهشة.

في ذلك الوقت كان مبدأ الاغتيال السياسي أمرًا مقررًا على مدى واسع خصوصًا وأنه - وإن لم يكن الأسلوب الوحيد - كان يزكيه بعض الأعضاء الأسبان في طائفة اليسوعيين. لهذا ليس ثمة ما يدعو إلى الدهشة حين تقرر حكومة أسبانيا أن تزيح غريمها العنيد القوى من طريقها باغتياله. وأعلنت الامبراطورية أن الأمير خارج على القانون (١٥ مارس ١٥٨١) وأنه عدو للجنس البشري، ووعدت بالمال والأراضي والألقاب من يأتي برأسه. ولكن آلهة النقمة تلازم سياسة الاغتيال السياسي: فقد تخر الضحية صرعى، ولكن القضية تبقى بشد أزرها دم الشهيد. ففي ١٠ يوليو أطلق شاب برجندى متعصب يدعى بلتزار جرار Balthazar Gérard الرصاص على أورنج في بهو الأمير Prinzohor في دلفت Delft، ولكن رغم أن وليم في ذلك الوقت لم يكن يزيد على الحادية والخمسين من العمر، فإن مقتله جاء متأخرًا جدًا. فقبل ذلك بثلاث سنوات (٢٦ يوليو ١٥٨١) كان ممثلو برابانت والفلاندر وأوترخت وجلدر لاند Guelderland وهولندة ونيوزيلنده قد احتموا في لاهاي ووقعوا صكًا (Act of Abjuration) أقسموا فيه اليمين على خلع ولائهم

للتاج الأسباني. وهكذا فرغم وفاة وليم أورنج في تلك الآونة يمخض الاضطراب العاصفة عن دولة من صنع يديه قامت بالفعل، وكان من المقرر لها أن تملأ البحار بسفنها وتبني في الشرق إمبراطورية مفرطة في الغني، وتتحدى أساطيل انجلترا وجيوش فرنسا، وتكسب امتنان الجنس البشري باعتبارها ملجأ للحرية الفكرية وموطنًا لمدرسة من الرسامين أثروا ثقافة أوروبا على الدوام بما راعوه في رسومهم - بدقة ورقة - من بدائع الخيال الهادئة.

واصطنعت الدولة الجديدة لنفسها دستورًا كان يبدو لكل ناظر أنه لا يصلح مطلقًا لجو السياسة الأوروبية العاصف. فقد كانت الدولة الجديدة عبارة عن اتحاد من سبع جمهوريات صغيرة ذات سيادة. لكل منها برلمانها المحلي وحاكمها التنفيذي المنتخب Stad tholder وحقها في المشاركة بنصيب مباشر في الإشراف على مالية الاتحاد وسياسته الخارجية. وللاتحاد مجلس للنواب من اثني عشر عضوًا، وهو ينظر في الشئون التي تعني الاتحاد كله ويعين القائد العام للجيش والقائد العام للأسطول. ولكن لما كانت هذه الهيئات المركزية لا تتمتع بالسيادة الحقيقية، بل تتمتع بها المجالس المحلية السبعة، فلم يكن ثمة ضمان دستوري يضمن تماسك الجمهورية كما يضمن الاستمرار والحيوية في إدارة شئونها. ففي أية لحظة كان بإمكان فلاحي فريزيا وقسس أوترخت أو نبلاء جلدر لاند أن يعرقلوا بأصواتهم - إذا ما أرادوا - الخطط التي جهد في حبكها أرستقراطيون المدن التجارية. على أن الجمهورية لم ينقذها من هذه العواقب السيئة التي ترتبت على هذا القصور في جهازها السياسي سوى عوامل ثلاثة من التجانس الفعلي بين سكان هولنده. وتفوق هولنده على سائر المقاطعات - وأهم من هذين العاملين المكانة الخاصة التي أعطيت عن طواعية لزعيم بيت أورنج خلال الخمسين عاما الأولى الدقيقة لاستقلال هولندة.

وقد ساعد الهولنديون على الاحتفاظ باستقلالهم أن فيليب كان منشغلا عنهم بمتاعبه التي لا تنتهي في أملاكه الأخرى. وذلك بالإضافة إلى حربه مع إنجلترا وتدمير أسطوله الكبير (الأرمادا) ١٥٨٠م واضطراره إلى إرسال النجدات إلى

الكاثوليك في فرنسا. وكذلك انشغال حاكم الأراضى المنخفضة إسكندر بارما ما بين حين وآخر بحملات يأمره بها فيليب للسير بها نحو فرنسا مما يضطره للغياب عن البلاد فترات من الزمن.

وظلت الحرب مستمرة بين الهولنديين بقيادة "موريس أورنج" وبين الأسبان الذين كانوا يرزخون تحت أعباء الحرب التى يخوضونها فى الميادين الأوروبية العديدة والتى أدت إلى تحطيم اقتصاديات بلادهم. فلم يكن هناك بد من التسليم بالأمر الواقع فيعترفوا بهزيمتهم. ولذلك عرضوا فى عام ١٦٠٩ على جمهورية هولندة هدنة طويلة الأمد مدتها أثنتا عشر سنة. والواقع أن هذه الهدنة تعتبر اعترافًا ضمنيًا باستقلال هولنده. وعلى أثر انقضاء هذه المدة اندلعت الحرب مرة أخرى واستمرت كذلك حتى تم توقيع معاهدة وستفاليا سنة ١٦٤٨م والتى تضمنت اعتراف أسبانيا والإمبراطورية باستقلال هولنده نهائيًا.

ولقد كان لنجاح الثورة الهولندية وانتصارها على دولة من أعظم الدول الأوروبية قوة أثره الكبير فى نفوس الشعوب المناضلة من أجل استقلالها وقوميتها ومعتقداتها، وكان له فضل كبير فى حفظ وتقوية كيان المذهب البروتستنتى. ومنذ أن تم لهولنده الاستقلال أخذت تخطو خطوات واسعة فى سبيل العمران والتقدم وازداد عدد سكانها بنزوح أعداد كبيرة من البروتستنت من سكان الولايات الجنوبية التى بقيت مدة طويلة تحت الحكم الأسبانى كذلك هاجر إليها أعدادًا أخرى من بروتستنت ألمانيا وفرنسا، ولما ازداد عدد السكان فى بعض الجهات اتخذوا البحر وسيلة للعيش، واتخذوا القوارب سكنا لهم، وأدى زيادة عدد السكان إلى تجفيف بعض المستنقعات فى داخل بلادهم.

ولما كان الجانب الأكبر من الشعب الهولندى يعنى بالتجارة والصناعة وركوب البحر، فقد كان يجتمع على وجهة نظر واحدة فى الشئون الخارجية، وعلى فهم مشترك لحاجيات هولنده ومصالحها. زال النظام الاقطاعى وحل محل النبيل والكاهن فى أهميتها رجال الطبقة الوسطى من سكان المدن. وكان الأرستقراطيون فى المدن يسيطرون عليها والمدن بدورها كانت تسيطر على الجمهورية. وشاءت الأقدار - إلى حد ما - أن تقع المراكز الرئيسية للتجارة والعلم فى داخل مقاطعة

واحدة، الأمر الذى عاون كثيرا على من البلاد الاستقرار والقوة. فإن أمستردام وروتردام وولفت ودوردر ختخ Dordercht وليدن (مقر الجامعة الهولندية) ولاهاى العاصمة السياسية للدولة) تقع جميعها فى هولندة. ولم يحدث فى أى مكان آخر فى أوروبا أن تركز فى رقعة واحدة من الأرض هذا الحشد من السكان والقوة التجارية، ولم يحدث فى أى مكان آخر أن عولجت شئون التجارة بمثل هذه المهارة أو فهم الناس من الحياة الحضرية بمثل هذا الإتقان. ولما كان لهولنده قصبة السبق بين المقاطعات السبع، فقد تزعمت امستردام مدنها وبزت منافساتها فى الصيرفة والتجارة وحجم أسطولها واتساع نشاطها الاستعمارى. وهكذا عوضت القوة المستمدة من التفوق الاقتصادى الحكم المركزى الذى كان يفتقر إليه الدستور. ومن الوجهة النظرية بقيت حريات الأقاليم مصونة لم تمس. ولكن من الناحية العملية كانت السياسة التى تلقى تأييدًا من حكام امستردام الأثرياء كفيلة بأن تستهوى أعضاء الاتحاد الآخرين الأقل من هولندة شأنًا.

وازداد التوسع الهولندى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر وأصبح أسطولهم التجارى من أقوى الأساطيل الأوروبية مما جعلهم يتحكمون فى بحر الشمال، ويجوبون بحر البلطيق، وينافسون الأسبان والبرتغال فى احتكار التجارة فى جزر الهند الشرقية والغربية. وفى سنة ١٦٠١ تأسست شركة الهند الشرقية الهولندية بقصد احتكار التجارة فى الشرق الأقصى، وأدى نشاط تلك الشركة إلى تأسيس إمبراطورية استعمارية هولندية فى أرخبيل الملايو. وظلت الجمهورية الهولندية تتمتع بالثروة والرخاء حتى منتصف القرن السابع عشر، وبعد ذلك ظهرت قوات استعمارية فرنسية وإنجليزية تحاول الدخول مع هولندة فى تنافس شديد كان من أثره أن بدأت الإمبراطورية الهولندية فى الضعف والانحلال.

الفصل التاسع
إنجلترا فى القرن السادس عشر

إنجلترا فى القرن السادس عشر
عصر أسرة تيودور
(١٤٨٥ـ ١٦٠٣)

يبدأ تاريخ الشعب الإنجليزى كأمة حديثة منذ فتح النورمنديون بلادهم عام ١٠٦٦ بقيادة وليم الفاتح دوق نورمندية، وقد استوطن النورمنديون البلاد وتناسلوا مع أهلها الإنجليز، ومن امتزاجهم نشأ الشعب الإنجليزى الحديث تحت حكم ملوك أقوياء لم يقتصر حكمهم على إنجلترا فقط بل أصبحت نورمندية تابعة للتاج الإنجليزى منذ أن اتخذ وليم الفاتح إنجلترا مقرًا له، ثم اتسعت الأملاك الإنجليزية فى فرنسا وأدى ذلك إلى ما يعرف باسم "حرب المائة سنة" وهى الحرب التى كان لها أبعد الآثار فى تاريخ الدولتين، والتى يرجع أصلها إلى تصميم ملوك انجلترا على البقاء فى ممتلكاتهم الفرنسية، وإلى عزم ملوك فرنسا على إجلاء الإنجليز عن بلادهم، وأخيرا لم يستطع الإنجليز الاحتفاظ بالأراضى الفرنسية التى كانت تابعة لهم لأن الشعب الفرنسى نفسه أخذته العزة القومية وثار ضد الاحتلال الإنجليزى وتجلت قوته الوطنية فيما قامت به جان دارك من بطولة نادرة، إذ تألبت بفضل حماستها وتضحيتها جميع القوى التى طردت الإنجليز من الأراضى الفرنسية وبعد عامين فقط من جلاء الإنجليز عن فرنسا شبّت بإنجلترا نفسها حرب أهلية وهى حرب الوردتين (١٤٥٥ – ١٤٨٥) وهى الحروب التى سميت بهذا الاسم، إشارة إلى الوردة البيضاء شعار آل يورك والوردة الحمراء التى كانت شعار آل لانكستر، وهما أسرتان تنتميان إلى أصل واحد ولكنهما تنازعتا على العرش.

وقد فاز آل يورك فى حرب الوردتين عام ١٤٧١، إلا أن ملكهم (ريتشارد الثالث) لم يكن موفقًا فى حكمه، وأغضب الشعب بارتكاب أفعال منكرة منها قتل ابنى أخيه ادوار الرابع، فاستطاع هنرى تيودور من أسرة لانكستر أن يكتسب تأييد الشعب وينتزع العرش من أسرة يورك ويؤسس أسرة تيودور القوية التى قدر لها أن

تقود البلاد حقبة من الزمن كانت مليئة بالمصاعب الدينية والسياسية. وقد اعتلى هنري تيودور الحكم باسم هنري السابع.

هنري السابع (١٤٨٥ - ١٥٠٩)

كان أول أعماله سحبه ايرك وارويك ابن دوق كلارنس، وثبت البرلمان الأول (١٤٨٥) عرشه وعرش ورثته.. وعلى الرغم من أن القيود التقليدية القائمة منذ العصور الوسطى لوضع حد لسلطة التاج كانت لا تزال قائمة نظريًا، فإن هنري قد ذهب شوطًا بعيدا في تنمية سلطان الملك المطلق: فأقام المحكمة الإدارية التي أصبحت تعرف فيما بعد باسم "قاعة النجم" ١٤٨٧، وألغى الجيوش الاقطاعية الخاصة، وانشأ نظامًا ماليًا ناجحًا وإن كان استبداديًا (ابمبسون، وادلي "موتونرفوك"). وفي عام ١٤٨٧ ترك ايرك وارويك (سيمنيل) المطالب بعرش انجلترا إلى الشواطئ الإنجليزية، ولكنه هزم في ستوك في (١٦ يونيو ١٤٨٧) وأصبح أحد المساعدين في خدمة الملك.

وشهدت الفترة من ١٤٨٨ - ١٤٩٩ محاولات بركن واربك، أحد الفلمنكيين لخلع هنري وقد تظاهر بأنه دوق يورك. نفاه شارل الثامن في صلح ايتابل (٩ نوفمبر ١٤٩٢) الذى انهى الحرب التي اشترك فيها هنري بسبب ضم شارل لإقليم بريتانيا (١٤٩١)؛ واستقبلت دوقة برجنديا واربك في فلندرزا استقبالا حارًا، وهي أخت ادوارد الرابع، ثم فر إلى اسكتلندا بعد نفيه من فلندرز، واعترف فيها بادعاءاته. فغزا ولاربك وجيمس الرابع ملك اسكتلندا إنجلترا في ١٤٩٦. وفي ١٤٩٧ نشبت ثورة هائلة في كورنوول نتيجة لفرض البرلمان إحدى الضرائب. وقد ألغيت على أثر هزيمته في بلاكهيث (٢٢ يونيو ١٤٩٧) وإعدام القواد (فلاموك). وفي سبتمبر ١٤٩٧ تم الصلح مع اسكتلندا. وقبض على داربك في الحال وسجن في البرج، وفر منه، ولكن ألقى القبض عليه من جديد، ودبر هروبًا آخر مع ايرك وارويك، فاعدم كل من بركن وارويك (١٤٩٩).

وقد شهد عهده دستوراً جديداً (قانون بواينجز) وينص على الآتى:-

١- لا يجوز للبرلمان الأيرلندى الانعقاد دون موافقة ملك انجلترا.

٢- لا يمكن تقديم أي قرار للبرلمان الأيرلندى دون موافقة الملك.

٣- تصبح جميع القوانين الحديثة المصدق عليها من البرلمان الإنجليزى سارية المفعول فى أيرلندا.

كما أنه تم توقيع المعاهدة التجارية العظمى، وهى معاهدة تجارية مع الأراضى المنخفضة، تمنح الإنجليز والفلمنكيين امتيازات متبادلة، وتنص على ضرائب محددة. وفى عام ١٥٠٢ تم زواج كبرى بنات هنرى مرجريت من جيمس الرابع ملك اسكتلندا.

هنرى الثامن (١٥٠٩ - ١٥٤٧)

فى عام ١٥٠٩ بدأ هنرى الثامن نموذجا كاملا لشباب من أمراء النهضة ماهرًا فى كل رياضيات الرجال. اتصف بشهوة فائقة للصيد وللقمار وعشق النساء ومبارزة الفرسان، وامتزج فيه هذا كله بتذوق لصحبة المثقفين من الرجال وبخيال داعية - وإن لم يسترسل فيه كثيرا - تضم إحدى المقاطعات الفرنسية ووضع التاج الامبراطورى على رأسه. وما أن اعتلى هنرى العرش حتى تزوج كاترين الأرجونية، وتكبره بست سنوات، كانت أرملة أخيه الأكبر آرثر الذى توفى فجأة فى لدلو Ludlow فى سن السادسة عشر بعد زواج دام أربعة شهور. وفى عام ١٥٠٣ أصدر البابا يوليوس الثانى (١٥٠٣) فتوى أقرت الزواج من أرملة أخ متوف، وذلك رغم النص الرسمى للفتكوس Leviticus (الجزء الثالث من العهد القديم).

وقد كان هنرى مغرمًا بالبحر فبنى الأحواض البحرية الملكية فى وولتش Woolwich ودتفور Deptford وانشأ ترنتى هاوس Trinity House وهى مدرسة لإعداد رجال البحر، وأشرف بكل دقة واهتمام على بناء أسطول ملكى ووضع أساس قوة انجلترا فى البحر. وكان أول ملك انجليزى له أسطول بمعنى الكلمة على أحدث طراز. وحين أنزلت السفينة "برنس مارى" إلى البحر فى عام ١٥١٩، حضر

الاحتفال كل رجال البلاط، أما هنري – فقد سلك مسلك أهل البحر: لبس سترة البحار وسروالاً مصنوعًا من قماش مذهب، وسلسلة ذهبية نقش عليها "الله وعدلى Diet et Mon droit" وعلقت فيها صفارة كان يبعث فيها نفيراً مرتفعا كأنه صوت النفير". وفي هذه وفي شئون كثيرة أخرى كشف الملك عن مزاج الشعب الإنجليزي وتمشى مع روحه.

أما الأمر الثاني الذي شغف به الملك فهي المسائل الدينية التي كانت قد اصبحت – كما أصبح الاقتصاد في أيامنا – أساسًا لدراسة السياسة. قرأ فلسفة توما الأكويني وناقشها، بل أنه كتب بحثا نشر في عام ١٥٢١ ردا على لوثر كان من نتيجته أن أنعم عليه البابا ليو العاشر بلقب حامي العقيدة Fedei Defenser، وكلما تقدمت السن وازداد اهتمامه بنفسه نما شعوره بالثقة في عقيدته إلى حد أن أصبح يعد نفسه في كل المسائل العليا الخاصة بالعقائد الدينية القاضي الفرد الذي لا ضرورة لغيره، الوثيق الصلة بغايات الله وموضع سره. كانت وجهات نظره متمشية مع البابوية، وفي كثير من المسائل الأساسية كالقداس أو تحريم الزواج على رجال الدين كان شديد التمسك بالعقيدة التقليدية. وحين اشتبك في حرب خارجية لأول مرة كان هدفه نصرة البابا يوليوس الثاني ضد لويس الثاني عشر ملك فرنسا، وأحرز نصرًا في معركة سبرز Spurs ثم نصرًا آخر أشهر في فلودن فيلد Flodden Field – وهما الانتصاران اللذان أعادا لإنجلترا سمعتها كدولة مهيبة الجانب في أوروبا، بالرغم من أن أهميتها لم تبق قائمة.

أما الشعب الإنجليزي فكان – على عكس ملكه، وعلى عكس الشعب الاسكتلندي – غير مبال بالبحوث الدينية. وقليل من البلاد من تأثر – كانجلترا – هذا التأثر الطفيف بالهرطقة أو عرف عنه مثل هذا الإخلاص لروما. وكانت حركة اللولاردزا استثناء قريب العهد، ولكنها كانت حين اعتلى هنري العرش قد فقدت تأثيرها على الجامعات وأهل الريف وغدت عقيدة مبعثرة من الرجال المغمورين رقيقي الحال الذين يمتهنون حرفًا متواضعة في بعض أزقة لندن أو يحرقون الشجر

لصنع الفحم فى غابات الساحل فى تشلترنز Chilterns. ولم يبد البارونات وأهل الريف فى انجلترا كبير اهتمام بالمسائل الكبرى التى دار حولها الجدل وكانت تشغل اهتمام الناس فى القارة الأوروبية، كالمسائل المتعلقة بالقدرية أو التبرير بالإيمان. وكان الرجل الإنجليزى العادى يكن فى قرارة نفسه ولاء غريزيًا للأمور المتواضع عليها وخاصة القداس والطقوس الكاثوليكية. أما فى الجامعات، حيث كان يتلقى موظفوا الدولة تعليمهم - وبالأخص فى جامعة كمبردج - فقد ظهرت حركة دينية سببها الاتصال باللوثرين وكتاباتهم. ولكن هذه الآراء التجديدية كانت فى أوائل عهد هنرى الثامن مقصورة على صفوة من أهل الفكر الأكاديمى.

ورغم أن الشعب الإنجليزى يغلب عليه طابع المحافظة، فإنه كان أيضًا بصفة عامة لا يميل إلى رجال الدين، ويصدق هذا بصفة خاصة على العلمانيين فى لندن والمدن التجارية. وكانت الطبقة التجارية قد بدأت تتحدى السلطة التى تعتمد عليها الكنيسة الإنجليزية العتيقة واسعة السلطان، وكان الجبلليين Ghibellines الإنجليز يحقدون على ما يتمتع به القسس من امتيازات وما يحوزون من أملاك. كان يسوؤهم أن يعفى رجال الدين من التشريع الجنائى الذى يخضع له أفراد الناس فى الوقت الذى يخضع فيه الناس لتشريع الكنيسة الجنائى. وتساءلوا: لماذا يفلت سافك الدماء فعلا من العقوبة إذا استطاع أن ينشد مقطوعة من المزامير واستحق بذلك أن يكون رجل دين؛ وأى حق يخول محكمة الأسقف الحكم على رجل علمانى بالحرق بتهمة الهرطقة دون أى تدخل أو مانع من جانب السلطة المدنية؟ هذه وشكاوى أخرى، وإن كانت قد لقيت بعض العناية فى التشريع فى عام ١٥١٢، هى التى كانت موضع النقد والتجريح الشديد فى البرلمان الذى انعقد فى عام ١٥١٥.

وهناك سبب مشهور، لم يمط عنه اللثام تماما حتى اليوم، هو الذى اشعل نار الجدل. فقد وجد جثمان رتشاردهن Richard Hunne التاجر، مشنوقا ومعلقا فى قصر أسقف لندن. أما الاكليروس فكانت لهم وجهة نظر أخرى. فعلى حين كان الناس فى لندن مصممين على تصديق كل ما هو مشين فى حق القسس، أصرت

محكمة الأسقف المنعقدة فوق جثمان الرجل على أن التاجر كان زنديقاً لم يتب عن زندقته وأنه أقدم على قتل نفسه؛ ولهذا أحرق جسده وأعلنت مصادرة أملاكه وضمها إلى التاج. واشترك الجميع في مناقشة هذه القضية؛ ووسط خضم من التهم المتراشقة التي أثارها موت هن، أثيرت كل القضايا الأساسية المتعلقة بالكنيسة والدولة وأصبحت مدار للنقاش. ولم يوقف هذا النزاع الحاد الذي كان ينذر بعواقب خطيرة إلا الإقدام على حل البرلمان.

ورغم أن اتجاه الرأي العام كان في معظمه علمانيًا لا يميل إلى الاكليروس، فإنه لم يكن ثوريًا. ولم تلتهب حركة الإصلاح الديني في انجلترا تلك المرارة الإجتماعية بين الطبقات التي اشعلت ثورة الفلاحين في ألمانيا. حقا لقد كان ثمة أشياء معينة لم يستطع الشعب الإنجليزي قبولها، منها الضرائب الفادحة، ومنها الحرب مع الأراضي المنخفضة التي كان من شأنها أن تقضي على تجارة الصوف، ثم جاء الاضطراب بخصوص القرض الودي The Amicable Loan في عام ١٥٢٣م، والسخط المنذر بالشر من جانب الرأي العام في عام ١٥٢٨م، حين فكر هنري في الدخول في حرب مع شارل الخامس – فكانت هذه الأحداث نذرا أوضحت للعاهل الثاقب الفكر حدود سلطته. ولكن طالما كانت جيوب ملاك الأراضي ومربي الأغنام وتجار الأقمشة منتفخة بعيدا عن متناول الحكومة، لم يكن هناك خطر كبير على سلطة الملك، حقًا كانت توجد مشكلة اجتماعية خطيرة من وراء كل ثورة شعبية في هذا العصر، فقد زاد اعتبار الأرض سلعة ينظر إليها من زاوية تجارية، ونتيجة للتقدم المستمر في تجارة الأقمشة التي كانت أولى صناعات إنجلترا، غدت الأغنام أكثر جلبًا للربح من الحبوب، وغدا استغلال المراعي أكثر فائدة من زراعتها بمقدار النصف، وتفتحت شهوة ملاك الأراضي والمضاربين في الأرض من سكان المدن، وأصبح من الممكن جني مكاسب ضخمة من الأرض بوسائل متعددة:- كتركيز الممتلكات العقارية أو تسوير الأرض العامة بقصد استغلالها في الزراعة أو الرعي أو تحويل أراضي الفلاحة إلى مزارع للأغنام. هذه الخطط كانت معروفة في القرن

الخامس عشر، أى أنها لم تكن بدعا على أى حال، ولكنها طبقت فى القرن السادس عشر على نطاق واسع أثار ضيقا وفزعا ونقاشا. فما مصير المزارع الذى حرم أرضه؟ وما مصير عمل الحراثة الكثيرين وقد استبدل بهم فى الحقل راع واحد؛ وما مصير الفلاحين الذين كانوا يزرعون بالمشاع، فانتزع منهم مورد رزقهم بتسوير الأرض وربط ملكيتها؟ إن هذه المشكلة الاجتماعية هى مشكلة طبقة ريفية فقدت ملكيتها وبيوت خربت وقرى هجرها أهلها ومتشردين يزرعون الطرقات ويهاجرون إلى المدينة جماعات وأفراداً - أصبحت هذه المشكلة خطيرة فى حد ذاتها، وزادها خطورة ارتباطها بسياسة الكنيسة التى جعلت من كل قس كاثوليكى متحمس مرشحًا ليكون قائدًا للثورة ودفعت بالرهبان إلى سوق العمل، وحطمت أجهزة العصور الوسطى التى كانت تقدم المعونات للفقراء.

وقد تكون النتائج الاقتصادية التى تمخضت عن تسوير الأرض قد بالغ فيها الكتاب المعاصرون. ومع ذلك فمما لا شك فيه أن الهدوء الذى اتصفت به الحياة الريفية الإنجليزية منذ القدم قد اضطرب الآن، وأن شعورًا جديدًا بالقلق قد انتشر على نطاق واسع جدًا بين فقراء الريف. وكما يحدث عادة فى فترات الاضطراب الاقتصادى، كان الأغنياء يزدادون غنى والفقراء يزدادون فقرًا. وكانت المصالح المكتسبة من القوة بحيث كانت تستطيع أن تعرقل محاولات الإصلاح التى تقوم بها الحكومة.

ويلاحظ أنه رغم كل هذه العوامل المحركة للسخط التى يمكن أن يضاف إليها الارتفاع المطرد فى أثمان ضرورات الحياة، لم تؤد القلاقل الشعبية إطلاقًا إلى زعزعة مركز حكومة آل يتودور بشكل خطير. فقد كان باستطاعتها فى كل مناسبة أن تقمع العصيان بغير مشقة كبيرة ودون أن يكون لديها جيش ثابت أو بوليس نظامى (وإن كانت قد لجأت فى عام ١٥٤٩ إلى استخدام قوة طارئة من المرتزقة الأجانب الذين تصادف وجودهم حينئذ بالبلاد). ويرجع ذلك إلى ثلاثة عوامل رئيسية. فمن ناحية كانت الثورات إقليمية محلية لم يتصل بعضها البعض الآخر؛ ومن ناحية أخرى

كان النبلاء وكبار الملاك، بمنأى عن الفقراء؛ كما أن احترام التاج والأسرة المالكة كان في الطليعة من المشاعر السياسية لدى الشعب - فإن روح الطاعة السياسية قد ازداد عمقاً في ضمير الأمة نتيجة للحرب الأسرية التي كانت لا تزال قائمة عالقة في الأذهان والتي انتهت على ساحة بسورث Bosewrth Field.

وقفت ملكية التيودور حائلا دون تجدد الصراع الأهلي في البلاد. وقد وضعت نصب عينيها المحافظة على السلام والنظام وتطبيق العدالة وكسر غارب الطبقة الأرستقراطية وحماية الفقراء وتشجيع التجارة. وقد نجت الأسرة من أخطار تولي حاكم قاصر تحت الوصاية، وفشلت محاولة لنقض النظام المقرر لتولي العرش حين دعت ليدى جين جراي Jane Grey إلى الحكم بحركة من أكثر حركات التاريخ الإنجليزي تلقائية وأشدها مضاء. ورغم أن العرش الإنجليزي لم تعتله امرأة منذ عهد ماتلدا Matilda فقد كان يكفي لماري ولأختها اليزابيث من بعدها أن تكونا ابنتي ملك من ملوك تيودور. ولم تكن مباشرة الحقوق السياسية هي المثل الأعلى لدى إنجليز ذلك العصر؛ وانصرف همهم إلى أن تبقى أسرة آل تيودور حاكمة. وكان الولاء للملكية من القوة بحيث أن شكسبير استطاع أن يكتب مسرحية "الملك يوحنا King John دون أن يذكر "العهد الأعظم Manga Carta". والحق أن الملكية قد بلغت من القوة حدًا مكنها - رغم أعمال الإجرام والقسوة التي اقترفها هنري الثامن - من أن تجتاز بالبلاد هذه الفترة الحرجة من تاريخها وقد جنبتها ويلات حرب دينية.

وإذا كان هنري الثامن يعد أول من بدأ حركة الإصلاح الديني في انجلترا فهو قد ترك شئون دولته بين يدي توماس ولزي Thomas Wolsey مدة أربعة عشر عامًا (١٥١٥ - ١٥٢٩)، وكان من رجال الدين، كما كان من خلصاء الملك الذي آمن بمقدرته الفائقة، وعمله المتصل، وأقدامه على ما يمليه عليه عقله وضميره. ظل خلال تلك السنوات يحكم انجلترا بتفويض من هنري الثامن حكمًا مطلقًا غير منازع

فيه من جانب زملائه أو البرلمان. وإذا كان من كبار رجال الكنيسة فإن أثره لم يكن وقفًا على انجلترا وحدها بل تعداها إلى أوروبا كلها. استمد سلطانه من روما، ومنها كان يتوقع تحقيق كل ما يجيش بخاطره من مطامع غايتها الوصول إلى كرسى البابوية، ولذلك كان يهتم بمصير البابا، فكان من أجل ذلك حريصًا ألا يقع البابا أسيرًا فى يد فرنسا إذ أنها لن تلبث عندئذ أن تصبغ البابوية بأغراضها، وتحول بينه وبين ذلك المنصب؛ لذلك رأى أن تتخذ انجلترا دورًا مهمًا وظاهرًا فى ذلك النزال الدولى، الذى كان قائمًا بين الامبراطور وفرنسا فى إيطاليا (الحرب الإيطالية). وفى عام ١٥٢١ استطاع ولزى أن يحالف الامبراطور. ولكن عندما وقعت الحرب بين الخصمين لم تفقد البابوية حريتها على يد فرنسا وإنما على يد الامبراطور. فلما وقع فرانسوا الأول أسيرًا فى بافيا Pavia فى ١٥٢٥، تلاه البابا، فوقع هو الآخر أسيرًا عام ١٥٢٧. وبعد ذلك بعامين أى ١٥٢٩ وقعت معاهدة برشلونه، وبمقتضاها سلبت سلطة البابا، وأصبح الأمر كله بيد الامبراطور، وعندما حان وقت انتخاب البابا لم يف الإمبراطور بوعده الذى كان "ولزى" يستند إليه ليصل إلى كرسى البابوية. وكانت النتيجة انتهاء سيطرة ولزى على السياسة الإنجليزية، والتمهيد لتأسيس الكنيسة الإنجليكانية. أما السبب المباشر لانفصال كنيسة انجلترا عن كنيسة روما فقد كان مرجعه رغبة الملك هنرى الثامن فى الطلاق من زوجه "كاترين الأرجونية" التى لم تنجب له غير بنت واحدة، أطلق عليها اسم "مارى"، ومات من حملت منه بعدها أثناء الولادة، فقال إن دس مرجعه إلى غضب عليه لأنه تزوج بتصريح من البابا يوليوس الثانى. أراد أن يطلق كاترين ليتزوج من "آن بولين" Anne Boleyn ولم يكن ذلك بالشئ الغريب؛ إذ كان التصريح بذلك بيد البابا، غير أن البابا فى هذه الواقعة بالذات كان أسيرًا لا يملك من الأمر شيئا. فأخذ يسّوف فى التصريح بالطلاق؛ ذلك لأن كاترين الأرجونية كانت من أقارب الامبراطور. فاقترح البابا تحت هذا الضغط أن تؤلف فى لندن محكمة يرأسها قاضيان من الكرادلة أحدهما ولزى والآخر إيطالى وهو "كمبجيو" Campeggio. وبإيعاز من الامبراطور اقترح البابا نقل هذه المحكمة إلى روما.

وكانت الحوادث التى تلت ذلك زادت دلالة كبرى، ذلك أن هنرى اصطنع خطة تدل على الحنكة السياسية الفائقة: فقد دعا البرلمان إلى مساندته فى نضاله مع الكرسى البابوى. وبعد أن نجح فى حكم انجلترا بدون برلمان (باستثناء فترة واحدة قصيرة الأجل، فإنه دعا اللوردات والعموم إلى وستمنستر واستبقى دورة انعقادهم سبع سنوات وأصدر عن طريقهم اللوائح التى اقتضاها استقلال الكنيسة الإنجليزية عن روما وإخضاعها للتاج. قيل أحيانا إن مجلس العموم المنعقد فى عام ١٥٢٩ كان معبأ، ولكن ليس ثمة ما يدل على ذلك. قد يتوقع هنرى وله الحق فى ذلك – من مَجلس مكوّن من ملاك الأراضى ومندوبى المدن، ألا يتقاعس عن مساعدته فى تحطيم الروابط المالية، والقانونية التى كانت تربط انجلترا بسلطة روحية أجنبية. ولو أنه طالبهم بإبطال القداس لما أطاعوه مثل هذه الطاعة. ولو أنه من أتباع لوثر (كما كان الشائع بوجه عام عن آن بولين) لما استطاع التغلب على ما كان يواجهه من صعاب ولكن هنرى كان فى عقيدته الأساسية من أكبر عمد الكنيسة القديمة، واستمساك هنرى بالعقيدة الكاثوليكية كان لا يقل أهمية عن الجرأة الثورية التى دفعته – فى نطاق العلاقات الدستورية – إلى تحدى البابا والامبراطور، ولو أدى إلى أسوأ النتائج. وقد نجح الإصلاح البروتستانتى فى انجلترا لأنه تم على مراحل (جانبيه) ولأن التعديل الأول – أو الدستورى – قدم للناس باعتباره رجوعًا إلى الأيام الخوالى حين كان الملوك حقًا هم سادة الكنيسة الإنجليزية. وفى هذا أيضًا أبدى هنرى روح الدهاء المعروفة عنه؛ إذ لا شئ يقنع الإنجليزى بقبول تغيير أساس من الاعتقاد بأن مثل هذا التغيير يتمشى فى الواقع ونزعة المحافظة.

وحاول ولزى أن يستصدر من روما قرار يلغى قرار البابا الأسبق يوليوس الثانى الذى أتاح زواجهما ولكنه أخفق كما عرفنا ولما كان ولزى هو صاحب الرأى فى استصدار قرار الإلغاء من روما فقد حقد عليه الملك وعزله وصادر أملاكه واتهمه بالخيانة ولكنه مات قبل المحاكمة سنة ١٥٣٠.

توماس كرمويل

ولما طالت مراوغة البابا في مسألة طلاق كاترين تفاقم الخلاف بين هنري الثامن والكنيسة البابوية، واختار الملك رجلاً كان يعمل تحت رئاسة ولزي، ولكنه كان أصلب عودًا منه، ويعتنق مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة" وهو توماس كرمويل، الذي أشار على الملك بالانفصال عن كنيسة روما وفصل كنيسة انجلترا ووضعها تحت سيادة الملك، وذلك بأن يحذو الملك حذو الأمراء الألمان الذين تخلصوا من سلطان البابوية ونبذوا كنيسة روما وانشأوا كنائس أهلية. وقد اقتنع هنري بهذا الحل واعتبر نفسه زعيما من زعماء الإصلاح الديني، ولكنه كان في داخلية نفسه يهدف إلى توحيد السيادة على البلاد، إذ كانت تقتسم السيادة قبل ذلك سلطتان: سلطة الكنيسة ممثلة في شخص البابا رئيسها الأعلى، وسلطة الملكية، وبالتخلص من سيادة الكنيسة البابوية يستطيع تحقيق مآربه الثلاث طلاق كاترين والزواج من آن بولين، الاستيلاء على الأموال التي كانت ترسل في الأصل إلى كنيسة روما، وتدعيم سلطانه على الدولة الحديثة بفضل سيطرته وسيادته على جميع رعاياه من علمانيين ودينيين.

وهكذا ظهر الإصلاح الديني في انجلترا بشكل ديني وسياسي معا، وقد ترك الشعب أمر اختيار المذهب الديني لمليكه وخضع لما يصدره من قوانين دينية. وساعد الملك على تحقيق ذلك أن البرلمان بمجلسه كان خاضعا له، يوافق على تشريعاته وظل منعقدا لهذه الغاية ستة أعوام متتالية ١٥٢٩ – ١٥٣٥ دون أن يكون لذلك سابقة. وقد عين الملك "توماس كرمويل" نائبا عنه في الأمور الدينية، فأخذ الأخير يعمل على محو الأديرة من البلاد ومصادرة أراضي الكنيسة. وهكذا استطاع الملك أن يحقق استقلال الكنيسة الإنجليزية ويكون هو رئيسها الأعلى، واستطاع أن يحقق رغبته في طلاق كاترين والزواج من آن بولين. وأن يملأ خزائنه بالأموال التي كانت تتدفق من انجلترا على كنيسة روما، وأن يصبح صاحب السلطان الأوحد على رعاياه من دينيين وعلمانيين.

أما الشعب الإنجليزى فكان يشعر شعورًا عميقًا فى تلك الأيام بضرورة الإصلاح بعد أن تنبهت الأذهان إلى المساوئ العديدة في الكنيسة الإنجليزية عندما كانت تتبع البابا مباشرة إذ كان مفاسد رجالها فى الكنائس والأديرة هى نفس المفاسد التى ثار عليها المصلحون فى ألمانيا وغيرها، وفى الوقت نفسه كان الرأى العام مهيأ لتأييد الملكية فى مسعاها لتدعيم سلطانها، إذ فى دعمها أمان من الفوضى التى عانت منها البلاد فى حروب الوردتين، وكان الناس يفضلون أن تزول سلطة البابوية وهى سلطة أجنبية وليست قومية. وساعد على تأييد حركة الإصلاح أيضًا أن أحدًا ممن تصدوا للمناداة بالإصلاح لم يفكر فى مهاجمة العقيدة الكاثوليكية نفسها أو المساس بها، بل لقد تحمس البرلمان لتأييد الملكية فى الإصلاح لأن الملك لم لم يتعرض بسوء للكاثوليكية وظل الحال كذلك، إلى أن انحازت أكثرية الشعب للمذهب الجديد وأقدم خلفاء هنرى الثامن على إدخال البروتستنتية فى البلاد.

وفى تلك الأثناء ظهرت على مسرح السياسة شخصية جديدة هى شخصية "توماس كرانمر Thomas Cranmer، الذى أولاه الملك الثقة التى أولاها ولزى من قبل. واستعان به فى حل مشكلة الطلاق التى كان يواجهها. فاقترح كرانمر عليه أن يستشير كل جامعات أوروبا فى مدى شرعية زواجه. وكانت آراء جامعات فرنسا وإيطاليا تحبذ قرار الملك الخاص بالطلاق وذلك فى نظير حصولها على بعض المال. فشجع ذلك هنرى الثامن على تحدى البابا؛ فاستعان بالبرلمان، ذلك البرلمان الشهير فى تاريخ انجلترا والمعروف ببرلمان الإصلاح الذى ظل قائما مدة سبع سنوات (١٥٢٩ – ١٥٣٦). وفى عام ١٥٣١ سن البرلمان عدة قوانين كان من شأنها الحد من سلطان البابا الدينى فيما يتعلق بشئون انجلترا الدينية، وأثار ذلك المخلصون للسلطان البابوى أمثال "توماس مور" الذى استقال عام ١٥٣٢.

وفى عام ١٥٣٣ تزوج الملك سرًا "بآن بولين" بعد أن طلق زوجه "كاترين" وعندما أصدر البرلمان قانونًا يمنع استئناف قضايا الزواج والطلاق فى روما، أعلن الملك على الملأ زواجه الجديد. وأعلن كرانمر الذى أصبح رئيسًا للكنيسة كانتربرى

حكم الطلاق الذى لم يكن فى الاستطاعة حينئذ السماح به إلا من الكنيسة الرومانية. وتوجت بذلك "أن بولين" ملكة على انجلترا، ثم لم تلبث أن انجبت "اليزابيث" التى نودى بها ولية العهد. فأعلن البابا بطلان حكم الطلاق، وهدد الملك بالحرمان من رحمة الكنيسة إذا لم يعدل عن ذلك فى خلال مدة معينة. وهنا قام البرلمان بخطوة جريئة عندما قرر قطع جميع الروابط بين كنيسة انجلترا وكنيسة روما. ففى عام ١٥٣٤ صادق البرلمان على زواج الملك من "آن بولين" وعلى عدم قانونية زواجه من "كاترين" وأعلن البرلمان أن ملك انجلترا أصبح السيد الأعلى للكنيسة الانجليكانية كما أعلن البرلمان كذلك منع إرسال الأموال السنوية إلى البابا. وتعرف هذه القوانين الثلاثة الهامة التى حققت استقلال كنيسة انجلترا عن كنيسة انجلترا عن كنيسة روما بقانون المعونات المالية السنوية Act of Annates وقانون الاستئناف Act of Appeals وقانون السيادة Act of Supremacy.

ومع ذلك فإن هنرى الثامن لم يكن من المتحمسين لحركة الإصلاح الدينى بمعنى أنه لم يرض بتغيير العقائد الكاثوليكية المعترف بها فى انجلترا من قديم، ولكنه لاقى عداء الكاثوليك والبروتستانت على حد سواء. فقد أساء إلى الكاثوليك بقطع الصلة بين كنيسة انجلترا وكنيسة روما، كما أساء إلى البروتستانت بتشبثه بالإبقاء على المبادئ الكاثوليكية. وقد جوزى كل من جهر برأيه بالموت، ومن بينهم شخصيتان مهمتان هما سير "توماس مور Sir Thomas More والأسقف "فشر" Fisher حين امتنعا عن تأدية القسم بالولاء للملك كرئيس أعلى للكنيسة الإنجليزية.

وظهر على مسرح السياسة "كرمويل Cromwell فقام بالخطوة التالية فى ذلك الإصلاح، إلا وهى حل نظام الأديرة فى انجلترا، وكان الغرض من ذلك مزدوجا: القضاء على أعداء حركة انفصال كنيسة انجلترا عن روما ألا وهم الرهبان والراهبات فهم جند البابوية، وقد أساء إليهم ذلك الانفصال. كما أراد كرمويل أن يحول كل إيرادات الأديرة الوفيرة إلى الخزينة الملكية، وتم له ما أراد على درجات

فبدأ بزيارة بعض الأديرة وأخذ معه فريقًا من موظفي الدولة، واطلع على ما فيها من عيوب وفساد، ثم أعلن ذلك، وقرر التخلص منها. فقضى عليها نهائيًا.

وفي عام ١٥٣٩ أعلن هنري - بصفته سيدا أعلى للكنيسة - العقائد الأساسية للإنجليز فيما يعرف بقانون المواد الست التي وافق عليها البرلمان، وتتخلص في الاعتراف بالوجود الفعلي في القربان، وعدم زواج رجال الدين، وفوائد إقامة حفلات القداس، وأهمية عملية الاعتراف، وتناول القربان المقدس بطريقة واحدة، وتقرر أن تكون عقوبة عدم الاعتراف بالمادة الأولى بالحرق، أما عقوبة عدم الاعتراف بالمواد الأخرى فكانت السجن والمصادرة أولا ثم عقوبة الموت إذا تكرر ذلك الأمر. لكن الملك ظل يعدّل في المواد المختلفة حتى عام ١٥٤٥ حيث نشر في نهاية الأمر ما يعرف بكتاب الصلوات.

الإصلاح الديني في عهد الملك ادوارد السادس ١٥٤٧ - ١٥٥٣:

خلف ادوارد السادس والده على العرش، وهو ابنه من جين سيمور، وكان صبيًا يبلغ التاسعة من عمره، ولما كان من المسلم به في عهد ملكية التيودور أن الملك يؤثر بنفوذه الشخصي على شئون الحكم، فقد صار واضحًا أن السياسة الدينية في المستقبل سوف ترتبط إلى حد كبير بنوع التربية التي ينشأ عليها الملك الصغير. وقد اختار هنري الثامن قبل وفاته لتعليم ولده ادوارد معلمين من أنصار النهضة والعلوم الحديثة، كما أنه رتب مجلسًا للوصاية على ولده كان أكثر أعضائه من المتأثرين بالعلوم الحديثة والذين يميلون للآراء المصلحة ولعل هنري الثامن كان يقصد من ذلك ألا يسيطر على الحكم في عهد الوصاية على ولده جماعة من المتمسكين بالنظام القديم فيغيرون السياسة الدينية التي سار عليها والتي أوجدت النظام الكنسي المعروف في عهده، ولو أنه كان من المرجح كذلك أن هنري الثامن لابد أن يكون قد أدرك في الوقت نفسه أن هناك نتائج محتملة أخرى لتشكيل مجلس من الأوصياء الميالين للإصلاح والمتأثرين بالآراء الحديثة. وأهم هذه

النتائج إعادة النظر من جديد فى النظام الكنسى الذى وضعه والسير شوطًا أبعد فى طريق الإصلاح الدينى وقد ساعدت الظروف جماعة المصلحين عندما تقرر إنشاء منصب حامى المملكة Proctector واختير لهذا المنصب شقيق والدة الملك الدوق سومرست Somerset وكان هذا من الذين يؤيدون الإصلاح ويعتنق مذهب كلفن ووجد سومرست فى رئيس الأساقفة كرانمر عضد كبيرا. وعلى ذلك سار الإصلاح الدينى فى انجلترا شوطًا بعيدًا حتى تناول بالتغيير العقيدة ذاتها. وأراد سومرست وكرانمر استخدام سيطرة الملك وسيادة الملكية العليا التى تقررت على الكنيسة فى إدخال هذا التغيير، أى تأيد المبدأ الذى انطوى عليه قانون السيادة العليا كما وضعه هنرى الثامن، وكان يفهمه دائمًا وذلك فى مسائل وشئون لم يكن هنرى نفسه يريد أن يتعرض لها بأى تبديل أو تعتبر جوهرى فى حياته.

وفى الفترة التى استأثر أثناءها سومرست بالحكومة، صار تحطيم الصور والتماثيل، وألغيت الطقوس الكاثوليكية، وألغى القداس، وأبيح زواج القسس ثم تقرر قراءة الكتاب المقدس باللغة الأهلية (الانجليزية) إلى جانب اللاتينية ووضع كتاب جديد للصلاة (١٥٤٩) The English Book of Common Prayers of 1549 يناير ١٥٤٩ (القانون الأول للعقيدة الواحدة أو المذهب الواحد The First Act of uniformity وهو يقضى بضرورة التزام شكل الصلاة الجديد. وهذا الكتاب الجديد للصلاة إلى جانب انه صدر باللغة الأهلية كان أقرب من ناحية العقيدة إلى اللوثرية منه إلى الكاثوليكية. وتوعد قانون المذهب الواحد، المخالفين من رجال الدين بالعقوبات الصارمة.

وكانت حكومة سومرست تواجه صعوبات كثيرة، منها العداء المستحكم بين انجلترا وفرنسا ولو أن فرنسا كانت مشغولة وقتئذ بحروبها مع شارل الخامس ومن أهمها أو أخطرها الاضطرابات الداخلية فى انجلترا ذاتها والتى نشأت من التعقيدات الدينية غير المألوفة من ناحية، ثم من انتشار ما يعرف باسم Enclosures حركة (إغلاق الحقول) من ناحية أخرى، وسبب هذه الحركة، أن أصحاب الأرض بدلا من أن يزرعوها فضلوا أن يحولوها إلى مراع للأغنام حتى يصدروا أصوافها فأخرجوا

صغار المزارعين من الأرض وأقاموا سياجا حولها. فتعطل الكثيرون من العمل وانتشرت المجاعة، وسادت الفوضى، وقامت الثورات في الأقاليم الشرقية والغربية خصوصًا. وزاد هذه الفوضى ما كان قد سبق من حل الأديرة واستيلاء كبار الملاك على الأراضي التي كانت لها. ولما بدأ سومرست يظهر العطف على صغار المزارعين، ويوجه اللوم لكبار الملاك وينقد أعمالهم، تغير عليه النبلاء الذين عدوه مسئولا عن هذه الاضطرابات، وتآمروا عليه، فسقطت حكومته في منتصف أكتوبر سنة ١٥٤٩م وانتهى به المطاف أخيرًا بإعدامه سنة ١٥٥٢م.

وبسقوط سومرست ألغيت الحماية Protectorate وانتقل النفوذ الأكبر إلى دوق نورثمبرلاند Northuberland، وبدأ هذا عمله بأن انهى الوصاية Regency التي رتبها هنرى الثامن، فتسلم الملك ادوارد مهام منصبه، ولو أن السيطرة بقيت في يد دوق نورثمبرلاند.

ولكن نورثمبرلاند أشد اندفاعًا في طريق الإصلاح الديني من سومرست ويؤيده كرانمر في التغيير الذى أراد أن يدخله على العقيدة. فأصدر البرلمان قانونا في سنة ١٥٥٠ يؤيد كتاب الصلاة الذى اعتمده قانون سنة ١٥٤٩، ويقضى باستبعاد واتلاف كتب الصلاة الأخرى. وفي سنة ١٥٥٢، أصدر البرلمان القانون الثاني للمذهب الواحد Second Act of uniformity، يفرض على رجال الدين باستخدام كتاب صلاة جديد أعده كرانمر بمساعدة جماعة من المصلحين والجديد في هذا القانون أنه ينص على عقاب مخالفيه من رجال الدين والعلمانيين على السواء. وأما حملة تحطيم الصور والتماثيل فقد استمرت على أشدها. وفي سنة ١٥٥٢م كذلك أصدر البرلمان قانونا يتهم بالخيانة كل من يتصدى لمعارضة التاج ولو كانت هذه المعارضة شفوية وكان الغرض من هذا القانون تأييد سلطان الملكية.

ولكن لم يلبث أن صادف نورثمبرلاند نفس الصعوبات التي صادفها سومرست من قبل، بسبب استمرار حركة إغلاق الحقول، وتذمر شطر كبير من سواد الناس من جراء التغييرات الدينية الجديدة. وزيادة على ذلك فقد أراد نورثمبرلاند

تغيير الوراثة فى صالح جين جراى Jane Grey وهى حفيدة إحدى شقيقات هنرى الثامن، بدعوى أن مارى واليزابيث ابنتين غير شرعيتين. وأراد نورثمبرلاند أن يزوج جين جراى هذه من أحد أبنائه. ولكن هذه المؤامرة فشلت عند وفاة ادوارد السادس فى يوليو ١٥٥٣، وانقلب ضد جين جراى أنصار الشرعية والناقمون من سواد الشعب على نورثمبرلاند وجين جراى، التى أعلنت ملكة انجلترا فى ١٠ يوليو ١٥٥٣، وقاموا لنصرة مارى الوريثة الشرعية. فألقى القبض على نورنمبرلاند وتسلمت مارى زمام الحكم فى انجلترا.

مارى تيودور ١٥٥٣ – ١٥٥٨

عندما توفى الملك ادوارد السادس، انتقل العرش طبقا لوصية والده إلى السيدة مارى التى عرفت بإخلاصها للعقيدة الكاثوليكية قولا وعملا. وقد تلقى حزب الإصلاح المتطرف تولى مثل هذه الكاثوليكية بعين الشك والنفور، إذ تنبئوا بنقض كل ما فعلوه: إلغاء الطقوس الإنجليزية وإلغاء الإنجيل وعودة الكنيسة إلى الصلح مع روما، وفقدان الأساقفة البروتستانت مناصبهم، وبذلك يتعرض كل ما اتصل بالإصلاح الدينى لأخطار شخصية خطيرة. ولقد أراد نورثمبرلاند – كما سبق أن عرفنا، أن يتجنب هذه الشرور، ويضمن بقاءه متمتعًا بالسلطان، فعزم على تعديل وراثة العرش. ولكن المؤامرة فشلت، إذ فضل الشعب الإنجليزى مارى تيودور على جين جراى حفيدة مارى الأخرى التى كانت أختا لهنرى الثامن وزوجة لدوق سفولك. ثم حدث ما كان متوقعا أعيدت العبادة القديمة، وأعيد رسميا ارتباط الكنيسة بروما، وعفى رسميا على آثار الإصلاح الدينى، وذلك باستثناء شئ واحد وهو أن برلمان مارى نفسه لم يجسر على المساس بالمصالح المكتسبة الكبيرة التى تمخضت عن توزيع ثروة الأديرة.

ورغم أن رجال البرلمان لم يكونوا يأبهون عادة للمسائل الدينية (كما يدل على ذلك موافقتهم على السياسة التى اتخذت فى عهد ادوارد ثم موافقتهم على سياسة أخرى مخالفة فى عهد مارى) فإن الناس فى انجلترا كانوا يحسون بإحساسين

عميقين لم يجدا في هذه السيدة المتعصبة لمبادئها السامية، المنكودة الطالع مما يشبعهما أو وجدا ما يعترضهما. وأول هذين الإحساسين هو العاطفة القومية. فقد تزوجت ماري بمطلق رغبتها فيليب ملك أسبانيا، ورغم أن عقد الزواج كان من صنع الأسقف جاردنر الذى بذل أقصى ما أمكنه من المهارة واضحًا نصب عينيه المحافظة على استقلال إنجلترا، فإنه زوجها كان غير محبوب: فلم يكن هناك يكن المحبة للملك الأسباني أو لحاشيته أو لفكرة أن انجلترا تابعة لبلد أجنبي. بل لقد قامت ثورة ضد هذا الزواج تزعمها توماس يات Thomas Wyatt ولكن قضت عليها شجاعة الملكة نفسها. وحين علم الناس أن الزواج لن يعقب وليًّا للعهد اتجهت أفكار الشعب إلى الأميرة اليزابيث التي لم تكن من صلب إسباني أو زوجة لأسباني، بل كانت انجليزية أو ويلزية من الناحيتين: فهي ابنة آن بولين وهنرى الثامن، وهي ثمرة ذلك الزواج الذى ترتب عليه فصم الرابطة بين إنجلترا وروما، وفتح الباب واسعًا أمام المد الكبير لحركة الإصلاح الديني.

وقد تولت اليزابيث الحكم عام ١٥٥٨م وظلت تحكم حتى سنة ١٦٠٣ وكانت الرغبة في حل المشكلة الدينية من أشد الأمور إلحاحا في ذلك الوقت، فقد كانت الأحوال الدينية في إنجلترا تضطرب اضطرابا شديدا منذ خمسة وعشرين عاما قبل توليها الحكم، فتارة يتغلب أنصار العقيدة الجديدة، وتارة أخرى يتغلب أنصار الكاثوليكية واستشهد الكثيرون من معتنقي العقيدتين، وإن كان ذلك لا يصل إلى من استشهد في سبيل العقيدة في جهات أخرى من أوروبا أثناء حركة الإصلاح الديني. لم تكن مهمة اليزابيث هينة؛ ذلك لأن الشعب الانجليزى لم يكن راضيا عما حدث في عهد ماري يتودور من تعصب للكاثوليكية وإعادتها بحذافيرها، كما أنه لم يرض عن خطوات الإصلاح الديني التقدمية التي وضعت في عهد ادوارد السادس، لذلك كان عليها أن تتخذ طريقا وسطا بين الأمرين لتكسب إلى جانبها غالبية الشعب الإنجليزى.

وقد ساعدها على تأدية تلك المهمة الصعبة بنجاح عدة عوامل من أهمها:

١- إن اضطهادات ماري وتحمسها الزائد للكاثوليكية قد عملت على زيادة البروتستنتيين تعلقًا بالعقيدة الجديدة مما جعل الفريق البروتستنتي متفوقًا على الفريق الكاثوليكي.

٢- كان لانتشار الطبعة الإنجليزية للكتاب المقدس أثرها في ازدياد أتباع الدين الجديد، إذ تبين للجميع أن في استطاعتهم أن يحلوا مشاكلهم الدينية دون الاستعانة بأحد، وكان الدين الجديد يدعو إلى ذلك.

٣- كانت الرغبة في قطع الصلة بكنيسة روما قوية في النفوس ولم يكن طبيعيًا أن يتأتى لإنجلترا ذلك إذا استمرت انجلترا كاثوليكية.

٤- أضعف من جانب الكاثوليك أن قضيتهم قد أصبحت قضية الأجانب فماري وزوجها فيليب الثاني وكلاهما كان أجنبيا في نظر الشعب - قد عملا في حماسة على إعادة الكاثوليكية؛ ولذلك لقيت اليزابيث ولاء عظيمًا لأنها كانت انجليزية ومؤيدة للعقيدة البروتستنتية.

وتم لأليزابيث ما أرادت دون استخدام وسائل العنف أو الشدة وساعدها على ذلك أن منصب رئيس أساقفة Canterbury كان شاغرا بموت "بول" Pole فأحلت محله ماثيوباركر Mathew Parker وقد عرف باعتدال آرائه البروتستنتية واتبعت الملكة ذلك بإصدار أوامرها عن طريق البرلمان بأن تؤدى الصلاة والعقيدة والأوامر كلها في الكنيسة باللغة الإنجليزية، واجتمع البرلمان في عام ١٥٥٩ وقرر النظام الديني الجديد على النحو التالي:-

١- إلغاء قانون ١٥٥٤ فأدى ذلك إلى إعادة ذلك الانفصال الذى قرره هنري الثامن بين كنيسة إنجلترا وروما.

٢- وقانون السيادة Act of Supremacy ويمنح الملكة السيطرة على الشئون الدينية إلى جانب سيطرتها على الشئون المدنية.

٣- Act of univormity ينص على استخدام الكتاب الثاني للصلوات الذى صدر في عهد ادوارد السادس عام ١٥٥٢م.

اليزابيث (١٥٥٨ - ١٦٠٣)

نشأت بروتستنتية وكان وزير خارجيتها سير وليم سيسيل بارون برلى ١٥٧١م، أما حامل أختام الملكة سيرنكولاس بيكون، وبدأت عهدها بإلغاء تشريعات مارى الكاثوليكية وإعادة التصديق على قوانين هنرى الثامن الخاصة بالكنيسة؛ قانون السيادة Act of Superemacy وقانون توحيد العبادة Act of uniformity تنقيح كتاب الصلوات. وفى ٢ ابريل ١٥٥٩م عقدت معاهدة كاتوكمبرسيس مع فرنسا، تنازلت فرنسا عن كاليه لانجلترا بعد ثمان سنوات:- اتخذت مارى زوجة فرانسوا الثانى ملك فرنسا عند اعتلائه العرش لقب ملكة انجلترا واسكتلندا. فرضت موافقة اسكتلندا معاهدة برويك يناير ١٥٦٠ بين اليزابيث والمصلحين الدينيين الاسكتلنديين. وتم محاصرة القوات الفرنسية في ليث. وعقدت معاهدة ادنبرة بين انجلترا وفرنسا واسكتلندا فى ٦ يوليو ١٥٦٠، وتم سحب التدخل الفرنسى فى اسكتلندا. واتخذت الدولة الاسكتلندية إقرار العقيدة. وعودة مارى إلى اسكتلندا ١٥٦١ بعدة وفاة فرانسوا الثانى، حيث تورطت فى نواع مع الكلفنيين (جون نوكس).

وفى عام ١٥٦٣ تم اتخاذ المواد التسع والثلاثين بدلا من المواد الاثنتين والأربعين التى أذاعها كرانمر. وتم إنشاء الكنيسة الانجليكانية (كنيسة انجلترا – الكنيسة الأسقفية) وهى كنيسة للتوفيق بين وجهات النظر فى معظمها بروتستنتية من حيث عقائدها (وإن كان الكثير من المواد التسع والثلاثين غامضا. ولكن من حيث تنظيماتها الكهنوتية تشبه الكنيسة الكاثوليكية: وطقوسها فى جوهرها كاثوليكية

رومانية مترجمة إلى الإنجليزية. وأراد عدد كبير من المخالفين أو المنشقين: أى البيورتان – حتى ذلك الحين لفظ واسع المعنى غير مضبوط يشتمل على طوائف مختلفة – أراد تطهير الكنيسة واستبدال طقوسها القائمة بطقوس المسيحية الأولى البسيطة. الانفصاليون، وهم البيورتان الذين انفصلوا عن الكنيسة الإنجليكانية تمامًا لتنظيم كنائسهم الخاصة، البرسبتاريون: وهم البيورتان الذين سعوا إلى استبدال نظام القسس والمجامع الدينية بنظام الأساقفة داخل الكنيسة الانجليكانية، والبراونيون من البيورتان اليساريين المتطرفين دينيا، وهم نواة المستقلين أو المذهبيين المتأخرين. وكان البراونيون والكاثوليك وحدهم بين الطوائف الدينية فى عهد اليزابيث التى لا تتمتع بسياسة التسامح الدينى للملكة داخل نطاق الكنيسة الانجليكانية. وعلى ذلك فإن اليزابيث لم تتسامح إزاء الكاثوليك والبراونيون ولكنها اضطهدتهم والاتحاديين طبعًا (الذين أنكروا مبدأ الثالوث).

وكذلك لقى هذا النظام الأنجليكانى معارضة شديدة من جانب الكاثوليك المتعصبين الذين كانوا أشد خطرًا على الملكية من البيورتان والانفصاليين لأنهم صاروا يتآمرون على حياة الملكة للتخلص منها والقضاء بذلك على النظام الأنجليكانى وصاروا يعتمدون فى مؤامراتهم على فيليب الثانى ملك أسبانيا وعلى البابا فى روما. وكذلك انحازت اليزابيث إلى تعضيد البروتستانت فى الأراضى المنخفضة والهجونت فى فرنسا. وكان من الواضح أنه لا مفر من اشتباك البروتستنتية والكاثوليكية فى نضال عنيف وحاسم: البروتستنتية بزعامة انجلترا والكاثوليكية بزعامة أسبانيا: ولم تلبث الحوادث التالية أدت إلى قيام هذا النضال وكان فى مقدمة هذه الحوادث توتر العلاقات بين اليزابيث وبين اسكتلندا وملكتها مارى ستيورات.

ومارى ستيورات هذه هى من حفيدات هنرى السابع تزوجت من فرانسوا الثانى ملك فرنسا – كما سبق أن عرفنا – وعادت إلى اسكتلندا بعد وفاة زوجها منذ

سنة ١٥٦٠م، وصارت محور المؤامرات التى انغمس فيها متطرفو الكاثوليك ضد اليزابيث وذلك لتنصيب مارى ستيورات نفسها على عرش إنجلترا وعزل اليزابيث أو قتلها. ولقد تعددت هذه المحاولات حتى رأت اليزابيث أن تتخلص من هذه المؤامرات بالقبض على مارى ستيورات عندما لجأت هذه إلى إنجلترا تطلب الحماية من خطر ثورة قام بها الشعب والنبلاء فى اسكتلندة ضدها لفشلها فى الحكم لاتهامها بقتل زوجها دارنلى Darnley وأخيرًا أعدمتها اليزابيث فى سنة ١٥٨٧م. وعندئذ صار الكاثوليك فى انجلترا يتطلعون إلى شخص فيليب الثانى ملك أسبانيا زوج مارى ملكتهم السابقة، والذى كان يطمع فى عرش انجلترا فتجددت مؤامرات الكاثوليك لاغتيال اليزابيث، وانتهز فيليب الثانى هذه الفرصة لتحقيق أطماعه فارسل أسطولا ضخمًا (الأرمادا Armada المشهورة ضد انجلترا لغزوها سنة ١٥٨٨ ولكن الملاحين الإنجليز سرعان ما أحاطوا بمراكبهم الخفيفة سفن الأسبان الثقيلة فى القنال الإنجليزى فى ٥ يوليو سنة ١٥٨٨م، وعاكس الريح الأرمادا التى لا تقهر فاضطرت للالتجاء لكاليه، وهناك هاجمها الإنجليز هجومًا عنيفًا حتى أرغموها على الفرار فى بحر الشمال على أمل الالتفاف حول الجزر البريطانية والعودة إلى أسبانيا من هذا الطريق، ولكنها لم تلبث أن تعرضت إلى عاصفة شديدة فى البحر عند جزر أوركينى فتحطمت تمامًا على شواطئ اسكتلندة وأيرلندة فى أغسطس ١٥٨٨م ولم تستطع سوى بقاياها القليلة المحطمة العودة إلى أسبانيا. ومن ذلك الحين خرجت سيادة البحار من يد أسبانيا.

وكان من نتائج موقعة الأرمادا الآتى:

١- أن أذنت شمس أسبانيا بمغيب ولاحت شمس إنجلترا بالشروق، وإن كانت لم تتحقق نتائج فور الهزيمة هزيمة فيليب على استئناف الحرب لم تنته، ولكنه أثر أن يكون استعدادات لذلك قويًا محكمًا لا يتيح لإنجلترا أن تفلت منه، غير أن الظروف لم تمكنه من الأمر كما تصور؛ إذ كانت أطماعه فى فرنسا تشغل باله كما

أن عزمه على ما أراد قد اقتضاه مشروعات عديدة كلفته نفقات باهظة وقفت بأسبانيا على باب الإفلاس.

٢- تشجيع الثائرين من شعب الأراضي المنخفضة في الاستمرار في المطالبة باستقلالهم، وكان الأمل في ذلك يملأ نفوسهم.

٣- اطمأنت فرنسا بعد تلك الهزيمة التي حلت بأسبانيا فأمنت خطر فيليب الثاني وكان نفوذه مؤيدًا بمساندة البابا قد تغلغل في فرنسا، وكان فيليب يومئذ رئيسا للعصبة الكاثوليكية. وتخلصت فرنسا نهائيا من هذا النفوذ بجهود هنري نافار الذي أصبح يعرف بهنري الرابع..

وهناك فريق من النقاه يوجهون اللوم إلى المملكة اليزابيث فيتهمونها بالتقصير في البذل بسخاء على تحريض من يناوئون أسبانيا في الأراضي المنخفضة وفي فرنسا. ويعجبون من إحجامها عن الاستمرار في محاربة فيليب الثاني - بعد الذي أصابه من ضعف وإخفاق - لإمكان الاستيلاء على بعض المستعمرات التي كانت واقعة تحت سلطانه. وأكبر الظن أن ما ضمت دار الوثائق في بلاط اليزابيث من امتناعها عما أراد النقاء قد خفي عليهم. ثبت من تلك الوثائق أن حال انجلترا المالية لم تكن لتعين على بذل الجهود التي أشار إليها النقاد، كما ثبت أن الاصلاحات الداخلية في انجلترا قد كانت في مسيس الحاجة إلى توجيه جهود الملكة إليها، لأن ذلك قد كان أجدى عليها وأنفع لها من تشتيت الجهود في مساعدة الحركات البروتستانتية بصورة أوقع خارج انجلترا. وقد أثبتت الأيام حكمة سياسة الملكة الرشيدة في اتجاهها نحو تركيز جهودها في وضع الأسس القوية لبناء امبراطوريتها بتقوية أسطولها العظيم.

وثابت أن انجلترا لم يكن في استطاعتها أيام اليزابيث أن تبدأ بناء امبراطوريتها لفقرها إلى المال والرجال، إذ كان عدد سكانها لا يجاوز خمسة ملايين نسمة، ولهذا كله باءت محاولات "سيرولترالي Sir Walter Raleigh في تأسيس مستعمرة فرجينيا بالفشل. وفي بداية القرن السابع عشر أيام أسرة ستيورات تتحسن

أمور البلاد المالية ويزداد عدد سكانها فيبدأ التفكير فى حركة الاستعمار ويساعد على ذلك الاضطهاد الدينى الذى وقع بالبيورتان فى عهد شارل الأول فيضطر عدد كبير منهم إلى الهجرة إلى أمريكا الشمالية فيؤسسون فيها مستعمرات لهم جنوبى نهر سنت لورنس عرفت باسم انجلترا الجديدة New England.

وفى ٢٤ مارس ١٦٠٣ توفيت اليزابيث بعد حكم طالت مدته. وبوفاتها انتهى عهد أسرة التيودور فى انجلترا وبدأ عهد أسرة جديدة هى أسرة ستيوارت Sturats وفى عهد هذه الأسرة الجديد بقيت المسألة الدينية تشغل الأذهان فى انجلترا. ولو أن النضال الداخلى فى عهد هذه الأسرة الجديدة كان نضالا دستوريا فى جوهره من أجل تقييد سلطة الملكية، وإقرار حقوق الشعوب الممثل فى البرلمان وتاريخ هذا النضال إنما هو جزء من تاريخ أوروبا فى القرن السابع عشر.

الفصل العاشر

حرب الثلاثين عاماً

١٦١٨ـ ١٦٤٨

حرب الثلاثين عام

(١٦١٨ - ١٦٤٨)

عاشت أوروبا أزمة خطيرة ابتداء من سنة ١٦١٨م، امتدت لمدة ثلاثين عامًا، وحربًا طاحنة شاركت فيها كل دول أوروبا الوسطى والغربية، وحتى دول شمال أوروبا، وبدأت هذه الحرب في ألمانيا ولأسباب دينية، وفي شكل ثورة قام بها البروتستانت في بوهيميا ضد الامبراطور الكاثوليكي، وكانت في الواقع ضد أطماع الأسرة الحاكمة النمسوية، لتحويل الامبراطورية الانتخابية والاتحادية الألمانية، إلى دولة مركزية وراثية، على شكل مملكة فرنسا. وبدأت كمجرد حرب أهلية في ممتلكات أسرة النمسا، ولكنها تحولت إلى حرب ألمانية، ثم تحولت بعد ذلك شيئًا فشيئًا، إلى حرب أوروبية عامة، شاركت فيها، علاوة على الدول الألمانية والنمسا كل من الدانمرك والسويد وأسبانيا، وفرنسا، التي أصبحت عنصرًا فعالًا في هذه الحرب ابتداء من سنة ١٦٣٥م. ومنذ هذا الوقت طرحت مسائل أخرى علاوة على المسائل الألمانية، الخاصة بالحرية الدينية، والتنظيم السياسي للامبراطورية، وتتعلق باستقلال الأقاليم المتحدة، وتفوق السويد في بحر البلطيق، وتفوق فرنسا في غرب أوروبا، وكانت حرب الثلاثين عامًا تعتبر مرحلة جديدة من مراحل التنافس بين فرنسا وأسرة الهابسبورج، وصراعها مع فرعيها في كل من النمسا وأسبانيا. وإذا كانت معاهدة وستفاليا سنة ١٦٤٨ قد وجدت حلا لمعظم هذه المسائل، بعد حرب دامت ثلاثين عامًا، وقضت على المشروعات النمسوية في ألمانيا، وأكدت استقلال الأقاليم المتحدة، وتفوق السويد في الشمال وانتصار فرنسا على أسرة الهابسبورج النمسوية، التي اضطرت إلى التنازل عن الالزاس، فإن الحرب قد استمرت لمدة إحدى عشر سنة جديدة، بين فرنسا وهابسبورج أسبانيا، وانتهت بانتصار جديد لفرنسا مع صلح البرانس، الذي أعطى فرنسا روسيليون وآرتوا.

أما الأسباب فقد كان صلح أوجزبرج سنة ١٥٥٥م قد أعطى ألمانيا، رغم نقط ضعفه سلمًا لفترة تزيد على ستين عامًا. وفي أثناء ذلك الوقت زادت أعداد الكلفيين

فى غرب ألمانيا، ومنطقة الراين. ولما شعروا بأنهم مهددون من جانب اللوثريين والكاثوليك نظموا أنفسهم فيما بين عامى ١٦٠٣م و١٦٠٨م فى الاتحاد البروتستانتى، والذى كان أهم أعضائه هو منتخب البلاتينات وأمراء بادن وورتنبرج، وعقد هذا الاتحاد حلفًا مع ملك فرنسا ومع حكومة الأقاليم المتحدة، ونتيجة لذلك قام الكاثوليك وعلى رأسهم الأمراء والأساقفة فى العام التالى ١٦٠٩م بإنشاء العصبة المقدسة التى أصبح ماكسمليان دوق بافاريا رئيسا لها، وتفاوضوا مع أسبانيا. ورغم ذلك فإن البروتستانت لم ينظموا صفوفهم، وحاول هنرى الرابع ملك فرنسا أن ينشئ فى ألمانيا حزبًا يمكنه أن يقف فى وجه الامبراطور، وذلك عن طريق الوصول إلى تقارب بين اللوثريين والكلفينيين، ولكن اللوثريين رفضوا ذلك، وكان وجود عصبتين كاثوليكية وكلفينية وإنشاء كل منها لجيش يهدد بنشوب حرب، وجاء موت هنرى الرابع فى سنة ١٦١٠م لكى يؤجل ذلك لفترة ثمان سنوات.

ولقد نشبت الحرب نتيجة لأسباب تتعلق بالأسرة الحاكمة فى النمسا، ونتيجة لأوضاع هذه الأسرة، ولطبيعة وطموحات أحد كبار أعضائها، وهو فرديناند الثانى. وكانت لهذه الأسرة علاوة على تاج الامبراطورية، إمارات وراثية، كان شارل الخامس قد أعطاها فى سنة ١٥٥٦م لأخيه فرديناند الأول علاوة على ممالك بوهيميا والمجر التى كانت له. وكانت الشعوب التى تسكن هذه الممتلكات غير متجانسة، وتتحدث أكثر من لغة، فكان الأهالى فى الإمارات الوراثية من الألمان، بينما كانوا تشيك فى بوهيميا ومجيار فى المجر وإيطاليين فى التيرول. وكان كل إقليم يمثل دولة قائمة بذاتها، لها عاصمتها، ونظام حكمها ومجالسها، فكان الامبراطور يحتاج لكل منها لجمع الأموال، ولجمع الرجال؛ من أجل الحرب. ولم تكن هناك رابطة توحد بين هذه الممتلكات سوى شخص الامبراطور، ووحدة الدين. وكان تقسيم الممتلكات بين أبناء فرديناند الأول من ناحية، وانتشار المذهب البروتستانتى فى كل من النمسا، وزيادة أعدادهم فى الدايت وسيطرتهم على جامعة فينا، وكذلك انتشار أنصار إعادة التعميد فى بوهيميا، وانتشار المذهب الكلفنى فى المجر، يهدد أسس حكم هذه المجموعة الخاضعة لسلطة الهابسبورج. وكان اعتناق مذاهب دينية

مختلفة يعبر إلى حد بعيد، عن الرغبة في التميز؛ وظهور القوميات المحلية الجديدة. ولقد ربى ماكسمليان ابنة رودلف الثاني لدى الجزويت في مدريد، وفي بلاط فيليب الثاني، وحاول أن يعمل ضد مذاهب الإصلاح بعد توليه الحكم، ولكنه واجه مقاومة عنيفة في كل من بوهيميا والمجر. وفقدت الكاثوليكية سلطتها تمامًا على هذين الإقليمين؛ ولم يعد الهابسبرج سوى امتيازات التاج الامبراطوري حين وصل فرديناند الثاني إلى العرش سنة ١٦١٨م.

وكانت طموحات وأطماع الامبراطور فرديناند الثاني هي السبب الرئيسي الذي أشعل نار حرب الثلاثين عامًا. وكان يبلغ من العمر أربعين حين وصل إلى كرسي الأمبراطورية في سنة ١٦١٨م. وكان قد تعلم على أيدي اليسوعيين في بافاريا. وحريصًا على تنفيذ اتجاهاتهم، وبكل قوة، ونظر إلى البروتستانتية على أنها مرتبطة تمامًا بمبدأ الثورة؛ وإلى كل من يطالب بحرية العقيدة على أنه يرغب في أن ينال من سلطته. وكان يرغب في توحيد العقيدة في ممتلكاته، وفي توحيد ممتلكاته نفسها؛ ورأى أن العقيدة ووحدتها هي التي يمكنها وحدها أن تعوض ذلك التميز في اللغات والأجناس والتقاليد، وأن تعطيه المبدأ الأساس للوحدة. وكان فرديناند قد قام منذ عشرين سنة مضت، بمحاربة البروتستنت في إماراته، استيريا في النمسا، وأغلق كنائسهم ومدارسهم وطرد رعاتهم، ثم أجبر الأهالي على العودة إلى الكاثوليكية في فترة محددة، أو ترك الإمارة. وأراد بعد أن وصل إلى كرسي الامبراطور في سنة ١٦١٨م أن يطبق ذلك على التشيك، في بوهيميا.

وأمر فرديناند بهدم المعابد البروتستانتية التي كان التشيك قد أقاموها في بوهيميا. فعقد اللوثريون اجتماعًا في براغ، وحين حاول مندوبي الامبراطورية يوم ٢٣ مايو سنة ١٦١٨ فض الاجتماع قام المجتمعون بإلقاء أربعة منهم ومعهم أحد السكرتارية من النوافذ، من ارتفاع عشرين مترا إلى الخندق المحيط بالقصر، فسقطوا على كوم من الزبالة، وفروا وبدأت حرب الثلاثين عامًا.

وهذه الحروب الطويلة تمر في أدوار أربعة: البوهيمي البلاتيني (١٦١٨ - ١٦٢٥) The Bohemian Palatine Period، والدور الدنمركي ١٦٢٥ - ١٦٢٩ The Danish Period والدور السويدي The Swedish(١٦٣٠ - ١٦٣٥) والدور الفرنسي السويدي (١٦٣٥ - ١٦٤٨) The French Swedish Period.

ولعل أبرز ما تمتاز به هذه الحرب أنها بدأت على شكل نضال محلي،ثم أخذ يتسع نطاقها تدريجيا حتى شملت كل أوروبا. فقد امتدت من بوهيميا إلى ألمانيا الجنوبية، ثم إلى ألمانيا الشمالية فجذبت إليها أيضًا الدول المجاورة البروتستنتية ثم أخذت دولة بعد أخرى، تخوض غمار القتال، حتى صارت هذه الحرب في النهاية حربًا غير ألمانية إطلاقا. فهي تكون قد اتخذت في مبدأ الأمر مظهر نضال بين البروتستنتية والكاثوليكية، ثم انتهت أخيرا بأن صارت نزاعًا بين الأسرتين الكبيرتين الهابسبورج الألمانية، والبربون الفرنسية من أجل إحراز السيطرة في أوروبا.

١- الدور البوهيمي البلاتيني (١٦١٨-١٦٢٥)

ولقد سنحت الفرصة لبداية النضال في بوهيميا، وذلك عندما أراد الامبراطور رودلف الثاني تأسيس حكومة مركزية قوية في ألمانيا. وكانت وسيلته إلى ذلك، القضاء على الانقسام الديني حتى يمكن القضاء على الانقسام الديني حتى يمكن القضاء على الانقسام السياسي وإنهاء الخلافات الداخلية. وحاول رودلف أن يفعل ذلك في بوهيميا.

ومملكة بوهيميا، كانت من أملاك أسرة الهابسبورج، أهلها من السلاف والتشيك والجرمان، لم تلبث أن انتشرت فيها البروتستنتية اللوثرية بدرجة اضطرت الامبراطور رودلف الثاني، بعد أن كان قد أوقع باللوثريين الاضطهادات الكثيرة مدة طويلة - اضطرته أن يمنح بوهيميا في سنة ١٦٠٩ عهدًا ملكيًا وافق فيه على التسامح مع البروتستنت اللوثريين ولكن كان من الواضح أن رودلف لم يمنح هذا التسامح

الا مرغما. وكذلك كان الحال في عهد أخيه، الإمبراطور التالى ماتياس Mathias (١٦١٢ – ١٦١٩) فقد أسيئت في عهدهما معاملة البروتستنت بالرغم من العهد الملكي الصادر بالتسامح، واتخذت الوسائل الكفيلة بالقضاء على البروتستنت تمامًا في بوهيميا، على اعتبار أن القضاء على كل اختلاف ديني من شأنه تدعيم سلطان الإمبراطورية. فاشتد اضطهاد البروتستنت، حتى ضاقت بهؤلاء السبل. وأخيرًا قاموا بالثورة في سنة ١٦١٨م فهاجموا مقر الحكومة في براج وقبضوا على الأعضاء الكاثوليك وأنصار الإمبراطور ثم شكلوا حكومة جديدة من أعوانهم. وفي ٢٦ أغسطس ١٦١٩ وهو اليوم الذى انتخب فيه فرديناند الثانى إمبراطورًا (١٦١٩ – ١٦٣٨) بعد وفاة ماتياس – أعلن أهل بوهيميا خلعه من حكمهم، وأقاموا مكانه ملكا على بوهيميا رئيس الاتحاد البروتستنتي، فردريك الخامس ناخب (كونت) البلاتين.

وحينئذ انتقلت المقاومة، من نضال محدود، إلى ثورة أهلية؛ وأما الخطوة التالية فكانت الانتقال من الثورة الأهلية إلى الحرب الأوروبية .

٢- الدور الدنمركى (١٦٢٥ – ١٦٢٩)

كانت الدانمرك وإنجلترا تتبعان سير الحرب البوهيمية بكل قلق واهتمام. وكان كرستيان الرابع ملك الدنمرك – وكان في الوقت نفسه دوقا لإمارة هولشتين. وهي ولاية تابعة للإمبراطورية الرومانية المقدسة. وله أهداف سياسية إلى جانب تعصبه المذهبي، فقد كان يامل في الاستيلاء على بعض الأبرشيات الألمانية ويكونها مملكة باسم ولده، وقد دخل الحرب معتمدا على تحالفه مع إنجلترا وأمراء شمال ألمانيا، وعلى ما بذله له الوزير الفرنسي ريشيليه من وعود بالمساعدة.

وهكذا بدأت المرحلة الثانية من حرب الثلاثين عامًا، ورأى الأمبراطور أن البروتستنت في هذه المرة أكثر قوة وأشد مراسًا. فاستعان بأعظم قواد ألمانيا في ذلك العصر" والنشتين Walccenstien دوق فريدلند، المعروف بمقدرته على جمع الجند المرتزقة من مختلف جنسيات أوروبا وهم الذين يعيشون على كسب المواقع توطئة للسلب والنهب. واشترط "والنشتين" أن تكون القيادة العليا له وحده رغم أن

لقوات الإمبراطور قائد قدير هو "تلي" إلا أن الإمبراطور كان مضطرًا لقبول شروط والنشتين لكسب المعركة ضد البروتستنت.

وما لبث أن استطاع والنشتين ومن معه من قواد الإمبراطورية من هزيمة ملك الدنمرك وطرد قواته من الأراضي الألمانية واحتلال معظم الأراضي الدنمركية نفسها. وحاول والنشتين بعد ذلك المزيد من التوسع نحو الساحل لتقوية دفاعه ضد أي غزو محتمل من جانب السويد وفي الوقت نفسه يستغل موارد الموانئ بفرض الضرائب فيها لإعالة جيشه والإنفاق على مطالب المرتزقة من قواته وقد رفضت ميناء سترالسند" Staralsund الاذعان لما فرضه عليها واستعدت للدفاع عن نفسها فحاصرها لمدة خمسة أشهر خلال عام ١٦٢٨ ولكنها قاومته واستسلمت في الدفاع. وساعدها أن حصارها كان بريا فقط أما البحر فكان مفتوحًا لمدها بالمساعدات عن طريق الأسطولين الدنمركي والسويدي. ولما يئس والنشتين اضطر إلى رفع الحصار عنها، وعلى أثر ذلك أدرك كل من الإمبراطور، وكرستيان ملك الدنمرك أن لا مفر من الاتفاق ولاسيما أن الأخير يئس من وصول أية مساعدة فعالة من انجلترا التي وعده بها ملكها شارل الأول. أما الإمبراطور فرأى أن يسارع بعقد اتفاق قبل أن يدخل ملك السويد الحرب في صف البروتستانت.

وعلى ذلك تم صلح لوبك Lubeck سنة ١٦٢٩م على أن يتنازل كرستيان عن كل ما يدعيه في الأسقفيات الألمانية على شرط أن يسترد أملاكه الوراثية وهي هولشين وشلزويج وجنلند.

وبذلك قوى مركز الامبراطور وشعر البروتستانت أنهم أصبحوا تحت رحمة الكاثوليك الذين صمموا من جانبهم على انتهاز الفرصة لتدعيم مركزهم، فحرضوا الامبراطور فرديناند على إصدار "مرسوم الإعادة Edict of Restitution خوّل فيه للكنيسة الرومانية استرجاع كل الأملاك التي انتزعت منها منذ معاهدة أوجزبرج عام ١٥٥٥م، وقد روّع هذا المرسوم جميع البروتستنت لا في ألمانيا فحسب بل أفزع أيضًا البروتستانت في كل أوروبا، وخصوصًا حكام الدول التي تخشى أطماع

الإمبراطور وأحلامه فى إنشاء حكومة ملكية من آل هابسبورج تمد سلطانها إلى أوروبا بأسرها.

وكان من بين من أوجسوا من نواياه خيفة، الفرنسيون والسويديون، وكان المسيطر على السياسة الفرنسية حينذاك "ريشيليه" ولكنه لم يكن فى ذلك الحين فى وضع يمكنه من التفرغ لمناهضة الإمبراطورية، إذ كان ما يزال مشغولا بكسر شوكة إشراف فرنسا من جهة وقمع حركة الهيجونت من جهة أخرى، ولذلك اكتفى بتأييد المغامرة التى قام بها جستاف أدولف ملك السويد، وإمداده بالمال. وفى الوقت نفسه أجرى اتصالات مع بعض الولايات الكاثوليكية الألمانية لأثارتهم ضد الإمبراطور مستغلا المخاوف التى تراودهم تجاه عزم الإمبراطور على أن تكون السلطة الألمانية مركزه كلها فى يده.

٣- الدور السويدى ١٦٣٠ - ١٦٣٥

فى شهر يوليو سنة ١٦٣٠م، نزل جوستاف أدولف الثانى Gustavus AdoIphs (١٥٩٤ - ١٦٣٢) ملك السويد على شاطئ بوميرانا. كانت الدوافع والأسباب الداعية لتدخل جوستاف الثانى هى:-

١- حماية البروتستانت المضطهدين وإعادة دوقات مكلنبرج وأقاربه فيها، ورفض وساطته السابقة فى معاهدة لوبك، وقلقه من الخطط البحرية للامبراطورية. وبالنسبة للمركز السياسى للسويد: كانت فنلندة وانجر ماتلاند واستونيا وليفونيا كلها تابعة لمملكة جوستاف، على حين كانت كورلاند داخله فى دائرة النفوذ السويدى. ولذا كان استيلاء السويد على بروسيا وبوميرانا كفيلا بأن يجعل البحر البلطى بحيرة سويدية. عقد جوستاف معاهدة فرعية مع فرنسا (ريشيليو) وطرد القوات الامبراطورية من بوميرانا واستولى على فرانكفورت، على نهر أودر، وتفاوض مع زوج أخته جورج وليم منتخب برتدبرج (١٦١٩ - ١٦٤٠) الذى كان خاضعًا لدوقية شفارتزبرج. وأخيرًا سلمت سياندا و للملك جوستاف، على حين

قامت مفاوضات لتسليم وتنبرج، أما سكسونيا، وهي التي رغبت أن تكون قوة ثالثة، وأن تصبح وسيطة متمتعة بشئ من الحياد المسلح في الإمبراطورية (مجلس أمراء ليزبرج ١٦٣١) فإنها صارت بعد شئ من الصعوبة حليفًا لعدو من أعداء الإمبراطورية.

وفي تلك الأثناء استولى تلي في ٢٠ مايو ١٦٣١ على مجدبرج إذ قام بابنهيم بالهجوم، على حين أحدث الجنود الجامحون التاليون للقائد تلي مذابح وحشية بالمدينة ونهبوها، وذلك على الرغم مما بذله هذا القائد لوقف تلك الفوضى. ثم اشتعلت النيران فجأة في أماكن متعددة بعيدة بعضها عن بعض. ودمرت المدينة كلها عدا الكاتدرائية (ولم يكن ذلك بأمر القائد تلي).

استولى تلي على هال وايزلبين ومرزبرج ومدن أخرى وأحرقها. تحالف حنا جورج، منتخب ساكسونيا مع جوستاف أدولف، الذى عبر الألب عند وتنبرج على حين استولى تلي على ليزبرج، وبذلك وقف الجيش الامبراطورى وجيش السويد وساكسونيا وجهًا لوجه، وبلغ كل من الفريقين حوالى ٤٠,٠٠٠ مقاتل.

وبناء على طلب الإمبراطور فرديناند جمع ولنشتين جيشًا، بعد أن منحه الإمبراطور سلطات واسعة على ذلك الجيش. استرد ولنشتين براج وطرد السكسون من بوهيميا حيث فقدوا حماستهم للقتال، وكذلك تحالفهم مع السويديين.

وفي عام ١٦٣٢ تقدم جوستاف إلى نهر دانوب من طريق نورنبرج لمقابلة تلي، ودار الصراع عند رين قرب التقاء نهر لنز مع نهر دانوب وأصيب تلي بجرح قاتل وتوفي في انجولشتاد. وذهب جوستاف إلى أوجزبرج، وحاصر ماكسمليان دون جدوى في انجولشتاد، وما زال يقاتل حتى حمل ميونيخ على التسليم. وعندئذ تم استدعاء ولنشتين لمساعدة ماكسمليان. وقف جوستاف وولنشيتن وجهًا لوجه مدة أحد عشر أسبوعًا من يوليو إلى سبتمبر، بعد أن اتخذ كل منها مواقع حصينة عند نورنبرج قاتل ولنشتين قتالاً ضعيفًا. شن السويديون هجومًا على خنادق ولشتين، بعد

أن جاءتهم نجدات بقيادة برنهارت صاحب ساكس - ويمار، ولكنهم ارتدوا على أعقابهم بعد أن تكبدوا خسائر فادحة. تقدم جوستاف إلى نهر الدانوب، أما ولشتين فاتجه إلى ساكسونيا، التي صارت بذلك خالية من وسائل الدفاع، على حين زحف أرنيم عبر لوزاتيا إلى سيليسيا مع قوات سكسونيا وبرندنبرج. قامت عصابات ولنشتين بنهب ذريع. أسرع جوستاف عائدًا عن طريق كترنجن وتشفينفورت، وذلك بناء على استغاثة منتخب ساكسونيا، وانضم إلى برنهار صاحب ساكس - ويمار علم جوستاف وبرتهارت أن ولنشتين بعث بالقائد بابنهيم إلى شواطئ الرين، ولذا قاما بشن هجوم على القوات الامبراطورية (المكونة من ١٨,٠٠٠ مقابل ٢٠,٠٠٠ جندى سويدى ودارت معركة لوتزن في ١٦ نوفمبر. توفي جوستاف أدولف، على حين تم استدعاء بابنهيم على عجل واشترك بخيالته في المعركة، ولكنه أصابه جرح قاتل، وتم انتصار السويديين بقيادة برنهارت صاحب ساكس ويمار.

تولى برنهارت وجوستاف هورن وبانر قيادة القوات السويدية، على حين قام اكسل اكسنترنا رئيس وزراء السويد (١٥٨٣ - ١٦٥٤) بأعمال الإشراف على الشئون الخارجية. قام حلف هلبورن بين منتخبات صوابيا وفرتكونيا والراين الأسفل والأعلى من ناحية وبين السويد من ناحية أخرى. وقام برنهارت في عام ١٦٣٣ صاحب ساكس - ويمار بحملة على فرتكونيا واستولى على بامبرج وهو خشتاد وطرد البافاريين بقيادة الدنجر، ثم انضم إلى مارشال هورن. ونال برنهارت من رئيس الوزراء التقليد بوظيفة أسقفيتي فرونبرج وبامبرج، ولقب دوق فرتكونيا، ثم احتل بلاتينات العليا. بعد أن حاكم ولنشتين في شهر فبراير ضباطه في براج وعاقبهم بالإعدام، وملأ مناصبهم بالمجندين الجدد، زحف على سليسيا، وحارب الساكسون وبرندنبرج والقوات السويدية، وتفاوض مع القائد ارنيم. جرت مفاوضات مع اكستيرنا.[٢]

استولى برنهارت صاحب ساكس – ويمار في شهر نوفمبر على رجنزبرج. أما ولنشتين فوجد نفسه عاجزًا عن الذهاب لمساعدة منتخب بافاريا، حيث ألح عليه الامبراطور في ذلك، وقضى الشتاء في بوهيميا. وازداد التوتر بين ولنشتين والبلاط الامبراطورى، إذ رغب الحزب الأسباني والحلف في إقصائه عن القيادة قام ولنشتين بمفاوضات سرية مع أهل ساكسونيا والسويد والفرنسيين، لأنه صمم على بناء مركز مستقل له مستعيناً بالجيش، وليستطيع بذلك تخليص الامبراطور، بمساعدة الناخبين في شمال ألمانيا، من سيطرة الحزب الأسباني، وليحمل الامبراطور إذا لزم الأمر على عقد الصلح، وإعادة تنظيم الشئون الداخلية للامبراطورية. صمم ولنشتين على الثورة علنا إذا ظل الحزب الأسباني المعادى له في الحكم. وعلى الجملة فإنه من الصعب أن نقرر ما إذا كان ولنشتين أضمر الرغبة في الحصول على عرش بوهيميا، وتحقيق خطط خيالية أخرى. نجح البلاط في فينا في إبعاد القادة الكبار (وهم بكولوميني، وجالاس، والدنجر، ومراداس وكولوريدو) عن ولنشتين على حين ظل كل من ألو وترزكا وكنسكى على القائد ولنشتين.

وصدر إعلان امبراطورى في ٢٤ يناير ١٦٣٤م اعتبر حاكم فريدلاند متآمرًا على سلب العرش من الامبراطور وصدرت الأوامر لكبار ضباط الجيش بعدم الإذعان لأوامره وصدر في ١٨ فبراير إعلان ثان، يقضى بعزل ولنشتين رسمياً. وفي ٢٤ فبراير ذهب ولنشتين إلى ايجر، حيث كان عليه أن يتقابل مع برنهارت صاحب ساكس – ويمار، والقائد أرنهيم. وهناك قام الضابط ويفرو في ٢٥ فبراير باغتيال ولنشتين، نتيجة إغراء القائد الأيرلندى تبلر، وذل بعد أن تم اغتيال أصدقاء ولنشتين القريبين له. لم يأمر الملك بذلك الاغتيال، كما أنه لم يكن راغبًا فيه البتة، ولكنه سلم الحكم بذلك للحزب الذى علم أنه "يرغب في الحصول على ولنشتين حيًا أو ميتًا" ثم أنه كافأ القتلة بعد المؤامرة بالتكريم والهبات.

وانتصر أتباع الإمبراطور بقيادة فرديناند، ابن الإمبراطور، ومعه جلاس والبافاريين (جنارث) على السويديين عند نورد لنجن وانعقدت معاهدة براج في ٣٠ مايو سنة ١٦٣٥م بين الإمبراطور ومنتخب ساكسونيا وبمقتضاها نال منتخب ساكسونيا لوزيتانيا بصفة دائمة، على حين أخذ ابنه الثاني، وهو أغسطين أسقفية مجدبرج مدى حياته، أما الأراضي الكنسية التي لا تتبع الإمبراطور، والتي سبقت مصادرتها قبل معاهدة باساو، فإنها تظل بيد مالكيها، وكل ماعدا ذلك يبقى مدة أربعين عامًا (من ١٦٢٧) وإذا لم يحدث اتفاق جديد بشأنها قبل انتهاء تلك المدد فتظل دائما على ما كانت عليه في نوفمبر ١٦٢٧م. العفو السياسي العام عن كل الشخصيات السياسية. ماعدا أولئك الذين اشتركوا في اضطرابات بوهيميا والبلاتين والقيام بعمل مشترك ضد السويد. عدم السماح بحرية العبادة لأية طائفة من الطوائف الدينية عدا أتباع اللوثرية. قبول برندنبرج ومعظم الولايات البروتستنتية الأخرى الصلح.

٤- الدور السويدي الفرنسي ١٦٣٥ - ١٦٤٨م

عندما تدخلت فرنسا لم تصبح هذه الحروب حربا ألمانية. أما تقرير فرنسا التدخل تدخلا مباشرا فكان مبعثة الرغبة في خدمة مصالحها السياسية ذلك أن انهزام البروتستنت في موقعة نوردلنجن جعل هؤلاء يرتمون في أحضان فرنسا. وإذا كان ريشيليو قد امتنع في الدور السابق عن التدخل المباشر في الحرب، فالسبب في ذلك، أن النفوذ الأكبر كان وقتئذ من نصيب السويد، وملكها جوستاف أدولف. أما الآن فقد نجم عن فشل السويد أن صار الطريق ممهد لتغلب النفوذ الفرنسي. إذا شاءت فرنسا الدخول في الحرب، وكان واضحا أن فرنسا سوف تتمكن حينئذ من تحقيق مآربها السياسية بفضل هذا النفوذ المتفوق. وذلك ما كان يتوقعه ويريده وزيرها ريشيلو.

ثم من الأسباب التي حملت ريشيليو على التعجيل بالتدخل أنـه كان هناك أمل بعد هزيمـة البروتستنت فـى نوردلنجـن، أن تنتهى الحـرب فـى ألمانيا، وانتهاء الحرب على هذه الصورة معناه ضياع الفرصة علـى فرنسا لخدمة مصالحها، والسماح بتقوية سلطان الهابسبورج في ألمانيا، وذلك ما كانت تخشاه وتأباه فرنسا.

وأما كيف كان هناك أمل فى إمكان إنـهاء الحـرب بعـد واقعة نورلنجـن فـى سبتمبر ١٦٣٤م، وهـى الواقعة التـى انـهزم فيها البروتستنت، فتفسير ذلك أن بعض الأمراء من البروتستنت وفي مقدمتهم جون جورج ناخب سكسونيا كانوا يخشون من تغلب نفوذ السويد، ومن نفوذ فرنسا على السواء في ألمانيا، بسبب هذه الحرب التـى كانت تتحول سريعًا من حرب تهتم بمسألة المذهب والعقيدة إلى حرب أوروبية تهتم بالمسائل والمصالح السياسية. ولذلك فقد كان أحد آثار هزيمة نورلنجن أيضًا أن بادر جون جورج ناخب سكسونيا باستئناف المفاوضة مع فردناند الثانى الإمبراطور، وفـى مايو ١٦٣٥م توصل الفريقان إلى عقد صلح براج سـنة ١٦٣٧ والـذى يعـد تاريخًا لاسترجاع الأملاك التى أخذت من الكنيسة الكاثوليكية بعد هـذه السنة وذلك بـدلاً من سنة ١٥٥٢م التى كانت قد تحددت تاريخا لذلـك فـى مرسـوم الاسترجاع الـذى صدر في مارس ١٦٢٩م. وبناء عليه فإن الأراضي والأمـلاك التى تكـون فعلا يـوم ١٢ نوفمبر ١٦٢٧ فـى حـوزة أصحابها سـواء أكـان هـؤلاء قد استولوا عليها قبـل صلـح أوجزبرج فى سنة ١٥٥٥م أم بعد هذا الصلح، تبقى فى حـوزة أصحابها وتستمر فـى حوزتهم لمدة أربعـين سـنة؛ أو أنها تعـاد لأصحابها إذا كان قـد أخـذت منـهم تطبيقًا للمرسوم السابق أي للمرسوم الذى صـدر فـى ٦ مـارس ١٦٢٩ – وعلـى أن تبقى فـى حوزتهم لنفس المدة المنصـوص عليـها. وفـى بحـر هـذه المـدة يجرى الاتفاق بشـأن هـذه الأراضـى والأمـلاك بـالطريق الـودى، أو ينظـر الامبراطور فـى أمرهـا بـالطريق القانوني. ومعنى هذا أن صلح بـراج جعل تنفيـذ مرسـوم مـارس ١٦٢٩م يتأجل فعلا لمدة أربعين سنة. وفى ذلك ترضية للبروتستنت.

وزيادة على ذلك فقد عاد التساهل في مسائل أخرى مع ناخب سكسونيا بالنفع على الإمبراطور فردناند الثاني. ذلك أن الإمارات البروتستنتية الأخرى لم تلبث أن انضمت إلى صلح براج: ماعدا ثلاث إمارات فقط بقيت إلى جانب السويد: هي إمارات هس كاسل Hesse Cassel ورتمبرج Wurtember وبادن Baden.

ومما يجب ملاحظته أن صلح براج لم يشمل الكلفينيين ومع ذلك فإن قبول أكثر الأمراء البروتستنت لهذا الصلح كان كافيًا لأن يكفل عودة السلام إلى ألمانيا في سنة ١٦٣٥م، لو أن المصالح الأجنبية لم تدخل على يد فرنسا لتحريك الحرب الثانية. ولذلك فقد أضحت حرب الثلاثين في هذا الدور الأخير، حربًا سياسية بحتة: أساسها النضال بين أسرة الهابسبرج والبربون للسيطرة على أوروبا.

وكان للحرب في هذا الدور ميدانان: أحدهما يشغله الحرب من جانب فرنسا التي صارت تتقدم بنشاط في داخل ألمانيا الجنوبية، والآخر تشغله الحرب من جانب السويد التي صارت تتقدم من ناحية البلطيق إلى قلب ألمانيا وبذل الأمبراطور قصارى جهده لوقف هذا الزحف المزدوج، واستعان في ذلك بالمساعدة المالية التي استطاعت أسبانيا تقديمها له، ولم يكن في وسع أسبانيا غير تقديم المعونة المالية، لأن مشاكلها استغرقت نشاط جيوشها في الأراضي المنخفضة وفي إيطاليا.

أما الشعب الألماني نفسه فقد كان موقفه من هذا النضال موقف المتفرج الذي أنهكه التعب، وصار لا يعبأ إلا بأن تنتهي هذه الحرب التي لا يجد لها معنى ولا يرى لها سببًا أو مبررًا؛ وأن تنتهي عاجلًا وبأية وسيلة. وفي هذه الظروف لم يستطع الامبراطور أن يصمد في الحرب طويلا. وفي سنة ١٦٣٦م أجبروا اكسنسترنا على الانسحاب والإرتداد إلى السويد، بينما أجبروا كذلك الفرنسيين في الجنوب على الانسحاب من الراين، بل واستطاعوا الدخول في الأراضي الفرنسية حتى صاروا يهددون باريس ذاتها ولكن أمد هذه الانتصارات كان قصيرًا. فلم يلبث أن تمكن

الفرنسيون من إجلاء العدو عن بلادهم. واستطاع السويديون بقيادة بانر Baner أن يحرزوا انتصارًا حاسمًا في واقعة ويتستوك Wittstock في أكتوبر ١٦٣٦م ونتيجة لهذا الانتصار سقطت في قبضة السويد: براندبرج، بوميرانا، سكسونيا ثورينيجا Thuringia وجزء من فرنكونيا. ثم حدث وسط هذه الانهزامات أن توفى الامبراطور فرديناند الثاني في بداية ١٦٣٧. وكان ابنه فرديناند الثالث أقل منه كفاءة ومقدرة. واستمرت الحرب فاستطاع الفرنسيون في الغرب الاستيلاء على الألزاس ثم على بريسجاو Breisgau (على جانبي الراين الأعلى) في سنة ١٦٣٩. وأما أهم الحوادث خلال السنوات الطويلة التالية فيمكن إيجازها فيما يلي: حاول البابا اربان الثاني في سنة ١٦٣٦م أن يعقد صلحًا ينهي هذه الحرب، كما حاول أن يفعل ذلك أيضًا الامبراطور فردناند الثالث في سنة ١٦٤٠م ولكن من غير طائل. وبين سنتي ١٦٤٢ - ١٦٤٥م تمكن السويديون بقيادة تورستسون Tirstenson الذي خلف بانر Baner بعد وفاته سنة ١٦٤١م من هزيمة الامبراطوريين وتقدموا في زحفهم حتى باتوا يهددون فينا ذاتها.

ومن الجانب الفرنسي، تابع مزران الذي خلف ريشيليو في الوزارة بعد وفاة هذا الأخير في ديسمبر ١٦٤٢ نفس السياسة التي سار عليها ريشيليو فانتصر القائد الفرنسي كونديه Coude في سنة ١٦٤٣م على الأسبان في واقعة ركروا Rocroy واستولوا على ثيونفيل Tionvillhe وفي سنة ١٦٤٤م انتصر الفرنسيون أيضًا في فرايبورج Freidrug ثم انتصروا في سنة ١٦٤٥م في واقعة نوردلنجن وقد كلفهم هذا النصر الكثير وفي سنة ١٦٤٥م غزا القائد السويدي تورسنسون Torestenson بوهيميا وزحف على فينا ولكنه اضطر إلى التقهقر، ثم تنازل عن قيادته إلى القائد الآخر رانجل Wranhel. وفي سنة ١٦٤٦م استطاع القائد الفرنسي تورين Turenne الانضمام بجيشه إلى قوات رانجل وضرب بافاريا، وفي معركة زوسمارشاوسن Zusmarshauen في مايو ١٦٤٨ أوقع القائدان بخصمهما مكسمليان البافاري هزيمة بالغة. وبعد هذه الواقعة الأخيرة خصوصًا، صار واضحًا أن الامبراطور فردناند الثالث يعجز عن متابعة الحرب منفردا. وبالفعل اضطر الامبراطور

إلى قبول الصلح وكانت المفاوضات قد بدأت لعقد هذا الصلح عندما صار الجميع يشعرون بالأعياء الشديد بسبب هذا النضال الطويل. فاجتمع السياسيون للبحث في قواعد الصلح في وستغاليا منذ سنة ١٦٤٣م، ولو أنهم عجزوا عن الوصول إلى نتيجة حاسمة.

ومع أن الحرب استمرت بعد ذلك، على نحو ما شهدنا، فقد كان الامبراطور في هذه الأثناء يتفاوض في أوسنابروك Osnabruck مع السويد ومع الإمارات البروتستنتية، بينما يتفاوض من جانب آخر في نفس الوقت في مونستر Munster مع الفرنسيين والكاثوليك من أجل الوصول إلى الصلح. وأخيراً تم التوقيع على الصلح في مونستر من أعمال وستفاليا في ٢٤ أكتوبر ١٦٤٨م وبهذا الصلح انتهت حرب الثلاثين عامًا.

صلح وستفاليا سنة ١٦٤٨م:

يعتبر صلح وستفاليا من الوثائق التاريخية المهمة بسبب المسائل المنوعة التي تناولها هذا الصلح سواء كانت هذه داخلية بألمانيا أم دولية خاصة بالدول المجاورة لها، ولدرجة أن أصبح هذا الصلح، من الناحية العملية، الأساس الذى تستند عليه الدول في أوروبا في علاقاتها القانونية من وقت إبرامه سنة ١٦٤٨م إلى قيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م.

والمسائل المهمة التي تناولها هذا الصلح كانت وضع قاعدة جديدة للسلام بين البروتستنتية والكاثوليكية. ثم تحديد مقدار الأراضي التي حصلت عليها كل من السويد وفرنسا ثمنًا لانتصارهما على الامبراطور، وأخيراً إجراء ترتيبات سياسية وإقليمية معينة في داخل ألمانيا ذاتها. وفيما يلي تفصيل ذلك:-

أ- التعويضات:

نالت السويد إقطاعا كبيرا اشتمل على جميع أقاليم بوميرانا السفلى وروجين، وجزء من بوميرانا العليا ومدينة وسمار (وكانت قبلا ملكا لمكنبرج) وأسقفية برمن (عدا المدينة) وفردن باعتبارها دوقيات علمانية، وعلى تعويض مقداره خمسة ملايين دولار امبراطوري. صارت السويد عضوا في الدايت الألماني ولها ثلاثة

أصوات. ونالت فرنسا سيادة مطلقة على أسقفية ومدن متز وتول وفردان (وكانت في يد فرنسا منذ ١٥٥٢م) وكذلك بجينوول ومدينة برايزاخ وإمارتي الالـزاس العليا والسفلي (التي تبعت أحد فروع الهابسبورج النمسا ويين) وحكومة عشر مدن امبراطورية في الالزاس. احتفظت هذه المـدن وولايـات الالـزاس الامبراطوريـة الأخرى بعضويتها في الإمبراطوريـة. نـالت فرنسا كذلك حقوق الحراسة على فليسبرج. ونالت إمارة هس كاسل كونتيه شاومبرج ونالت برندبرج تعويضًا عن بوميرانا (التي كانت جميعها تابعة ليرنيرنبرج تعويضًا عن بوميرانا (التي كانت جميعها تابعة ليرنبدبرجي سابقًا بمقتضى حق الوراثة على الزغم من أن الجزء الأكبر فقط من بوميرانا العليا انقطع منها) أسقفيات هالبرشتات ومندن وكامن باعتبارها إمارات سياسية، وأسقفية مجدبرج باعتبارها دوقية، مع تحفظ هو أن تبقى في حيازة الناخب أغسطس أمير ساكسونيا مدة حياته (ت١٦٨٠). نـالت مكلنبرج أسقفيات شـويرن وراتزبرج باعتبارها إمارات. نالت برترويك حق تعيين أسقف أوزنا بروك على قاعدة التبادل الدوري بين أسقف كاثوليكي وآخر انجيلي حتى سنة ١٨٠٣.

ب- الشئون السياسية للإمبراطورية:

نال الأمراء الألمان في هذا الصلح قسطًا من حقوق السيادة، فصار لهم الحق في عقد المحالفات فيما بينهم أو مع الدول الأجنبية. فأصبحت الإمارات من الناحية القانونية في حكم المستقلة الأمر الذي ترتب عليه أن صار تفكك أوصال ألمانيا كاملا. ونال ناخب براندنبرج تعويضا عن بوميرانا الغربية التي أخذته السويد، فأعطي أسقفيات مجدبرج وهلبرشاد Halberstad ومينـدن Minden وكامين Camin. ثم تدعمت حقوقه الوراثية على بوميرانا الشرقية وأعيدت له السيطرة على دوقيات كليف ورافنزبرج Ravensberg وبذلك أصبح ناخب براندبرج أعظم امراء قاطبة من بروتستنتية وكاثوليكية، ويلي الامبراطور فقط في الأهمية. كما أن هذا التوسع الجديد أعطى براندبرج الفرصة لتنمو بإطراد حتى تصل إلى مرتبة المملكة (مملكة بروسيا)، ثم حتى تستطيع منافسة النمسا بنجاح والتغلب عليها وفي آخر الأمر حتى تتمكن من إحياء ذلك الاتحاد الألماني الذي عمل صلح وستفاليا للقضاء عليه

وبعثه من جديد في ألمانيا. واحتفظ ماكسمليان دوق بافاريا بإقليم البلاتينات العليا upper Paltinate ويلقب الناخب في الامبراطورية Elector. وأما البلاتينات السفلى قد أعيدت إلى ابن فردريك الخامس الذى سبق عزله، وهو شارل لويس الذى أعطى أيضًا لقب ناخب في الامبراطورية. وبذلك زاد عدد الدوائر أو الأصوات Electorate الانتخابية للامبراطورية واحدة فصارت ثمانية.

وكان من أثر هذا كله أن ألمانيا خرجت من هذه الحروب مفككة الأوصال ولا يربط بين إمارتها المتعددة سوى الدايت أو المجلس الامبراطوري.[1]

ج- الشئون الدينية

الاعتراف بمعاهدة باساو وصلح أوجزبرج، كما احتضن كل منهما أتباع كلفن. وصارت الولايات الكاثوليكية والبروتستنتية تقف على قدم المساواة في جميع المسائل التي تتعلق بالامبراطورية. صار أول يناير ١٦٢٤م الحد الزمني الذى تقاس به مسائل ملكية الولايات الكنسية وممارسة شئون الديانة، إذ يجب أن تبقى الأمور دائماً على نحو ما كانت عليه في ذلك التاريخ، ومعنى ذلك أنه تقرر الاعتراف بأن التحفظات الكنسية جديرة بالاحترام في المستقبل. لم تمنح المعاهدات أية حقوق للبروتستنت الخاضعين في النمسا وبوهيميا. ولكن تقرر السماح للولايات الإنجيلية التي دخلت في نطاق الإصلاح الكاثوليكي أثناء الحرب وهي (بلاتين السفلى، نورنمبرج وبادن وغيرها) باستئناف حقوقها الدينية التي تمتعت بها سنة ١٦١٨م. احتفظ أصحاب السيادة الإقليمية بحق الإصلاح في المستقبل في أقاليمهم، وهو حق أجازته مذاهب أولئك الرعايا الذين لم تكفل لهم سنة ١٦٢٨م حرية العبادة، واحتفظ الرعايا في تلك الحالات بحق الهجرة. عاد البلاط الامبراطوري، وتوزع أعضاؤه بالتساوي بين البروتستنت والكاثوليك.

وقد ضمنت فرنسا والسويد احترام معاهدة وستفاليا وفيما ما تقدم اعتراف صلح وستقاليا بانفصال سويسرا من الامبراطورية فتأيد - بفضل قطع هذه العلاقات القديمة التي كانت تربط سويسرا قانونا بالامبراطورية - ذلك الاستقلال الفعلي الذي تمتعت به سويسرا مدة طويلة. كذلك فقد انهى هذا الصلح رسميًا الحروب الطويلة بين أسبانيا والأراضي المنخفضة الهولندية، واعترف باستقلال هولندا نهائيا.

أما عن أوروبا بعد صلح وستفاليا، فإنه يحدد صلح وستفاليا بداية طور جديد في تاريخ الحضارة الأوروبية فقد أقر هذا الصلح، بعد فترة الحروب الدينية الطويلة مبادئ من شأنها نجاة البروتستنتية نهائيًا من الأخطار التي تهددها، وكان ذلك دليلا على أن الحروب الدينية الماضية كانت جهدًا ضائعًا. ومع أن صلح وستفاليا لم يمنح التسامح الديني للأفراد فقد اختفى الاضطهاد الديني من هذا الحين، وصار من الأمور الشاذة غير المألوفة وفي المائة وخمسين سنة التالية تغلغل مبدأ التسامح الديني الشامل حتى أنه انتقل من الطبقات العليا والهيئات المثقفة. خصوصًا في القرن الثامن عشر، إلى الطبقات الوسطى والدنيا في المجتمع، ولدرجة أن صار مبدأ التسامح الديني الشامل في عصر الثورة الفرنسية من المبادئ التي اعترفت بها الإنسانية قاطبة.

الفصل الحادى عشر

عصـــر التفـــوق الفـــرنـــسى

(عصر لويس الرابع عشر)

عصر التفوق الفرنسى

فرنسا فى القرن السابع عشر (١٥٩٤-١٧١٥)

يبدأ عهد أسرة البربون باعتلاء هنرى الرابع عرش فرنسا عام ١٥٩٤م، وسنوضح فيما يلي الصعوبات التى اعترضت طريقه إلى عرش فرنسا، وكيف استطاع التغلب عيها. ثم نتحدث عن عصر الوزراء العظام (١٦٢٤ - ١٦٦١) موضحًا الجهود التي بذلها كل من ريشيليو (١٦٤٢ - ١٦٤٢) ومزران (١٦٤٣ - ١٦٦١) لإعلاء شأن ملكية البوربون. ونختم حديثنا عن أسرة البربون في القرن السابع عشر عند عصر لويس الرابع عشر.

أولا: هنرى الرابع مؤسس أسرة البربون ١٥٩٤ - ١٦١٠م

١- هنرى نافار:

اشتهر أمر هنرى نافار Navarre فى نهاية الحروب الدينية فى فرنسا (١٥٦٠ - ١٥٩٨). كان زعيمًا من زعماء الهيجونت، وآلت إليه ولاية العهد لعرش فرنسا فى عام ١٥٨٤ بعد موت أخى الملك هنرى الثالث وولى عهد العرش، وكان يدعى "دوق دالنسون Duke d'Alencon ذلك لأن فروع البوربون كما يلى فرع الفالوا في أحقيته في عرش فرنسا، كما كان هنرى نافار متزوجًا من مرجريت أخت الملك هنرى الثالث من أسرة النـوا الحاكمة، ولو كان هنرى كاثوليكياً لما كانت هنالك أى موانع لولايته للعهد، ولكنه كان من أشد أنصار البروتستنتية بل كان زعيمًا للبروتستانت منذ وفاة كل من كونديه Condé وكولينى Coligny. وكان أعضاء الاتحاد الكاثوليكى الذى كان يسيطر على شئون فرنسا على تولية هنرى نافار الحكم، ولما قتل هنرى الثالث على يد "جاك كليمان Jacques Clement وفى عام ١٥٨٩م أصبح لهنرى الحق فى أن يعتلى عرش فرنسا، ولكن كان عليه أن يغزوا باريس التى كانت تحتلها الجنود الأسبانية لكى يصل إلى العرش الفرنسي. ولم يكن ذلك الغزو أمرًا هينًا، لأن هنرى نافار كان قد فقد ثقة الكثيرين من أتباعه الهيجونت بسبب ما تردد عندئذ من شائعات عن احتمال تغيير هنرى نافار لعقيدته، كما أن

أعضاء الحزب الكاثوليكي أرادوا إنقاذ العرش من ملك بروتستانتي فأعلنوا دوق بوربون من أقرباء هنري ملكًا على فرنسا.

لم يتبين هنري نافار – وسط هذه الظروف المظلمةالتي عرفناها – أملا كبيرًا في الاستنجاد بمعونة انجلترا، إذ كانت اليزابيث عندئذ في حرب صريحة مع فيليب الثاني، فلم يكن غريبًا أن تبادر بنجدته، فقد بعثت إليه بقوة من خمسة آلاف مقاتل (٥٠٠٠) من الإنجليز والاسكتلنديين، على أن هنري نافار ظفر بالنصر على قوات الحلف الكاثوليكي التي كان يقودها "مايين Mayenne" في موقعة "أركس" Arques في ٢١ سبتمبر ١٥٨٩م قبل وصول النجدة التي كان ينتظرها، فلما بلغته تقدم لها مع بقية الجيوش نحو باريس، وكان الأمل عظيمًا في أن يكون لعامل المفاجأة أثره في إسقاط العاصمة الفرنسية. ولكن خبر الغزو المتوقع وصلها في الوقت المناسب. هنالك تحول بقواته نحو نورماندیا لتخليصها من جيوش الحلف، نظرًا لأهمية المقاطعة في الاتصال المباشر مع انجلترا وإمداداتها. فحاصرت هذه القوات "درو Dreux"، ونظرًا لأهميتها بادر "مايين" بنجدتها وعند التحام الطرفين على مقربة من هذا الموقع ظفر بالنصر في معركة "ايفري" Ivry في مارس ١٥٩٠م.

كانت "ايفري" من المواقع الحاسمة في تاريخ هنري نافار. ويرجع الانتصار فيها إلى تفوق فرق المشاة بجيشه، كما أن هنري كقائد لفرق الفرسان اتبع طريقة ألمانية جديدة في القتال كان لها أثرا في انتصاره في هذه الموقعة. وكان لهذا الانتصار كذلك أثره في ازدياد شعبية هنري، وترد ما يشبه الأساطير حول إسمه؛ فأخذ الجميع يشيدون بشجاعته وإنسانيته، وتفوقه في ميادين القتال. وقد عفا عن الفرنسيين الذين وقعوا في قبضة يده، ولكنه لم يتوان في قتل الألمان الذين انضموا لأعدائه بعد أن كانوا يعملون ضمن صفوفه؛ وكثيرا ما أظهر عطفه على فقراء الفرنسيين، كل هذه الصفات الحميدة علقت باسمه وجعلته أكثر ملوك فرنسا شعبية. وقد كان في الواقع يتمتع بكافة هذه الصفات الحميدة.

كانت موقعة "ايفري" حاسمة لدرجة أنه كان من الواضح أن باريس لن تلبث أن تخضع لهنري، إذ ما بادر بالتقدم نحوها، وقد نوقشت أسباب تأخره في

إنجاز هذا الأمر كما اختلف المؤرخون فيها. واتضح أن السبب الرئيسي أنه لم يكن في استطاعة جيشه بعد هذه الانتصارات أن يقوم بهجوم سريع على باريس، فلم تتقدم القوات لمحاصرة باريس إلا في مايو ١٥٩٠م. وكان أعوان الحلف الكاثوليكي يختلفون فما بينهم وكان لاختلافهم يومئذ دوى، ولكن الحصار اسكتهم بعض الوقت. وقد كان المعروف أن برلمان باريس لا يرضى الاعتراف بأى قوة أجنبية ولو كان مصدرها البابا أو أسبانيا الكاثوليكية. ولكن عندما هاجم هنرى نافار باريس كان السفيران الأسبانى والبابوى يتمتعان بنفوذ عظيم. وقد أخذت جماعة الجزويت والوعاظ يثيرون حماس الشعب الدينى. كان انتصار هنرى يبدو يومئذ أمرًا محققًا، فقد انتشرت المجاعة في المدينة ومعها انتشر الوباء. وكانت باريس في حالة أسوأ بكثيرمما كانت عليه عندما حاصرها هنرى الثالث أثناء الحروب الدينية ولكن الباريسيين كانوا يعرفون أن استسلامهم معناه تنصيب ملك من الهيجونت عليهم.

لم يلبث هنرى نافار أن فقد هذه الفرصة الفريدة للاستيلاء على باريس عندما تقدمت القوات الأسبانية وعلى رأسها دوق بارما Parma من الأراضى المنخفضة؛ ذلك لأن قضية الحلف الكاثوليكى كانت في الوقت نفسه قضي ملك أسبانيا فيليب الثاني؛ فقد كان انتصار هنرى نافار وسيطرته على الموقف في فرنسا معناه فقدان فيليب الثانى لأطماعه فيها وربطهما بعجلة السياسة الأسبانية. وقد استطاع دوق "بارما" أن ينقذ باريس من الحصار، وكانت هذه العملية البحرية التى قادها من أبرع ما شاهدته الاستراتيجية وقد كشفت عن مدى تفوق قيادة دوق بارما للقوات الأسبانية. فاستولى دوق بارما على "لانيى" Lagny، وأرسل إلى باريس بعض المؤن والذخائر، وتحدى هنرى عندما أبى أن يواجهه في قتال، فعاد عندئذ أدراجه إلى الأراضى المنخفضة.

ونجت بذلك باريس من الحصار. ولكن بعد الخطر عنها جعل الانقسام يعود إلى الحلف الكاثوليكى من جديد بسبب خلو عرش فرنسابموت الكاردينال

"بوربون" أثناء حصار باريس بعد أن نودى به ليشغله، وأصبح الموقف يحتم اختيار ترشيح جديد للعرش الفرنسي. وكان أمر ذلك ليس بالشئ اليسير، فهذا فيليب يرى الفرصة سانحة فيتطلع إلى العرش الفرنسي، ومستندا في ذلك على أن صليبه يحميه، فخطر له نفى سعيه هذا أن يجعل من نفسه حاميًا لفرنسا Protector of France، وقاوم غالبية الفرنسيين تلك الأطماع نظرًا لأن تحقيقها معناه تحويل فرنسا إلى التبعية لأسبانيا. وانقسم أعضاء الحلف على أنفسهم عندما ظهرت مطامع البعض في العرش.

على أن مركز هنرى نافار كان مليئا بالصعوبات فهو يدين بالبروتستنتية، ولذلك لجأ إليه الكثيرون من مؤيديه من الكاثوليك يذكرونه بوعده، ويحثونه على التحول إلى الكاثوليكية، بينما أصدر البابا قرارًا ينفر الكاثوليك منه، ويدعوهم إلى الانفضاض من حوله. كما بدأ الهيجونت يشكون في نواياه وإخلاصه لهم، ولاسيما بعد أن وصلت إليهم أخبار احتمال تحوله عن عقيدتهم. كما أعلنت جامعة السوربون أنه لن يتمكن من اعتلاء عرش فرنسا حتى ولو تحول إلى الكاثوليكية كان عليه عندئذ أن يعتمد على المساعدة الأجنبية مرة أخرى، وآية ذلك أن أرسلت له اليزابيث معونة من المال مع ستة آلاف مقاتل ٦٠٠٠ كما جاء لنجدته من ألمانيا ١٢ ألف جندى.

هنرى نافار يصبح الملك هنرى الرابع

أرهقت الحروب الدينية الطويلة فرنسا، فنضبت موارد البلاد ونزل البؤس بالشعب، ولذلك اهتم هنرى الرابع مؤسس ملكية البربون بفرنسا بوسائل الإصلاح الداخلي من حيث تنظيم شئون المملكة حتى يعود الرخاء بانعاش الزراعة والصناعة والتجارة. واعتمد الملك على مؤازرة كثيرين في إتمام هذا الإصلاح، وكان في مقدمة من اعتمد عليهم كان دوق صلى Sully وهو بروتستنتى – أدخل عدة إصلاحات أهمها إنقاص المصروفات العامة والموازنة بين الدخل والمنصرف، وجمع الضرائب من الأغنياء الذين كانوا معفين من دفعها في الماضي، وتنظيم طرق جباية هذه الضرائب.

وكان نظام الضرائب فى فرنسا يختلف تمامًا عنه فى انجلترا، فقد كانت أعباء الضرائب على الفرد الفرنسى العادى أكثر منها على مثله فى انجلترا، ونظام التمييز أكثر وضوحًا فى فرنسا من فى انجلترا، وبيع الوظائف أكثر أهمية ووضوحًا فى فرنسا، ولم يكن هناك برلمان منتخب ينتقد سياسة الدولة فى هذا الصدد، كما لم يستخدم ملاك الأراضى فى الأقاليم كأعوان للحكومة على تنفيذ نظامها كما هو الحال فى انجلترا، وكان المصدر الأكبر للإيراد يحصل من ضرائب "التاى" Tailles (الأرض)، وكلها ضرائب على الأرض والمنازل تفرض على الطبقات التى لا امتيازات لها. ومن هذه الضرائب كانت تتكون نصف موارد الدولة الطبيعية. ثم يليها ضريبة الملح La Gabelle الذى احتكرت الدولة الإتجار فيه. وكان عبؤها الثقيل يقع على الطبقات الدنيا. لم يقترح "صلى" أو غير إلغاء نظام الامتيازات ولكنه قلل من أعداد أصحاب الامتيازات، وقد استطاع عن طريق إدراته المالية الحازمة أن يترك خزانة الدولة عند مقتل الملك هنرى الرابع عامرة بالأموال ' ثم اهتم صلى بتعبيد الطرق وشق القنوات، وأستطاع بذلك أن يفيد الزراعة وأن ينهض بها. ولم يكن صلى يميل لتشجيع الصناعة والتجارة خوفًا من أن ينصرف الناس عن الزراعة، فيقصروا اهتمامهم على الكماليات، ويهاجرون إلى المدن، فكان ذلك من أهم ما يعاب على سياسة صلى الاقتصادية. ولقد كان الملك أبعد نظرًا من وزيره فى هذه المسألة، فأخذ يشجع الصناعة، واستعان ببعض الهجونت فى صناعة الحرير، واتسع نطاق هذه الصناعة وازدهرت على وجه الخصوص فى "بواتو Poitou"، وزاد التبادل التجارى بين فرنسا وغيرها من الدول فأصبح من صادراتها كثير من نتاج الصناعات المختلفة وخاصة فيما يتعلق بالكماليات مثل الخيوط الذهبية وألوان الزجاج وأنواع مختلفة من المنسوجات الحريرية.

وقد تحقق الكثير من مشروعات الحكومة، فزاد الدخل وانخفضت قيمة الديون، وتبدلت أحوال فرنسا، فبعد أن كانت عند تولية الملك هنرى الرابع تعانى

من ثقل الديون والاضطرابات المالية أصبحت عند انتهاء حكمة وقد تخلصت من ديونها وازدهرت أحوالها الاقتصادية.

ومن ضمن سياسته الداخلية أنه أصدر ١٥ ابريل ١٥٩٨ مرسوم نانت، الذى منح الهيجونت حقوقاً سياسية مساوية لحقوق الكاثوليك، ولكنه لم يضمن لهم على أى حال الحرية التامة فى ممارسة عقائدهم الدينية منح المرسوم حق ممارسة عقيدة الإصلاح للنبلاء الذين يملكون حق محاكمة المجرمين (الأسياد من علية القضاة) وللمواطنين فى عدد معين من المدن والبلدان، ولكنه حرمه فى جميع المدن الأسقفية أو التابعة لرؤساء الأساقفة وفى البلاط الملكى، وفى باريس، وكذلك فى نطاق عشرين ميلاً حول العاصمة. وفتحت أبواب الوظائف العامة أمام الهيجونت وأنشئت المجالس النيابية المختلطة فى البرلمانات الأربعة (فى باريس، وتولوز وجرينوبل وبوردو). وحصل الهيجونت على بعض المدن المحصنة، واعترف بهم إلى حد ما كحزب سياسى مسلح. ولم يسجل البرلمان مرسوم نانت إلا بعد تأخير طويل. وإن كان المرسوم لم ينشئ شيئًا مثل "كنيسة حرة داخل دولة حرة"، فإنه قد اعترف قانوناً بنوع من التسامح لم يكن بعد معروفا بطريقة رسمية فى أى مكان آخر.

لقد قيل عن مرسوم نانت أنه يستحق أن يعتبر تاريخًا فى تاريخ العالم لأنه دشن عهد التسامح والتساهل الدينى وفى الواقع أن الرعايا فى جميع الدول فى ألمانيا وانجلترا وإسبانيا كانت مضطرة تحت طائلة النفى، إن لم يكن تحت طائلة الموت، أن تدين بديانة مليكها كانت كاثوليكية أن بروتستانتية. أما فرنسا فكانت الأولى التى تبنت نظام الحرية الدينية ولقد قبلت فرنسا بهذا النظام، لا عن احترام حقيقى لحقوق الوجدان، بل لأنها كانت مضطرة لقبوله بحكم العقل والفطنة اللذان امتاز بهما هنرى الرابع .. على أن مرسوم نانت، وإن كان عادلا وموفقا فى أحكامه الأساسية، إلا أنه لم يلق حسن القبول من كثير من الكاثوليك، حتى أن هنرى الرابع بذل كل ما فى وسعه من رجاء تهديد لدى البرلمانات حتى حصل على حق

التسجيل لهذا المرسوم. واضطر أن يمنح الكاثوليك امتيازات، كما هي الحال في عام ١٦٠١م عندما استدعى اليسوعيين إلى العودة إلى المملكة بعد أن طردوا منها.

ومنذ أن أقر مرسوم نانت ومعاهدة فيرفن السلام في الداخل والخارج انصرف هنري الرابع إلى تنظيم فرنسا وإرجاع السلطة الملكية. وكان يجد أن خير إصلاح للإدارة إنما يتلخص في تركيز السلطة في يده فأعاد تنظيم المجلس الملكي "Conseit du Roi" وكان هذا المجلس هو السند القوي لملوك فرنسا، وقد بذل ملوك أسرة الفالوا Valois من قبل جهودًا عظيمة في تنظيمه لإعلاء شأنه. فزادوا من عدد أعضائه على حين خفض هنري الرابع من عددهم، كما أنه قد حد من نفوذهم، وكان الملك وحده صاحب الحق في تعيين أعضائه، كما كان يشرف ويسيطر على المجالس المختلفة كافة، المجلس الخاص، ومجلس الدولة والدولة والمالية مستخدمًا في ذلك سيطرته أول الأمر على المجلس الملكي. ورفض هنري الرابع برغم رجاحة عقله أن يدعو مجلس طبقات الأمة للانعقاد، كما رفض أن يشرك معه رعاياه في التمرس بالقيام بأعباء الحكم.

وإذا كان مجلس طبقات الأمة في عهده ضعيف الشأن فإن برلمان باريس كان يتمتع بنفوذ كبير، ولم يكن هنري الرابع يفكر في القضاء على ذلك النفوذ، لأن رجال القانون أعضاء هذا البرلمان كانوا العون الرئيسي للملكية ضد مطالب النبلاء ورجال الدين، ولذلك لم يعمل على الحد من سلطانه. على أن هؤلاء الأعوان المخلصين للملكية أثبتوا فيما بعد أنهم خطر لا يستهان به عليها. واتخذ هنري الرابع من الإجراءات ما يزيد من استقلال البرلمان، ولكنه بذلك مهد له السبيل إلى تحدى الملكية، فاستحدث في عام ١٦٠٤م نظامًا جديدًا بالنسبة للتصرف في مقاعد البرلمان الشاغرة. وقبل صدور هذا النظام كان أعضاء البرلمان يشترون مقاعدهم بالمال ولهم حق بيعها ولكن تحت شروط معينة. وكان التغيير الجديد الذى طرأ على هذه

الطريقة هو إلغاء تلك الشروط، فأصبحوا أكثر حرية في بيع تلك الوظائف، وإذا مات أحد الأعضاء، ولم تبادر الدولة بالتصرف في مقعده في البرلمان فإنه يصبح ملكًا لأرملته أو لوريثه. وهكذا أصبحت العضوية في البرلمان نتيجة للنظام الجديد مستقلة وراثية، ولم يعد للملك أي نفوذ عليها. وكان الملك يحصل على قيمة العضوية سنويًا مما يوفر له في النهاية قدرًا كبيرًا من المال.

وفي عام ١٥٩٩م طلق هنري الرابع زوجته "مرجريت فالوا التي تزوجها ١٥٧٢م لأنه لم ينجب منها أطفالا، وتزوج من ماري دي مديتشي Marie de Medici وهي من ذوي قربى كاترين دي ميدتشي فأصبح له طفل ذكر في عام ١٦٠١م مؤمّلا في أن يصبح من بعده ملكًا، بذلك ضمن هنري بقاء العرش في أسرته. على أن هذا الزواج الجديد قد ضاعف من تدبير المؤامرات حوله. وقيل إن محاولات اغتياله قد بلغت اثنتي عشرة مرة.

أما في مجال السياسة الخارجية، فقد سلك هنري الرابع بعد معاهدة فيرفن سياسة سلمية رشيدة رائدها المصلحة القومي. ولكنه كان يهتم أيضًا برفع اسم فرنسا عاليًا في الخارج، ففي عام ١٦٠٠م حصل نزاع بينه وبين دوق سافوى أدى إلى حرب قصيرة كانت منها ضم بريس ويوجبه إلى فرنسا.

واكتفى هنري الرابع بدعم الأقاليم المتحدة السبعة في البلاد المنخفضة والأمراء البروتستانتيين ضد آل الهابسبورج في أسبانيا والنمسا. إلا أن الأمبراطور صادر إرث آل كليف في المنطقة الرينانية عام ١٦٠٩م، فاحتج هنري الرابع بحرارة واشتد الخلاف حتى أن حربًا عامة بدت محتملة الوقوع في بداية عام ١٦١٠م، وذكر صولي أن الغاية من هذه الحرب تحقيق المشروع الأكبر الذي يرمي إلى تهديم البيت النمساوي وطرح الأتراك في آسيا، وإلى تعديل عام في الدول لتأسيس دول متحدة حقيقية في أوروبا، غير أن هذا المشروع الكبير لم يوجد إلا في خيال صولي وحده، ولم نجد أي مفاوضة لتحقيقه، وكل ما يمكن قوله في هذا الصدد هو أن هنري الرابع يعتبر النضال ضد أسبانيا والنمسا ضرورة قومية، ولكنه يدرك الأخطار

التي تتأتى عنه، وترد بالقيام في الحرب، ولم يقرر ذلك عام ١٦١٠م إلا استجابة منه لداعي الهوى.[1]

أما عصر الوزراء، أو فرنسا في عهد الملك لويس الثالث عشر (١٦١٠ – ١٦٤٣) وريشيليو (١٦٢٤ – ١٦٤٢).

عند وفاة هنري الرابع سنة ١٦١٠ كان ابنه لويس الثالث عشر يبلغ من العمر تسع سنوات، ولذلك فإنه وضع تحت وصاية والدته ماري دي مديتشي. ولو واجهت الوصية على العرش الموقف بكل حزم، خاصة وأن زوجها كان يطلعها قبل وفاته على شئون الدولة. واستعانت بوزير لكي يسهل لها تسيير الأمور، وكان إيطاليا مما أدى إلى وقوف أبناء عم الملك الصغير ضده، وبخاصة دوق كونديه، فاتهم في إسرافه في الميزانيات العامة. ومع ذلك فقد كانت سياسة الوصية تسير صوب تدعيم السلطة المطلقة للجالس على العرش. وحين اجتمع مجلس طبقات الأمة في باريس سنة ١٦١٤م وظهر الانقسام فيه بين نواب النبلاء ونواب الطبقة الثالثة، حول مسألة إعطاء ألقاب النبل لعدد من رجال الطبقة الثالثة، وحين تقدم أعضاء المجلس ببعض الالتماسات، تقرر وقف اجتماعات مجلس طبقات الأمة، وبشكل يجعل الملك يحكم بسلطة مطلقة وسيظل مجلس طبقات الأمة معطلا، بدون اجتماع، حتى نشوب الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م.

ولقد واجه النظام الملكي بعد ذلك ثورة دوق كونديه سنة ١٦١٦م وحتى بعد أن فقدت ماري مديتشي السلطة في العام التالي، دخلت فرنسا في صراع عنيف بين الكاثوليك والبروتستانت. وأثر ذلك على طبيعة الأوضاع والقوى الموجودة، وقت وصول ريشيليو إلى الوزارة سنة ١٦٢٤م، وفي السنوات التالية لذلك. ولقد وضع ريشيليو لنفسه مبدأ هو رفض إنشاء الهيجونت لسلطة تشارك الملك سلطته المطلقة، أو تقتسمها معه. ولذلك فإن ريشيليو صمم على تدمير مجموعة الهيجونت، والتقليل من تعالي كبار الأمراء، ووضع كل الرعايا أمام واجباتهم تحت سلطة الملك المطلقة. ولقد نجح ريشيليو في ذلك، وتمكن من إعادة قوة فرنسا الخارجية.

وعمل ريشيليو بعد ذلك على تنظيم الإدارة، وعلى إنشاء جيش قوى وبحرية لها قيمتها. وبعد أن كان عدد الجيش لا يزيد سنة ١٦١٠ عن ١٠ آلاف رجل، وصل عدده إلى ٦٠ ألف سنة ١٦٢٩م، وإلى ١٤٢ ألف من المشاة و٢٢ ألف من الفرسان ١٦٤٠م.

أما البحرية، فقد زاد عدد قطعها، وأصبح هناك أسطول غربى للمحيط الأطلسى وأسطول آخر للبحر المتوسط، وأفاد ريشيليو من الأوضاع الإدارية الموجودة، وعمل على تحسينها، حتى يزيد السلطة المركزية على الأقاليم، ويقضى على النفوذ المحلى للحكام. وكانت الهيئة الرئيسية للحكومة هى مجلس الملك، أو مجلس الدولة الذى عمل تحسينها، حتى يزيد السلطة المركزية على الأقاليم، ويقضى على النفوذ المحلى للحكام. وكانت الهيئة الرئيسية للحكومة هى مجلس الملك، أو مجلس الدولة، الذى عمل ريشيليو على إعادة تنظيم منذ سنة ١٦٣٠م، وجعله يضم، ولأول مرة، وزيرًا للحربية، ووزيرًا للشئون الخارجية.

أما فيما يتعلق بالبرلمان، فإن ريشيليو قد حافظ عليه، واهتم بنوع خاص ببرلمان باريس الذى كان قد لعب دورًا مهمًا فى حياة العاصمة أثناء الحروب الدينية. وإذا كان هذا البرلمان أحتج من وقت لآخر على سلطات ريشيليو، إلا أنه طوعه على العمل، ولفت نظره، أكثر من مرة، وبعد إبعاد العناصر المستقلة، إلى أن وظيفته الأساسية هى الفصل فى قضايا المتخاصمين. وهكذا أصبحت برلمانات فرنسا وبخاصة برلمان باريس، محاكم أكثر من كونها هيئات أو مجالس تشريعية.

أما سياسته إزاء الهيجونت، فقد كان واضحًا أمام ريشيليو منذ أول عهده بالسلطة أن أهم ما تقتضيه العناية وبذل الجهد هى مسألة القضاء على النفوذ السياسى للبروتستانت. كان ريشيليو من القلائل الذين اشتهروا بتسامحهم الدينى، ولذلك لم يكن فى نزاعه ضد البروتستانت فى فرنسا ليتعرض لعقائدهم الدينية وإنما أراد أن يسلبهم تلك الامتيازات السياسية التى منحهم إياها "مرسوم نانت" فجعلهم قوة لا يستهان بها فى مقاومة الملكية والتصدى لها، سمح لهم هذا المرسوم بامتلاك

عدد كبير من القلاع والحصون في مدن عديدة زادت على المائة. وكانت لهم مجالسهم الخاصة التي يناقشون فيها مشاكلهم السياسية والدينية. وقد أظهروا اهتمامًا في هذه المجالس بالاستعداد العسكري، وكانت السلطات المناوئة للحكومة القائمة في فرنسا تستعين بهذه القوات. فقد حدث أن استعان بها كونديه عندما نأوا الملكة "ماري دي ميدتشي" كما أستعانت بها الملكة الأم نفسها عندما أبعدت عن الحكم. وكان حصن"لاروشيل" من أقوى معاقلهم، لذلك وجه ريشيليو جهوده لإسقاطه، ونجح في إسقاط الحصن في أكتوبر ١٦٢٨م، بعد حصار دام خمسة عشر شهرا. وقد أمن ريشيليو السكان على حياتهم وأملاكهم وعلى تأدية صلواتهم بكل حرية، ولكنه انتزع منهم الاستقلال الذي كانوا يتمتعون به من قبل، وجردهم من امتيازاتهم السياسية وحطم حصونهم، ومنح الكاثوليك الحرية الكاملة لتأدية شعائرهم الدينية في تلك المواقع. واستطاع ريشيليو في العام التالي أن يكلل جهوده ضد الهيجونت بالانتصار على زعمائهم في جنوب فرنسا، وأن يعقد معهم ما يعرف بصلح أ"اليس" Alais سنة ١٦٢٩م، وقد جددت بمقتضاه البنود الدينية لمرسوم نانت. ونجح ريشيليو في استرداد كافة المواقع المحصنة التي كانوا يسيطرون عليها وأن يقضي بالتالي على نفوذهم السياسي وعلى الخطر الذي كانت تتعرض له الملكية في فرنسا من ذلك النفوذ.

وكانت مهمة ريشيليو التالية إخضاع النبلاء الذين كانوا ينقمون عليه ويحاولون الإيقاع به أو اغتياله، ويعتمدون في التآمر ضد ريشيليو على شقيق الملك جاستون Gaston دوق أورليان الذي كان العوبة في أيديهم ولكن ريشيليو لم يلبث أن كشف هذه المكائد وأعدم الذين دبروها، واضطر جاستون إلى الخضوع خضوعا مهينا. وقد تعرض ريشيليو لخطر أشد عندما انقلبت عليه ماري مديتشي التي لاحظت أن السلطة كادت تفلت من يدها وساءها أن الكردينال في سياسته الخارجية في خطة معادية لأسبانيا، بينما كانت اليزابيث ملكة أسبانيا ابنة ماري مديتشي وفي المؤامرات الجديدة انضم إلى ماري مديتشي ابنها جاستون وعدد من النبلاء. ولما

كان ريشيليو قد ظفر بكل ثقة الملك فقد أخفقت كل هذه المؤامرات، كما أخفقت ثورة كان قد دبرها النبلاء في لا نجدوك. وعوقب أشهر المؤتمرين وكان دوق دى مونتمورنس من أعرق الأسر النبيلة بالإعدام، فجاء إعدامه درسًا قاسيًا لهؤلاء النبلاء. ومع أن المؤامرات استمرت تتجدد في السنوات التالية ضد ريشيليو، فقد انتصر الكاردينال على خصومه تمامًا سنة ١٦٤٢م.

ثم أن ريشيليو في أثناء هذا الصراع كله. استطاع أن يسدد للنبلاء ضربات قاصمة أصابت نفوذهم القديم، وقضت عليه، وذلك عندما أمر بهدم قصورهم الاقطاعية، وكانت هذه بمثابة حصون منيعة لهم.

وفي ميدان السياسة الخارجية نجح ريشيليو في وضع البرنامج الذي أراد به أن تحرز فرنسا التفوق السياسي في أوروبا. وذلك برنامج اقتضى تنفيذه أن تدخل فرسا في نضال مع أسبانيا والنمسا، أي مناصبة العداء آل الهابسبورج في أوروبا. وعلى ذلك لم تمنع حقيقة أن ريشيليو كان كاثوليكيًا من أن يتفق الكاردينال مع الدول البروتستنتية ووقع أول اشتباك بينه وبين أسبانيا عندما ثار أهل جمهورية جريسون Grisons الكاثوليك ضد حكومتهم، وكانت هذه بروتستنتية. وتقع الجمهورية بين النمسا من الشمال، والتيرول من الشرق والبندقية وميلان من الجنوب وسويسرا من الغرب. فانتهزت أسبانيا فرصة هذه الثورة واستولت على سهل فالتلين Valtelline وهو من أقاليم الجمهورية، ويقع في جزئها الجنوبي، لأنه كان لفالتلين أهمية كبيرة باعتباره حلقة اتصال بين أملاك أسبانيا في إيطاليا وبين النمسا. فلم يلبث أن تدخل ريشيليو لموازرة الجمهورية البروتستنتية واستطاع تخليص البلاد من الجنود الأسبان، ومن جنود البابوية. وأعاد سهل فالتلين إلى جمهورية جريسون ولكن ريشيليو بسبب مشغولياته الداخلية لم يتمكن من استكمال هذا النصر فاضطر إلى عقد الصلح مع أسبانيا (معاهدة مونزون Monzon في مايو ١٦٢٦م وكان بعد ثلاث سنوات أن تجدد العداء بين فرنسا وأسبانيا بسبب وفاة دوق مانتوا ومونتفرات Montferrat ن غير وارث للعرش. فقد كان أقرب أصحاب الحقوق في وراثة العرش من بعده، أحد الموالين لفرنسا وهو الدوق دى نيفير Nevers، فقررت أسبانيا صاحبة

النفوذ الأعلى فى إيطاليا، أن تحول دون استيلاء فرنسا على هذه الدوقية (مانتوا)، وطلبت إلى الامبراطور فردناند الثانى أن يتدخل في المسألة، كما أنها قدمت ناحيتها مطالبًا بالعرش. وعندئذ أرسل ريشيليو الجيوش لموازرة دى نيفير، وترأس هذه الجيوش بنفسه (١٦٢٩ – ١٦٣٠) والحق الهزيمة بالأسبان وحلفائهم وفى الصلح الذى أبرم فى شيراسكو Cherasco فى سنة ١٦٣١م تم الاعتراف بحق دوق دى نيفير فى وراثة عرش مانتوا وبقيت فى حوزة فرنسا مدينة بينيرولو Pinerolo المحصنة في بيدمنت، وكانت فرنسا قد استولت عليها منذ مارس ١٦٣٠م – وبذلك صار لفرنسا موقع تعمل على نشر نفوذها فى إيطاليا، كما أنها استطاعت الاستيلاء على "مكان" يسهل عليها أن تجتاز منه الألب إلى سهول إيطاليا الشمالية.

لم يتوان ريشيليو كذلك في مساعدة البروتستانت فى الأراضى المنخفضة وفى ألمانيا ومساعدة ملك الدانمرك في حرب الثلاثين عاما بالمال والرجال، كما أنه أمد الملك "جوستان أدولف" ملك السويد عندما أخذ على عاتقه حماية بروتسنانت ألمانيا بالمال والرجال.

وعاون ريشليو هولندا التى بدأت من جديد حربها ضد أسبانيا فى عام ١٦٢١م بعد انقضاء مدة الهدنة بينهما وكانت تبلغ اثنتى عشر سنة. وفى هذا سار ريشيليو على نهج سياسة هنرى الرابع، واتبع سياسة استمرت إلى أن جاء لويس الرابع عشر فلم يتبعها. أراد ريشليو بهذه الخطوة أن يحصل على أكثر من استقلال هولندا الذى كان قد تم الحصول عليه تقريبًا، لقد أراد أن يخلص مدن بلجيكا من سيطرة أسبانيا حتى يتقاسم مع هولندا شيئًا من تلك الغنائم، بل كان يطمع فى تقسيم بلجيكا بينه وبين هولندا، وإذا كان لم ينجح في ذلك، فقد نجح لويس الرابع عشر فيما بعد عندما ضم إلى فرنسا "أرتوا" Artois ودنكرك "Dunkirk" وأجزاء من بلاد الفلاندر Flanders و"هنولت" Hainault فبقيت كلها تحت سيطرة فرنسا، وانتهت تلك الحرب الطويلة بين هولندا وأسبانيا عام ١٦٤٨م عندما اعترفت أسبانيا باستقلال هولندا فى صلح وستفاليا الذى ختم حرب الثلاثين عامًا.

عهد الوزير الأعظم مزران (١٦٤٣ - ١٦٦١)

كان لويس الثالث عشر قد أوصى بأن تكون أن زوجته النمساوية وصية على أبنها لويس الرابع عشر، وأشرك معها مجلسًا للوصاية. ولكن البرلمان قرر أن تكون الملكة الوالدة وصية بكامل السلطات، أي بدون مجلس يشاركها في ذلك. وكانت الملكة آن عدوة للكاردينال ريشيليو، ومع ذلك فأنها عينت الكاردينال مزران رئيسًا لمجلس الدولة أو الحكومة.

وكان مزران إيطالي الجنسية، وحصل على الجنسية الفرنسية سنة ١٦٣٩ بعد أن كان من رجال البابا. وكان يختلف عن ريشيليو في كل شئ، فبينما كان ريشيليو جنديًا، ويسير ووراءه حرس كبير، وله حاشية ملكية، كان مزران بسيطًا متواضعًا، يحادث الجميع، ويجالسهم، ولم يكن له من الحياة العسكرية أي شئ، ولكنه كان عبقريًا في دبلوماسيته، وبدرجة تفوق ريشيليو، أما من ناحية الإدارة فكان لا يصل إلى مستوى ريشيليو.

وهكذا كان على مزران أن يواجه الأوضاع في فرنسا بعد موت كل من "ريشيليو ولويس الثالث عشر. وكانت الأوضاع صعبة بالنسبة له: فكان الكبراء يحاولون استعادة سلطتهم، بعد أن كان ريشيليو قد أحكم قبضته عليهم. وحاول التخلص من مزران، حتى عن طريق الاغتيال. وكان الفلاحون، وهم الغالبية العظمى للشعب، يعيشون في ظروف قاسية، نتيجة للضرائب المرتفعة التي كان يدفعونها. وكانت المالية في وضع سئ خاصة وأن المصروفات كانت تزيد على الإيراد وبكثير. وحاول مزران أن يصلح المالية، كما حاول فرض ضرائب جديدة. وستكون هذه الضرائب أساس وقوف كل من برلمان باريس ثم مجموعة من الأمراء ضد مزران وسياسته؛ ويحاولون عن طريق هذه المعارضة فرض شروطهم على السلطة الملكية، والحصول بالتالي على جزء من سلطتهم المفقودة. ومع أن - مزران - سار على سياسة ريشيليه إلا أنه اتبع وسائل أخرى في تنفيذها، لم تعجب أمراء

البيت المالك والنبلاء وبرلمان باريس دعامة الشعب. حتى قيل فيه "ظهر الثعلب بعد اختفاء الأسد" وذلك بسبب ما كان الجميع يلاحظونه من تباين في أخلاق ريشيليه ومزران: أحدهما يعتمد على الحزم والشدة، والثاني يعتمد على الخداع.

وقد اشتد السخط على حكومة مزران بسبب الضرائب التي فرضت لتمويل الحروب العديدة التي خاضتها فرنسا خصوصا الحرب الألمانية والحرب الأسبانية التي استمرت أحد عشر عامًا بعد صلح وستفاليا. والواقع أن صلح وستفاليا كان أكبر نصر حازه مزران. ولكنه على أي حال لم يكسبه التأييد المنشود من الرأي العام الفرنسي، بل على العكس. ما أن انتهت فرنسا من الحروب التي اشتركت فيها أثناء حرب الثلاثين عاما حتى هبت العناصر المعارضة للحكومة والساخطة على سياسة مزران، تبذل جهدها لمقاومة نظام الحكم، ومن ثم ثارت قلاقل داخلية عرفت بحرب الفروند Fronde.

وكان سبب هذه الحركات الثورية أن الحروب السابقة كلفت الدولة نفقات طائلة وترك ريشيليو عند وفاته خزائن الدولة خالية من المال. كما خلف دينًا ثقيلًا. وكان نظام الضرائب الصارم موضع سخط شديد. أضف إلى هذا إسراف الملكة آن النمساوية وما أنفقته الحكومة في استمالة النبلاء وشراء مساعدتهم لها. حتى استنفدت الحكومة بسبب ذلك كله إيرادات السنوات الثلاث التالية مقدمًا. وتأخرت رواتب الجند وموظفي الحكومة ولم يكن مزران خبيرا بالشئون المالية بل اعتمد في هذا على أحد الإيطاليين المغامرين الذي أخذ على عاتقه أن يملأ خزائن الحكومة، وأن يقتطع جانبا من الأموال لنفسه كذلك، ذلك بابتكار أنواع جديدة من الضرائب وإحياء الأوامر الملكية القديمة وتحصيل الغرامات من مخالفي هذه الأوامر وإنشاء الوظائف وبيعها والاستدانة بفوائد باهظة وبيع ألقاب النبل والشرف وغير ذلك من التدابير التي أثارت السخط العام وزادت في بؤس البلاد وشقائها وهيأت الأفكار للثورة ضد الحكومة.

وحدث أول اشتباك بين الحكومة والعناصر المتذمرة في عام ١٦٤٤ وذلك عندما رفض برلمان باريس - وكان هيئة محكمة قضائية ذات حق في تسجيل أوامر الملك، ولم يحدث أن تقرر ما إذا كان من حقه رفض تسجيل هذه الأوامر - رفض تسجيل بعض الضرائب التي اعتزم d'Emery تحصيلها. ثم تجدد النزاع بصورة شديدة في عام ١٦٤٨ عندما رفض البرلمان تسجيل عدد من الأوامر المالية الجديدة، وقدم مطالب إلى البلاط يبغي من ورائها الإشراف على الضرائب وإلغاء وظائف المأمورين Intendants في الأقاليم وضمان حرية الأفراد ضد الحبس من غير محاكمة - كما كان يحدث عندما يصدر الملك أمرًا أو خطابًا بذلك يعرف باسم الخطابات المبصومة أو الممهورة. وكل هذه المطالب من شأنها إضعاف سلطان الملكية. وقد أدرك مزران ذلك وأراد أن يقضي على تلك الحركة، فانتهز فرصة انتصار "كونديه" على جيش الامبراطور في Lens في أغسطس سنة١٦٤٨ فقبض على بعض زعماء المقاومة ضد الحكومة في البرلمان، فقامت المظاهرات في باريس وانضم كونديه Condi(الكردينال دي رتز Retz منذ سنة ١٦٥٢). إلى المشاغبين فاضطر مزران إلى إطلاق سراحهم وإجابة مطالب البرلمان. لكن عندما انتهت حرب الثلاثين عامًا حاصرت جيوش الملك باريس فانتشرت المجاعة في العاصمة، ثم وقع الانقسام بين البرلمان والنبلاء لتضارب مصالح الفريقين - لأن البرلمان أراد أن يتخذ لنفسه خصائص دستورية حتى يلعب دورا مماثلا للدور الذي كان يلعبه في هذه الآونة البرلمان الإنجليزي - ولذلك عقد البرلمان صلحا مع الحكومة (معاهدة رويال Reueil في مارس ١٦٤٩م) وبمقتضاها تنازلت الحكومة عن بعض مطالبها المالية في نظير أن يتخلى البرلمان عن الدور السياسي الذي كان يقوم به.

أما حرب الفروند الثانية أضعف مبدءا وأشد خطورة وأعظم حزبا، فقد افتتحت باعتقال كونديه Conde صاحب انتصار روكروا Rocroiولينز Lenz وقائد جيش الوصي على العرش في الثورة الأولى، ولم يكن في مقدور أي رجل أو امرأة الصبر طويلا على الادعاءات التي لا تحتمل من هذا الجندي المتعجرف، على أنها

كانت خطوة جريئة من جانب مزران أن يسجن رجلا له مثل القدر من الثروة والمهابة والشهرة. هنالك انفجرت البلاد في موجة عنيفة من الغضب أتت بالقائد تورين على رأس جيش أسباني إلى بيكارى، وأوقدت نار الثورة في بوردو، وأدت في النهاية إلى إطلاق سراح كنديه وفرار مزران (يناير ١٦٥١) وبالرغم من أن كونديه كان في وسعه أن يعتمد على تأييد الحزب الثائر من النبلاء؛ إلا أنه لانحراف مزاجه، كان آخر من يستطيع التوفيق بين صفوف النبلاء من أصحاب السيف والنبلاء من أصحاب الرداء يبدو حتى انفصمت عراه. ثم أن الوصية قد كرست نشاطها بوحي من مزران لعمل هين وهو إثارة قائد منافس لكونديه ويماثله في غروره وطموحة من دوائر الفروند الداخلية وهو بول دى جوندى Paul de Gondi (أصبح فيما الكاردينال ريتز) زعيم القساوسة والرعاع وكان قد انحاز إلى جانب البلاط على وعد برتبة الكاردينال. ولم يلبث القائد تورين بعد ذلك حتى استسلم لفعل الرشوة. مات كل من الرجلين في موضع يخول له المساهمة في الدفاع عن قضية الملك؛ فكوندى كان ملك رعاع باريس غير المتوج، كما كان في تورين وهو من أم هولندية أعظم جندى نظامي في أوروبا. وفي يناير ١٦٥٢ أعيدت الأمور إلى نصابها حتى أن مزران أصبح قادرًا على اللحاق بالوصية على العرش في أورليان.

وقضى مزران السنوات الأخيرة من حكمة يحاول الوصول إلى الصلح مع أسبانيا وتم ذلك في عام ١٦٥٩م، واستأنف سياسة ريشيليو. وقد انتصرت الجيوش الفرنسية في الأراضي المنخفضة في موقعة روكروا Rocroi عام ١٦٤٣م. وهكذا تحقق النصر الأول للخطة التي وضعها ريشيليو في عهد خليفته مزران. كما أن فرنسا لا تزال في حربها ضد الهابسبورج في ألمانيا وأسبانيا، فقد أعلن ريشيليو هذه الحرب منذ عام ١٦٣٥م على أنها لم تتوقف ولم تنته عند عقد صلح وستفاليا Westphalia في عام ١٦٤٨م تلك المعاهدة التي عقدت بين فرنسا والإمبراطور فرديناند الثالث. فقد ظلت الحرب قائمة بين فرنسا وأسبانيا، وكانت كلتاهما في حالة إعياء شديدة.

ولكن الخراب ساد فرنسا في عصره، وجاء صلح وستفاليا لكي يزيد من عدد العاطلين، وينشر المجاعات في كل مكان. وأعطت هذه الأحوال الاقتصادية والاجتماعية السيئة، نتائجها السياسية، ودفعت فرنسا إلى أن تخضع وفي ظروف الإرهاق للنظام الملكي المطلق والمستبد فيها. وحين بلغ لويس الرابع عشر سن الرشد، وتولى سلطته الملكية، كان لا ينسى الاضطراب والفوضى اللذين سادا في صغره، واجبراه على الهرب من عاصمته. ولذلك فإنه قرر ألا يسمح للفوضى بمكان في بلاده، وطوال حكمه، مهما كلفه ذلك من ثمن؛ فكان ملكًا مطلقًا بكل معنى الكلمة. أما الفرنسيين فإنهم كانوا في حاجة إلى الراحة، ولم يكن لهم من أمل سوى طاعة الملك والخضوع له.

عصر لويس الرابع عشر (١٦٦١ - ١٧١٥):

عند موت مزران في ٩ مارس ١٦٦١ كان لويس الرابع عشر يبلغ الثالثة والعشرين من عمره، وقد أظهر منذ البداية اتجاهه نحو الانفراد بالحكم والتحكم في كيفية إنفاق أموال الدولة، استعان في الحكم بثلاثة من المستشارين "لوتليه Le Tellier للشئون الحربية و "ليون Lionne للسياسة الخارجية وفوكيه Fouquet للشئون الاقتصادية، وكان مركز فوكيه حرجًا بسبب انعدام ثقة الملك في سلوكه، ولا أدل على ذلك من أن الملك عين كولبير مساعدًا له إلا أنه لم يلبث أن حل محله.

على أن موارد فرنسا المتعددة وطاقاتها الواسعة وكثرة عدد سكانها، كل هذه الأمور كانت كفيلة على الرغم من تخلفها عندئذ في الصناعة والزراعة بأن تجعلها تنهض باقتصادياتها. فقد كانت أكثر دول أوروبا القومية سكانًا، ففيها حوالي خمسة عشر مليونًا من المواطنين الذين يعملون في فلاحة الأرض، وما يزيد على خمسة ملايين يرتزقون من ريع أراضيهم أو من مكاسبهم في الصناعة والتجارة، أو من مرتبات يتقاضونها لشغلهم المناصب والإدارية وغيرها.

وعندما بدأت حركة الإصلاحات الاقتصادية في فرنسا أثناء أعوام الستينات ١٦٦٠م استغل لويس الرابع عشر أولئك الإداريين الذين دربهم مزران في هذا المجال، وعلى رأسهم الوزير "كولبير" الذى حل محل "فوكيه" كما استفاد من جهود طائفة الفنانين ممن كان كل من مزران وفوكيه يشجعانهم، ومنهم المعماريون والنحاتون والرسامون.

وقد كان للاستقرار الذى حققه لويس الرابع عشر لبعض الأوضاع القائمة أثره في نجاح الاصلاحات الاقتصادية فكان الملك وحده صاحب الحق في تعيين أعضاء "المجلس الأعلى" Conseli d'enhaut، وكان عدد أعضائه يتراوح بين ثلاثة - أعضاء وخمسة يستدعيه الملك إذ كان في حاجة إلى نصحه ورأيه. استعان لويس الرابع عشر في أمور الحكم بمندوبي الملك في الأقاليم الذي اشتهر أمرهم في عهد كل من ريشيليو ومزران. أصبحوا في عهد لويس الرابع عشر حكامًا مقيمين، بينما كانوا في العهدين السابقين مفتشين متنقلين بين أقاليمهم وعاصمة البلاد حيث مقر الحكومة المركزية.

كان الإصلاح الرئيسي الذى شاهدته الستينات (١٦٦٠)في فرنسا يرتبط بصفة خاصة بالاقتصاد والمسائل المالية. تأثرت ميزانية فرنسا كثيرا بسبب ما انفقت من أموال كثيرة في المدة السابقة لحكم لويس الرابع عشر: أثناء محاربة ريشيليو في العشرينات (١٦٢٠) وعند مقاومة مزران لحركتي الفروند في الأربعينات (١٦٤٠) والخمسينات (١٦٥٠) وهكذا على الرغم من إمكانيات فرنسا الواسعة وطاقاتها الكبيرة وعدد سكانها الكبير؛ فإنها قد تخلفت عن كل من منافستها انجلترا وهولندا في ميدان التجارة وميدان التوسع فيما وراء البحار، وعلينا أن نذكر أن كلا الدولتين قد نجت من التورط في حرب الثلاثين عامًا التى كلفت فرنسا الكثير من المال والجهد.

على أن الإجراءات العديدة التي اتخذت للنهوض باقتصاديات فرنسا وأحوالها المالية عندئذ كانت حكيمة للغاية وموفقة، فاستحقت ثناء رجال الاقتصاد فيما بعد كما استحقت تقريظ كتاب الاقتصاد كذلك. فقد أحييت المصانع القديمة

وانشئت كذلك مصانع جديدة. وكان اهتمام الملك بإقامة القصور الملكية، وتزويدها بكل ما يليق بها من متاع وأدوات للزينة كما تشاهد فى فرساى وفى مارلى Marly عاملا مساعدا ومشجعا على إتاحة فرص كثيرة ومتعددة لبعض الصناعات الفرنسية مثل "الجوبلان" والمرايا "والمنسوجات الرقيقة الرائعة" كما أن ذلك الاهتمام قد فتح مجالات متعددة لعدد كبير من الرسامين والمثاليين والمصورين، وللآلاف من المشتغلين بصناعة الأثاث والأدوات الفضية وغيرها من الصناعات المرتبطة بتزيين القصور.

ثم أن حياة القصر الحافلة بالمسرات الزاخرة بالاحتفالات، أتاحت فرصة العمل للكثيرين من المشتغلين بصناعة الدانتيلا والتطريز والتفصيل والخياطة وصناعة الحلى والأحذية والقبعات واشتهرت بعض هذه الصناعات التى صدرتها فرنسا للخارج مثل الساعات والمنسوجات الرقيقة والدانتيلا والقطع الفنية الرائعة، وبذلك أضافت إلى صادراتها التقليدية من نبيذ ومنسوجات خشنة رصيدًا جديدًا من الصادرات التى عادت عليها بالربح الوفير.

وأنشئ عدد كبير من الشركات التجارية فى حوض بحر البلطيق وفى البحر المتوسط وفى منطقة الهند الشرقية والعالم الجديد. وكان لويس الرابع عشر من أكبر المشجعين لهذه الشركات فساهم فيها بأمواله. كما شجع النبلاء على المبادرة بالإسهام فيها والإقبال على عقد الصفقات التجارية الكبيرة فى عرض البحار. ولا ننسى أن نغفل احتياجات الجيش والبحرية المتزايدة قد ساهمت فى زيادة إنتاج الملابس الرسمية الخاصة بأفراد كل منه، وكذلك إنتاج الأسلحة والبنادق والسفن .

ولقد ارتبط كل ذلك بإنشاء بحرية فرنسية قوية، ونجح كولبير فى إنشاء أسطول تجارى هام. كما عمل على إنشاء أسطول حربى للمحافظة على خطوط المواصلات مع المستعمرات الفرنسية، وبخاصة مع كندا التى كان يرغب فى تحويلها

إلى مقاطعة فرنسية. ووضع نظامًا للتجنيد فى البحرية وانشأ صندوقًا لمصابيها ومدرسة لضباطها.

نجح كولبير فى كل ذلك، رغم العقبات التى كانت تواجهه، والتى كانت تتمثل فى سياسة لويس الرابع عشر العسكرية، وفى ميله إلى البذخ وحياة العظمة، ولقد ابلغه ذلك ولكن لويس الرابع عشر كان ممتلئًا بالغرور نتيجة لانتصاراته، ورفض الاستماع إلى أى نصيحة للاعتدال، ولذلك فإنه تخلص من كولبير واشتهر بعد ذلك لوفوان الذى ظل وزيرًا للحربية لمدة ٢٥ سنة (١٦٦٦ - ١٦٩١).

ولقد أمضى لويس الرابع عشر ثلاثين سنة من فترة حكمه التى بلغت ٥٥ سنة فى الحروب، الأمر الذى أدى إلى تغيير كامل فى النظم العسكرية فى فرنسا، وفى نفس الوقت الذى حدث فيه مثل هذا التغيير فى الدول الأخرى؛ وتحول الجيش من جيش مؤقت إلى جيش نظامى دائم. وبلغ عدد الجيش الفرنسى وقت حرب الوراثة الأسبانية (سنة ١٧١٠) ١٢٥ ألف من المشاة و٤٧ ألف من الفرسان.

ووضع نظام لتدريب هذا الجيش الدائم، ولتنظيمه، وتنظيم تسلسل القيادة فيه، عن طريق قائمة بأقدمية الضباط. ووضعت له الإدارات المختلفة للتموين، الشئون الإدارية ولمستشفيات الميدان. ووضع لوفوان كسوة عسكرية لكل الجنود؛ كما وضع نظامًا دقيقًا للطاعة دون اعتراض بين الجنود، وضباطهم، واهتم بنظام التجنيد، وعلى أساس التطوع، نظير الرواتب والخضوع للنظام العسكرى، وانشأ سلاحين جديدين: هما سلاح المدفعية؛ وسلاح المهندسين، وهو الذى اهتم بالتحصينات على طول حدود فرنسا، واشتهر من بين رجاله الماريشال فوبان. ولقد تمكن فوبان بدوره من إدخال تعديلات على الأسلحة، وبخاصة البنادق، وبشكل جعلها أقل ثقلا، وأكثر فاعلية فى إطلاق النيران، وزود كل بندقية بحربة، تساعد الجندى وقت الالتحام.

وكانت كل هذه الوسائل، الاقتصادية والعسكرية، تساعد لويس الرابع عشر على تطبيق سياسته، وعلى القيام بحروبه فى أوروبا.

ثمة مظهر آخر لما استحدثة أقدام كولبير. يتضح في محاولته تنظيم القانون الفرنسي فأصدر "قوانين لويس" وهي مجموعة من الشرائع المحكمة الوضع تناولت الإجراءات المدنية والجنائية، والتجارة والبحرية. وزنوج المستعمرات (قانون السود) على أنها نظرًا لتمسكها بعقوبة التعذيب، وتحريم المستعمرات على اليهود والبروتستنت، لا تعتبر من المعالم الإنسانية في العالم. على أن تشريع ذلك العصر له أهميته، ليس فقط باعتباره أول خطوة هامة نحو وحدة فرنسا التشريعية التي تحققت بعد ذلك تحت حكم نابليون، بل أيضًا لأنه وضع الخطوط الرئيسية التي لا تزال الإجراءات في محاكم فرنسا تسير بمقتضاها. ولم ينجح كولبير في جمع الشرائع الفرنسية كلها في دستور واحد، وإنما ظلت تغلب على المجتمع حتى وقوع الثورة مجموعة كثيفة معقدة من العادات المحلية ظلت تتراكم، ولكن كولبير قد أورث فرنسا فيما أورثه إياها، فكرة جمع الشرائع كما خلف بعض الأجزاء الهامة المتناثرة، ومنها يمكن تأليف تلك المجموعة حين يحين الوقت لذلك.

حروب لويس الرابع عشر

١- حرب الوراثة في الأراضي المنخفضة (١٦٦٧ - ١٦٦٨)

ظل النزاع بين الأسرة المالكة في فرنسا وبين أسرة الهابسبورج قائما مدة قرن من الزمان، وقد استطاعت فرنسا الانتصار على فرع هذه الأسرة النمسوى في صلح وستفاليا، ولكنها بقيت في حرب مع فرع آل هابسبورج الأسباني إلى أن تم صلح البرانس سنة ١٦٥٩، والواقع أن أسبانيا كانت في طريقها إلى الانحلال والاضمحلال.

وقد لاحت في عام ١٦٦٧ للملك لويس الرابع عشر فرصة التوسع في الشمال، في الأراضي المنخفضة الأسبانية. وذلك عندما مات ملك أسبانيا (فيليب الرابع) الذي تزوج لويس ابنته بعد أن تنازل عن كل حق في وراثة عرش أسبانيا، ولكن بعد وفاة فيليب الرابع ادعى حق زوجته الأسبانية في وراثة الأراضي

المنخفضة. وبادر إلى إرسال حملة فرنسية إلى تلك البلاد، وانتصرت قواته واستولت على عدة مدن على الحدود بدون صعوبة تذكر ولم تستطع أسبانيا أن تقوم بأى عمل من شأنه صد العدوان عن أملاكها فقد كانت مغلولة اليد بسبب انهاكها في قمع ثورة البرتغال التى هبت تطالب باستقلالها، ولم يكن لديها جيش قوى فى الأراضى المنخفضة تستطيع مجابهة الجيش الفرنسي المنظم، ولذلك لم تجد قوات لويس من يوقف تقدمها فاستولى القائد (تورين) على عدة قلاع محصنة وكانت هذه الانتصارات الفرنسية سببًا فى انزعاج كل من انجلترا، وهولندا والسويد. فقام "التحالف الثلاثى" بين تلك الدول لوقف لويس الرابع عشر عنده حده وحدثت اتصالات بين التحالف الثلاثى أعلن لويس بعدها أنه على استعداد للمناقشة فى أمر الصلح. وقد تم الصلح فى اكس لاشابل Aix - La - Chapelle (١٦٦٨) ونص الصلح على أن تحتفظ فرنسا بالجهات التى تم الاستيلاء عليها وهى شرلوا، وليل، وترناى، وثمانية بلدان أخرى على حدود الأراضى المنخفضة.

٢- حروبه مع الجمهورية الهولندية (١٦٧٢ - ١٦٧٩) :

أدى مسلك هولندا خلال هذه الأحداث إلى استثارة غضب لويس وحنقه عليها، وهو الحنق الذى ضاعفه قيام الولايات الهولندية بإيواء الكتاب السياسيين الذين أزعجوا لويس بما نشروه عنه من إهانات وشتائم. ولكى يحقق لويس غرضه فى القضاء على هولندا أو إذلالها لجأ إلى تمزيق الحلف الثلاثى عن طريق عقد معاهدة خاصة مع شارل الثانى ملك انجلترا (معاهدة دوفر سنة ١٦٧٠) ثم عقد معاهدة أخرى بين فرنسا والسويد [١٦٧٣] ولويس بعقد معاهدات مع كولونيا ومونستر قدم لهما بمقتضاها معونة مالية، مما ترتب عليه اشتراك عشرين ألف ألمانى إلى جانب لويس فى حربه التالية. وفى عام ١٦٧٢ قيام تورين وكونديه والملك بغزو جنوب هولندا غزوا سريعًا على رأس مائة ألف رجل. وقتل الأخوين دى وت فى ثورة شعبية (٢٧ أغسطس) وهما زعيما الحزب الأرستقراطى الجمهورى فى هولندا، وتعيين وليم

الثالث أورانج رئيسا للدولة. وتم انقاذ مقاطعة هولندا ومدينة امستردام عن طريق فتح السدود. وتحالفت هولندا مع فردريك ولبم ناخب براندنبرج (١٦٤٠ - ١٦٨٨) ثم انضم إليها بعد ذلك الأمبراطور وأسبانيا.

وعقد فردريك وليم صلحا منفردا عام ١٦٧٣ هو صلح فوسم الذى احتفظ بمقتضاه بأملاكه في كليفيس ماعدا وزل وريس. وتعلن الامبراطورية الحرب؛ ويعقد الصلح بين انجلترا وهولندا عام ١٦٧٤، ويقوم لويس بنفسه بغزو فرانش كومتيه، ويحارب كونديه اورانج وتعادل الفريقين في موقعة ستف في الأراضي المنخفضة. وقام تورين بحملة ناجحة على أعالي الراين (بعد أن دمر البلاتينات) ضد القائد الامبراطوري مونتكوتشولي وناخب انبرج. وعندما أوغل حلفاء لويس من السويديين في أراضي ناخب برانبرج عاد الأخير وهزم السويدين في موقعة فهربللين (٢٨ يونيو ١٦٧٥) وفي العام نفسه وقع تورين قتيلا عند سباخ في بادن وانسحب الفرنسيين عبر الراين.

وأحرز الفرنسيون نصرا بحريا في البحر المتوسط على الهولنديين والأسبان في عام ١٦٧٦م. على الرغم من وفاة دي رويتر. ويباغت الفرنسيون غنت وايبر عام ١٦٧٨ ويستولون عليها. ولكن لجأ المتحاربون إلى المفاوضات التي لاقت في بعض الأحيان نجاحا بين الأطراف المتحاربة، وعقدت معاهدات نموجين (١٦٧٨) بين فرنسا وهولندا وبين أسبانيا وفرنسا؛ وبين الامبراطور من جهة وفرنسا والسويد من جهة أخرى (٦فبراير ١٦٧٩) بين هولندا والسويد (١٢ أكتوبر ١٦٧٩) أما المعاهدة بين فرنسا والدانمرك فقد عقدت في فونتينبلو (٢ سبتمبر ١٦٧٩) كما عقدت المعاهدة بين الدانمرك والسويد في لوند (٢٦ سبتمبر ١٦٧٩). وتم بموجبها.

١- استردت هولندا جميع أراضيها بشرط وقوفها على الحياد.

٢- تنازلت أسبانيا لفرنسا عن اقليم فرانش كومنيه وعن مدن فالنسين، وكومبراى، وكمبريسيس، اير، وبوبرنجن، وسانت أومر، وايبر، وكونديه، وبوشان، وبوبيج، وغيرها من المدن الواقعة على الحدود الشمالية الشرقية. تنازلت فرنسا لأسبانيا عن مدن شارلروا، وبانش، وأودنارد، وآت وكورتريه، ولمبورج، وغنت دوايس وغيرها، كما تزلت عن بيوسردا في إقليم قطالونية.

٣- أعطى الأمبراطور فرنسا فريبورج في برايزجاو وتنازلت فرنسا عن حقها الاحتفاظ بجامعة في فيليزبورج، واتفق على أن يعود دوق لورين إلى دوقيته بشرط خاصة رفضها ذلك الدوق. وأجبرلويس الرابع عشر ناخب براندنبرج على أن يعقد صلح سان جرمان آنلى (١٦٧٩) وبمقتضاه سلم لويس الرابع عشر السويد جميع فتوحاته في بوميرانا وفي مقابل ذلك أعيدت إليه إمارة فريدلاند الشرقية، وهي التى أصبحت جزءا من بروسيا سنة ١٧٤٤، مع تعويض صغير.

سياسة لويس الرابع عشر الدينية

من الأمور المؤسفة التي وقعت في عهد لويس الرابع عشر إلغاء مرسوم نانت ١٦٨٥، فقد كان الهيجونت أثناء حربى الفروند موالين للملكية في فرنسا، بل أنهم سارعوا بتقديم المعونات المالية لها عندئذ. ولقد اعترف مزران بموقفهم العظيم، كما لم يكن الملك لينسى الخدمات والمساعدات التى قدموها عندئذ في أحرج الظروف، هذا بالإضافة إلى أنه لم يكن متعصبًا بل عرف بالتسامح الديني لأنه بطبيعته لم يكن ميالاً إلى المناقشات الدينية والخوض فيها؛ وإنما كان اهتمامه منصبًا على أمر واحد هو الولاء للدولة. ولذلك كانت جماعة الجانسنت بمبادئها تهدد الأسس الدينية والاجتماعية التي يقوم عليها المجتمع الفرنسي، مما جعل أفراد هذه الطائفة أشد خطرا من طائفة الهيجونت على أن لويس الرابع عشر كان في الوقت نفسه حريصًا على تجنب كل ما من شأنه أضعافه وحدة البلاد الدينية، ومن مأثور أقواله فيما يتعلق بالسماح لليهود بممارسة عبادتهم في حرية. لا مانع من ذلك إذا لم يكن فيه مساس بالكنيسة الكاثوليكية".

ووجه الهيجونت بعد حربي الفروند بحركة عدائية من جانب الكنيسة الكاثوليكية خاصة ولو من ناحية البلاط. كان رجال الكنيسة حريصين على إعادة عدد كبير من رجال الدين البروتستانت الى العقيدة الكاثوليكية، كما اعترضوا على انتهاز الهيجونت فرصة انتشار الاضطرابات في فرنسا منذ عام ١٥٩٨ لتفسير مرسوم نانت تفسيرًا جعلهم يضاعفون من إنشاء معابد لممارسة دياناتهم خارج الأماكن التى اتفق عليها. وأقر وزراء منهم "لوتلييه" Le Telliet شكاوى رجال الدين الكاثوليك، التى تضمنت الحقيقة التالية؛ وهى أنهم قد أصبحوا يكونون "دولة داخل دولة" وطالبت بالعمل على الحد من حرياتهم. وقد أصغى لويس الرابع عشر لتلك المطالب، فبدأ إجراءاته ضد الهيجونت من عام١٦٦٩م، وموضحًا أن بروتستانت فرنسا قد تنازلوا عن امتيازاتهم، فأصدر أوامره فى السبعينات (١٦٧٠) بهدم دور عبادتهم التى انشئت بعد عام ١٥٩٨، وأمر بألا تقام الشعائر الجنائزية الخاصة بهم إلا ليلا، كما صدرت بعض القوانين بتشجيع من يرغب فى الارتداد إلى الكاثوليكية، ومنها الوعد بالمنح المالية.

ومن العوامل التى اسهمت فى دفع لويس الرابع عشر إلى إصدار قراره بإلغاء مرسوم نانت "رسالة لوتلييه" Le Telliet الذى كتب إلى الملك وهو يحتضر، يطالبه فيها ملحًا بإلغاء المرسوم لتستطيع روحه الاستقرار والطمأنينة. وأغراه بعض الناصحين من بطانته بالمجد الذى ينتظره إذا ما هو نفذ ذلك الإلغاء فيكون بذلك الملك الوحيد الذى نجح فشل كل من هنرى الرابع ولويس الثالث عشر فى القضاء على التفرقة والشقاق الدينى داخل فرنسا، كما أن لويس الرابع عشر لم يكن على علاقات طيبة مع البابا "انوسنت" الحادى عشر. وقد رأى أن إلغاء المرسوم يحول دون تدخل البابا فى الحريات الغالية Gallican - Liberties، أى ما حصلت عليه كنيسة فرنسا من حريات واستقلال فى بعض الأمور عن كنيسة روما.

وقوبل إلغاء لويس الرابع عشر للمرسوم فى فرنسا بالترحيب من جانب طوائف الكاثوليك والجانسنت والجزويت والجاليكانيين على السواء. أما الدول

البروتستنتية فقد أدانت لويس الرابع عشر وكانت من قبل تمتدح روح التسامح الديني السائدة في فرنسا لدرجة أن عددًا كبيرًا من الإنجليز والهولنديين قد أقاموا في فرنسا إقامة دائمة، حيث كانوا يمارسون دياناتهم المخالفة للكاثوليكية في أمان واطمئنان، واتهم لويس الرابع عشر بالتعصب في سائر الدول الأوروبية. من المؤكد أن ذلك الإجراء قد كلف لويس الرابع عشر غاليا، واسهم في تغيير الدول من فرنسا بعد عام ١٦٨٥. ثم كانت هناك أثار سيئة للغاية على الاقتصاد الفرنسي نظرًا لفرار ١٠٪ من الهجونت (وكان عددهم بفرنسا يبلغ حوالي المليونين) استطاع ذلك العدد من الهيجونت الفرار من فرنسا على الرغم من العقبات التي وضعتها حكومة فرنسا في سبيل تعويق مغادرتهم للبلاد. على أن البعض قد عدل الصورة فيما يتعلق بأثر مغادرتهم لفرنسا على الحالة الاقتصادية بها. حقيقة أن صناعة الساعات قد تخلفت وظلت كذلك مدة عشر سنوات. كما أن الدول التي استقبلت الفارين من الهيجونت من الضياع مثل العاملين في صناعة الورق والخبراء الاقتصاديين قد استفادت كثيرا منهم، فاستفادت كل من إنجلترا وهولندا بل وبروسيا؛ وكانت الأخيرة بصدد بناء اقتصادياتها.

من الواضح أن فرنسا لم تضار كثيرًا في اقتصادياتها بسبب فرار الهجونت إذ أن بعض هؤلاء الفارين قد عادوا إلى فرنسا، كما أن من بقي منهم بالخارج لم يتعاون مع القوى لفرنسا على أمل أن يسمح لهم لويس بالعودة إلى وطنهم بعد أن يطمئنهم على حرية ممارسة عقيدتهم؛ بينما قدم بعض الهيجونت من المتشغلين بأعمال البنوك في جنيف أجل الخدمات لفرنسا. ثم إن الخسارة التي منيت بها فرنسا بسبب فرارهم منها عوضت عنها هجرة الآلاف من الكاثوليك الأيرلنديين والاسكتلنديين من مؤيدي أسرة استيوارت إلى فرنسا بعد عام ١٦٨٨م.

ومن الشائع أن لويس الرابع عشر قد تأثر كذلك فيما يتعلق بإلغاء مرسوم نانت ١٦٨٥ بزوجته "مدام ديمانتون de Maintenon التي تزوجها بعد موت زوجه ماريا تريز الأسبانية في عام ١٦٨٣م.

حرب البلاتين ١٦٨٨ - ١٦٩٧:

وبينما كان لويس يواصل سياسته الداخلية التي تنطوي على اضطهاد الهيجونت وحرمان البلاد من خيرة أبنائها، واتباع سياسة الإسراف في بناء القصور ومظاهر العظمة والأبهة، كان أعداؤه في الخارج يعدون العدة لمقاومته ووقف أطماعه التوسعية التي لا تنتهي عند حد، ولا سيما بعد أن أغضب الدول الكاثوليكية بسياسته العدائية نحو البابا وتحالفه مع الأتراك العثمانيين. وكان أشد الحانقين عليه وليم اورانج الذي صمم على إقامة حلف جديد ضد لويس. وفي سنة ١٦٨٦ تمكن من الحصول على موافقة كل من أسبانيا والامبراطور وعدد كبير من الولايات الألمانية على تأليف حلف ضد فرنسا سمي بحلف أوجزبرج.

وأصبحت الحرب بين لويس وبين هذا الحلف لا مناص منها، وحاول لويس أن يتجاهل هذا الحلف ويواصل عدوانه كما يحلو له. فبدأ يطالب الإمبراطور بتغيير اتفاقية اتزبون وجعلها معاهدة ثابتة تقضي بضم الممتلكات الأخيرة وتوابعها نهائيا بدلا من امتلاكها لمدة عشرين سنة. فرفض الإمبراطور ذلك رفضا باتا. وانتهز لويس فرصة موت شارل أمير البلاتين وأعلن ادعاءه عرش هذه الولاية. وأعلن الحرب على الإمبراطور (سبتمبر ١٦٨٨) وعندئذ هب أعضاء الحلف لمناصرة الإمبراطور ضد عدوهم المشترك لويس الرابع عشر وما لبثت إنجلترا أن انضمت إلى الحلف في نفس العام، وهو عام الثورة الإنجليزية (١٦٨٨) ضد جيمس الثاني حامي حمى الكاثوليكية في إنجلترا، والذي ثار الشعب ضده واضطروه إلى الفرار وطلبوا من ماري ابنه جيمس الثاني وزوجها وليم أورانج رئيس الجمهورية الهولندية الحضور إلى انجلترا لتولى العرش، وفعلا تم تتويج وليم أورانج ملكا على انجلترا باسم وليم

الثالث. وكان ذلك إيذانا بانضمام انجلترا إلى الحلف ضد لويس الرابع عشر الذى لم يعد له حليف من بين ملوك أوروبا. ومع ذلك كان لا يزال فى عنفوانه الحربى، وسارع - قبل أن يستعد الحلف إلى الإغارة على البلاتين، فخرب قراها ودمر مزارعها. وفى عام ١٦٨٩، أصبحت الحرب عامة، ولكنها كانت فى بدايتها فى مصلحة لويس، فى البر والبحر، ثم انقلب الحظ فى عام ١٦٩٢ وخصوصا فى البحر حيث كان لإنجلترا التفوق.

وامتدت الحرب البرية فى أوروبا، وانتصر الفرنسيون فى إيطاليا وطردوا القائد النمسوى من بيدمنت واستولوا فى الأراضى المنخفضة على منس ونامور (١٦٩١ - ١٦٩٢) وفى البحر كانت فرنسا تبدو فى أول الأمر وكأنها صاحبة السيادة البحرية، فقد انتصرت الأساطيل الفرنسية على الأسطولين الانجليزى والهولندى فى معركة رأس بتش Beachy Head (١٦٩٠) ولكن ما لبث أن انقلب الحظ لصالح انجلترا فى السنة التالية عندما تمكن قائد الأسطول الإنجليزى "رسل" من دحر الأسطول الفرنسى فى معركة لاهوج La Hogue ومنذ تم للبحرية الإنجليزية هذا النصر الحاسم أدرك لويس أن السيادة البحرية ستظل فى يد إنجلترا وأن عليه أن يصرف ذهنه عن مشروع غزو إنجلترا الذى كان يملأ تفكيره، والذى كان يقصد به إعادة العرش لجيمس الثانى الذى كان مقيما إذ ذاك فى أيرلنده.

وبعد تسعة أعوام من الصراع المتواصل، لم يعد بمقدور الفريقين مواصلتها بنفس القوة التى بدأت بها الحرب، ولاسيما فرنسا التى كان عليها أن تموّل حربًا متشعبة الأطراف وكانت مرغمة على مواصلة تجهيز أربعة جيوش برية والسلاح عدا ما تحتاج إليه أساطيلها من صيانة وتسليح وذلك تهيأ لمفاوضات الصلح، وعقد الفريقان معاهدة ازويك Eyswick عام ١٦٩٨.

وبموجب شروط هذا الصلح تخلت فرنسا عن كل البلاد التى استولت عليها منذ معاهدة نمجن، ماعدا ستراسبورج والالزاس. واعترف لويس الرابع عشر بحق "وليم الثالث" فى عرش انجلترا، وكان ذلك كسبًا سياسيًا لوليم حيث اضطر لويس

بموجب المعاهدة أن يعد بعدم تأييد أسرة استيوارت فى أى محاولة تقوم بها لاستعادة عرش إنجلترا.

ولا شك أن صلح ازويك كان صدمة سياسية لفرنسا فقد أثر على سمعتها الحربية وأذل كبرياءها، ولكن لويس كان مضطرا لتوقيعه ولاسيما عندما ظهرت مشكلة أخرى أشد تعقيدا وأكثر أهمية وهى مشكلة الوراثة الأسبانية.

٤- حرب الوراثة الأسبانية (١٧٠٢ - ١٧١٣)

وكان مما دعا لويس إلى الإسراع فى عقد صلح رزويك أنه أراد التفرغ لمسألة الوراثة الأسبانية عندما باتت منتظرة وفاة ملك أسبانيا شارل الثانى فى أية لحظة، وكان يدعى الحق فى وراثة ملكه كل من الامبراطور ليوبولد الأول ومنتخب بفاريا جوزيف فردناند إلى جانب لويس الرابع عشر الذى طالب الوراثة لنفسه ثم لابنه الأكبر (من زوجته ماريا تريزا ابنه فيليب الرابع ملك أسبانيا عام ١٦٦٥) ولذلك فقد أضحت مسألة الوراثة الأسبانية من شأنه الإخلال بالتوازن الدولى، فقد عظم اهتمام إنجلترا خصوصا بهذه المسألة، ونجحت انجلترا فى تقسيم الأملاك الأسبانية بين الورثة الثلاثة فى لاهاى ١٦٩٨ ولكن وفاة جوزيف فردناند فجأة فى عام ١٦٩٩ اقتضى إعادة التقسيم مرة أخرى فى مارس عام ١٧٠٠ غير أنه وجد عند وفاة شارل الثانى ملك أسبانيا أن شارل قد ترك وصية فى نوفمبر عام ١٧٠٠ أوصى فيها بأملاكه إلى فيليب انجو حفيد لويس الرابع عشر على أمل أن ينقذ هذا أسبانيا من خطر التقسيم وأن تقوم فرنسا بالدفاع عنها. وعندئذ أسرع لويس بقبول وصية شارل وأعلن حفيده ملكًا على أسبانيا؛ ثم لم يكتف بذلك أعلن أيضًا أن حقوق فيليب دون انجولا تسقط باعتلائه عرش أسبانيا.

وأمام هذا الخطر الداهم إذن تألبت الدول ضد فرنسا، فتعاقدت كل من إنجلترا وهولندا وأغلب الأمراء الألمان والإمبراطور على التحالف ضد فرنسا فى ٧

سبتمبر ١٧٠١م. ولما كان وليم أورانج العامل الأول في هذه المحالفة، كما كان دائمًا في المحالفات السابقة، فقد قابل لويس هذا العمل بالاعتراف بابن جيمس الثاني ملكا على انجلترا باسم جيمس الثالث. وفي مايو ١٧٠٢م وبعد وفاة وليم الثالث فجأة وسط هذه الأزمة (في مارس ١٧٠٢م) أعلنت الحرب ضد فرنسا.[١]

لقد كانت الحرب طويلة الأمد (١٧٠٢ - ١٧١٣) لأن قوى الفريقين كادت تكون متكافئة، ولم يحرز أحدهما نصرًا على الآخر. ووضعت قيادة الحلفاء في يد دوق مولبرا Marlbogh أعظم قواد الانجليز وانتصر الحلفاء في المعارك الهامة التي دارت رحاها في بلنهايم Belnheim في بافاريا سنة ١٧٠٤م، وفي راملييز Rammlies ١٧٠٨م وفي أودنارد audnarde ١٧٠٨م وفي مالبلاكيه Malapaqnet سنة ١٧٠٩ في الأراضي المنخفضة الأسبانية.

وقد أرهقت الحرب فرنسا كل الإرهاق، فقد اندحرت قواتها في مواقع كثيرة، وخسرت مئات الألوف من رجالها ولم يجد لويس الرابع عشر بدا من عرض الصلح على الحلفاء وشجعه على ذلك علمه بأن الشعب الانجليزي بدأ يسأم الحرب ويتطلع إلى السلام، ثم حدثت ظروفا كانت سببًا في خلاص فرنسا من تلك الحرب الطاحنة فقد مات الامبراطور جوزيف سنة ١٧١١ وتولى عرش الامبراطورية أخوه الأرشيدوق شارل الذي كان مرشحًا لوراثة العرش في أسبانيا فأصبح من المستحيل على الدول أن تقبل اتحاد عرش أسبانيا وألمانيا في عاهل واحد، وفي الوقت نفسه تغيرت الوزارة الإنجليزية وأصبح الحكم في يد حزب التوري Tory الذي كان يرى إنهاء تلك الحرب، واستدعت الوزارة القائد "ملبدا" صاحب الانتصارات العظيمة، وقبلت الدخول في مفاوضات مع لويس تمهيد ا لعقد الصلح، وخرجت من الحرب في عام ١٧١٢ ثم تبعتها هولندة.[٢]

صلح أترخت utrcch ١٧١٣:-

وفي هذا الصلح تم الاتفاق على ما يأتي:-

١- الاعتراف بفيليب "انجو" الخامس ملكًا على أسبانيا ومستعمراتها على أن يتنازل عن كافة حقوقه في عرش فرنسا.

٢- استولى الإمبراطور (شارل السادس منذ ١٧١١) على الأراضي المنخفضة الأسبانية (بلجيكا) ونابلي وميلان وسردينا

٣- إستبقت فرنسا الالزاس بما فيها مدينة ستراسبورج وفق معاهدة، ازويك ولكنها سلمت القلاع التي استولت عليها على جانب الراين الأيمن.

٤- أعيد كل منتخبي كولون وبفاريا إلى إمارته، وتم الاعتراف بحقوق أسرة هانوفر في وراثة عرش انجلترا، كما نفي المطالب بعرش انجلترا (جيمس الثالث) في فرنسا.

٥- نالت انجلترا جبل طارق ومينورقه ونيوفوندلاند وخليج هدسن وغير ذلك في فرنسا وفي أمريكا الشمالية، كما نالت امتيازات تجارية في المستعمرات الأسبانية.

٦- تم الاعتراف بمملكة بروسيا، كما أعطت جلدرلند العليا.

٧- نال دوق سافوى جزء من ميلان.

٨- تم الاتفاق على تهديم تحصينات دانكرك.

وهكذا خرجت إنجلترا من هذه الحرب منتصرة ووضعت أساس سيادتها في البحار وأحرزت التفوق في أوروبا بينما خرجت فرنسا منهوكة القوى وأخفقت في سياسة الوصول إلى الحدود الطبيعية، والسبب الأكبر في هذا الفشل أنها رفضت معاهدات التقسيم وقبلت وصية شارل الثاني.

الفصل الثانى عشر

بريطانيا فى القرن السابع عشر

آل ستيورات وثورة البيورتان

حقق الانجليز خلال القرن السادس عشر نجاحًا اقتصاديا باهرًا بفضل سياسة ملوك أسرة تيودور. كما ساهم في نشوء طبقة بورجوازية نامية فيها متقدمة على بقية القارة الأوروبية. وكان لهذا النجاح عوامل متعددة أهمها:-

أ - أن إنجلترا لم تتأثر كثيرا بالمنازعات الداخلية التي حصل أثناءها الإصلاح الديني على غرار بقية دول أوروبا. فقد انتشرت فيها البروتستانتية وعم على أثرها روح التسامح حتى أنها استقطبت العديد من المهاجرين المضطهدين من سكان الفلاندر الذين طوروا فيها صناعة المنسوجات الصوفية ومن هيجونت فرنسا البارعين في الأعمال الصناعية والتجارية. أما الحروب الأوروبية التي انهكت اقتصاديات الدول وخاصة الحروب الإيطالية وحروب الدين فإن انجلترا لم تشارك فيها إلا مختارة بل أنها لم تتدخل في نزاع إلا وكسبت على أثره مزيدا من النفوذ والمستعمرات.

ب- أن توفر المواد الخام اللازمة للصناعة وخاصة الصوف قد أدخل انجلترا في ميدان السبق التجاري. فازدهرت المنسوجات الصوفية فيها على أثر تشجيع الفلمنكيين إليها منذ القرن الرابع عشر. حتى أن هنري السابع فرض رسومًا باهظة جدًا على تصدير مادة الصوف. فارتفعت أسعار المنسوجات التي يحيكها سكان الفلاندر مما أدى إلى رواج الصناعة الإنجليزية وبالتالي إلى ازدياد النشاط التجاري فيها. فنشأت على أثر ذلك في القرن السادس عشر طبقة ثرية اقبلت على شراء الأراضي ووقفت وجهًا لوجه أمام طبقة النبلاء التي عبرت عن سخطها بين فترة وأخرى بالثورة ضد اليزابيث دفاعًا عن الكثلكة.

جـ- رواج التجارة الإنجليزية: لم تكن التجارة الداخلية في انجلترا تتعرض للمصاعب بسبب القوة الملكية التي منعت قيام الحواجز الجمركية بين المقاطعات لأنها معيقة للنشاط التجاري. أما التجارة الخارجية فقد ازدهرت على أثر انتقال مركز التجارة إلى الأطلسي بعد أن كانت مدن المتوسط تحتكر

التجارة مع الشرق طيلة العصور الوسطى. ومما ساعد على هذا النمو براعة الإنجليز في الأعمال البحرية. إذ أن موقع انجلترا الجغرافي المقرون بكابوس الغزو الخارجي هيأ لها الاهتمام ببناء الأساطيل التي ساهمت عن طريق أعمال القرصنة التي كثيرًا ما كانت تتم برضى الملوك أنفسهم لأن تصبح انجلترا على أبواب القرن التاسع عشر أقوى دولة بحرية في العالم.[1]

لقد أدى هذا النمو الاقتصادي إذن الذي عرفته انجلترا، لا إلى ضعف طبقة النبلاء وزيادة نفوذ السلطة الملكية فحسب، بل إلى تعاظم دور البورجوازية بأعدادها الهائلة من التجار والصناعيين فأخذت تتطلع إلى المشاركة في الحكم منذ أواخر القرن السادس عشر. وعندما زال خطر الغزو الأسباني بتحطيم الأرمادا أخذت هذه الفئة تضغط على الملكية للتراجع عن الاحتكارات التي فرضتها في السابق لتحديد الأسعار وسلم الأجور الذي صدر سنة ١٥٦٣، وهكذا أحدثت التغييرات الاقتصادية التي عرفتها انجلترا تغيرًا جذريًا في مفهوم السلطة السياسية في القرن السابع عشر توطدت حقوقيته في عدم خضوع البرلمان لمشيئة الملك حتى تم له النصر النهائي الذي تمثل في ثورة سنة ١٦٨٨م.

كانت السلطة الملكية في انجلترا تختلف عن مثيلتها في فرنسا أو أسبانيا من الناحية النظرية على الأقل. إذ أن الملك فيها كان مقيدًا بحدود الدستور والتشريعات التي كان يصدرها البرلمان بين فترة وأخرى. ومع ذلك فإن أسرة تيودور منذ عهد هنري السابع حتى اليزابيث قد مارست الحكم المطلق إلى أبعد الحدود. مستفيدة من فترة الاضطراب التي خلفتها حروب المائة عام وحرب الوردتين التي أدت بحياة خيرة شباب النبلاء ومن ثم الشعور القومي الذي بلغ أوجه في مساندة الملكية على حساب سلطة البابا الكاثوليكية. فكما عززت النهضة الحديثة التي عرفتها انجلترا موقف الملك فإن الطبقة البورجوازية التي تكونت بفضل الازدهار الاقتصادي

الذى حققته الملكية لها قد أمدت بدورها فى المرحلة الأولى، الاستبداد الملكى بتأييد أدبى وسلطان مطلق.

لقد استطاع ملوك أسرة تيودور تحت وطأة التهديد الخارجى وشخصيتهم القوية أن يعالجوا المسائل القانونية بمهارة فائقة. إلا أن البرلمان الإنجليزى المتشكل من مجلس اللوردات الذى يضم ممثلين عن النبلاء والاكليروس (يعينهم الملك مدى الحياة) ومن مجلس العموم ويضم أعضاء منتخبين يمثلون أصحاب الأراضى الأحرار والبورجوازيين أخذ أعضاؤه منذ أواخر عهد اليزابيث يتمسكون بصلاحيتهم بعد أن نما فيهم الاهتمام بشؤون المملكة السياسية والمالية والدينية. وفعلا خضعت اليزابيث سنة ١٦٠١ لمطالب مجلس العموم بعد أن كانت غير عابئة بقراراته طيلة حكمها. بل أنها كثيرًا ما كانت تجبر البرلمان على الموافقة على المراسيم التى كانت تصدرها دون مشاورته.

أما فى عهد جيمس الأول (١٦٠٣ - ١٦٢٥). فقد حكم انجلترا بعد اليزابيث، وكان طبيعياً أن يتبع سياسة مغايرة لسياستها، ولم يكن له حكمتها ولا حيطتها، وكان يؤمن إيمانا أعمى بنظرية حق الملوك الإلهى. أى أن الملوك قد استمدوا سلطانهم من الله، ولا يمكن للرعية التدخل فى أعمال الملك، وأن الملوك خلفاء لآدم لهم حق السيطرة على البسيطة. كذلك حدث تغيير فى موقف البرلمان. والبرلمان الإنجليزى أخذ بنصيب كبير فى الحياة الإنجليزية. لم تكن له سلطة محددة، ومع ذلك فكان من المتعذر إبعاده أو القضاء عليه، وكان نفوذه يزداد كلما كانت الملكية ضعيفة، وكلما بعد الخطر عن البلاد، وأخذ البرلمان يشعر بأنه شئ فى انجلترا، وبأنه مصدر الحكم.

ولقد ساعد البرلمان على الوقوف ذلك الموقف كون انجلترا جزيرة لا تحتاج إلى جيش دائم على أهبة الاستعداد. فلم يجد الملوك سلاحًا قويًا يستغلونه ضد البرلمان. وعملت المسألة الدينية على سوء العلاقات بين الملك والبرلمان، فكان هناك من يقولون بالاستفادة من الكلفينية. ولقد حاول البرلمان أن يفرض

إرادته على الملك[١] بضرورة الرجوع إليه في كل ما يختص بنظام الضرائب ثم انتقد سياسته.

على أي حال تولى جيمس الأول العرش في ظروف مواتية بالنسبة له، فانجلترا قد نجت من خطر محقق كان يتهددها من جانب أسبانيا بانتصارها على الأرمادا الأسباني في سنة ١٥٨٨. كذلك استقرت الأوضاع الدينية باتباع المذهب الأنجليكاني، مذهب الكنيسة الإنجليزية بعد أن ضم البيورتان. وكان من الممكن أن تسير الأمور الدينية بشئ من اليسر والسهولة لو أن جيمس الأول أحسن التصرف في معالجة الخلافات الطفيفة بين البيورتان والانجليكانيين. لاسيما وأن تلك الخلافات لم تكن تمس جوهر العقيدة. ولما فشل المؤتمر الذى عقد فى هامتون كورت Hampton Court (يناير ١٦٠٤) للتوفيق بين الطائفتين.

وكان فشل المؤتمر مدعاة لغضب الملك على البيورتان وعلى كل من يخالف سياسته الدينية، ومنهم الكاثوليك الذين كانوا يتوقون إلى التخلص من القيود الدينية التي فرضت عليهم. وإذا كان البيورتان لم يتخذوا موقفًا شديدًا من الملك، فإن الكاثوليك قد صمموا على الانتقام، فدبروا مؤامرة لنسف البرلمان والإطاحة بالحكومة، فوضعوا داخل أقبية البرلمان مواد متفجرة لنسفه في ٥ نوفمبر سنة ١٦٠٥م. ومن حسن حظ الحكومة أن اكتشفت المؤامرة قبل حدوث الانفجار، وقبضت على المتآمرين وقدمتهم للمحاكمة وقضت بإعدامهم. وقد أحدث هذا النبأ صدى عميقًا لدى الرأى العام الإنجليزى والملك، فأخذوا يتوجسون خيفة من نوايا الكاثوليك وينظرون إليهم نظرة شك وريبة، وأصبحوا موضع اضطهاد حوالي قرنين من الزمان.

ولم تكن هذه المتاعب الخاصة بالبيورتان والكاثوليك هى كل ما أثاره جيمس الأول نتيجة أسلوبه في الحكم، إذ لم يلبث أن دخل فى نزاع مع البرلمان

بسبب الأزمة المالية. وكان من المحتمل بشئ قليل من الحكمة والمهارة استمالة البرلمان إلى جانب العرش لإصلاح الحالة المالية بسد العجز المطلوب، غير أن جيمس آثر الإجراءات العنيفة فأمر بتحصيل عدة ضرائب من غير أن يطلب إلى البرلمان الموافقة عليها، على أمل أن يذعن البرلمان فى النهاية ويقرها بعد ذلك. ولكن جيمس لاقى معارضة شديدة فى البرلمان فأخذ يحل مجالسه الواحد تلو الآخر، أو يؤجل انعقادها كما حدث فى الفترة بين عام ١٦١١ وعام ١٦٢١. حينئذ انتقلت المسألة من نزاع حول إقرار بعض الضرائب المعينة إلى المناقشة فى ميدان سياسى خطير وهو حق الملك فى فرض ضريبة دون موافقة البرلمان، ولم يكن هناك مفر من الوصول إلى حل لهذه المسألة إن عاجلا أو آجلا، سواء بالطرق السلمية أو باصطدام بين الملك وممثلى الأمة.

وكانت السياسة الخارجية التى سار عليها جيمس الأول آخر العوامل الرئيسية التى زادت من كراهية الشعب له، فقد كان جيمس يناصر السلم فى أوروبا لأسباب منها أنه ليس فى مقدور بلاده بسبب حالتها المالية أن تدخل فى حروب خارجية، ولأنه هو نفسه كان متشبعًا بالمبادئ السلمية التى انتشرت فى أوروبا بعد الحروب الدينية الطويلة، ولا شك فى أن سياسة السلام كانت فى ذاتها سياسة حميدة، ولكن الذى جعل الشعب الإنجليزى يكرهها أن الطريقة التى حاول بها جيمس تنفيذ هذه السياسة قامت على قاعدة الاتفاق مع أسبانيا الكاثوليكية وهى عدو انجلترا القديم. وكان جيمس يعتقد أن اتفاق الدولة الكاثوليكية الأولى فى أوروبا (أسبانيا) مع الدولة البروتستنتية الأولى (انجلترا) سيؤدى حتما إلى إقرار السلام فى القارة الأوروبية. وكان الأسبان يستغلون هذه الرغبة من ناحية جيمس لرعاية مصالحهم على حساب انجلترا، فقد غضب الشعب الإنجليزى عندما أعدم الملك فى عام ١٦١٨ سير والترالى Walter Raleigh، أحد أبطال عهد اليزابيث لأنه هاجم قرية صغيرة فى ممتلكات أسبانيا بأمريكا الجنوبية. ولما نشبت حرب الثلاثين عامًا سنة ١٦١٨. فى ألمانيا واشتبك صهره. فردريك أمير البلاتينات فى صراع مع الكاثوليك، التزم جيمس الحياد إبقاء على علاقته الطيبة مع أسبانيا وعلى

أمل أن تنتهي الحرب في صالح صهره. لكن الأمر انهى بطرد فردريك من ألمانيا. ومع أنه كان واضحًا أنه لا مفر من الدخول في حرب إذا أريد إرجاع فردريك إلى عرشه، فقد يفي جيمس يعلل نفسه بالمفاوضة السلمية مع أسبانيا، ثم حاول أن يزوج ابنه من أميرة أسبانية على أمل أن تؤدى هذه الزيجة إلى توثيق العلاقات السلمية بين الدولتين – بالتالى إلى إرجاع فردريك سليمًا إلى عرشه. فلما باءت هذه الخطط بالفشل وتأهب للحرب ضد أسبانياعاجلته المنية في عام ١٦٢٥ وخلفه ابنه شارل الأول.[1]

واعتلى شارل الأول (١٦٢٥ – ١٦٤٩) العرش فورث عن أبيه تركة مثقلة بالخلاف بين الملكة والبرلمان، وكان يشبهه في نزعته الاستبدادية وصلابة رأيه، وفي عجزه عن كسب محبة الشعب وعاش حياته في صراع دائم مع مجلس العموم ووضع ثقته في دق بكنجهام Duke of Bukingham الذى كان موضع سخط الشعب منذ عهد جيمس الأول، وقد حاول شارل في مستهل حكمه أن يبهر الأمة بانتصارات حربية في الخارج وظن أنه يستميل الشعب إليه لو أعلن الحرب على أسبانيا ولكن حملته باءت بالفشل. كذلك حاول أن يناصر الهيجونت في فرنسا ضد ريشيليه وفشلت الحملة التي أرسلت لمساعدتهم في "لاروشيل" ونتج عنها تدعيم قوة ريشليه وضياع هيبة الملكية الإنجليزية وسمعتها في فرنسا.

واضطر شارل إلى جمع المال بعد الخسارة الفادحة التي أصيبت بها الخزانة الإنجليزية، وكان كلما أراد مالا بطريق غير شرعي (أى موافقة النواب) يلجأ إلى وسائل نفرت منه الشعب، إذ كان يفرض قروضًا إجبارية على طبقة التجار وأصحاب السفن والضياع وغيرهم من أفراد الطبقة الوسطى فكانت هذه المظالم سبيلا إلى زيادة عوامل الثورة وخصوصا أنه كان يأمر بسجن كل من يمتنع عن إقراض الملك المال المفروض عليه. وانفجر الشعب مطالبا بتحديد نفوذ الملكية بحيث لا يسجن أحد دون محاكمة عادلة. وكان لذلك صدى قوى في البرلمان

فاجتمع أعضاؤه في عام ١٦٢٨ وقرروا إعداد وثيقة سميت "ملتمس الحقوق" The Petition of Right وتعتبر من أهم الوثائق في التاريخ الإنجليزي. طالبوا فيها

أ - ألا تفرض جباية القروض والضرائب والهبات بدون موافقة البرلمان.

ب- ألا يسجن أحد من الرعية سجنًا تعسفيا ولا يعامل إلا بما تقتضيه قوانين البلاد.

جـ- وألا يجبر الشعب على إيواء الجند والبحارة في منازل المواطنين أو استضافتهم بأي حال من الأحوال.(١)

وقد اعتبر الملك هذه المطالب التي جاءت في (ملتمس الحقوق) إفتائًا على حقوقه وتقيدا لسلطته. فرفضها في بداية الأمر ثم قبلها بعد تردد طويل، لأنه كان في أشد الحاجة إلى موافقة البرلمان على صرف الأموال التي طلبها، وفعلا قرر المجلس الموافقة على صرفها ولكنه أعد مذكرة ناشد فيها الملك أن يأمر بعزل دوق بكنجهام، فغضب شارل واعتبر هذا الطلب - رغم أنه صيغ بعبارات ودية نحو الملك - تدخلا في (حقه الإلهي) في الحكم. وتأزمت الحالة في عام ١٦٢٩م بين الملك والبرلمان، حيث قرر شارل أن يحكم بغير البرلمان، ولم يكن للبرلمان حق قانوني في الاجتماع إلا بدعوة من الملك، ومما زاد الأمر خطورة تفاقم النزاع الديني أيضًا بين الملك والمجلس وكان الشعب من ورائه يؤيده ضد الملك؛ بسبب ما ذاع من أنه يميل إلى العودة إلى المذهب الكاثوليكي، ولا سيما أن زوجته - هنريتا ماريا أخت الملك لويس الثالث عشر ملك فرنسا - كانت تدين بالكاثوليكية. واشتد سخط الملك على مجلس العموم بعد عدة جلسات ساد فيها الهياج والشغب، ورفض المجلس أن ينفضّ بأمر من الملك، وبقي رئيس المجلس في مكانه وأعلن المجلس القرار التالي في نفس الجلسة "إن كل من يدخل في الدين بدعًا كاثوليكية، وكل من يشير بجباية الضرائب قبل موافقة البرلمان، وكل من يؤدي هذه الضريبة يعتبر عدوا للمملكة والمصلحة العامة".(٢)

وواضح أن الملك كان هو المقصود بذلك، فما كان من شارل الأول إلا أن فض البرلمان وحكم حكما مطلقا في المدة من ١٦٢٩ - ١٦٤٠، وفي خلالها وضعت بذور عوامل الثورة العظمى التي أدت إلى الحرب الأهلية بين الملكية وأتباعها والبرلمان وأتباعه، وقد انتقم الملك من "اليوت" فأودعه السجن مع صديقه "فالنتين" Valentine وسترود Strode. فمات اليوت في قلعة لندن ١٦٣٢م، استمر صديقاه في سجنهما إحدى عشرة سنة، وانتقم الملك بذلك لصديقه دوق بكنجهام في شخص اليوت. ولكنه لم يلبث بشخصيتين في تصريف شئون الدولة على النحو الذي يريد، فسلك كلاهما سياسة استبدادية استفزازية أثارت الشعب الذي كان يرقب عن كثب تصرفات الملك وأعوانه.

كان أولهما "توماس ونتورث Thomas Wentworth استعان به الملك في تصريف شئون الدولة، فاتبع وسائل غير مشروعة في سبيل تزويد الملك بالمال حيث فرض ضرائب جمركية بمراسيم ملكية، واستحدث ضرائب جديدة فرضها على سائر طبقات الشعب دون موافقة البرلمان. كما حدد ضرائب أخرى ومنها ضريبة السفن، وكانت تجبى على الموانى أثناء الحرب. ولكنه فرضها على كل أنحاء انجلترا زمن السلم، فاستطاع بذلك تقديم الأموال اللازمة للملك، فكان لذلك أثره في أنه أصبح شخصية مكروهه من الشعب مما أدى إلى إعدامه سنة ١٦٤١م بعد صدور تهمة الخيانة العظمى ضده.

وثانيهما كان "لود Laud" رئيس أساقفة كنتربرى، وقد عمل هذا بدوره على تركيز السلطة في يد الملك عن طريق نشر العقيدة الانجليكانية والقضاء على البيورتان، فاضطهد كل من رفض أن يتبع كنيسة انجلترا، واستعان لود بالمحاكم والمجالس الاستثنائية لإلقاء الرعب في النفوس، فتعقب المخالفين بالمصادرة والاضطهاد، وحرمهم من مصادر أرزاقهم، بل عرضهم كذلك لألوان التعذيب والتشويه، فأدى ذلك إلى التذمر وإلى هجرة أعداد غفيرة منهم إلى سواحل أمريكا الشمالية حيث هاجر بين عامي ١٦٣٩ - ١٦٤٠ مئات من الإنجليز من الزراع ورجال

الدين وغيرهم ممن رغبوا فى العبادة وفق طريقتهم، فتركوا بلادهم واستقروا على سواحل ماسا شوستس Massachussetts. وقد نقل من هاجر منهم بسبب اضطهادات "لود" إلى "نيوانجلند" النظم والمجالس التى اعتادوها فى بلادهم. وصدق القول بأن سياسة لود الدينية قد أدت إلى تأسيس المستعمرات الإنجليزية فى نيوانجلند".

وعندما أراد أن يفرض العقيدة الأنجليكانية على الشعب الاسكتلندى، وكانت الكنيسة البرسبتارية Prespeterian Chrch هى السائدة فيها، وكانت تعتمد على عقيدة كلفن، رفض الاسكتلنديون اعتناق المذهب الأنجليكانى فأعدوا جيشًا للإغارة على انجلترا من الشمال ليحدثوا القلاقل والاضطرابات حول شارل الأول. فاضطر إلى دعوة البرلمان إلى الاجتماع للحصول على المال اللازم لمواجهة خطر الغزو الاسكتلندى.

فدعا برلمانه الرابع للبرلمان القصير فى وستمنستر (١٣ ابريل – ٥ مايو) رفض هذا البرلمان الموافقة على الأموال حتى تسوى المظالم، مما أدى إلى حله بسرعة. صخب وهجوم على قصر لود. الاضطرابات فى اسكتلندا تتسبب فى وقوع الحرب الأسقفية الثانية الملكيون يهزمون فى مناوشة فى نيوبرن على التاين (٢٨ أغسطس). بمقتضى معاهدة ريبون، وافق شارل على أن يدفع يوميًا للجيش الاسكتلندى مبلغ ٨٥٠ جنيه حتى يتم الوصول إلى تسوية عامة. جعلت هذه الالتزامات دعوة البرلمان أمر لا مفر منه.

وعقد البرلمان الطويل وهو البرلمان الخامس فى عهد شارل الأول (٣ نوفمبر ١٦٤٠ – ١٦ مارس ١٦٦٠) ظلت الدورة منعقدة حتى ٨ سبتمبر ١٦٤١. وكان مما جعل لمجلس العموم سيطرة غير عادية على الملك شارل الأول أن الجيش الاسكتلندى لن يسرح إلا بعد الحصول على الرواتب المتأخرة. وفى ١١ نوفمبر اتهم ستراتفورد بالخيانة. وتبعه لود، وأرسل كلاهما إلى القلعة. وفى أثناء محاكمة ستراتفورد فى مارس التالى اسقطت تهمة الخيانة لعدم ثبوتها، وصدر قرار حكم

بالإعدام وفقدان الحقوق المدنية. وتمت الموافقة عليه في كل من مجلس العموم واللوردات في ابريل. فنفذ في ستراتفورد حكم الإعدام في ١٢ مايو. وفي تلك الأثناء وافق البرلمان على قانون السنوات الثلاث الثورى وبمقتضاه يستلزم استدعاء البرلمان مرة كل ثلاث سنوات حتى إذا لم يبادر الملك بذلك (١٥ مايو ١٦٤١) وتلا ذلك في مايو قانون يحرم حل البرلمان القائم أو تأجيل انعقاده دون موافقة البرلمان؛ وقد وقع شارل مكرها مع قرار الحكم بإعدام ستراتفورد. وبلغت الراديكالية أوجها بالقرار إلغاء وظيفة الأساقفة. وكان هذا و قانون الأصل والفرع الذى جعل البيورتان المعتدلين ينفصلون عن البرسبتاريين الأكثر راديكالية.

وفي يوليو سنة ١٦٤١ تم إلغاء مجالس قاعة النجم واللجنة العليا. وكانت هذه المجالس جزءا من دستور انجلترا، مما يبين أن البرلمان بإلغائها كان مصمما على إحداث ثورة. وفي أغسطس من نفس العام عقدت معاهدة صلح مع اسكتلندا. ودفعت الأموال للجيوش الاسكتلندية والإنجليزية نتيجة إجراءات فرض ضريبة خاصة للرأس أجازها البرلمان. ولجأ شارل إلى الاسكتلنديين. وعند تأجيل البرلمان في سبتمبر عن كل مجلس لجنة لتنعقد أثناء العطلة (وكان بيم رئيس لجنة العموم). حاول شارل أن يرضى أعضاء البرلمان المعتدلين عن طريق توظيف زعيمهم "لوسيوس كرى" لورد فوكلند.

وفي اسكتلندا دبر منتروز مؤامرة للقبض على ايرل أرجيل الزعيم البرسبتارى. وبدا كأن كشف المؤامرة سيورط شارل نفسه فيها، الذى وقع هكذا في يدى أرجيل. تنازل شارل في الواقع عن كل سيطرة على اسكتلندا لأرجيل. والبرسبتاريين، ولم ينل في مقابل ذلك إلا وعدا بألا يتدخل في شئون الديانة الإنجليزية (١٦٤١). واجتمع البرلمان وسمع أنباء مذبحة البروتستنت في الستر (قتل ثلاثون ألفا). ما زال البرلمان غير راغب في أن يعهد شارل بجيش؛ قدم إليه الاحتجاج الأعظم (أول ديسمبر)، وافق عليه مجلس العموم في نوفمبر بأغلبية أحد

عشر صوتا، ويتضمن ملخصًا لجميع مظالم عهده، وأمر البرلمان بطبعه في ١٤ ديسمبر.

وأمر شارل بتوجيه تهمة الخيانة إلى كل من "لورد لمبكتون وبيم و بد وهزلرج وهولز وسترود من مجلس العموم لاتصالهم المريب مع الاسكتلنديين أثنا الاضطرابات الأخيرة. وعندما رفض أعضاء مجلس العموم أن يصدروا أمر القبض عليهم، قصد شارل ومعه بضع مئات من الجند المجلس وحاول القبض على خمس أعضاء (٤ يناير) وانسحب عندما فشل في العثور عليهم، فقد لجأ الرجال الخمسة إلى لندن حيث تبعهم أعضاء مجلس العموم وكونوا لجنة في "جيلد هول" تحت حماية أبناء لندن. وبارح شارل لندن في ١٠ يناير، بينما عاذ الأعضاء الخمسة. وتشجع أعضاء مجلس العموم الفائزون وفرضوا على الملك قرارات لحرمان الأساقفة من عضوية مجلس اللوردات، ومنح البرلمان قيادة الميلشيا. ورفض الملك أثناء وجوده في يورك أن يوقع على القرار الأخير، ولحق به اثنان وثلاثون من اللوردات، وخمسة وستون عضوا من العموم، وكان معه كذلك الختم الأكبر. وعلى ذلك اضطر البرلمان عندئذ إلى الموافقة على القوانين التي لم يفرض على الملك ولم يظهر فيها ا تم الأعظم.

وقام البرلمان بمحاولة أخيرة للتقرب من شارل عندما عرض عليه التسعا شر اقتراحا؛ التي يلزم فيها الملك بالموافقة على قرار الميليشيا (الحرس الوطني) أن يعهد بجميع الاستحكامات إلى ضباط يعينهم البرلمان؛ ويلزم إدخال اصلاحات على الطقوس الدينية وحكومة الكنيسة وفقًا لرغبات البرلمان؛ وأن يصبح على البرلمان تعيين وعزل جميع الوزراء الملكيين وتعيين الأوصياء على أولاد الملك وأن يكون للبرلمان، إذا أراد، سلطة طرد جميع اللوردات الذين رفعوا إلى هذه المنزلة بعد هذا التاريخ من مجلس اللوردات ولكن الاقتراحات رفضت.

وعين البرلمان لجنة الأمن العام. وكلف ايسكس بتكوين جيش من ٢٠,٠٠٠ من المشاة، و٤٠٠٠ من الفرسان وفى ٢٢ أغسطس عند رفع شارل العلم الملكى فى نتنجهام، بدأ الطور الحربى للثورة العظمى.

وبدأت الحرب الأهلية بين البرلمان والملك (١٦٤٤ - ١٦٤٩). وانضم إلى الملك الأشراف وأتباع الكنيسة الأنجليكانية والكاثوليكية، بينما استعان البرلمان بالطبقة الوسطى. وكان أفرادها يوصفون بذوى الرءوس المستديرة Round Heads كما استعان بمعتنقى العقيدة البروتستنتية غير الأنجليكانية مثل البرسبتارية والبيورتان. واستطاع البرلمان كذلك الوصول إلى التحالف مع اسكتلندا ضد الملك والكنيسة الأنجليكانية، واستمرت الحرب مدة خمس سنوات وانتهت بهزيمة الملك وإعدامه.

وانتصرت قوات البرلمان على قوات الملك لأسباب متعددة من أهمها:-

١- أن الطبقة الوسطى اشتركت فى الحرب إلى جانب البرلمان وهى صاحبة الثورة فى انجلترا وانضمت إليها أقاليم انجلترا الشرقية التى تزخر بمراكزها الصناعية والتجارية، وبذلك توافرت الأموال اللازمة لتكوين جيش نموذجي، كما أنضمت القوة البحرية أى قوة الأسطول مما كان له أثره فى ترجيح كفة البرلمان على الملك.

٢- ظهور شخصية أوليفر كرمويل بين المقاتلين فاستطاع هذا الجندى الشجاع أن ينظم جيشًا نموذجيًا كسب به المعارك المختلفة التى دارت بين الفريقين وأصبحت له شهرة عالمية أشاد بها القائد الفرنسى "تورين Turenne" الذى شهد ببراعة هذه الجيش عندما أرسل كرمويل جيشًا لفرنسا لمساعدتها فى حروبها ضد أسبانيا فأحرزت يومئذ نصرًا فى موقعة "الدن Dunne المشهورة واستطاعت هذه القوات التى دربها وقادها "أوليفر كرمويل" أن تنتصر على قوات الملك شارل الأول فى موقعتى "مارستون مور" سنة ١٦٤٤، ونازبى Nasby سنة ١٦٤٥.

وتعد موقعة مارستون مور" اشهر مواقع هذه الحرب، ظهرت فيها مقدرة كرمويل الحربية العظيمة التى رفعته إلى مصاف عظماء القواد، وقد اعترف له البرلمان بذلك. وعرف كرمويل بتسامحه، فأفسح مجال الترقي فى الجيش أمام الجميع بصرف النظر عن اختلافاتهم الدينية، على أن البرلمان الذى استطاع أن ينال هذه الانتصارات علي الملكية فى ميدان الحرب فشل فى ميدان الصلح. فلم يستطع بعد ذلك أن يوحد صفوفه وأن يتبع سياسة سلمية بين الفريقين. بل إن البرلمان اتبع سياسة اضطهاد إزاء معتنقى العقيدة الانجليكانية، وكان يحرمهم من معاشاتهم. وأخذ يطارد الملكيين ويفرض عليهم غرامات فادحة. كما أن البرلمان بدأ يحقد على الجيش ويخشى ازدياد نفوذه نتيجة لتلك الانتصارات التى أحرزها. وهكذا بدأت تظهر الفرقة بين صفوف المنتصرين من أعضاء حزب البرلمان والجيش. ولم يعد البرلمان الذى أظهر عداءه لحرية الرأى البروتستنتى فى انجلترا كما لم يقدر خدمات الجيش الذى يرجع إليه الفضل فى انتصاراته الساحقة على الملك الذى لم يعد صالحًا لحكم انجلترا. وقد أثارت تصرفات البرلمان يومئذ غضب كل من الشخصيتين العظيمتين فى انجلترا فى ذلك العهد وهما "أوليفر كرمويل" و"ميلتون".

ويتبين من المفاوضات التى بدأت بين البرلمان والجيش والملك أنه لم تكن هناك أى فكرة لاستبعاد الملك عن العرش، بل كان كل من البرلمان والجيش يرغب فى عودة الملك إلى الحكم، وقد عبر كل فريق عن أرائه ومبادئه وكانت جميعها فى صالح الدولة لو أخذ بها. كان الملك بطبيعة الحال ينادى بالملكية وكتاب العبادة الإنجليزية (أى العقيدة الأنجليكانية) بينما كان البرلمان ينادى باحترام القانون العام والحكومة المسئولة والجيش ينادى بضرورة التسامح لسائر الطوائف البروتستنتية.

فى الواقع أن كل هذه الأمور كانت لصالح الملكية فى انجلترا، فلو أخذ بها جميعا لاستطاعت الملكية أن تستقر. على أنه لم يكن مقدرًا لشارل الأول أن يعود للحكم ثانية، إذ رأى لسوء حظه أثناء المفاوضات أن ينتهز فرصة الخلاف بين

البرلمان والجيش وموقف اسكتلندا من انجلترا ليقضي على أعدائه جميعًا، وليعيد لنفسه الحكم المطلق في انجلترا. وهذا أكبر دليل على أن الملك لم يتخل عن عقيدة حقه المقدس. فبينما كان يفاوض الجيش والبرلمان أخذ يعد العدة لاستئناف الحرب وذلك عن طريق إثارة المدن الكبرى والتحالف مع رعاياه الاسكتلنديين. ولأحكام المؤامرة فر الملك من يد الجيش، ولكن الجيش لم يلبث أن قبض عليه، ولم يغفر تحالفه مع الاسكتلنديين وتآمره بالتالي على سلامة البلاد وعقيدتها الدينية.

وعند عودة أوليفر كرمويل من صد الاسكتلنديين المناصرين للملك في بريستون Preston وكان نفوذه قد ازداد نتيجة للتطهير الذى قام به "برايد" Pride عام ١٦٤٩م بطرد الأعضاء البارزين من الحزب الملكي في البرلمان - أصبح مهيأ للتخلص من الملك. وقد أجمعت الآراء على ذلك، فأدانته الهيئة التي حاكمته وكانت مكونة من أعدائه، واتهمته بالخيانة العظمى فاعدم في وايت هول White Hall في فبراير ١٦٤٩، ونسي الإنجليز الأخطاء التي ارتكبها شارل واعتبروه شهيدا.

عهد سيطرة كرمويل ١٦٤٩ - ١٦٥٨:

وأعلنت الجمهورية في الجزر البريطانية وأطلق عليها في تلك الفترة اسم رابطة الشعوب البريطانية Commonwealth وأعلن المجلس أن حكومة انجلترا أصبحت بلا ملك ولا مجلس لوردات، وحاول كرمويل أن يقيم حكما صالحا في البلاد وأخذ مع أنصاره يضع دستورًا جديدًا أطلقوا عليه اسم "أداة الحكم Instrument of Governmcy" وبموجب هذا الدستور أصبحت انجلترا جمهورية من الناحية النظرية، ولكن كرمويل الذى كان يحمل لقب حامي الدولة كان في الواقع يحكم كملك بغير تاج، إذ كان يتمتع بسلطة تفوق في بعض الأحيان السلطة التي كان يتمتع بها شارل الأول.

وعادت النظم البرلمانية القديمة بعد أن أدخلت عليها بعض التعديلات ولم يكن للبرلمان الجديد سلطة دستورية كاملة، ولم تكن العلاقات بين كرمويل ومجلس العموم ودية دائمًا، لأن أعضاؤه كانوا يرتشون ويسندون الوظائف إلى صنائعهم وأقاربهم، فضاق كرمويل بهم وأمر بحل المجلس (١٦٥٣) وإجراء انتخابات جديدة، ولما انعقد المجلس الجديد أثبت فشله فأمر بحله أيضًا، وأصبح زمام الأمور كلها بيد كرمويل (حامى الجمهورية). وحكم البلاد حكما دكتاتوريًا معتمدًا على براعته السياسية وجيشه القوى مدة خمسة سنوات، وهو إن واجهته صعوبات جمة فى سياسته الداخلية إلا أنه كان ناجحًا في سياسته الخارجية فقد عقد تحالفًا مع فرنسا وساعد الفرنسيين في حربهم ضد الأسبان، ونالت إنجلترا فى نظير ذلك ميناء دنكرك، وجزيرة جاميكا ومات كرمويل سنة ١٦٥٨.

ظهر ضعف النظام الذى أوجده كرمويل بعد وفاته، فقد كانت البلاد فى أشد الحاجة إلى شخصية قديرة تستطيع أن تقوم بأعباء الحكم دراية وحكمة، ولكن ولده رتشارد الذى خلفه فى رئاسة الجمهورية كان ضعيف الشخصية على الرغم من أنه كان شابًا ميالا إلى الخير والإصلاح، فلم يستطع أن يسيطر على الموقف كأبيه فقد واجه عدة صعوبات لم يكن فى مقدوره مواجهتها بالحزم الواجب. أولهما إطماع بعض قواد الجيش ممن ينزعون إلى الوصول إلى السلطة، وثانيهما الجمهوريون الذين ظهر منهم زعماء يطمعون فى القيام بانقلابات سياسية، وثالثها الملكيون الذين يرغبون في عودة ملوك أسرة ستيورات، وأخيرا الأحزاب الدينية التى تريد فرض مذاهبها بالقوة في البلاد.

واتضح لريتشارد أن أضعف من أن يواجه الموقف المعقد فيتنازل عن العرش، وبقى على الجيش أن يتصرف. وكان أقوى القواد شخصية فى ذلك الحين الجنرال منك Monk وكان هذا القائد من المحافظين الذين يرغبون فى إرجاع الملكية. فكاتب شارل الثانى وهو ابن شارل الأول، الذى كان يعيش فى منفاه

بهولندة، وطلب منه العودة إلى انجلترا لاعتلاء العرش. وقبل شارل وبذلك انتهت الجمهورية وعادت الملكية إلى آل ستيورات.

كان شارل الثاني (١٦٦٠ - ١٦٨٥) من أكثر ملوك انجلترا قربا من قلوب الشعب. ولم يكن حب الشعب له راجعًا إلى صفاته وفضائله بقدر ما كان تعبيرا عن رد الفعل الذى أحدثه قيام الجمهورية ونظام الحماية. فعودة شارل لا تحدد فقط نهاية التجربة الجمهورية فى تاريخ انجلترا بل تبرز أيضًا بنبذ فكرة فرض السياسة البيوريتانية الصارمة العنيفة على المجتمع. وكان شارل قد عاش فى فرنسا وتأثر بالحياة الفرنسية إلى حد بعيد، وخصوصا بما كان لويس الرابع عشر قد أدخله فى بلاطه من تقاليد فلما عاد شارل إلى انجلترا كان رسولا لهذه العادات والتقاليد الفرنسية فى بلاطه حتى أطلق عليه اسم الملك المرح Merry Monarch وكان هذا يناسب تمامًا الحالة النفسية التى وجد عليها الشعب الانجليزى بعد فترة طويلة من الحروب الأهلية والخلافات الداخلية والمذابح والاضطهادات.

لم يكن لشارل شخصية قوية، ولم يكن عنيدا أو متشبعا بنوع معين من المبادئ مثل أبيه، وكان سهلاً يضع مسراته وملذاته فوق كل اعتبار. وقد خدمت هذه الشخصية الموقف الذى واجهته انجلترا بعودة الملكية. فهو لا يتشبث فى نزاعه مع وزرائه أو مع البرلمان برأيه. وما أن اعيدت الملكية إلى انجلترا حتى طغت الرغبة عند المنتصرين فى الانتقام من خصومهم البيوريتان فقد كان العفو العام الذى أصدره الملك من هولندا خاضعًا لمراجعة البرلمان. ولكن البرلمان قرر معاقبة من تسببوا فى قتل شارل الأول، فاعدم ثلاثة عشر من الذين اتهموا بالاشتراك فى قتل الملك، كما أخرجت جثة كرمويل من قبره ومثل بها، وباستثناء هذا لم تكن عودة الملكية مصحوبة فى الحقيقة بما يماثلها فى تاريخ البلاد الأخرى من حوادث العنف والاضطهاد وكان هذا يرجع إلى اعتدال الملك شارل الثانى. ومع ذلك فإن البيوريتان المقهورين الذين تزعمهم فى ذلك الوقت الشاعر الكبير ملتون كانوا

ينظرون إلى عودة شارل على أن الصراع الدينى والمدنى السابق قد ضاع سدى. والحقيقة أن المسالة لم تكن كما فهمها البيورتان، فعودة الملكية لم تكن على حساب المكاسب التى كسبها الشعب فى نزاعه مع شارل الأول. ويكفى للدلالة على هذا أن نذكر أن أى ملك بعد ذلك لم يحاول أن يناقش حق البرلمان فى مراقبة الضرائب. ورغم هذا فقد عادت الملكية إلى إنجلترا منتصرة وبها قدر كبير من النشاط والقوة. وكان الجو العام فى انجلترا كنتيجة طبيعية لرد فعل الجمهورية يهئ انتصاراً ساحقاً للملكية حتى أن بعض المؤرخين يعتقدون أنه كان فى الإمكان العودة بالملكية إلى سلطتها أيام شارل لو كان الجالس على العرش رجلاً غير شارل الثانى.

ولقد أطلق على البرلمان الذى أنتخب عام ١٦٦١ برلمان الفرسان The Cavalier Parliament وغالبية من الملكيين ظهور رد فعل ضد البيوريتانية إحياء الألعاب والرقص والمسرح. ويسن البرلمان مجموعة من التشريعات المتشددة عرفت منذئذ باسم قوانين كلارندون (وإن كان كلارندون نفسه عارض هذه القوانين كثيراً) وكانت هذه القوانين على النحو التالى:

١- قانون القضاة المحليين (٢٠ نوفمبر سنة ١٦٦١م) وبمقتضاه كان على جميع القضاة أن يخضعوا لمراسيم الكنيسة الإنجليكانية وأن يتخلوا عن التعهدات التى أخذوها على أنفسهم لكرمويلن وأن يقسموا على اعتبار حمل السلاح ضد الملك عملاً غير شرعى.
٢- قانون التجانس الكنسى (٢٤ أغسطس ١٦٦٢) الذى تطلب من رجال الكنيسة وأعضاء الكليات والمعاهد وأساتذة المدارس أن يتقبلوا جميعاً كتاب الصلاة العامة الخاص بالبروتستنت (والذين رفضوا ذلك هم المنشقون غير التابعين للكنيسة الأنجليكانية).
٣- قانون الإجماع (مايو ١٦٦٤) وهو الذى حرم عقد اجتماعات دينية يقوم بها أكثر من خمسة من المنشقين عن الكنيسة إلا إذا كان الاجتماع فى منزل خاص.

٤- قانون الأميال الخمسة (أكتوبر ١٦٦٥) الذى فرض على جميع الذين لم يقبلوا التجانس الكنسى أن يقسموا على عدم المقاومة ويتعهدوا بألا يحاولوا إدخال أى تغيير فى الكنيسة أو الدولة، كذلك حرم هذا القانون عليهم أن يقتربوا أكثر من خمسة أميال من أية مدينة تدخل ضمن دائرة قانون التجانس الكنسى. وكان من الصعب بتقيد هذا القانون بدقة وبخاصة المادة الأخيرة منه.

وقد تبينت سياسة شارل الثانى للرأى العام الإنجليزى عندما وقع معاهدة مع لويس الرابع عشر فى عام ١٦٧٠م وعد بموجبها أن يؤيد الكنيسة الكاثوليكية وأن يساعد لويس فى حروبه المتوقعة مع الهولنديين ووعد لويس فى نظير ذلك أن يمد شارل بالجنود والأموال تأييداً له ضد أية ثورة شعبية تقوم ضده انجلترا عندما تسنح له الفرصة بالانضمام إلى الكنيسة الكاثوليكية فى روما. عندئذ أدرك الشعب أن ملكهم يعبث بكرامة بلاده، فتصبح كأنها تابعة لعدوتها القديمة فرنسا، وأنه يسعى لإقامة الحكم المطلق وترسيخ الكاثوليكية الرومانية فى انجلترا بمساعدة دولة أجنبية.

ولما لم يكن لشارل الثانى وريث من بعدهن أصبح أخوه جيمس الثانى (١٦٨٥ – ١٦٧٩) وريثه الشرعى، وكان جيمس الثانى معروفاً بتحمسه الشديد للكاثوليكية وعزمه على إعادتها كمذهب رسمى للبلاد مهما كلفه الأمر وكانت وراثته للعرش مثاراً للمناقشة فى البرلمان فقد اقترح فريق من الأعضاء أن يصدر المجلس لائحة الحرمان Exclusion Bill لمنع جيمس من وراثة العرش وعند مناقشة هذا الاقتراح انقسم الأعضاء إلى فريقين مجد ومعارض. وكان هذا الاختلاف فى الرأى على إصدار قانون الحرمان أساساً لتكوين نظام الحزبين فى البرلمان الإنجليزى، وظهور إلى الوجود حزب الهويج Whigs أى الأحرار فكان لا يؤيد سلطة الملك المطلقة ويعمل على ازدياد حريات الأفراد، وكان حزب الخارجين على الكنيسة الأنجليكانية من التجار والطبقة الوسطى، وكان أعضاؤه يخشون المبادئ الملكية

التي يدين بها حاكم هولندا، ولذلك عندما حاول دانبى أن يجعل انجلترا تقوم بحرب ضد فرنسا اشتد خوف حزب الهويج من إتاحة الفرصة لحزب التورى لتكوين جيش قد يستخدمونه فى القضاء عليهم. ولذلك نجحوا فى منع وقوع هذه الحرب. وأما الحزب الأخر فهو حزب التورى ومؤسسه دانبى Danby، وهو حزب المحافظين وغالبية أعضائه من ملاك الأراضى من المؤيدين للكنيسة الأنجليكانية والسلطة الملكية وكان دانبى خلال سيطرته ١٦٧٤ - ١٦٧٨ صديقاً لهولندا، وعدواً لفرنسا عمل على توطيد أواصر الصداقة بين هولندا وانجلترا بترويج وليم حاكم هولندا من مارى ابنه جيمس آخى الملك وولى العهد على الرغم من معارضة الأخير.

كانت المنافسة خطيرة بين الحزبين، وقد يتبين لدانبى وأعوانه من المحافظين اتخاذ الوسائل لأقضاء "الهويج" الأحرار عن الحكم، ومن أهمها عدم السماح بوقوع انتخابات عامة من شأنها تغيير طابع البرلمان. وكان فى هذا خطأ كبير لأن وجود حزبين فى الحكم ظاهرة صحية يترتب عليها أن يكون هناك حزب معارض خارج الحكم، فيجعل الحزب الحاكم حريصاً على ألا يخطئ حتى لا ينجح الحزب الآخر فى جعله يفقد ثقة البرلمان فيستبعد من الحكم. عمل دانبى على التخلص من أعدائه من أعضاء الحزب المعارض مستخدماً العنف والشدة، مما أثار زعيم المعارضة "لورد شافتسبرى" وزاد الحالة سوءاً إدعاءات "تستاس واتس Titus Oats" فى خريف ١٦٧٨ عن وجود مؤامرة كاثوليكية مريرة لحرق مدينة لندن للتمهيد لخلع شارل وتنصيب دوق يورك ملكاً على انجلترا، وتأكدت تلك الشائعات بصفة خاصة عندما نشرت بعض الرسائل التى كتبها كولمن Coleman السكرتير الخاص لدوك يورك ولى العهد إلى أحد مستشارى لويس الرابع عشر يشير فيها إلى مسألة تحويل انجلترا إلى الكاثوليكية. وظهر الخلاف واضحاً بين حزبى التورى والهويج تجاه هذه المؤامرةن فبينما أصر الهويج على حرمان جيمس الثانى من العرش كلية، أكتفى حزب التورى بالإبقاء عليه مع تحديد سلطاته.

ولما فاز جيمس الثانى بالعرش فى عام ١٦٨٥، أثبت عدم جدارته بثقة الشعب والبرلمان، بل أنه فقد ثقة حزب التورى الذى ناصره ودافع عن حقوقه ورفض قرار مجلس العموم فقد تحدى الملك البرلمان بأن أصدر لائحة التسامح الدينى Deceleration of Indulgence التى ألغت القوانين التى صدرت من قبل البروتستنت ضد الكاثوليك وغيرهم من أعداء، وأقدم على تعيين عدد من الكاثوليك فى وظائف الحكومة ومناصب الجيش. وبهذه الإجراءات أغضب كلا من التورى والهويج على السواء. فحزب التورى كان يخشى من أن وجود ضباط من الكاثوليك على رأس قيادة الجيش، يجعل الجيش يحارب الكنيسة الإنجليزية (الأنجليكانيكة) ويفرض نفسه على تصريف الأمور فى البلاد كما هو الحال مع جيش كرمويل، وأما "الهويج" فكانوا ينقمون على الملك عدم احترامه لسلطة البلمان ومناصرة الكاثوليكية إلى أبعد الحدود.

وكان أمل الشعب الوحيد هو أن جيمس الثانى كان مسناً، وله ابنة بروتستنينية من زوجته الأولى سوف تخلفه عن العرش ولكن جيمس لم يلبث أن رزق أبناً من زوجته الثانية الكاثوليكية، وتبعاً لقانون وراثة العرش يصبح الولد أحق بولاية العهد. وبطبيعة الحال سوف يربى الولد على عقيدة أبيه.

لم يعد أمام الشعب الوحيد إلا حل واحد هو أن يقرر البرلمان خلع الملك وولى عهده ويدعوا ابنته (مارى) إلى تولى العرش. ووافق فعلاً أعضاء الحزبين فى البرلمان على اتخاذ هذا الإجراء. ولما كانت مارى متزوجة من وليم أورانج حاكم هولندة. فقد ذهب وفد من البروتستانت لدعوة وليم ومارى إلى القدوم إلى انجلترا ليتولى العرش ولبى وليم ومارى الدعوة، عل اعتبار أنه رغبة الشعب الإنجليزى. وفى عام ١٦٨٨م نزل وليم أرض انجلترا وزحف بجيشه على لندن، وناصره الشعب البروتستنتى وتخلى جيش جيمس عن الدفاع عن عرشه ففر إلى فرنسا. واستطاع وليم أن يقضى على المقاومة الكاثوليكية التى حاول القيام بها زعماء الكاثوليك فى اسكتلنده وايرلنده.

ويطلق الإنجليز على ثورة ١٦٨٨ "الثورة العظمى والثورة المجيدة Glorious Revolution" والثورة البيضاء. والواقع أنها تستحق كل ذلك: فهي بيضاء لأنها وقعت دون إراقة دماء. ومجيدة وعظيمة أنها تمخضت عن "قانون الحقوق" ١٦٨٩ الذي دعم نظام الحكم الملكي الدستوري ونظام العقيدة الأنجليكانية، وما إلى ذلك من مزايا عديدة وأثبت اتفاق ١٦٨٩ بين الملك والبرلمان أنه يتضمن نظاماً وطيد الأركان سليم القواعد، ولم يكن هذا الأتفاق الجديد عاملاً عظيماً في منح الإنجليز حرية تفوق تلك التي حصلوا عليها من قبل، ولكن كان فيه تجيد الهيئة السياسية والحكومة للدولة وسلامة تصرفاتها، كما أحل هذا الاتفاق الجديد التعاون بين الملك والبرلمان محل التشاحن والتنافس على أساس غلبة البرلمان. كذلك استطاعت انجلترا بفضل هذا الاتفاق أن تجتاز المحنة التي واجهتها بسبب أطماع لويس الرابع عشر المتزايد بسلام، بل استطاعت كذلك بفضل هذا الاستقرار أن تحتل مركز الزعامة في السياسة الأوروبية بفضل ملبرا Malborough والبول Walpole وشاتام Chatham. فتتزعم أوروبا بجيوشها ومستعمراتها وتجارتها. كما تميزت انجلترا بحريتها في مجال السياسة والدين واشتهرت بنهضتها الثقافية.

يرجع الفضل في ذلك كله إلى إعلان الحقوق Declaration of Rightsوقد توج البرلمان انتصاره بهذا الإعلان عام ١٦٨٩م بين فيه افتئات جيمس الثاني على حقوق الشعب.. واشترط فيه على الملك الجديد ومن يله مراعاتها وأنه لا يجوز للملك إلغاء أي قانون أو أن يقوم بزيادة الضرائب أو فرض ضرائب جديدة أو تشكيل جيش إلا بموافقة البرلمان، ومنع سجن أي مواطن من غير محاكم قانونية. وقد وافق وليم ومارى على كل الشروط التي وردت في إعلان الحقوق. وتولى وليم العرش باسم "وليم الثالث". والواقع أن قانون الحقوق كان من الناحية النظرية دستوراً يقيد سلطات الملك ويحمي سلطات البرلمان.

ثم صدرت بعد ذلك عدة قوانين لتدعيم السياسة الجديدة ومنها قانون التسامح الدينى (١٦٨٩) الذى أعفى المنشقين الذين أقسموا يمين الولاء والاعتراف بسيطرة الكنيسة من جميع العقوبات المفروضة على المنفيين من الكنائس الأنجليكانية، كذلك صدر قانون التسوية Act of Settlement (١٧٠١) واستقر الرأى على أن تكون وراثة العرش من حق صوفيا أميرة هانوفر حفيدة جيمس الأول ثم لذريتها من بعدها. تقرر أن يكون بريطانيا العظمى من البروتستنت وإلا ينتقلوا إلى خارج المملكة إلا بموافقة البرلمان، وألا تقحم البلاد فى حرب من أجل حماية الممتلكات الخارجية للملوك ولا ينعم على أى أجنبى بمنحة من التاج أو يتقلد وظيفة مدينة أو حربية، وأن يكون الوزراء مسئولين عن تصرفات ملوكهم وما يصدرونه من قرارات ، وأن يتولى القضاء وظائفهم مدى الحياة إلا فى حالة الاتهام بسوء السيرة.

وأخيراً أصدر قانون الوحدة Act of union وبموجبه أصبحت اسكتلندا أو انجلترا مملكة متحدة تحت اسم بريطانيا العظمى (١٧٠٧). أدى هذا الإجراء الذي أوجبته حذف اسكتلندا من قرار التسوية إلى ما يأتي:

١- أن ترث صوفيا أميرة هانوفر وذريتها من البروتستنت عرش المملكة المتحدة.

٢- أن يكون هناك برلمان واحد تسهم فيه اسكتلندا بستة عشر عضوا منتخبا من اللوردات وخمسة وأربعين عضوا من النواب المنتخبين. لا يضاف أعضاء جدد إلى طبقة اللوردات فى اسكتلندا. يبقى القانون لاسكتلندا والإدارة القانونية الإسكتلندى والإدارة القانونية الاسكتلندية دون تغير ، كما تبقى الكنيسة دون تغير. واتخاذ العلم المشترك (علم سان جورج وسان اندروس) علما قوميا لبريطانيا العظمى.

الفصل الثالث عشر

فرنسا ١٧٨٩-١٨١٤

أولاً: أسباب الثورة الفرنسية

١- الأسباب الفكرية.

٢- أثر نجاح ثورة الاستقلال الأمريكية.

٣- الأسباب السياسية.

٤- الأحوال الاجتماعية وأثرها فى إثارة الشعب الفرنسى.

٥- الأزمة الاقتصادية ومحاولات الإصلاح.

ثانياً: مراحل الثورة الفرنسية

١- تفاقم الأزمة الاقتصادية وانعقاد الجمعية الوطنية

٢- سقوط الاستيل

٣- دستور ١٧٩١

٤- حل الجمعية الوطنية وقرار الملك

٥- حروب الثورة الفرنسية

٦- دستور حكومة الإدارة وتطور الإحداث

ثالثا: فرنسا من ١٧٩٩ حتى ١٨١٤

١- عهد القنصلية ودستورها

٢- نابليون والسياسة الخارجية فى عهد القنصلية

٣- عهد الأمبراطورية ١٨٠٤ — ١٨١٤

٤- سياسة الحصار القارى ضد بريطانيا

٥- عوامل انهيار امبراطورية نابليون

فرنسا ١٧٨٩ـ١٨١٤

اولا: أسباب الثورة الفرنسية

لم تكن الثورة الفرنسية حدثًا مهمًا فى تاريخ فرنسا فقط وإنما هى أحد أبرز أحداث القارة الأوروبية والعالم المتمدين فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ذلك أنها بالفعل نقطة تحول أساسية فى تطور النظم السياسية والاجتماعية فى أوربا. فقد وضعت حدًا للنظام الملكى القديم القائم على الاستبداد والمستند للحق الإلهى فى الحكم وفتحت الباب أمام نظم جديدة ملكية كانت أو جمهورية تقوم على حرية الشعوب والمساواة بين أفرادها وتستمد سلطانها من إرادة المواطنين وتعمل تحت رقابتهم بشكل أو بآخر.

فأوروبا كانت كلها تشكو مما شكت منه فرنسا: الملوك يمارسون الحكم المطلق على شعوبهم، والطبقات الممتازة تهيمن على خيرات البلاد فى كل مكان، والكنيسة باسم الدين، تتمتع بامتيازات لا حد لها وبإعفاءات من الضرائب والواجبات تجاه الدولة، والحريات العامة لا وجود لها إلا فى ضمائر الأحرار ومخيلاتهم، والشعوب لا سيطرة ولا سلطان لها على مقدارتها ومصائرها. فالثورة الفرنسية جاءت لتعالج هذه العلل وتحاول أن تجد لها حلولاً تصلح لفرنسا كما تصلح لغير فرنسا فى حالات كثيرة. وقد جاءت أحداث القرن التاسع عشر تثبت كيف أن الثورة أصبحت، بالنسبة لشعوب أوروبا المظلومة المسلوبة الحقوق رائدة فى مجال التحرير فتأثرت بها واستنارت بكثير من مبادئها وقيمها الجديدة لمعالجة المفاسد فى أوضاعها السياسة والاجتماعية.

وقد تعددت الأسباب التى لاندلاع هذه الثورة حتى أنه ليصعب تعدادها وحصرها، ثم إن أكثرها يعود فى جذوره الأصلية ما قبل الثورة كثير وربما عاد بعضها إلى أيام لويس الرابع عشر حين بدت فرنسا فى أحسن حالاتها وفى أوج قوتها ولعل بالإمكان أن نجمل هذه الأسباب فيما يلى:

١- الأسباب الفكرية:

من المصادفات الغريبة أن القرن الثامن عشر فى أوربا تميز بتيار جارف من الأفكار والمعتقدات التى لم تسبق فى أوروبا، وليس غريبًا بعد ذلك أن يجرى وصفه على ألسنة المؤرخين والمفكرين وفيما خلفوا من تراث أن يوصف بعهد الاستنارة Age Enlightment، ففيه انقشع الظلام وبدأ الفكر الحر يفيق من ثباته لينطلق فى سائر أنحاء الحياة، لم يكن هذا اللون من ألوان الاستنارة قاصرا على فرنسا وحدها بل عم كثيرًا من بلاد أوروبا. على سبيل المثال ألمانيا، فقد ظهر فريق من أئمة الأدب والفلسفة، مثل جوته Goethe وشيلر Schiller وهردر Herder وفيلاند Wieland.

وظهر أمثال هؤلاء فى إنجلترا مثل الفيلسوف "ديفيد هيوم" David Hume (١٧١١ – ١٧٧٦). وجون لوك John Locke (١٦٣٢ – ١٧٠٤) وهو صاحب رسالة فى طبيعة التفاهم البشرى وهو أول من نادى بالفكرة المنطقية فى طبيعة الحكم ونظامه، كما كان مؤمنًا بالتسامح الدينى. وعن مذهبه الفكرى ومذهب معاصره (اسحق نيوتن) بوجه خاص تسربت إلى فرنسا طائفة من التيارات الفكرية.

وتقول زينب راشد ((ومع ذلك كله فلا ينبغى أن يفوتنا أن المفكرين فى فرنسا فى هذا العهد كانوا أئمة وقوادًا لهذه التيارات الفكرية التى تهتف بالدفاع عن حقوق الأفراد وحرياتهم الدينية والمدنية. فكان فولتير رائد الدعاة وقائد المبشرين بالمذاهب الإنجليزية الجديدة فى فرنسا، وكان من أنشط كتاب

زمانه، وأخلدهم ذكرًا، وأطولهم عمرًا، وألمعهم شخصية، وأعمقهم أثرًا، كما كان روسو ومنتسكيو من أشهر كتاب فرنسا يومئذ)).

ومن الواضح أن أبرز ما امتازت به الحركة الفكرية فى فرنسا هو الاهتمام الشديد بتغيير حال المجتمع، فكان لفلسفة "لوك" أثرها فى الاتجاه نحو تطبيق الفكر الإنسانى مع التحرر من القيود الدينية للتخلص من أضغاث العصور الوسطى وإصلاح حالة الفرد. ومن ثم شغلت الأذهان فى فرنسا بالمشاكل المختلفة من اجتماعية وسياسية ودينية. ولم تعد قاصرة على رجال الأدب والطبقة الأرستقراطية، بل تعدتها إلى أفراد الطبقة الوسطى والمتعلمين من شباب الجيل، وذلك أمر ميزها عن حركة النهضة، وازدهرت فى فرنسا تبعًا لذلك طائفة من ألوان الأدب الفلسفى والإنسانى من الرسائل والبحوث التاريخية والفلسفية والتربوية، ونشأت بعض الكليات فى الأقاليم، وأنشئت الجمعيات الأدبية والمكتبات وقاعات المطالعة، كما ظهرت الصحف المحلية.

والواقع أن هذه الحركة قد انفردت بين سائر الحركات التقدمية بأنها حركة إنسانية كاملة، فنادت بإيقاف التعصب الدينى ومنح الفرد حرية العبادة بالمعنى الصحيح، وأرادت للناس بحق أن يكونوا كما ولدتهم أمهاتهم أحرارًا. كما كان أثرها فعالاً فى النفوس عامة، فلم يقتصر على فرنسا وحدها بل تعداها إلى سائر الأقطار الأوروبية، فأدت بذلك ما ينبغى للثورة الحقة من خدمات للحياة البشرية، فهى قد خلصتها من شوائب العنف والاعتقاد فى الخرافة، وحرصت فى دعوتها أشد الحرص على اقتلاع جذور الحسد والخلافات بين الطبقات، فلا فضل لأحد على أحد إلا باستقامة الضمير وسلوك الصراط السوى. ولم تكن السبل سهلة ميسرة أمام أولئك الفلاسفة والمفكرين على أن منهم قد نعتوا بالكفر والإلحاد وفى مقدمتهم فولتير وروسو.

على أن القدر التاريخى فى حياة البشر قد مهد لانتشار مذهب تلك الطائفة من الفلاسفة والمفكرين، فهى كتبت باللغة الفرنسية التى أصبحت لغة الثقافة فى أوروبا، فاستقبلها الناس وأحلوها محل اللغة اللاتينية فى سهولة ويسر، مما ساهم فى وصول تلك الأفكار الجديدة إلى بلاط الملوك والأمراء فى برلين وفيينا وسان بطرسبورج ومدريد. وكانوا يومئذ أصحاب القوة والبأس الشديد، إلا أن ذلك لم يخل نفوسهم من نزعة الأبوة والرغبة الشديدة، فى إصلاح المجتمعات الإنسانية ودفعها إلى التقدم عن طريق الثقافة الرشيدة.

ويرجع الفضل فى انتشار تلك الحركات الإصلاحية أن مبعثه لم يكن رغبة المفكرين فى إقرار ما يسمونه الحكم الديمقراطى، وإنما كانت الرغبة الحقة وهى إبراز الحرية وتحصينها من كل عدوان، وآية ذلك أن انتشار أراء المفكرين من فلاسفة فرنسا وإعطاءها لواء الزعامة يؤمئذ لم يكن مبعثه مظاهر الحكم الديمقراطى، ففولتير مثلاً لم يكن ديمقراطى النزعة، ولم يكن يهمه أو يهم المفكرين من أمثاله تقرير أداة الحكم وضبطها، وإنما كانوا يرمون إلى تحقيق الحرية فى أوسع معانيها حرية الفكر، وحرية القول، وحرية النشر، وحرية الفعل، فالحرية كانت فى رأيهم التخلص من سائر طبقات المجتمع الأوروبى.

ويمكن إضافة اتجاهات القدر فى تاريخ البشر ذلك أن موجة عاتية من الكره قد طغت على الكنيسة واتباعها، فكانت سلاحًا من أسلحة الإصلاح التى أعانت الفلاسفة الفرنسيين فى نشر مذاهبهم وهدم آثار الماضى بكنيسته التى كانت تقف حائلاً دون كل إصلاح وتقدم. ومن حق التاريخ أن يقرر فى صدق وإخلاص أن حملات فولتير وغيره من المفكرين فى فرنسا على الفساد المتأصل فى حياة الكنيسة قد أفادت المسيحية فى فرنسا وليس من شك فى أن فلاسفة العصر كانوا على حق عندما هاجموا الكنيسة.

ليس من شك أن الدور الذى قام به رجال الفكر الذين سبق الحديث عنهم قد كانوا بمثابة نفخة الصور فى قيام الثورة ولكن البواعث المادية كانت أصيلة كذلك، فالجوع والظلم الاجتماعى وسوء نظام الحكم وفساد الكنيسة وتدهور أحوال البلاد الاقتصادية، كل ذلك فتحَّ العقول والقلوب والأسماع والأبصار لاستقبال نداءات الثورة كما أججبت وقود نارها حتى بلغت منتهاها. وكان لبعض الكتاب الفرنسيين دور فى إذكاء الثورة الفرنسية.

كان فولتير (١٦٩٤ – ١٧٧٨م) أشهر كتاب القرن الثامن عشر وأقواهم أثرًا وقد كان لكتبه رواج عظيم. وقد شارك فولتير فى إنجاب الثورة الفرنسية بإضعاف احترام الطبقات المثقفة للكنيسة وإيمان الطبقة الأرستقراطية الإقطاعية. ولكن كان تأثير فولتير السياسى بعد عام ١٧٨٩ قد طغى عليه تأثير روسو. فقد بدا فولتير شديد المحافظة، شديد الازدراء لجماهير الشعب، شديد الاتسام بطابع السادة الاقطاعيين، وقد رفضه روبسبير، وظل "العقد الاجتماعى" سنين إنجيلاً للثورة. أما عن ذلك فيقول بونابرت "كنت حتى عامى السادس عشر على استعداد لمقاتلة أصدقاء فولتير دفاعًا عن روسو، أما اليوم فقد انعكس موقفى. فكلما أمعنت فى قراءة فولتير ازددت شغفًا به. فهو رجل معقول دائمًا لا بالمهرج ولا بالمتعصب، أبدا". وبعد عودة ملوك البوربون أصبحت مؤلفات فولتير أداة للفكر البورجوازى ضد النبلاء والأكليروس المنبعثين من جديد. وقد صدرت بين عامى ١٨١٧، ١٨٢٩ اثنا عشر طبعة من مجموعة أعماله. فى تلك السنوات الاثنا عشر بيع من كتب فولتير نيف وثلاثين مجلد.

وكان تأثير فولتير الدينى واضحًا فبفضله وبفضل شركائه تجنبت فرنسا حركة الإصلاح الدينى البروتستنتى، وانتقلت رأسا من النهضة إلى التنوير، وربما كان هذا أحد أسباب العنف الشديد التى رافق التغيير، إذ لم يكن هناك فترة توقف عند البروتستنتية وقد شعر بعض المتحمسين أن حركة

التنوير فى جملتها كانت إصلاحًا أعمق من ذلك الذى أحدثه لـوثر وكلفـن، لأنها لم تكتف بتحدى مغالاة الكهانة والخرافة فقط، بل تحدت صميم أسـس المسيحية، وقد جمع فولتير فى صوت واحد كل ضروب الفكـر المنـاهض للكاثوليكية، وأضفى عليها مزيدًا من القوة بفضل الوضوح والتكرار وخفـه الروح، حتى لقد بدأ حينًا "كأنه قد هدم الهيكل الذى ربى فيه".

لم يكن لفولتير اهتمام واضح بالسياسة لأنه كان يكره التعسف والظلم فى حكم الشعوب لاهتمامه بالمبادئ والشعارات، وكان يوجعه ظلم الإنسـان لأخيه الإنسان ولا أدل على ذلك فى اهتمامه بالحياة السياسية من أنـه كـان يؤدي الحكم الملكى المطلق فكان صديقًا حميمًا لفردريـك الثـانى ويعتبـر استبداده أحسن مثل يمكن أن يحتذى به فى سائر أنحاء أوروبا.

نادى فولتير بإصلاح القضاء عن طريق توحيد القانون فـى سـائر أنحاء فرنسا وتطبيقه بطريقة عادلة وجعله واضحًا للجميع، وتعديل قـوانين العقوبة ولاسيما الخاصة منها بالتعذيب وطالب كذلك بإصلاح نظام الضرائب وإلغاء المحلية لأنها تتسبب فى إعاقة توفير الضروريات الحيوية. والعالم كله لا يجهل فضل "فولتير" الذى سجلته كتبه العظيمة بأسلوبه اللاذع الرائع فـى آن واحد. وتأثير جيل جوته من الشباب بفولتير تأثرًا عميقًا وذهب جوته إلى أن فولتير يعد دائمًا أعظم رجل فى أدب العصور الجديد بل وربمـا جميـع العصور. وفى إنجلترا أحست أقلية لامعة بتأثير فولتير مثل جودوين، وبين، وماري، ودلستونكرافت، وبنتام، دبايرون، وشلى، ولكن يمكن القول عمومًـا أن الربوبية الإنجليزية سبقته فقللت من حد تأثيره، ثم أن السـادة الإنجليـز شعروا بأنه ليس هناك عقل مثقف يرضى بالهجوم على دين فقد غطى تأثير داروين على تأثير فولتير فى إضعاف الإيمان الدينى.

ويجئ دور مونتسـكيو Montesquien (١٦٨٩ – ١٧٥٥م) كـان باحثًا متعمقًا فى المسائل الدستورية ومحافظًا بطبعه وكتابه "روح القـوانين"

Esprmit des lois إنما هو بحث عام فى أشكال الحكومة. وقد صار هذا الكتاب المعين الذى يتزود منه بالأفكار أولئك الذين انصرفوا إلى مهمة البناء السياسى لبلادهم وهى مهمة ستصبح شائعة فى السنوات التالية وقد تأثر به دستور الولايات المتحدة الأمريكية إلى حد بعيد. على أن الكتاب نفسه متأثر إلى حد بعيد بالدستور الإنجليزى. الأمر الذى يعترف به عن طيب خاطر مونتسكيو نفسه الذى كان معجبًا بهذا الدستور الأخير أيما إعجاب شأن الكثيرين من الفرنسيين فى زمنه، فمونتسكيو يشيد بالحكومة المقيدة التى تخضع فى تصرفاتها لمجموعة من الضوابط والمراجع ويعجب فى النظام الإنجليزى بوجه خاص بما أسماه "فصل السلطات" أى استقلال فروع الدولة الثلاثة – التشريعية والتنفيذية والقضائية عن بعضها البعض. وإن كان قد أخطأ فى ظنه السلطتين التنفيذية والتشريعية فى إنجلترا منفصلتين إحداهما عن الأخرى. وأظهر مونتسكيو مساوئ الحكم المطلق، وطعن، فى الحكم الاستبدادى.

أما جان جاك روسو Jean Jack Rosseau (١٧١٢ – ١٧٧٨) لم يكن فرنسى الأصل وإنما يرجع أصله، إلى جنيف. وبقيت آراؤه وكتاباته تؤثر فى الفرنسيين من جيل إلى جيل حيث دعا إلى الرجوع إلى الطبيعة للتخلص من قيود الحضارة وقد كان شديد الميل إلى الدين بطبعه وكان يحس بشرور عصره وألام الناس ولكنه لم يمنح رضاءه لأى من الحلول المقترحة ولهذا الغرض وضع كتابه العقد الاجتماعى Contract Society الذى نشر عام ١٧٦٢ يلخص آرائه فى الحكم ولكنه يفعل ذلك على نحو جعل الناس يختلفون على حقيقة مواده حتى يومنا هذا؛ يبدأ باحتجاج صارخ على طغيان عصره "ولد الإنسان حرًا فما باله مكبلاً بالأغلال فى كل مكان" ثم يؤكد أن الدولة مدينة بوجودها للشعب وأنها نمت إليه وحده دون سواه وأن من حقه دائمًا، وعلى الرغم من جميع المعاهدات أو الدساتير – أن يعدل أو يلغى أشكالها. ومع ذلك فهو لا يرى أن الديمقراطية ممكنة إلاَ فى الدول الصغيرة

الحجم ويؤمن بأن اللجوء إلى ديكتاتور قد يصبح لازمًا، ويختم بتأكيد ضرورة الدين فى أى دولة داعيًا إلى فرض صورة مدنية بسيطة منه على الجميع، بل ومعاقبة الخارجين بالإعدام إذا اقتضى الأمر. وقد امتد تأثير آراء روسو وعباراته إلى أبعد من دائرة دارسى مؤلفاته بكثير والثورة الفرنسية تحمل من أولها إلى آخرها آثار تفكيره.

وقد توجت حركة ازدهار الآداب والفلسفة والبحوث التاريخية وغيرها فى فرنسا يومئذبظهور دائرة المعارف الكبرى فى أربعة وثلاثين مجلدًا بين عامى ١٧٥١، ١٧٧٢، وقد أثرت تأثيرًا عميقًا فى فرنسا، بل وتعدتها إلى سائر الأقطار الأوروبية. ويساهم فى تأليفها كل من "ديدرو" Diderot (١٧١٣ – ١٧٨٤) والمير Almert (١٧١٧ – ١٧٨٣) وكانت تتضمن ملخصًا للمعرفة الإنسانية، ولذلك لم يقابلها رجال الدين بالرضى بل تقدموا بشكوى إلى البرلمان ضد هذه الدائرة. بدعوى أنها تهدد الدين. وقد ذهبت سائر الجهود التى بذلت لإبادة دائرة المعارف هباء. ولا عجب أن تكون موضع مقاومة الفئات الرجعية فقد أشارت إلى الظلم السياسى والاجتماعى السائدين فى ذلك العهد وإلى عدم التساوى فى تأدية الضرائب، وإلى فساد نظام القضاء، وتفاهة الحروب وما إلى ذلك من العيوب.

وقد حظيت كتابات فولتير ومونتسكيو وروسو باهتمام بالغ فاق كتاب ذلك العصر، ولكن ثمة جماعة أخرى كان لها تأثير عظيم بين معاصريها وكانت لها صلة بأعمال الثورة، وقد عرفت هذه الجماعة باسم الاقتصاديين Economists أو الطبيعين Physiocrats وقد تأثر هؤلاء إلى حد بعيد بكتابات الاقتصادى الإنجليزى آدم سميث. وممثلو هذه الجماعة الرئيسيون فى فرنسا هم ميرابو أبو السياسة الذى ذاع صيته فى الثورة، وقبل هؤلاء جميعًا كويزناى المفكر الحقيقى فى هذه الحركة الذى وصف بعضهم كتابه الغامض المعقد "الجدول الاقتصادى" Tableau Economiaque بأنه الدواء

الناجح لمتاعب فرنسا وكتابات هذه الجماعة لم لم تنل استحسان فولتير ومنتسكيو. وتتضمن كتاباتهم الضخمة المبادئ التالية باعتبارها تعاليم أساسية:-

استخدام العمل فى الأرض هو مصدر كل ثروة والعمال هم فى الحقيقة أكثر الطبقات إنتاجًا بل وربما كانوا الطبقة المنتجة الوحيدة كما أن تدخل الحكومة يجب أن يقل إلى أدنى حد، والإصلاحات اللازم تنفيذها هى إطلاق الحرية الكاملة للتجارة وإنشاء نظام عام للتعليم، كما أن جميع الضرائب يجب أن تلغى وتتركز فى ضريبة واحدة، هى ضريبة الأرض. فميرابو يرى أن هذه المبادئ كفيلة "بإصلاح كل ما فسد وقد بذل تيرجو الذى كان تلميذًا حصيفًا من تلامذة هذه المدرسة جهودًا واضحة. لتطبيق تعاليم كويزناى كمفتش فى الأقاليم (Intendant) ثم كوزير للمالية: وقد كان لهؤلاء أثر محسوس فى مجرى الثورة الفرنسية ولكن أهميتهم لا تقرب مطلقًا من أهمية اتباع روسو وفولتير.

٢-أثر نجاح ثورة الاستقلال الأمريكية.

لم يكن ما ذكر من جهود المفكرين من رجال الإصلاح وحده سببًا فى إشعال نار الثورة، بل أضافت الأقدار إلى ذلك نجاح ثورة الاستقلال الأمريكية فى عام ١٧٨٣، كان لهذه الثورة أثرها العميق فى فرنسا؛ فقد أثرت فى سياسة فرنسا الخارجية عندما وافقت فرنسا على دخول الحرب بجانب الثوار ضد إنجلترا، على أن آثارها الأدبية كانت أكثر وقعًا وأبلغ أثرًا، إذ أخذ الرأى العام الفرنسى يتابع باهتمام بالغ أحداثها وقد ازداد تحمسه بالفكرة لتقديم المساعدة للثوار بينما كان لويس السادس عشر غير متحمس للفكرة، ويرى الاكتفاء بالمؤازرة الأدبية للثوار، ولكن لم يلبث أن انتصر الرأى العام الفرنسى وتغلب على الحكومة. ولم تلبث حكومة فرنسا أن تعاهدت مع الثوار، ودخلت الحرب معهم ضد إنجلترا، أثرت تلك الحركة

تأثيرا بالغا في نفوس الفرنسيين بفضل ما قام به رجال الأدب والمفكرون من تصوير لمجهودات الثوار وحماستهم وجرأتهم وخاصة الدور الذى أداه "بنيامين فرانكلين Benjamin FranKlin" فى هذا المضمار، وهو من أبناء بوستن "اشتغل بالطباعة واهتم بعلم الأخلاق، وكان عالمًا ومخترعًا وسياسيًا بارعًا. نجح فى الظهور بمظهر البطل أمام الرأى العام الفرنسى بل العالمى لما اتصف به من خلق رفيع، وذكاء نادر، وسياسة حكيمة، فهو لم يشبه فولتير ولا روسو من حيث المناداة ببعض المبادئ؛ ففولتير رغم ما اتصف به من الحكمة والنزاهة لم يكن مستقيمًا وكثيرًا ما أثار الرأى العام بحوادث منازعاته وبؤسه ومصائبه. كما أن روسو الذى أحبه الناس لاهتمامه بالفرد ولم يكن صائبًا فى كل آرائه، كما كان يعيش عيشه غريبة غير مستقرة، بينما كان فرانلكين فيلسوفًا حقًا، فقد اتصف بالاستقامة والحكمة فى بساطة وصدق مما حبب النفوس إليه، لتعلقه بالمثل العليا فى غيرة وتعصب وكانت تتسلط عليه فكرة واحدة وهى الدفاع عن قضية ذلك الشعب الذى كان ينتمى إليه، والذى كان يعمل على حريته.

عند زيارة فرانكلين لباريس للمرة الأولى عام ١٧٦٧ ترك ذاكره ماثلة للأذهان، لذلك استقبلته الصحف الفرنسية بكل حماس فى زيارته التالية لباريس عام ١٧٧٦. رحبت به الطوائف المختلفة من شعراء وكتاب وسياسيين وقد أصبح الشخصية البارزة والمثل الذى يحتذى به فى باريس بين عامى ١٧٧٦، ١٧٨٤. وقد كللت جهود فرانكلين بالنجاح عندما أعلن استقلال المستعمرات الأمريكية، إذ كان فى هذا الإعلان اعتراف صريح بالثورة، وبإنشاء مجتمع جديد على أسس وقواعد سليمة لا تقوم على الامتيازات والتقاليد بل تقوم على احترام حرية الفرد والاهتمام به. وقد شعرت الحكومة الفرنسية بما فى هذا الإعلان من تحد غير مقصود لها وانتقاد لنظمها العتيقة، لذلك وقفت فى سبيل إعلانه، ولكنه مع ذلك أخذ فى الانتشار سرًا. فنشر بالفرنسية ثلاث طبعات بين عامى ١٧٧٨، ١٧٨٣.

٣- الأسباب السياسية

كان انهيار النظام الحكومي من أهم الأسباب السياسية فقد أخفقت ملكية البوربون في أن تلاحق تطور الشعب الاقتصادي والفكري ونشبت الثورة في فرنسا بأسرع مما نشبت في غيرها لأن الطبقات الوسطى كانت قد بلغت شأوًا من الذكاء أبعد مما بلغته أي أمة معاصرة أخرى. وفرض فكر مواطنيها على الدولة بأكثر حدة مما كان على أي حكومة في ذلك العصر أن تلبيه فقد استشرى الاضطراب والفوضى في كل مكان، ففي فرساي تنازع مجلس الملك في اختصاصه مع الوزراء الذين تنازعوا فيما بينهم لأن وظائفهم تداخلت، كما تنافسوا على الأموال ذاتها ولم تفرض عليهم من فوق سلطة توافق بين سياساتهم. وانقسمت الأمة إلى دوائر في مجال القضاء؛ وفي أخرى إلى أقسام مالية في المالية، وفي ناحية ثالثة إلى إدارات في الجيش وفي رابعة إلى ابرشيات في الكنيسة. وفي كل قسم مالي كان الناظر الملكي يصطدم بالحاكم والبرلمان الإقليمي. وفي أرجاء فرنسا اصطدمت مصالح المنتجين الريفيين مع مصالح المستهلكين الحضريين والأغنياء مع الفقراء، والنبلاء مع البورجوازيين والبرلمانيين مع الملك، وأصبحت الحاجة ماسة إلى قضية موحدة.

وكان القانون من أسوأ مظاهر الحياة الفرنسية ومع ذلك كان القضاة من أفضلها. واتبع جنوب فرنسا القانون الروماني، وشمالها القانون العام والاقطاعي. وكما يقول البعض "إن العدالة كانت معقدة مكلفة بطيئة" رغم أن هذه شكوى عامة في جميع البلاد. وكانت السجون غير إنسانية والعقوبات وحشية والتعذيب القضائي ظل مسموحًا به في عام ١٧٧٤. وكان القضاه غير قابلين للعزل وقد ذهب السير هنري مين إلى أن رجال القضاء في فرنسا يتفوقون كثيرًا على نظرائهم في أوروبا" وكانوا يشغلون مناصبهم مدى

الحياة، ومن حقهم توريثها لأحد الأبناء. وقد اختير أغناهم وأعظمهم نفـوذًا أعضاء فى برلمان باريس.

وكانت السلطة الملكية من الناحية النظرية مطلقة. فالملك وفقًا للتقليد البوربونى هو المشرع الوحيد، وهو السلطة التنفيذية الرئيسية، وهو المحكمة العليا. فى استطاعته أن يأمر بالقبض على أى شخص فى فرنسا وحبسه إلى أجل غير مسمى دون إبداء السبب أو السماح بمحاكمته وحتى لويس السادس عشر الرقيق القلب كان يرسل من قصره أوامر الاعتقال المختومة. وكـان الملك قد ورث مؤسسة غالية التكلفة، تعد نفسها لا غنى عنها لإدارة الحكومة وهيبتها. ففى عام ١٧٧٤ كان بلاط فرساى يضم الأسر المالكة و٨٨٦ نبيلاً. هم ونساؤهم وأبناؤهم يضاف إليهم ٢٩ طاهيًا و ٥٦ صيادًا و٤٧ موسـيقيًا وثمانية معماريين، وأشتات من السكرتيريين وكهنة القصر، والأطباء والسعاة والحراس... يبلغون في مجموعهم ستة آلاف شخص. مع عشرة آلاف جندى يرابطون عن كثب. وكان لكل عضو فى الأسرة المالكة بلاطـه أو بلاطهـا الخاص. وكذلك لبعض النبلاء الممتازين – أمثال كونديه وأمير كونتى ودوق أورليان ودوق بربون. واحتفظ الملك بعدة قصور. فى فرساى – ومارلى – ولاموبت، ومودون، وشوازى، وسان – أوبير، وسان جرمان، وفونتنبلـوه، وكومبيين، ورامبوييه. وكان من المألوف أن ينتقل من قصر إلى آخر، بعض الحاشية الذين يحتاجون إلى المسكن والطعام، وفى سنة ١٧٨٠ بلغت نفقـات مائدة الملك ٣,٦٦٠,٤٩١ فرنكًا.

وكانت رواتب موظفى البلاط معتدلة. ولكن المنح والعلاوات كانـت مطاطة؛ من ذلك أن المسيو أوجار – وكان سكرتيرا فى إحدى الوزارات – لم يتجاوز راتبه تسعمائة جنيه فى العام. ولكنه اعترف بأن الوظيفة غلت له كل عام ٢٠٠,٠٠٠ جنيه خالصة، وغلت عشرات الوظائف الشرفية المـال لأعضاء الحاشية بينما كان العمل يؤديه مرؤسوهم. مثال ذلك أن مسيو ماشو

كان يقبض ثمانية عشر ألف جنيه نظير التوقيع باسمه مرتين فـي السـنة. ووزعت عشرات المعاشات التى بلغت جملتها ٢٨,٠٠٠,٠٠٠ جنيه كل عام على النبلاء ذوى النفوذ أو محاسيبهم وكانت عشرات الدسائس تدبر لتقريـر المحظوظ الذى سيظفر بكرم الملك وسخائه الطائش. وكان يتوقـع منـه أن يعين الأسر النبيلة القديمة التى أعسرت، وأن يقدم المهر لبنات النبلاء عنـد زواجهن. وكان راتب كل وزير دولة يرقى إلى ١٥٠,٠٠٠ جنيه فى العـام؛ وكل هذه المعاشات، والهبات، والرواتب، والمناصب الشرفية، كانت تدفع من إيرادات الأمة الفرنسية. وقد كلف البلاط فرنسا مبلغا جملته خمسين مليـون جنيه فى العام – وهو عشر مجموع إيراد الحكومة.

كما كانت مارى أنطوانيت أكثر أعضاء البلاد إسرافا. ذلك أنها قـد ارتبطت بزواج عليل، وحرمت الرومانسية ولم تشغلها علاقـات غراميـة، فراحت تتسلى حتى عام ١٧٧٨ بالغالى من الثيـاب، والجـواهر ومشـاهدة الأوبرات، والمسرحيات، وكانت تخسر الثروات فى القمار وإعفاء الثـروات للمحاسيب فى كرم متهور. وقد أنفقت ٢٥٢,٠٠٠ جنيه على ثيابها فى عـام واحد (١٧٨٣)، وأتاها مصمموا الأزياء بالغريب والطريف مـن الأبـواب المسماة "المباهج الطائشة" أو "العلامات المكبوتـة" أو الرغبـات المقنعـة". وكانت مصففات الشعر يعكفن الساعات لتصفيف شعرها وقد أنفقت أمـوالاً طائلة فى هذا.

أما شغفها بالحلى والمجوهرات فقد أوشك أن يكون هوسًا، ففى عام ١٧٧٤ ابتاعت من بومر – وهو الجواهرجى الرسمى للتاج – أحجارًا كريمة قيمتها ٣٦٠,٠٠٠ جنيه. وأهداها لويس السادس عشر طقمًـا مـن العقيـق والماس والأساور ثمنه ٢٠٠,٠٠٠ جنيهًا، ولكن الشعب لم يغتفر لهـا هـذا التبذير المفرط فى ضرائبه، واتهمتها الشائعات بأنها قالت خـلال حـوادث الشغب التى وقعت بسبب شح الخبز عام ١٧٨٨: "إذا لم يكن لـديهم خبـزًا

فليأكلوا كعكًا" ويجمع المؤرخون على أنها لم تذنب قط بقول تلك الملاحظة القاسية، فهى على العكس أسهمت بسخاء من جيبها الخاص فى التخفيف عن الشعب.

٤- الأحوال الاجتماعية وأثرها فى إثارة الشعب الفرنسى.

ولعل أكثر ما كان يسئ لفرنسا أنها كانت لا تـزال تحـتفظ بنظـام الطبقات البغيض وما يرافقه من امتيازات لفئة قليلة من الناس على حساب عامة المواطنين. فالفرنسيين كانوا مقسمين إلى طبقات ثلاث تفصـل بينهـا حدود يصعب تخطيها.

أ- الأشراف.

ويقف هؤلاء فى أعلى مراتب المجتمع الفرنسى يحيطـون بالملـك ويعيشون إلى جانبه يؤيدونه ويدافعون عن نظامه وبالمقابل يعيشون فى ظل حمايته ويتمتعون بامتيازات كثيرة بعضها يرجع فى أصـوله إلـى عصـر الإقطاع. فللأشراف أراضى واسعة جدًا فى الأرياف يسـتغلونها بواسـطة الفلاحين. والأقنان. وقدرت مساحة هذه الأراضى قبل الثورة الفرنسية بقليل بخمس الأرض الفرنسية الصالحة للزراعة. وللأشراف وحدهم حـق شـغل المناصب العليا فى الجيش والإدارة والقضاء والدبلوماسية. ولهم أيضًا علـى الفلاحين العاملين فى أراضيهم حقوق كثيرة منها حق فرض ضرائب معينة، ولهم أن يجبروا الفلاح على طحن غلاله فى مطاحنهم وأن يعصـر زيتـه وخمره فى معصرته. ولهم أيضًا حقوق الصيد فى أراضيهم. وللأشراف فوق ذلك إعفاءات كثيرة فى مجالات الضرائب والالتزامات المالية تجاه الدولـة. وهذه الحقوق والامتيازات كان النبلاء يتوارثونها منذ العصور الوسطى. إلا أنها فى القرن التاسع ومع تغير الأوضاع الاقتصادية وبداية التصنيع وانتشار الأفكار الحرة الجديدة باتت تشكل عبئًا ثقيلاً على عاتق الفرنسيين.

ب- رجال الدين.

وكان هؤلاء أيضا يشكلون طبقة ممتازة إلى جانب الأشراف، لهم نفوذ قوى وامتيازات تقليديه قديمة حصلوا عليها فى العصور الوسطى، ووضع مالى ممتاز. فالأديرة الكثيرة المنتشرة فى جميع أنحاء فرنسا كانت تمتلك مساحات شاسعة من الأراضى الزراعية تبلغ تقريبًا خمس مساحة فرنسا، يعمل فيها ألوف من الفلاحين فى ظروف قاسية شديدة. وكان للكنيسة مورد مهم هو ضريبة العشور تجمعها سنويًا من الفرنسيين بلغت حصيلتها فى أواخر القرن الثامن عشر مائتى مليون فرنك ذهب. وفوق هذه الامتيازات فإن الكنيسة كانت معفاة من أكثر الضرائب الحكومية. ومما كان يثير حفيظة الفرنسيين أن الكنيسة لم تكن دائمًا تصرف هذه الأموال فى الأماكن المخصص لها من أجل صالح الجماعة المسيحية.

جـ- الطبقة الوسطى.

أما عامة المواطنين فكانوا ينتظمون فى طبقة واحدة هى طبقة العامة أو الطبقة الثالثة. وهؤلاء تحملوا أعباء الدولة كلها، منها دفع الضرائب المتزايدة، وتقديم الجنود للحروب الكثيرة، وخدمة الكنيسة والأشراف، وبعبارة موجزة فإن الطبقة الثالثة كانت تلتزم بأعباء ضخمة. تجاه الدولة والبلاد لا يقابلها إلا حقوق ضئيلة. فهى محرومة من أبسط حقوق الإنسان الطبيعية كحق الحرية والمساواة أمام القانون وحق اختيار النظام السياسى أو الاقتصادى الذى يوافق رغباته ومصالحه.

وقد تفردت فئة قليلة من أبناء الطبقة الثالثة بوضع مالى ممتاز جعل لها مكانة خاصة ودورًا رئيسيًا فى إدارة شئون البلاد الاقتصادية أطلق عليها اسم "البورجوازية" وتعود هذه الفئة إلى الفترة الأخيرة من عصور الإقطاع حين بدأت أقلية من الأقنان تتحرر تدريجيًا من نفوذ السادة وتملك أرضًا تستغلها لصالحها أو تمارس عملاً تجاريًا أو صناعيًا. ومما سهل مهمة هؤلاء

وجعلهم مع الوقت يسيطرون على الصناعة والتجارة ترفع طبقة الأشـراف والنبلاء عن ممارسة مثل هذه الأعمال. ثم إن اكتشاف أمريكا، ومـا تـدفق على أثر ذلك من أموال وذهب إلى أوروبا، واتساع آفـاق التجـارة داخـل أوروبا وخارجها، سهل على هؤلاء سبل الغنى والثروة وظهرت بين أبنائهم وأحفادهم فئة من المثقفين المتعلمين، برعوا فـى فنـون الطـب والهندسـة والقانون والفلسفة ولم يمض وقت حتى غدت هذه الفئـة المثقفـة الناشـطة مزاحمة جديدة لأبناء الأشراف على المراكز الكبرى فـى الدولـة والإدارة خاصة تلك التى تحتاج إلى العلم والاختصاص وهى أمور لم تكـن لتتـوفر كثيرًا لدى أبناء النبلاء. وكان منهم فى القرن الثامن عشر بصورة خاصـة كتاب وعلماء وفلاسفة ساهموا فى تنوير الجماهير وجعلها تدرك ومالها من حقوق مهضومة.

ومما ساعد هؤلاء المثقفين فى مهمتهم كون برامج التعليم كانت أدبية محضة، فكانت تعتبر الأدب القديم وبصورة خاصة أدب اليونان كمعـين لا ينضب للثروة الأدبية والفلسفية. والأدب اليونانى، بما فيه من حرية وفرديـة إذ لم يكن اليونانيين القدماء موحدين أو خاضعين لسلطة مركزية قوية، نفـخ فى الفرنسيين روح الثورة على الظلم. ومن هذه الزاوية كانت برامج التعليم تساعد على الثورة وبصورة خاصة ضد طبقة النبلاء والأشراف الذين ظلوا يحتفظون بامتيازاتهم فى المجالات السياسية والعسكرية، بينما كـان أبنـاء البورجوازية يشعرون بأنهم فى وضع شاذ. إذ كانوا يـرون عنـدهم العلـم والخبرة والمال، ومع هذا فالسلطان والنفوذ للأشراف الميالين إلى المبـادئ المحافظة والرجعية. لذا فإن الثورة ستكون فى بدايتها علـى الأقـل علـى امتيازات الأشراف ورجال الدين أكثر مما هى على النظام الملكـى نظـرًا للدور الأساسى الذى ستلعبه فئة المثقفين البورجوازيين فـى خلـق الثـورة وتوجيه أحداثها.

ولعل أسوأ ما كان فى وضع فرنسا هو أن الجميع كانوا يعرفون أن هذه الامتيازات على اختلاف أنواعها والإعفاءات الضرائبية كلها أمور بغيضة على قلوب الجماهير ثقيلة الوطأة يتمنى الجميع القضاء عليها وحتى الوزراء ومختلف أجهزة الحكم كانت تعرف ذلك. بل أن أكثر من وزير حاول إصلاح الوضع ولكن دون نتيجة. حتى أن الملكية بدت بسبب عجزها عن القضاء على هذا الامتيازات وكأنها فقدت مرونتها وقدرتها على التكيف مع ضروريات الزمن، بحيث بات عليها أن تقف منتظرة ما سيفرضه القدر من حلول لمشاكل عجزت هى عن اتخاذ أية مبادرة لمعالجتها. ولم تعجز الملكية عن حل مشكلة الامتيازات فقط بل عجزت أيضا عن حل المشكلة المالية المزمنة التي كانت تعانى منها فرنسا.

ء- طبقة الفلاحين.

وتتكون منها غالبية السكان، فلا يجب أن يغيب عن أذهاننا حقيقة مهمة وهى أن فرنسا ظلت دولة زراعية، وإذا استبعد سكان المدن ورجال الدين والنبلاء يبقى أربع أخماس السكان من الفلاحين. ولم يكن بين هذه الطبقة من يرقى إلى الطبقة الوسطى غير قلة ضئيلة. فى أقاليم "نورماندیا" Normandy وبيكارديا Picardy وارتوا Artois أما فى سائر أنحاء فرنسا فكان أغلب المزارعين ينتمون إلى طبقة الفلاحين. وهكذا كانت طبقة الفلاحين تفوق ما عدا من الطبقات فى العدد.

وكانت حال الفلاحين التعسة من الأسباب الجوهرية فى وقوع الثورة. وعلى الرغم من أن لويس السادس عشر قد حرر ما كان باقيًا من عبيد الأرض، إلا أن ذلك لم يغير من شعورهم لأن تلك الفئة كانت أقلية. كان الفلاح لا يزال يرزح تحت أعباء السخرة، فكان ملزمًا بالعمل فى جزء من أرض سيده دون أجر، وكذلك كان ملزمًا بطحن غلاله فى طاحون السيد، وعصر عنبه في معصرة السيد، وخبز دقيقة فى فرن السيد، كما كان مضطر

إلى دفع بعض الضرائب غير العادلة، كما كان لا يملك حق عرض محصوله في السوق، وكان ملزمًا أيضًا بدفع ضريبة إذا مر بطريق أو استخدم نهرًا، يؤديها للسيد تارة أو للمدينة أو للملك نفسه تارة أخرى.

ولم تكن الطبقة الوسطى تثق في هذه الطبقة الدنيا، كما كانت تكره النبلاء، ولكنها رأت في شتاء عام ١٧٨٩ ضرورة التقرب من طبقة الفلاحين حتى تحقق ما أرادت من سياسة، فأخذت تحرض هذه الطبقة مثيرة في نفوسها كل ما يدفعها إلى الثورة والتعبير عن ضروريتها. كان استياء هذه الطبقة واضحًا؛ فأرادت أن تتخلص من الالتزامات الإقطاعية ومن الضرائب وهكذا كانت هذه الطبقة هي السلاح الذى استخدمته الطبقة الوسطى لتحقيق أغراضها. فكان لها ما أرادت عندما تمت الانتخابات لمجلس طبقات الأمة. وعندما استخدمت هذه الطبقة لتقضى على معالم الظلم والاستبداد فكانت الوسيلة هي إسقاط حصن الباستيل.

٥- الأزمة الاقتصادية ومحاولات الإصلاح.

كانت فرنسا تشكو فراغًا مزمنًا في خزينتها ربما عادت جذوره إلى أيام لويس الرابع عشر وما خاضته فرنسا من حروب في زمنه. ولم يبادر أحد منذ ذلك الوقت لعلاج الوضع بصورة جذرية. وقد برزت هذه الأزمة بصورة جادة عقب حرب الاستقلال الأمريكية وما تكبدته فرنسا من مصاريف باهظة لمساعدة الأمريكيين في صراعهم ضد الاستعمار البريطاني. ولعل الغريب في الموضوع هو أن هذه الأزمة لم تكبر في أساسها بسبب ضعف موارد الأمة الفرنسية، بل على العكس، ففرنسا كانت تملك زراعة مزدهرة وصناعة على درجة كبيرة من التطور وتجارة خارجية نشطة للغاية. إنما الأزمة كانت ناشئة عن عجز الدولة في الموازنة وذلك بالدرجة الأولى لكون الفئات القادرة على دفع الضرائب كانت لا تفعل ذلك

بسبب الامتيازات القديمة، فالخلل إذا كان في موازنة الدولة وليس في موارد الأمة ومصاريفها.

ولكى ندرك حقيقة الوضع المالى لفرنسا يكفى أن ننظر إلى حسابات الخزينة للعام ١٧٨٨ وهو العام السابق للثورة كانت مصاريف الدولة لهـذا العام ٦٢٩ مليون فرنك بينما لم تكن الواردات تزيد عن ٥٠٣ مليون فرنك، أى بعجز ١٣٦ مليون فرنك وهو ما يعادل ٢٠٪ من الميزانية العامة للدولة.

ولعل أسوأ ما فى هذه الموازنة هو طريقة توزيع المصاريف فيهـا، فأكثر من نصفها أى ٣١٨ مليون فرنك يذهب إلى جيوب المرابين لتسـديد ديون السنوات السابقة، و ١٦٥ مليون فرنك تذهب للجيش والبحرية يأخذ ١٢ ألف ضابط معظمهم من أبناء النبلاء والأشراف ٤٦ مليونًا منهـا بصـورة مرتبات ومصاريف. وتبلغ مصاريف القصر الملكـى والحاشـية ٦٪ مـن الموازنة، بينما تقل مجموع الاعتمادات المخصصـة للتعلـيم والجامعـات والخدمات العامة عن ٢٪ من مجموع الموازنة.

لقد جرت عدة محاولات زمن لويس السادس عشر لإصلاح الوضع المالى فى البلاد كان أبرزها المحاولات التى قام بها تورجو Turgot ونيكر Necker إلا أن هذه المحـاولات فشـلت أمـام اسـتحالة إجبـار النـبلاء والأكليروس على التنازل عن بعض امتيازاتهم، وعلى دفع الضرائب التـى تترتب عليهم بالنسبة لثرواتهم وقدراتهم علـى الـدفع. والواقـع أن وضـع الميزانية الفرنسية لم يكن ميؤوسًا منه كما قد توحى الأرقام. فالبلاد الفرنسية غنية جدًا. ولو وزعت الضرائب فيها بشكل عادل لأمكن بسـهولة موازنـة مداخيل الدولة ومصاريفها.

أما عن محاولات الإصلاح الاقتصادى، فكان أولها على يد تورجـو (١٧٧٤ – ١٧٧٦) فكان أول ما اهتم لويس السادس عشر أن يعثـر علـى وزراء أكفاء أمناء يصلحون الفوضى التى استشرت فـى الإدارة والماليـة.

وكان الشعب يطالب بإلحاح بعودة البرلمانات التي أقصيت، فأعادها، وأقبال موبيو الذى حاول من قبل أن يحل محلها هيئة أخرى. وكان تورجو رجلاً فرنسيًا من معدن شبيه بالذى وجده لويس الرابع عشر فى كولبير كرس نفسه ... وطنه، . تسم ببعد النظر والعكوف على العمل بغير ملل.

وقد آمن بتحرير الصناعة والتجارة ما أمكن من التنظيم الحكومى أو النقابى، وبأن الأرض مصدر الثروة الوحيد، وبأن ضريبة واحدة على الأرض هى أعدل الطرق وأكثرها عملية لجمع إيراد الدولة، وأنه ينبغى إلغاء جميع الضرائب غير المباشرة. وقد تبين لتورجو أن إيرادات الحكومة السنوية ٢١٣,٥٠٠,٠٠٠ فرنك ومصروفاتها ٢٣٥,٠٠٠,٠٠٠ فرنك، لذلك أمر بألا يصرف مبلغ من الخزانة لأى غرض دون علمه أو موافقته، وكان هدفه تنشيط الاقتصاد بإرساء دعائم حرية المشروعات، والإنتاج، والتجارة، خطوة بخطوة. وبدأ بمحاولة لإصلاح الزراعة. وكانت الحكومة قد أشرفت على التجارة فى الغلال تجنبًا لتذمر أهل المدن فنظمت بيعها من المزارع لتاجر الجملة، ومن تاجر الجملة لتاجر التجزئة، وحددت سعر الخبز، ولكن انخفاض الأسعار ثبطت همة الفلاح عن زرع المزيد من الغلال، وثبطت غيره عن الاشتغال بالزراعة، فظلت مناطق شاسعة من أرض فرنسا صالحة دون زراعة، وعطلت ثروة الأمة الممكنة عند بيعها. وبدأ إصلاح الزراعة فى نظر تورجو أول خطوة فى إحياء فرنسا. ذلك أن إطلاق يد المزارع فى بيع غلته بأى سعر يستطيع الحصول عليه سيرفع من دخله ويحسن وضعه الاجتماعى، ويزيد قوته الشرائية، وينهض به من الحياة البدائية الوحشية التى وصفها من قبل لابروبيد فى عصر لويس الرابع عشر الذهبى.

ومن ثم ففى ١٣ سبتمبر ١٧٧٤ استصدر تورجو من المجلس الملكى مرسومًا أطلق تجارة الغلال فى كل مكان عدا باريس حيث قدر أن رد فعل المدينة سيكون محرجًا فحين ارتفع سعر الخبز فى ربيع ١٧٧٥ اندلعت

حوادث الشغب في عدة مدن. ففى الأقاليم المحيطة بباريس، والتي تتحكم في انسياب الغلال إلى العاصمة. راح بعض الرجال ينتقلون بين المدن ويحرضون الناس على التمرد، مما اضطر الملك إلى خفض سعر الخبز ثم ألغاه مرة أخرى وأصدر تورجو أوامر للتوفير في مصروفات الدولة. ولتحصيل الضرائب تحصيلاً أكثر كفاءة وللإشراف بدقة على الملتزمين العموميين ثم ينقل الاحتكارات الأهلية فى المركبات العامة، ومركبات البريد، وصنع البارود إلى الدولة.ولكن لم يتح له الوقت لإنشاء "بنك الخصم" وهو مصرف لخصم الأوراق التجارية وتلقى وإعطاء القروض وإصدار البنكنوت الذى تدفع قيمته عند إبرازه. وفى نهاية ١٧٧٥ خفض المصروفات إلى ٧٠٠,٠٠٠ وأنقص الفائدة على الدين الأهلى من ٨,٧,٠٠,٠٠٠ إلى ٣,٠٠,٠٠٠ جنيهًا واستعيدت الثقة بالحكومة حتى استطاع أن يقترض ٦٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيهًا من الماليين الهولنديين بفائدة أربعة فى المائة، ويسدد بهذه الطريقة ديونًا كانت الخزانة تدفع عنها فائدة من سبعة إلى إثنا عشر فى المائة، وأوشك أن يوازن الميزانية، ولكنه لم يفعل هذا بزيادة الضرائب بل بالحد من الفساد والإسراف، وعدم الكفاءة وكثرة الفاقد.

وفى يناير ١٧٧٦ فاجأ تورجو فرنسا بستة مراسيم صدرت باسم الملك قرر أحدها أن تشمل حرية التجارة فى الغلال بباريس، وألغى العدد الكبير من المناصب المتصلة بتلك التجارة، وانضم الموظفون المطرودون على هذا النحو إلى صفوف أعدائه، فألغى مرسومان، وعدلت الضرائب المفروضة على الماشية والشحوم، فأغتبط الفلاحون، وألغى الرابع السخرة وهى أيام محددة فى السنة يفرض فيها الشغل المجانى على الفلاحين لصيانة الكبارى والقنوات، والطرق؛ وتقرر أن يتقاضى الفلاحون منذ الآن أجرًا عن هذا العمل من حصيلة ضريبية تفرض على جميع الأملاك غير الكنسية، وأغتبط الفلاحون. وشكا النبلاء، وأثار تورجو المزيد من الاستياء بالديباجة التى وضعها فى فم الملك.

أما آخر المراسيم الستة فقد ألغى الطوائف الحرفية. وكانت قد أصبحت أرستقراطية، لأنها أشرفت على جميع الحرف تقريبًا، وحدت من الدخول فى عضويتها باشتراطها رسوم التحاق عالية ثم قيدت فوق ذلك الصلاحية لاختيار معلمى الحرف. وقد عطلت الاختراع، وعرقلت التجارة بالمكوس إذ يحظر المنتجات المتنافسة التى تدخل فى نطاقها وقد نددت طبقة المتعهدين أو المقاولين الصاعدة – وهم رجال يوفرون رأس المال، والتنظيم، ولكنهم يطالبون بحرية استئجار أى عامل، سواء للمنتمين للطوائف الحرفية أو غيرهم، وبيع سلعهم فى أى سوق فى متناولهم – هذه الطبقة نددت بالطوائف الحرفية لأنها تؤدى إلى تقيد التجارة. أما تورجو التواق إلى دعم التنمية الصناعية بإطلاق حرية الاختراع، والمشروعات والتجارة، فقد شعر أن الاقتصاد القومى سيفيد من إلغاء الطوائف الحرفية.

وكانت مراسيم تورجو – وديباجاتها – قد ألهبت عليه غضب جميع الطبقات ذات النفوذ؛ خلا التجار ورجال الصناعة الذين نعموا فى ظل الحرية الجديدة. والواقع أنه كان يحاول أن يحدث بطريق سلمى تحرير رجل الأعمال، وهو النتيجة الاقتصادية الأساسية التى أسفرت عنها الثورة الفرنسية ومع ذلك عارضه بعض التجار سرًا لأنه تدخل فى احتكاراتهم. وعارضه الأشراف لأنه أراد أن يفرض كل الضرائب على الأرض، ولأنه يستعدى الفقراء على الأغنياء. وأبغضه البرلمان لأنه أقنع الملك بإبطال قراراته لنقصه. ولم يثق به رجال الدين زاعمينه كافرًا لتخفيض نفقاتهم. وحاربه الملتزمون العموميون لأنه حاول أن يحل محلهم موظفين حكوميين فى جمع الضرائب غير المباشرة. وساء الماليين حصوله على القروض من الخارج بفائدة ٤٪ وكرهته بطانة الملك لأنه سخط على إسرافهم، ومعاشاتهم ووظائفهم الفخرية. أما موريبا، وهو الأعلى منه منصبًا فى الوزارة، فلم يغتبط بسلطان المراقب العام للمالية واستقلاله المتزايدين. وكتب السفير السويدى يقول "إن تورجو يجد نفسه الهدف لحلف رهيب جدا".

أما ماري أنطوانيت فقد رضيت عن تورجو أول الأمر، وحاولت أن توفق بين نفقاتها واقتصادياته، ولكن سرعان ما استأنفت (جتي ١٧٧٧) إسرافها فى الثياب والعطايا ولم يخف تورجو فزعه من مطالبها من الخزانة. وعليه أقسمت الملكة لتنتقمن منه. وكان للويس السادس عشر أسبابه الخاصة لفقد الثقة فى الوزير الثورى. ذلك أن الملك كان يحترم الكنيسة. وطبقة النبلاء، وحتى البرلمان. وكانت هذه المؤسسات قد رسخت فى التقاليد بمرور الزمن فإتلافها معناه خلخلة ركائز الدولة. ولكن تورجو قد أقصاها كلها. وفى ١٢ مايو سنة ١٧٧٦ أرسل إلى تورجو أمرًا بأن يستقيل فاستقال وعاش بعد إقتاله عيشة هادئة فى باريس، يدرس الرياضة والفيزياء، والكيمياء، والتشريح.

خلف تورجو فى رقابة المالية كلونى دنوى، الذى رد السخرة والكثير من النقابات الحرفية، ولم ينفذ مراسيم الغلال، وألغى المصرفيون الهولنديون موافقتهم على إقراض فرنسا ستين مليونًا من الجنيهات بفائدة ٤٪، ولم يكتشف الوزير الجديد نيكر (١٧٧٦ – ١٧٨١) طريقة لاجتذاب المال إلى خزانة الدولة خيرًا من إنشاء يانصيب قومي (٣٠ يونيو ١٧٧٦). فلما مات كلونى (أكتوبر) اقنع مصرفيو باريس الملك بأن يستدعى إلى خدمته الرجل الذى كان أكفأ نقاد تورجو.

كان جاك نكر بروتستنتى من جنيف. وفى ٢٢ أكتوبر سنة ١٧٧٦ عين لويس السادس عشر نكر "مديرًا" للخزانة الملكية "بناء على تزكية موريبا. وكان تعيينه يشوبه بعض الشوائب، فقد أغضب بعض الأساقفة السماح لبروستنتى سويسرى بأن يتحكم فى مال الأمة، فأجاب موريبا، "فى وسع رجال الدين أن يشاركوا فى اختيار الوزراء إذا هم دفعوا ديون الدولة" وسترًا لهذا الواقع عين كاثوليكى فرنسى يدعى تابورو دريو مراقبًا عامًا للمالية له الرئاسة الإسمية على نكر. وتضاءلت معارضة الأكليروس حين

جعل نكر تدينه واضحًا جليًا. وفى ٢٩ يونيو ١٧٧٧ استقال تابورو، وعين نكر مديرًا عامًا للمالية وقد رفض أن يتقاضى راتبًا، بل أقرض الخزانة مليونى جنيه من ماله الخاص. لكنه ظل محرومًا من لقب الوزير، ولم يسمح لم بعضوية المجلس الملكى.

وقد وفق فى حدود سلطته على علاج مشكلات الصيرفة لا مشكلات الدولة. وكان فى قدرته تكثير المال بنجاح أكثر من سياسة الرجال. وقد أرسى فى الإدارة المالية نظامًا وحسابات ووفرًا أفضل وألغى أكثر من خمسمائة وظيفة شرفية ومنصب زائد عن الحاجة، واستطاع طرح أسهم بقروض أكسبت الخزانة ١٤٨٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيهًا خلال عام واحد. ثم دعم بعض الإصلاحات الصغيرة، فخفف من المظالم فى فرض الضرائب، وحسن المستشفيات، ونظم بنوك الرهونات لتقرض الفقراء بفائدة منخفضة، وواصل جهود تورجو للحد من نفقات البلاط. والبيت الملكى والملكة ورد إلى الملتزمين العموميين جميع الضرائب غير المباشرة (١٧٨٠) غير أنه اختزل عددهم وأخضعهم لفحص ورقابة أدق. وقد أقنع لويس السادس عشر بأن يسمح بإنشاء المجالس الإقليمية فى برى، وجرينويل، ومونتوبان، ووضع سابقة مهمة إذ اتخذ التدابير لجعل ممثلى الطبقة الثالثة (التى تنظم الطبقتين الوسطى والدنيا) فى هذه المجالس مساوية لممثلى النبلاء و الأكليروس مجتمعين. على أن الملك يختار أعضاء هذه المجالس، ولم يسمح لهم بأى سلطة تشريعية... وقد ظفر نكر بنصر مهم حين أقنع الملك بأن يعتق من بقى من الأقنان على الأراضى الملكية، وأن يهيب بجميع السادة الإقطاعيين أن يحذوا حذوه. فلما رفضوا أشار نكر عليه بإلغاء القنية كلها فى فرنسا، مع دفعه التعويضات للإقطاعيين ، ولكن الملك الذى كان حبيس تقاليده أجاب بأن حقوق الملكية نظام بلغ من الرسوخ مبلغًا يعسر معه إلغاؤه بمرسوم. وفى سنة ١٧٨٠، وتحت إلحاح أيضًا أمر الملك بإنهاء التعذيب القضائى، وإلغاء

السجون السفلية، وفصل السجناء الذين جرموا فعلا عن أولئك الذين لم يحاكموا بعد. وفصل كلتا الفئتين عن الأشخاص المقبوض عليهم بسبب الدين.

وكانت المحاولة الإصلاحية الأخيرة التى قام بها الوزير كالون Calonn (١٧٨٣ – ١٧٨٧م) وقد هدف كالون من برنامجه الإصلاحى لجعل الفرنسيين يتساوون كلهم فى تحمل مصاريف الدولة بغض النظر عن مراتبهم الاجتماعية وعمل أيضًا على هدم الحواجز والحدود الجمركية بين الأقاليم الفرنسية لتنشيط التجارة الداخلية وتسهيل انتقال البضائع والسلع داخل فرنسا. ولإقناع الأكليروس بتعديل إصلاحاته باعتبارها ضرورة لابد منها ولسلامة النظام والبلاد دعى مجلس الأعيان – وهو مجلس يمثل طبقتى الأكليروس والأشراف نادرًا ما كان يدعى للاجتماع – فى سنة ١٧٨٧ وشرح أمامه أوضاع فرنسا المتردية واقتراحاته الإصلاحية محمىً أعضاء المجلس المذكور مسؤولية الوقوف فى وجه الإصلاح، وبالرغم من فشل هذه المحاولات كانت نتائجها مذهلة على اعتبار أن التقرير الذى تلاه أمام المجلس المذكور قد نشر على الفرنسيين بحيث عرفوا للمرة الأولى وعلى لسان وزير مسئول مدى تردى الأوضاع المالية وأسباب ذلك وقد أوجز فى التقرير المذكور وضع فرنسا بما يلى "**أن فرنسا تتكون من ولايات وأقطار منفصلة وإدارات مختلطة متنوعة، لا تعرف مقاطعاتها شيئًا عن بعضها البعض، وحيث لا تحمل بعض جهاتها عبئًا ما بينما العبء كله يقع على الجهات الأخرى، وحيث أكثر الطبقات فيها ثراء يفرض عليها أخف الضرائب، وحيث الامتيازات تحول دون كل توازن، وحيث يتعذر إقامة حكم ثابت دائم، ووجود إدارة مشترطة فلا عجب إذا هى غضت بالعيوب، وحفلت بالمساوئ، ومن المعتذر فى حالتها الراهنة أن تحكم حكما صالحًا**".

وكان يرافق تدهور الوضع المالى نقص متزايد فى موارد الطبقات العاملة وذات الدخل المحدود بحيث يصعب الاعتماد عليها فى أية محاولة

لإصلاح أوضاع الخزينة. فخلال نصف القرن السابق للثورة كانت الأسعار قد ارتفعت بنسبة ٦٥٪ بينما لم ترفع الأجور فى نفس الفترة الزمنية بأكثر من ٢٢٪.

وقد زاد فى تردى الأوضاع العامة والمالية والأزمة الاقتصادية الدورية التى حدثت سنة ١٧٨٨ والتى أصابت الطبقة البورجوازية فى داخلها بشكل عنيف. وكذلك المواسم وخاصة موسم القمح كانت معطلة فى السنة المذكورة. فعم القحط أنحاء البلاد وانخفض انتاج الحنطة فى الموسم المذكور إلى أدنى مستوى عرفته فرنسا. ولم يكد يأتى ربيع سنة ١٧٨٩ حتى عز الخبز وارتفع سعره ولم يعد بمتناول القسم الأكبر من الفلاحين والعمال فى المدن. وكانت المعاهدة الاقتصادية المعقودة مع بريطانيا قد زادت فى حدة الأزمة بما أتاحته للتجار من تصدير القمح للإنجليز سعيًا وراء الربح رغم حاجة الفرنسيين لقمحهم. وعبثًا طلب الرأى العام بإلغاء المعاهدة الاقتصادية المعقودة مع بريطانيا والتى تتيح تصدير القمح إليها. فانتشرت المجاعة وعم الاستياء فى المدن والأرياف وأخذ الفلاحون يطوفون مستنجدين تارة ومحرقين المنازل تارة أخرى. وتلبد الجو الفرنسى بغيوم الثورة.

وخلف كالون "دى بريين de Brienne" (١٧٨٧ – ١٧٨٨) وهو رئيس أساقفة "تولوز" وكان آخر من تمتعوا بنفوذ سياسى من رجال الدين. وفى عهده وافق مجلس الأعيان على غالبية مقترحات "كالون" ولكنه رفض فرض ضريبة عامة على الأرض. فاستخدم الملك حقه فى فرض الضرائب. وهنا رفض البرلمان فرض الضريبة العامة على الأرض، وقد أدى ذلك إلى اعتزال "دى بريين" فى ١٧٨٨.

على أن البرلمان كان قد وافق قبل اعتزاله منصبه. عام ١٧٨٧ على مرسوم حرية التجارة الداخلية وإنشاء المجالس الإقليمية، وإلغاء السخرة. وفى عام ١٧٨٨ تولى نيكر الوزارة ليعد العدة لدعوة مجلس طبقات الأمة

إلى الانعقاد في فرساي في ٥ مايو من العام التالى فأخذت الأنظار تتجه نحو نيكر. وتعلقت الآمال بشخصه لحل الموقف.

وقبل الحديث عن الأحداث التى جرت لابد من إلقاء نظرة على كل من برلمان باريس الذى أصر على رفض تسجيل مشروع القانون الذى اقترحه الملك لفرض ضريبة عامة على الأرض. وعلى مجلس طبقات الأمة الذى اتجهت نحوه الأنظار كوسيلة أخيرة لمعالجة الأزمة المالية.

فى الثامن من أغسطس سنة ١٧٨٨ فى جو مملوء بالمخاوف والشكوك والآمال، دعا الملك أخيرًا مجلس طبقات الأمة للانعقاد فى العام التالى، وأرجع نيكر ساحر المال إلى منصبه القديم الذى يهيمن منه على مالية فرنسا. ولم يصدر قط إصلاح جليل من ذلك المجلس الذى أهملت دعوته للاجتماع طويلاً، والذى كان يجتمع فيه رجال الدين والأشراف وممثلو الطبقة الثالثة "طبقة العامة" ويتداولون ويقترعون كل على حده. وكان كل ما يأمله نيكر من دعوته أن يقر المال اللازم لمعادلة الميزانية، فيسد بذلك الهوة العميقة فى عجز الميزانية. ولم تضع الحكومة قبل انعقاد ذلك المجلس خطة للإصلاح الدستورى، أو تعد أى إرشادات لهدى مجلس قليل الخبرة، كهذا المجلس المؤلف من ألف ومائتى عضو، خلال عمله، ومع أنه تم الاتفاق فى ٢٤ يناير ١٧٨٩ على أن يكون عدد ممثلى الطبقة الثالثة معادلاً لعدد أعضاء الأشراف ورجال الدين معًا، فإن الحكومة لم تقرر شيئًا، بل أنها لم تقرر حتى هذا الأمر الخطير وهو، هل يجمع جميع أعضاء الطبقات الثلاث معًا. أو يجتمع ممثلو كل طبقة على حده؛ والحق أن لويس لم يكن ينتظر، أو يدرك الحركة الهائلة التى ترتبت على دعوة مجلس طبقات الأمة فى فرساى، والتى خلقت رأيًا عامًا سياسيًا قوى الإرادة شديد الهياج.

ومع ذلك فإننا نجد المطالبة بالإصلاح الدستورى فى هذا الشكل أو ذاك ظاهرة فى جلاء، فى العرائض التى رفعتها كل هيئة وناحية فى فرنسا

إلى الحكومة، أو نشرها كبار القوم خلال تلك الحقبة الدقيقة. ولم يكن ذهن فرنسا يجنح إلى الجمهورية. بل كان يطالب فقط بأن الضرائب يجب أى تفرض من غير موافقة الشعب، وأن تلغى ضريبة البيوت والعقار الثابت وهما أمنيتان أجمع الناس، برغم تضارب المصالح، على المطالبة بتحقيقها. وثمة عريضة وزعت على نطاق واسع كتبها قس شاب ممتاز الذكاء، ورسم فيها مملكة دستورية تشبه كثيرا تلك التى أقيمت فى فرنسا عقب سقوط نابليون. وكان ذلك القس هو تاليران Talleyrand أسقف أوتان الذى أثبتت الأيام أنه كان أحكم من الكثير من أبناء وطنه. فقد قدر له سنة ١٨١٤، بعد أن أشرفت حروب الثورة على الانتهاء، أن يدير دفة الأمور فى فرنسا على النمط الذى سعى عبثًا أيام شبابه أن يخطه لها.

ولكن لما التأم عقد المجلس فى فرساى فى مايو ١٧٨٩، وقع ممثلو طبقة العامة تحت تأثير عقلية السوقة فقد اجتمعوا فى وقت هياج شديد وآمال عريضة، وعقدوا من بادئ الأمر النية على أن يمنحوا فرنسا نظمًا وهيئات تكون موضع حسد العالم لها، وأنموذجًا لسائر البلدان. فلم يكن ممثلو تلك الطبقة، وقد تشربت نفوسهم بهذه الروح يمليون إلى أن يحتملوا معارضة من جانب الطبقات الممتازة، فأعلنوا فى ١٧ يونيو أنهم يكونون "الجمعية الوطنية" وفى اجتماع شهير عقد فى ٢٠ يونيه فى ملعب التنس بجوار قصر فرساى، أقسموا بألا ينفضوا حتى يضعوا لفرنسا دستورًا.

وكان العمل الذى فرضوه على أنفسهم ضخمًا جبارًا، فإن الدستور الأمريكى سنة ١٧٨٩ الذى وضعته وصقلته لجنة صغيرة من رجال ذوى كفاءة ممتازة كانوا يعقدون اجتماعاتهم وراء أبواب مقفلة فى مدينة فيلادلفيا الهادئة المتدينة. أما الجمعية الوطنية الأكثر عددًا المنعقدة فى فرساى، فقد جرت مداولاتها فى مملكة تجيش بالفوضى، وتحت غوغاء باريس وصخبهم

ووعيدهم. وكان إصلاح نظام الملكية الفرنسية القديمة العهد إصلاحًا حكيمًا عملاً شاقًا على أى حال.

وكان هنالك بعضًا من البطانة الملكية تتوق إلى استخدام القوة فى كبح جماح الجمعية، والقضاء على اضطرابات العاصمة التى ازدادت استفحالاً. فأذعن لويس بعض الإذعان فأقال فى ١١ يوليو نيكر المبغض - أقاله لأمور ثلاثة لأنه بروتستانتى، ولأنه حديث نعمة، ولأنه مصلح. وأمر بإقامة معسكر قرب فرساى لجند نظاميين ووضعوا تحت أمرة برجلى، وهو قائد قديم مجرب ذائع الصيت. واستهوت الأن لويس سياسة القوة والبطش، وهو الذى كان ينادى من قبل بوجوب الإصلاح.

فكان رد ديمقراطية باريس على تهديد الرجعية هذا، هو الرد التاريخى الذى مازالت فرنسا تحتفل به عيدا قوميًا فى ١٤ يوليو من كل عام حين استسلم فى ذلك اليوم من عام ١٧٨٩ حصن الباستيل إلى غوغاء كانوا قد سلحوا أنفسهم بما غنموه. ومن المرجح أنهم كانوا يموّلون من بعض أرباب الأموال الذين رأوا فى نيكر الأمل الوحيد للإصلاح المالى. ولم يكن هنالك فخر كبير فى هجوم على حصن كانت مدافعه مهجورة عديمة الاستعمال. ولكنه كان نظرًا للظروف التى سبقت وتبعت استسلامه. مصدر عار وخجل شديدين: تلك الظروف التى ترى فى الذعر الشديد الذى حَل إذ ذاك بسكان العاصمة، أو فى مشاهد التدمير والنهب، أو فى تمرد بعض الجند وشغب البعض الآخر، أو فى ذبح حامية الباستيل ذبحًا على النذالة والقسوة. بيد أن الاستيلاء - بالرغم تدنسه بالجريمة - على ذلك السجن القديم الذى فى أطراف باريس وهدمه كان عملاً سياسيًا فذًا رائعًا. ففى طول أوروبا وعرضها هللّ الناس وكبروا مرحبين بسقوط الباستيل كخاتمة للطغيان المستتر، والسجن الظالم المستبد، وكبشير ببزوغ فجر الحرية.

ثانياً:مراحل الثورة الفرنسية

١- تفاقم الأزمة الاقتصادية وانعقاد الجمعية الوطنية.

في صيف سنة ١٧٨٨ اشتدت الأزمة الاقتصادية في فرنسا لدرجة كبيرة، وانتشر الجوع في بعض الأرياف وفي الأحياء التي يقطنها العمال والفقراء في المدن الكبرى. وعجز نيكر المعروف بحنكته وحسن تدبيره، - والذي كان قد استدعى مجددًا في سنة ١٧٨٨ لاستلام وزارة المال - عن ضبط الأمور وتأمين القوت للجائعين خاصة وأن خزينة الدولة أصبحت خاوية، إذ ورد في التقرير الذي سبق أن قدمه الوزير كالون إلى مجلس الأعيان في سنة ١٧٨٧ أن ديون الخزينة الفرنسية تبلغ أربع مليارات فرنك مضافًا إليها الديون الكبيرة التي ترتبت على البلاد بسبب المشاركة في حرب الاستقلال الأمريكية.

وأمام خطورة الوضع الاقتصادي والمالي اقترح الوزير على لويس السادس عشر طرح المشكلة بكاملها على الأمة الفرنسية عن طريق دعوة مجلس الطبقات الذي يتمثل فيه جميع فئات الشعب، والذي لم يكن قد دعي للاجتماع منذ ١٧٥ عامًا. وقد وافق الملك على هذه الخطوة رغم ما كان يرافق ذلك من مخاوف ومحاذير وشكوك. فالعرش يحتاج للمال وهذا لم يعد من الممكن تأمينه إلا بموافقة وقبول جميع ممثلي الشعب. ووضع نيكر، بتكليف من الملك، نظامًا انتخابيًا جرت الانتخابات العامة على أساسه في جميع أنحاء المملكة. وقد رحبت الطبقات الشعبية بهذا التدبير، راجية أن تحصل بواسطته وعن طريق المجلس الجديد على الخبز وكذلك وافقت البورجوازية على هذه الخطوة بهدف الحصول عن طريق مجلس الطبقات على قسط من الحريات الديمقراطية وعلى حقها في المشاركة في شئون الحكم والسلطان. وهكذا وضع الفرنسيون أقدامهم على أعتاب الثورة. تألف المجلس الجديد من ١٢٠٠ عضو نصفهم يمثل طبقة العامة والنصف الآخر

يمثل بالتساوى طبقتى الأشراف والأكليروس. وكانت التقاليد القديمة تقضى بأن تجتمع كل طبقة على حدة وأن يجرى التصويت على أساس الطبقة وليس على أساس أصوات جميع الممثلين. وقد حرر الناخبون فى جميع أنحاء فرنسا عرائض حملها أعضاء المجلس الجديد (كما تنص على ذلك التقاليد الدستورية القديمة فى فرنسا) تفيض بالشكوى وتحدد المطالب الأساسية التى يريد الفرنسيون تحقيقها وهى، صيانة الحريات العامة ومنع التعدى عليها إلا بموجب القانون. وإلغاء الامتيازات القديمة ومساواة الجميع أمام القانون، وعدم فرض الضرائب إلا بموافقة الشعب ممثلا بمندوبيه فى مجلس الطبقات. وأخيرًا توزيع الأعباء الضرائبية على الجميع بالتساوى بغض النظر عن الانتماء الطبقى.

والواضح من هذه المطالب أنها على درجة كبيرة من الاعتدال ولا تحمل فى طياتها أى عداء للنظام الملكى أو رغبة فى إحداث تغيير جذرى فى النظام السياسى والاقتصادى فى فرنسا. وأبرز ما فيها أنها من وضع مواطنين لا يزالون على ولائهم للملكية وعلى حبهم للملك، يدفعهم مثل أعلى هو العمل على تحويل فرنسا إلى ملكية برلمانية دستورية.

وفى الاجتماع الأول الذى عقده مجلس الطبقات فى اليوم الخامس من شهر مايو، ألقى نيكر خطابًا أوجز فيه التدابير التى يقترحها لإصلاح شئون بيت المال ولم يشر من قريب أو بعيد إلى موقف الدولة من المطالب التى يود الفرنسيون تحقيقها وقد ظهر منذ البداية أن الحكومة لم تكن لديها خطة واضحة للإصلاح ولم يكن لديها أى جواب على المطالب الكثيرة والمتنوعة التى جاء بها ممثلو الأمة. حتى أنه لم يكن للحكومة موقف واضح من بعض القضايا الشكلية المتعلقة بالنظام الداخلى للمجلس. فى نفس الجلسة طرح زعماء الطبقة الثالثة مشكلة التصويت فى المجلس الجديد وأصروا على أن يجرى بالاقتراع الفردى وليس على أساس الطبقات. وكان هدف هؤلاء من

ذلك الحصول على أغلبية فى المجلس لأخذ المبادرة عند طرح الاقتراحات والقوانين على التصويت. ونظرًا لكون عدد مندوبى الطبقة الثالثة يتساوى مع عدد مندوبى الأكليروس والأشراف ولكون الكثيرين من مندوبى هؤلاء ميالين للتعاون مع الطبقة الثالثة فإن أى اقتراح بالأسماء سيجعل الأغلبية بجانب الطبقة الثالثة. ولم تقدم الحكومة أى رد منطقى ومقبول على هذا الاقتراح كما لم تتقدم باقتراح بديل يأخذ بعين الاعتبار مطالب الشعب بل اكتفى الملك برفض الاقتراح والتمسك بالأسلوب القديم الذى كان يعمل به منذ أكثر من قرنين. وبذا يكون الملك قد ارتكب حماقة كبيرة أبعدت ممثلى الطبقة الثالثة عن العرش مع كونهم كانوا لايرغبون فى ذلك، ودفعهم فى سلوك طريق مستقل.

طال النقاش كثيرًا حول هذا الموضوع وتمسك الملك ومن ورائه ممثلو الأشراف والنبلاء بطريقة الاقتراع التقليدية مما جعل ممثلى الطبقة الثالثة الذين علقوا الآمال الواسعة على المجلس الجديد يميلون لأخذ زمام المبادرة من الحكومة والعرش والانفراد بالعمل لتحقيق الإصلاح الدستورى الشامل. وقد تم التحول الأساسى حين وافق ممثلوا الطبقة الثالثة ومن يقف موقفهم من الأكليروس والأشراف على اقتراح تقدم به سييياس وهو راهب متنور من أنصار المبادئ الحرة يدعو لاجتماع هؤلاء فى مجلس تشريعى يمثل البلاد ويطلق عليه اسم "الجمعية الوطنية" وكان ذلك فى ١٧ يونيو سنة ١٧٨٩. وفى اجتماع ثان عقد فى ٢٠ يونيو فى ملعب للتنس يقع على مقربة من قصر فرساى، أقسم هؤلاء على أن يوالوا اجتماعاتهم مهما كانت الظروف والاعتبارات إلى أن يضعوا لفرنسا دستورًا جديدًا يصون حقوق المواطنين ويضمن حرياتهم. وبذا تحول مجلس الطبقات عن الهدف الأساس الذى دعى من أجله وهو فرض ضرائب جديدة، وأصبح جمعية تشريعية تعمل لوضع دستور يلبى حاجات المواطنين.

ولما لم يكن الملك راضيًا عن الخطوات المتخذة فقد دعا في الثالث والعشرين من الشهر المذكور مجلس الطبقات إلى الاجتماع وأبلغ أعضاءه عن رغبته فى أن يظل الفصل بين الطبقات قائمًا، وأعلن إلغاء القرار الذى اتخذ بتحويل المجلس إلى جمعية وطنية. رفعت الجلسة على أن تستأنف فى اليوم التالى، وكل طبقة على حدة وذلك لدراسة مشروع إصلاح الإدارة وتقويم أوضاع بيت المال، وانسحب الملك وتبعه الأشراف والأكليروس، إلا أن مندوبى الطبقة الثالثة ومناصريهم من الأشراف والأكليروس بقوا فى أماكنهم مما جعل أحد موظفى البلاط يذكرهم بضرورة إخلاء القاعة.

وهنا أفرزت الثورة، أحد أبرز زعمائها وأوائل روادها ميرابو الذى رد بعبارته الشهيرة: "نحن هنا بإرادة الشعب ولن نخرج إلا على رؤوس الحراب". كان ميرابو يمثل هوية الثورة فى عهدها الأول. إذ كان يريد تحقيق الإصلاح مع الإبقاء على العرش والملك. فقد كان يريد تحقيق نوع من المشاركة فى السيادة والسلطان بين الشعب والعرش والقضاء على الاستبداد والفردية. وعلى الرغم من ذلك كان ملكيا دستوريًا وظل كذلك حتى الرمق الأخير من حياته.

ولم يلبث الشعب أن سجل بعد أيام قليلة أولى انتصاراته حيث التحق ممثلو الأكليروس والأشراف بناء على أوامر الملك بالجمعية الوطنية. إلا أن ذلك لم يوقف مسيرة الأحداث. وشعر الملك وحكومته بأن الوضع فى العاصمة بدأ يأخذ شكلاً خطيرًا وأن رياح التمرد والثورة أخذت تنتشر من باريس فى كل الاتجاهات. لذا استدعيت بعض فرق الجيش، على سبيل الاحتراز إلى فرساى واتخذت تدابير أمن مشددة وأقيل نيكر ربما بسبب أفكاره الإصلاحية واستبدل بأحد أعوان الملك وكان ذلك فى الثانى عشر من شهر يوليو.

٢- سقوط الباستيل.

هذه التدابير خلفت عند الفرنسيين أثرًا سيئًا نظـرًا لعلاقـة الـوزير الجديد بالملكة والبطانة الملكية. ولما رافقها من إشاعات عن رغبـة ملكيـة بحل الجمعية الوطنية، ولم تلبث أن عمت العاصـمة الفرنسـية مظـاهرات صاخبة لعب فيها بعض الخطباء المتطرفين من أمثال مارا وديملـون دورًا فعالاً. وسيطر المتظاهرون على دار البلدية فى باريس (الكومون) وجعلوها مركزًا لمقاومة السلطة ونظموا حرسًا أهليًا أعطوا قيادته للمركيز دى لافاييت بطل حرب الاستقلال الأمريكية فى الظاهر للمساعدة علـى حفـظ النظـام وصيانة الأموال والأرواح، وعمليًا كان الهدف من ذلك مقاومة الجيوش التى أخذ بجمعها الملك عند فرساى.

ومن أجل الحصول على السلاح هاجم المتظاهرون مخازن السـلاح ونهبوها ثم اندفعوا بقوة نحو سجن الباستيل الذى طالمـا كـان فـى نظـر الفرنسيين رمز طغيان الملكية وظلمها، فحطموا أسـواره وذبحـوا حاميتـه وأطلقوا سراح من كان فيه من مسجونين. وكان عدد هؤلاء قليلاً، لأن الدولة كانت قد أقلعت منذ مدة طويلة عن استعماله كسجن.

كانت الظاهرة الأساسية فيما حدث يوم ١٤ يوليو وهو اليـوم الـذى يسميه الفرنسيون "يوم الحرية" والذى لا يزالون يحتفلون به حتى الآن، هـو انتشار البطش والعنف وهى أمور ما كان دعاة الثورة مـن البورجـوازيين وأنصار الاعتدال وهم الأغلبية الساحقة فى الجمعية الوطنيـة، يريـدونها أو يتمنون حدوثها. وقد بدأ منذ ذلك اليوم أن الثورة قد أفرزت قوى متطرفة فى أهدافها وأساليبها وأن هذه القوى بدأت تأخذ طريقها إلـى مراكـز القيـادة والتوجيه بين الجماهير الفرنسية وهو الأمر الذى أثار الخوف والحـذر فـى أوساط الجمعية الوطنية وبين الفئات المعتدلة.

وكان لسقوط الباستيل أثر مهم في توجيه أحداث الثورة ففي باريس تمركزت السلطة الفعلية في يد أعضاء بلديتها يحميها ويدافع عنها الحرس الأهلى الذى كان بمثابة نواة جيش الثورة وفى خارج باريس اعتبر الناس الحدث بمثابة إشعار ببداية مرحلة التحرر ورفع نير المظالم القديمة. فهاجم الفقراء والفلاحون فى الأقاليم والأديرة وقصور الأشراف وأحرقوا بعضها. وقد صبوا غضبهم بصورة خاصة على كل من له علاقة بالضرائب والامتيازات القديمة. فهاجموا مكاتب الضرائب وأحرقوا السجلات الرسمية، ولاحقوا الجباة الماليين، وأتلفوا كل ما يثبت امتيازات الكنيسة وحقوق الأكليروس وقد ساعد على انتشار العنف والإرهاب أن رجال الحكومة في الأقاليم وقفوا موقف المتفرج من الأحداث مخافة أن يحل بهم ما حاق بحرس الباستيل. وأمام عجز السلطة اضطر المواطنون في المقاطعات أن يسلكوا مسلك أهالي باريس ويأخذوا زمام الأمر بأيديهم ويؤلفوا لجانًا للإشراف على أعمال الحكومة والمحافظة على الأمن والنظام وأمام هذه الأحداث شعرت الملكية بخطورة الموقف وبأن المبادرة باتت بيد الجماهير الفرنسية فاضطرت لإظهار بعض التنازلات. أبعد الملك بعض وزرائه وأعاد نيكر لوزارة المالية، وقبل علم الثورة المثلث الألوان.

وهذا الموقف المعتدل والمستسلم بعض الشئ من جانب الملكية لم يكن كافيًا لامتصاص نقمة الجماهير وهياجها بل أن الجميع كانوا يشعرون بأنه لابد من القيام بأعمال أكثر جدية لتهدئة الأحوال فى المقاطعات وإرضاء الفلاحين الثائرين، ففى مساء ٤ أغسطس اجتمعت الجمعية الوطنية فى جلسة خاصة للبحث عن الوسائل الكفيلة لوقف تيار الاضطراب الجارف فى ضوء اقتراح الفيكونت دى نواى وهو من زعماء الأشراف إلغاء الحقوق الإقطاعية للنبلاء. وفى جو حماس عارم اقترعت الجمعية الوطنية بالموافقة على سلسلة من القرارات تهدف لإلغاء هذه الامتيازات أهمها:

١- إلغاء جميع حقوق الأشراف الإقطاعية وما يتبعها من حقوق قضائية.

٢- إلغاء أعمال السخرة والضرائب المفروضة على المطاحن والأفران.

٣- إلغاء امتيازات جمعيات الأقاليم والمقاطعات.

٤- إلغاء ضريبة العشر التى كانت تدفع للكنيسة.

٥- إعلان المساواة التامة بين جميع المواطنين فى الحصول على الوظائف العامة.

٦- إصلاح القضاء بحيث يتساوى الجميع أمامه فى الحقوق والواجبات.

وقد لاقت هذه المقررات استحسانًا كبيرًا لدى الجماهير الفرنسية وبصورة خاصة لدى الفلاحين فى الأرياف باعتبار أنها أزالت نهائيًا وبصورة قانونية هذه المرة كل ما كان قد بقى فى فرنسا من آثار النظام الإقطاعى. إلا أنها من ناحية ثانية أعطت فى المدى القصير نتائج سيئة للغاية على الصعيد المالى، إذ ألغت دون دراسة وروية سلسلة من الضرائب كانت تشكل نصف مداخيل الخزانة. ومع أن ميرابو استدرك هذا الأمر بناء على إشارة وزير المالية نيكر وجعل الجمعية الوطنية تقر ضريبة تبلغ ربع المداخيل. فإن ذلك لم يعوض ما فقدته الحزينة وعلى أية حال فهذه هى المرة الأولى فى تاريخ فرنسا الحديث تفرض فيها ضريبة تصيب الأغنياء بأكثر مما تصيب الفقراء ولعلها أولى ثمار الثورة الفرنسية.

ومنذ ذلك الحين بدأت تسير باريس فى طليعة التاريخ وكان سقوط الباستيل إعلانًا بأن باريس لا تنوى أن يفلت الدستور من بين يديها. وأن ما تريده باريس يجب أن تقبله فرنسا. أما لويس فما كان منه عند وصول الخبر إلا أن قال: أنها فتنة كبيرة، فأجابه الدوق دى ليانكور: "كلا يا مولاى، أنها ثورة عظيمة". وأصبح الآن خسوف الملكية كاملاً، فقد باتت عاجزة عن أن تحمى أصدقاءها أو تقضى على أعدائها. وأرغم الملك على تجرع كل هوان

وذلة، فألزم أن ينقض أوامره للجنود، وأن يعزل وزراءه، ويستدعي نيكر، وأن يبارك علانية استيلاء الرعاع على الباستيل، وأن يقبل على ملأ من الناس، بحكم الأمة بعد تحررها، الشارة المثلثة الألوان الجديدة التى ابتكرها لافاييت محرر أمريكا والقائد المنتخب للحرس الأهلى.

ومع ذلك فلم تكن باريس واثقة من فريستها. فقد تراءى لها أن الملك طالما كان حرًا طليقًا، فإنه يصبح مصدر خطر عليها، فقد يستأنف الأعيبه الرجعية القديمة، فيجمع جندًا حوله، أو لا يصدق على المراسيم التى تقررها الجمعية الوطنية، أو يدبر الفرار. وقوى الشعور بأن خطره يقل لو أنه قام فى باريس حيث يمكن للكومون Commune – وهو مجلس بلدى باريس – أن يراقبه، وللحرس الوطنى أن يحيطه بالحراس. وكانت صاحبه هذا الرأى والداعية له عند لفيف من أصدقائها للمتحمسين، سيدة فى مقتبل العمر بارعة الجمال فصيحة اللسان، هى مدام رولان، قرينة مفتش مناجم رزين.

وفى خلال هذه الفترة العاصفة استوعبت أساليب الثورة، فكان تحت تصرفها أموال ومنظمون، وغلاة ومتطرفون، ومورد غزير من الأوباش تعهد إليهم بأعمال الشغب والعنف وفى الأسبوع الأول من شهر أكتوبر سنة ١٧٨٩ ظهر عذر يسوغ أحداث انقلاب، فقد دعا الملك فرقة الفلاندر إلى فرساى. ورفض التصديق على قانون أجازته الجمعية الوطنية، وأشيع أنه يفكر فى الفرار، وأن الحرس الملكى داس بأقدامه الشارة المثلثة الألوان. فكان شبح الرجعية الذى توارى فى يوليو قد أخذ يرفع رأسه من جديد.

وكانت هذه الظنون – مضافًا إليها شح الخبز حينذاك فى باريس – كافية لأن تحرك ذلك الزحف الشهير إلى فرساى فى ٥ أكتوبر سنة ١٧٨٩؛ ذلك الزحف الذى بدأ يتجمع حفنة من النساء الجائعات يولولن فى طلب الخبز، ولكن جاء على أثره الحرس الوطنى بقيادة لافاييت، فأحضروا معهم

الأسرة الملكية إلى باريس، وإلى قصر التويلرى الكئيب القارس البرد الذى أصبح أشبه بالسجن للملك والملكة.

وعقب سقوط الباستيل، حينما كانت الفوضى ضاربة أطنابها، وبيوت النبلاء تلتهمها النيران، جاء تاليران خفية إلى الكونت دارتوا D'Artois أصغر أخوى الملك، جاء يحضه على أن يحمل الملك على حل الجمعية الوطنية، وإعادة النظام إلى نصابه بالقوة. ولكن الملك أبى ذلك عطفًا منه وشفقة ولمّا لم يضمن دارتوا لنفسه الحماية الكافية، فرَّ عبر الحدود، بادئًا بذلك أولى موجات الفرار المتعاقبة التى جلبت هذا الشر المستطير على فرنسا وأوروبا.

وصعب أن نغلو فى تعداد الشرور والنتائج السيئة الناجمة عن وجود شراذم من الأشراف الحانقين يتحالفون مع أعداء بلادهم ويتآمرون عليها، إما عن طريق حرب أجنبية، أو بث روح الفتنة والنضال الداخلى، كى يستأصلوا نظمها وهيئاتها الجديدة. فإن جميع الكوارث الكبرى التى انتابت فرنسا إبان الثورة. كإعدام الملك والملكة وجنون الشك والريبة والإرهاب، والفظائع التى ارتكبت، وقمع الآراء المعتدلة الإنسانية – إن هذه الكوارث لتتصل من قريب أو بعيد بالمخاوف التى أثارها حقد المهاجرين الدفين، وقوة حلفائهم المسلحة سواء فى الداخل أو الخارج، فإن أكثر ما قضى مضاجع الثوار هو ارتيابهم فى وجود أنصار مستترين للملكية فى جميع أرجاء فرنسا.

وبعد سقوط الباستيل أيضًا سادت الفوضى كل شئ، ساءت الإدارة والجيش – وخاصة الأسطول الذى كان قد أبلى بلاء حسنا فى أثناء حرب الاستقلال الأمريكية، وأشعل الفلاحون النار فى قلاع أسيادهم وقصورهم، ولم يوجد فى طول البلاد وعرضها من يطيع القانون، أو يدفع الضرائب. وألفت كل ناحية من نواحى فرنسا حرسا أهليًا: تلك القوة العسكرية الهائلة العظيمة الشديدة الولاء للثورة، قرر عنها كيد الخصوم.

وفى ٢٦ أغسطس أعلنت الجمعية الوطنية وثيقة حقوق الإنسان أبرزت فيها بصورة واضحة الحقوق الأساسية للمواطن على الدولة، وأبرز هذه المبادئ، أن الناس يولدون ويظلون أحرارًا متساويين فى الحقوق. وأن الغرض من الحكومات ضمان وحماية الحقوق الطبيعية للإنسان. وهى الحرية، والملكية، وحماية الأرواح، وحق دفع المظالم. كما لا يجب أن يسجن أحد أو يوقف إلا فى الحالات التى يحددها القانون، كما أن لكل أمة الحق فى مشاركة حكومتها فى وضع القوانين وتقرير الضرائب.

ويلاحظ أن فى هذا الإعلان الكثير من مبادئ روسو ومن روحه التواقة للحرية. كما أن أثر وثيقة إعلان الاستقلال الأمريكى دور واضح فى نصوص الإعلان الفرنسي. ولعل مرد هذا الإعجاب والتقدير الذى كان يشعر به كل فرنسي مثقف للديمقراطية لما للفرد فى ظلها من حقوق وحماية. وقد نشر هذا الإعلان بحيث يأتى كمقدمة لدستور سنة ١٧٩١.

وكانت مقررات ٢٦ أغسطس تنتظر لتصبح نافذة المفعول لموافقة الملك عليها. ولم يكن من المنتظر أن يوافق عليها بسهولة لأنها تعتبر بمثابة تجريد للعرش من أكثر سلطاته، وجعل الشعب المصدر الأساسى للسلطات، وبالفعل رفض الملك التوقيع على تلك القرارات مما جعل الوضع يتأزم فى باريس وجماعات المتطرفين، والمشاغبين يزداد نشاطها وفى نفس الوقت استدعى فرقة الفلاندرز إلى فرساى للمساهمة فى حمايته، كما أن شائعات سرت فى باريس تقول بأن علم الثورة قد أهين فى إحدى الاحتفالات فى فرساى. صادف كل ذلك فقدان الخبز من أسواق باريس فى مطلع أكتوبر بسبب قلة التنظيم وخوف التجار من أعمال السلب والنهب وليس بسبب فقدان الحبوب. هذه الاعتبارات كلها جعلت الناس يطالبون بانتقال الملك إلى عاصمته. وفى ١٥ أكتوبر خرجت من باريس مظاهرة ضخمة تتقدمها النساء باتجاه فرساى للعودة بالملك لأن بعودته يكثر القمح فى الأسواق حسب ما

اعتقدن. وقد أدرك المعتدلون من رجالات الثورة ما قد ترتكبه من حماقات الجماهير الزاحفة فتبعها لافاييت قائد الحرس الوطنى على رأس رجاله. وفى فرساى طلب من الملك باسم بلدية باريس العودة للعاصمة وفى السادس من الشهر المذكور وصل الملك وعائلته، فى حماية الحرس الوطنى، إلى باريس وعلى صدره شارة الثورة. وفى نفس الوقت صادق على مقررات الرابع والسادس والعشرين من أغسطس. ولقد حل الملك وعائلته فى قصر التويلرى تحت حماية الحرس الوطنى وبات بذلك تحت نفوذ الثورة.

عقب مغادرة الملك لفرساى انتقلت الجمعية الوطنية أيضًا إلى العاصمة لتتفرغ للمهمة التى ندبت نفسها من أجلها وهى صياغة الدستور الجديد. إلا أنها في باريس باتت تحت رحمة العناصر الثورية وبصورة خاصة الفئات المتطرفة منها مما سيؤثر إلى حد كبير فى وضع نصوص الدستور وينفخ فيه الكثير من روح التطرف والعنف.

وفى صيف سنة ١٧٨٩ ومع احتراق قصور ومزارع الكثير من الأشراف، ومع صدور قانون إلغاء الامتيازات القديمة، أدرك الكثير من النبلاء والأكليروس استحالة التفاهم مع أعضاء الجمعية الوطنية واقتنعوا بخطورة البقاء فى فرنسا منتظرين ما ستحمله لهم الأيام. فأخذوا يغادرون فرنسا جماعات وأفرادًا. فمنهم من هاجر ليجمع السلاح ويحرض الأجانب ليستعين بهم على محاربة الثورة، ومنهم من رحل خائفًا على حياته وعائلته، ومنهم من أبتغى من هجرته مأمنًا ينتظر فيه زوال الغمة وعودة الأوضاع فى فرنسا إلى سابق عهدها. وكانت قلّة من هؤلاء فهمت حقيقة ما يجرى فى فرنسا، واستحالة إعادة التاريخ إلى الوراء فاتخذ المهاجرون أماكن لإقامتهم فى بلجيكا، وعلى ضفاف الراين، حتى يكونوا على مقربة من حدود بلادهم، وجعلوا من كوبلنز مقرًا للعناصر الناشطة منهم، ومركزًا لتآمرهم ضد بلادهم وثورتها. والواقع أن الكثير من الكوارث أصابت فرنسا بسبب تآمر هؤلاء

مع الأجنبى واستعداء دول أوربا على فرنسا وتحريض عناصر كثيرة داخل فرنسا على مناوأة سادة البلاد الجدد. وكانت فى مقدمة العناصر المهاجرة الكونت دارتوا شقيق الملك الذى أساء كثيرا بطيشه وتآمره لبلده.

وكانت ثمة فكرة واحدة انتشرت فى جميع أنحاء فرنسا هى أن الشعب هو صاحب السيادة، ومصدر كل سلطة وبدت ملكية النظام القديم للناس خدعة كبرى، وأن الفرنسيين لم يعودوا بعد بالأمة المستضعفة، بل أنهم لم يكونوا يومًا من الأيام تلك الأمة، فقد صاروا مواطنين: يملكون حق إعلان الصلح والحرب، وإبرام المعاهدات، ومباشرة القضاء وتنظيم الكنيسة، والإشراف على الجيش والأسطول، وسن القوانين وفرض الضرائب، وتراءى لهم أن ليس ثمة قوة فى العالم تستطيع أن تسيطر أو تقف أمام إرادة الشعب التى تعبر عنها الجمعية الوطنية الممثلة الشرعية لها، وأن روح الاتحاد والتضافر التى تؤلف بين أعضاء الجماعة الواحدة، سواء أكانت هذه الجماعة مجلس مقاطعة، أم مجلسًا بلديًا، أم طبقة من طبقات المجتمع، أم شركة، أم نقابة عمل، يجب أن تذعن لأوامر فرنسا التى لا تتجزأ.

كان هذا هو المنطق، وتلك العواطف التى استهوت فرنسا، واستحوذت على عقول أبنائها فى صيف ١٧٨٩. وكان هذا هو نداء الديمقراطية الجديدة الذى وجهته شعوب أوروبا الممتهنة الجانب.

وقد ذاعت تلك الفلسفة التى انطوى عليها إعلان حقوق الإنسان، بعباراته الخلابة، ومبادئه التى لم توضع موضع التجربة؛ هذا الإعلان الذى بدئ به دستور سنة ١٧٩١، فأثارت عباراته العزة فى النفوس، وأيقظت الأمانى والآمال فى بيوت لا تحصى. ولم تثمر إلا قليلاً نصائح العقل والحكمة ونداءات الاعتدال، إزاء القوة المضللة الساحرة لهذا المنطق. وكان الاعتقاد بصلاح الطبيعة البشرية الذى تنطوى ملكية هذه النظريات مصدر معظم المحن القاسية والنكبات المريعة التى حلت بفرنسا فى تعاقب سريع.

فقد غاب عن الفرنسيين أنهم أمة لا تتألف من ساسة ملائكة، بل من شـعب يحتاج – ربما أكثر من أى شئ آخر – إلى سلطة حازمة ويد قوية لترقيـة مواهبه وصفاته العظيمة ترقية كاملة.

٣- دستور ١٧٩١.

وتحت الطبقة البورجوازية (الطبقة الوسطى)، كانت هنالك طبقـات العمال الجائعة جسمًا وعقلاً. المتحجزة القلب من جراء إهمال أمرها، وتنفيذ القوانين المجحفة غير العادلة فيها، طبقات حفلـت بـالمجرمين والمهـربين وقطاع الطرق وسفاكى الدماء. فإنه فى ليلة اقتحام الباستيل أخـذت النسـوة والأطفال ترقص على ضوء المشاعل حول رءوس مقطوعـة لثلاثـة مـن الأسياد الفرنسيين قضوا حياتهم بلا دنس أو عيب. ومع ذلك فلم يأبه لـذلك الإنذار البشع. وامتنع الملك ووزراءه من توجيه خطى الجمعيـة وهـدايتها، ورفضت الجمعية بدورها أن تحكم فرنسا، أو تحفظ الأمن فى باريس. ولمـا انتقل الملك والجمعية إلى العاصمة انتقل مركز السيادة فى فرنسا إلى الأندية السياسية التى كانت أهمها نادى اليعاقبة. ذلك النادى الذى صار فـى وقـت وجيز قطب الرحى فى اتحاد واسع النطاق، وحاكم فرنسـا الحقيقـى. ولـم تحاول قط الحكومة أن تضرب على أيدى الهيئات الثورية، أو تقاوم أفعالهـا التى أوصلت الرعب فى قلوب أعضاء الجمعية الوطنية، وبذرت بذور الفتنة والتمرد.

وسيهتم التاريخ على الدوام بأمر ميرابو Mirabeau ذلك المغـامر والسياسى والخطيب الشعبى والمشرِّع الذى وقف فى وجه تيـار الفوضـى الجارف وإنقاذ تاج فرنسا. فقد وضح له كل الوضوح، كما وضـح لمونييـه Mouni وأشخاص حكماء آخرين، أن السبيل إلى إنقاذ فرنسا من التـردى قيام حكومة قوية شديدة البطش. ولكن أنى لهم أن يجدوا القوة والحزم؛ أنهـم

لم يجدوهما في الملك، أو في أخيه الأصغر الكونت دي بروفانس، ولا في لافاييت المختال المذهو بنفسه، والقائد غير الكفء لحرس باريس الأهلي.

وحبطت جميع المحاولات لتأليف وزارة ملكية قوية، وتحطمت على صخور المبادئ الديمقراطية جميع المقترحات التي يحتمل أن تقوي مركز السلطة التنفيذية في الدستور الجديد، كإنشاء مجلس تشريعي ثان ومنح الملك الحق المطلق في رفض التصديق على أي مشروع قانون، وتخويل الوزراء حق الجلوس في السلطة التشريعية. ولم يستطع ميرابو نفسه أن يعتمد حتى على تأييد الأعضاء الملكيين في الجمعية الوطنية، لأن كثيرين منهم كانوا هدامين يميلون بجوارحهم إلى جعل الدستور أسوأ ما يمكن بغية الحط من فوائد الديمقراطية ولما انتهى رأي ميرابو إلى تعذر الاتفاق على شيئ مع الجمعية، اقترح سرًا على البلاط أن يرحل علنًا من باريس، وربما كان اقتراحه هذا من بين جميع خططه العديدة. أقلها تهورًا وقنوطًا ولكنه جاء بعد فوات الأوان، وذلك أن فرنسا صارت – ولما تدر جمهورية قلبًا وقالبًا.

وقد أبقى الدستور على الفوضى الناجمة عن تشتت السلطات، هذا التشتت الذي وجدته الجمعية الوطنية قائمًا ولم تفعل لتقويمه. وقد عمَّرت الملكية، ولكن كظل فقط، لأن السلطة الحقيقة صارت في يد أربعين ألف مجلس، تدفع من الضرائب ما راق لها أن تفرض على نفسها، ولها وحدها حق استدعاء الحرس الخاص بها واستخدامه. فكان الخوف القاتل من سلطان الحكومة – وذلك الخوف البادئ في اعتقاد صلف لا يقبل مناقشة – بفائدة الانتخابات والهيئات الشعبية كان ذلك الخوف عيبًا من أكبر عيوب المحاولة الأولى وتنظيم فرنسا.

وعيب آخر نتج من منطق الثورة الديمقراطي بعينه، هو إخضاع رجال الدين لدستور مدني، فقد كان مبدأً أساسيًا من مبادئ الثورة أن الهيئات المشتركة خطره على المجتمع وذات سجل طويل حافل بالتعصب كسجلها،

فقد كانت محط البعض من مجلس تشريعى معاد لهيئة رجال الدين. فأخذت الجمعية تكيل لهم الضربة تلو الضربة فألغت أولا العشور الكنسية، دون دفع تعويض، ثم تلت ذلك بمصادرة جميع أملاك الكنيسة. وحل طوائف الرهبنة الدينية وتحرير الرهبان والراهبات من النذور وألحق بذلك تخفيض عدد الهيئات والأشخاص الكهنوتيين تخفيضًا عظيمًا. ولكن لما كانت الجمعية قد تركت العقائد والعبادة من غير أن تمس، فإن هذه الإجراءات برغم تعسفها وشدتها لم تكن لتقدم حائلاً يتعذر التغلب عليه.

وكانت الكنيسة تمتعض جد الامتعاض من سلب ضياعها الواسعة وأوقافها الغنية، ومن الإجراء الذى جعل رجال الدين ذوى مرتبات خاضعين لحكومة ديمقراطية. ولكن الكنيسة فى فرنسا خضعت أمدًا طويلاً للدولة، فلا يستطيع مسيحى أن يستنكر إجراء كهذا حرم كبار رجال الدين من إيراداتهم الضخمة، كى يرفع قليلاً من الرواتب الزهيدة لصغار القساوسة. بيد أن أعظم إثم أثار حفيظة قلوب رجال الدين على الجمعية، وجعل النزاع بينهم وبينها مما يتعذر رتقه وإصلاحه، هو قرار الدستور الذى بمقتضاه يختار الأساقفة بواسطة ناخبى المديريات، والقسس بواسطة مجالس المراكز المحلية. أو بواسطة مجالس المراكز المحلية. فإن ذلك كان ينطوى على جواز انتخاب رجال الدين بواسطة أشخاص علمانيين قد يكونون بروتستانت، أو حتى ملحدين.

والحق أنه لم يمكن ثمة خطأ ارتكبته الجمعية التأسيسية أبعد أثرًا فى نتائجه كتلك الإهانة غير المسوغة أو الضرورية التى وجهتها إلى عقائد الشعب الدينية. فقد انحاز فى بدء الثورة قساوسة القرى إلى قضية الشعب. فكان تأييدهم إياها جليل القيمة عظيم القدر. أما الآن فقد انقسم رجال الدين فريقين فريقًا مسايرًا حلف اليمين بطاعة الدستور، وأخذ يقبض مرتبه، وفريقًا شجاعًا عصى وتمرد، وبدلاً من أن يقبل البقاء فى أحضان كنيسة منشقة عن

البابا، هام على وجهه مهددًا بالجوع والسجن والموت ولكنه حمل معه ولاء رعيته؛ فصار القسس الذين لم يحلفوا يمين الولاء للدستور من بادئ الأمر، مركزًا منيعًا لمقاومة حكومة الثورة. وكانوا فى مقاطعتى فاندى وبريتانى، وفى كل مكان خفقت الشارة البيضاء مناضلة العلم المثلث الألوان. وفى هزيمتهم واضطهادهم توجت هاماتهم بأكاليل النصر والفخار.

واقتصاديًا فلم يكن فى جميع تصرفات الجمعية شئ يشم منه رائحة الاشتراكية فقد هاجمت الثورة الفرنسية الملكية، إذ كان أعضاء الجمعية التأسيسية راسخى الإيمان بحرية الفرد. فناهضوا حتى تلك الألوان من الاتحاد الاقتصادى كنقابات العمال التى وجد فيما بعد أنها ضرورية لحماية الضعفاء من عسف الأقوياء وبات الفلاح قادرًا على أن يزرع ما يشاء ويبيع أينما يشاء وألغى نظام استرقاق الأرض، ونبذ نظام الرسوم الإقطاعية على صغار الملاك وخفف من وطأة قوانين الصيد، وحرم مالك الأرض من حقوقه فوق أتباعه من العامة.

ولكن مع تغير نظام الأرض فى مظاهره الخارجية بقى أساسه كما كان بلا تغيير، وظلت الأرض يفلحها صغار الملاك أو المستأجرين من الفلاحين. و تزرع حسب نظام الإيجار المشترك الذى بموجبه يساهم كل من صاحب الأرض والمستأجر فى تكاليف الزراعة، ويقتسمان الأرباح. ولكن ثمة مشروع نظام شيوعى زراعى أو مشروع بمقتضاه تملك الدولة الأرض، لم يعرض قط على بساط البحث، أو يقدم اقتراحًا وقد نشأت لحاجات الدولة نفسها، رابطة مادية متينة العرى وثقت أواصر ارتباط طبقى الفلاحين بالثورة، وضمنت – جزئيًا على الأقل – عدم قلب عمل الجمعية التأسيسية فى هذه الناحية.

وقد احتاجت الجمعية فى أثناء حكمها فرنسا إلى المال. فسعت إلى الحصول على مطلبها منه بإصدار أوراق مالية ضمنت أولاً بأملاك الكنيسة،

ثم بعد ذلك بأملاك العرش والمهاجرين. وأصدرت فى بادئ الأمر (ديسمبر سنة ١٧٨٩) أوراقًا بأربعمائة مليون فرنك اعتبرتها كلفة تسدد مما ينتج من بيع أملاك الكنيسة ولكنها ما لبثت طويلاً حتى وجدت هذا المبلغ غير كاف. فأخذت تسدد ثمن حاجاتها الجديدة بإصدار أوراق جديدة. فما عتم أن حل التضخم المالى، مصحوبًا بنتائجه المحتومة، ومن انحطاط قيمة تلك الأوراق، وبيع الأرض بأثمان تثير السخرية.

وبسبب تدهور قيمة النقد تدهورًا سريعًا أدى ذلك لانحطاط قيمة الأوراق المالية الفرنسية وإلى فقر خزينة الحكومة وأصحاب العقارات وسكان المدن وساعد على استمرار الهياج الثورى فى باريس بخلق جو مفعم بالمضاربة والفزع. ولكن الفلاح الذى اشترى الأرض بأبخس الأثمان ظفر من جراء ذلك بمكاسب طيبة. ولهذا السبب. من بين أسباب أخرى، كان يحق له مع كثير من المضاربين فى الأرض من سكان المدن أن يبارك الثورة.

وحدث حادث ظهر له منه أنه حتى دوافع الضمير لن تكن موضع احترام الثوار. ففى ذلك اليوم قصد الملك والملكة إلى سان كلو لتناول العشاء الربانى فى كنيستها، ولكن الغوغاء ردوهما خائبين. فكانت هذه الإهانة حاسمة. إذ عقدت الأسرة المالكة العزم على الفرار إلى الحدود، حيث بوبييه على رأس قوة ملكية مواليه لتمد لها يد الحماية والعون وقبل أن يبرح الملك باريس كتب منشورًا يعلن فيه بطلان الأوامر الدستورية التى أرغم على توقيعها وطالب بتعديلها. ولكن كشف أمر الهاربين فى فارن "Varennes" (٢٢ يونيو ١٧٩١). وأعيدوا إلى باريس. ومنذ تلك اللحظة قضى على الملكية بالهلاك. إذ ظهر الملك كالخصم العلنى للدستور، وكمحرض على الحرب الأهلية، وكحليف للدول الأجنبية المعادية للثورة، فأوقف عشرة أسابيع عن العمل. وقامت حكومة جمهورية فى كل شئ، ما خلا الاسم

(الملكية)، عملت على تلطيف المخاوف التى ساورت النفوس بانحلال فرنسا فيما إذا ألغيت الملكية.

٤- حل الجمعية الوطنية وفرار الملك

وعندما أكمل وضع الدستور حلت الجمعية الوطنيـة، نفسـها (١٤ سبتمبر ١٧٩١). وكانت قد أجازت من قبل قانونًا دل على روح إيثار مـن جانبها، ولكنه لم يفد فرنسا إلا قليلاً. ذلك أنه قضى بتحريم انتخاب أعضائها في الجمعية التشريعية الجديدة. ففى خفة اكتراث ضحى واضـعوا الدسـتور الفرنسى الأول بالخبرة التى جمعوها خلال عامين حافلين بالعمل السياسـى الجم النشاط، وقبلوا أن يكلوا أمر تنفيذ الدستور إلى رجال غير مجربين. وبذا قضت المقادير بأن الجمعية الوطنية هى السبيل إلى قيام حكومـة اسـتبدادية حربية، وبذر بذور حرية عامة.

وعلى الرغم من أن الملكية قد تبنت الكثير مـن مقـررات الثـورة وأظهرت فى كثير من المناسبات، طائعة أو مختارة، رضاها عـن بعـض الزعماء الثوريين فإن الملك والملكة ظلا يضمران الكره والعداء للنظام. فكانا علي اتصال سرى دائم بملوك أوروبا يحثانهم على نجدة العرش الفرنسـى، وبالمهاجرين يتآمران معهم على الثورة. ولم يفقدوا الأمل فى أية لحظة مـن قيام أوضاع أفضل تساعد على استعادة حقوق الملكية المسلوبة والقضاء على الحركة الثورية فى فرنسا. إلا أن ضغط المهاجرين علـى الملـك وتزايـد سيطرة العناصر المتطرفة على الثورة كانا يجعلان صبر الملك ينفذ تدريجيًا. وجاء أخيرًا الدستور المدنى للأكليروس فاستنفذ آخر ما تبقى لـدى الملـك الفرنسى من صبر وقدرة على الاحتمال. فالقانون المذكور وقـرار الحـرم الصادر عن قداسة البابا جعلاه فى موقف المتمـرد الخـارج علـى تعـاليم الكنيسة، إذا ما استمر فى صمته وقبوله، بالتنظيم الكنسـى الجديـد، وهـو المسيحى المؤمن المتدين.

والواقع أنه ليس الملك وحده هو الذي ضاق صدره ذرعًا بتزايد الاتجاهات المتطرفة في الثورة، بل أن بعض زعمائها وروادها الأوائل شعروا بذلك وأخذوا يحاولون وقف تيار التطرف مثل ميرابو الذى ظل دومًا كما عرفنا فى السابق يؤمن بملكية دستورية تكفل للمواطنين الحريات الأساسية. وقد حاول ميرابوا أكثر من مرة متعاونًا مع بعض العناصر المعتدلة، إقامة حكومة قوية نافذة قادرة على وقف تيار التطرف والقضاء على عناصر الشغب والإرهاب التى بات ضغطها على الجمعية الوطنية قويًا. بحيث يجعلها ضعيفة مشلولة.

وفي سبيل هذا الهدف عمل الملك علي التغلب علي الجمعية الوطنية لإعادة سيادة القانون والنظام فى فرنسا. إلا أن وفاة ميرابو المفاجئة فى أبريل ١٧٩١ أفقدت الملكية الدستورية سندًا قويًا ربما كان بإمكانها مساعدتها على البقاء والاستمرار، وأخيرًا اتجه الملك نحو المهاجرين الذين كانوا على اتصال مستمر بالملكة عن طريق الوزير السويدى دى فرسن de Fersen ليساعدوه على الخروج من البلاء اعتقادًا منه أنه فى الخارج سيصبح أقدر على إنقاذ فرنسا والعرش. وقد تولى الوزير السويدى تنظيم هرب العائلة المالكة من باريس إلى خارج الحدود. خرج الملك وعائلته سرًا فى عربة مقفلة من العاصمة باتجاه الحدود الشمالية الشرقية ووصل فى ليل ٢١ يونيو إلى فارين وهى مدينة صغيرة قرب الحدود. إلا أن أمرهم كشف هناك وأجبروا على العودة فى صباح اليوم التالى تحت حراسة مشدودة إلى باريس.

الواقع أن هرب الملك قد هدم كل الجسور التى كانت العناصر الثورية المعتدلة تحرص منذ البداية على استمرارها بين والثورة. بل أكثر من ذلك فإن هذا الحدث قد قضى على كل أمل بإقامة ملكية دستورية فى فرنسا وأطلق للعناصر المتطرفة وللجمهوريين عامة حرية العمل والدعوة

لأفكارهم بعد أن ظهر الملك علانية بمظهر الخائن المتعاون مع المهاجرين أعداء الثورة ومع دول أجنبية تضمر الكره والبغضاء لفرنسا ولثورتها. ولعل مما زاد من حرج موقف الملكيين والمعتدلين إجمالاً كون الملك كان قد صرح قبل هربه بأن كل ما وافق عليه بعد جلسة الثالث والعشرين من يونيو يعتبر باطلاً، وأنه قد حصل بالرغم من إرادته. وهذا يعنى صراحة بأن الملك يرفض كل ما حققته الثورة حتى ذلك الوقت من أعمال ومنجزات.

ومنذ عودة الملك إلى باريس صار مصير العرش وسيده موضع بحث ومناقشة صارت الفئات المتطرفة المتزايدة القوة والنفوذ تنادى علنًا بضرورة قيام الجمهورية. إلا أن عناصر الاعتدال تخوفت كثيرًا من مغبة خلو العرش أو زوال الملكية وما قد يحدث بعد ذلك من فراغ فجزمت أمرها واعتمدت على قوتها العددية فى الجمعية الوطنية واقترحت إعادة الملك إلى عرشه مع تقييد سلطانه لحد كبير. وبالفعل أصدرت الجمعية الوطنية قرارًا بهذا المعنى عللته أمام جماهير باريس الثائرة المتطرفة، والتى باتت جمهورية قلبًا وقالبًا، بأن الملك نقل من قصره عنوة وهو بالتالى لا يعتبر مسؤولاً عن عملية الهرب.

إلا أن العناصر الجمهورية والمتطرفة طعنت بهذا القرار ونظمت تظاهره ضخمة فى السابع عشر من يوليو قصدت منها إرهاب الجمعية الوطنية وأخذ زمام المبادرة من أيدى العناصر المعتدلة فيها. غير أن الحرس الوطنى تدخل بسرعة، لكبح جماح عناصر التطرف والإرهاب، وللبقاء طالما أمكن ذلك، ضمن إطار الشرعية القانونية وفى خط الاعتدال، فشتت المتظاهرين وفرق جموعهم وحافظ على سلامة الجمعية الوطنية وسيادتها. واتخذت الجمعية الوطنية تدبيرا سريعًا قصدت منه إرضاء جماهير باريس الغاضبة، فأمرت بوقف الملك عن ممارسة سلطاته، دون أن تمس حقه

بالعرش إلى حين الانتهاء من وضع دستور جديد للبلاد يقسم له يمين الولاء والاحترام.

وحتى صيف سنة ١٧٩١ كانت جميع الجهود التى بذلها المهاجرون لجر الدول الأوربية لحرب مع فرنسا بقصد حماية عرشها والقضاء على ثورتها قد فشلت. وكذلك فشلت جهود الملك لدى قريبه إمبراطور النمسا، والوعود المغرية للإنجليز بإعطائهم بعض المستعمرات الفرنسية. فإمبراطور النمسا كانت تشغله أمور بلاده الداخلية عن الاهتمام لشئون فرنسا يضاف إلى ذلك أنه كان بطبعه كثير الكلام مترددًا غير مقدام. أما الإنجليز فكانت تشغلهم عن أحداث فرنسا أمور تجارتهم الخارجية وأساطيلهم البحرية وصناعتهم الناشئة المتطورة بسرعة مذهلة.

غير أن قرار الجمعية الوطنية بتجريد الملك من سلطاته، عقب محاولته الفرار، والذى اتخذ بقصد استرضاء عناصر التطرف فى باريس، فقد أثار انتباه ملوك أوروبا، بشكل سريع وغير منتظر وجعلهم يشاركون بصورة أكثر جدية بالاهتمام بالشؤون الفرنسية. وفى ٢١ أغسطس سنة ١٧٩١ اجتمع فى بلنتيز إمبراطور النمسا وملك بروسيا للتداول فى أمر التطورات الجارية فى فرنسا ثم صدر فى نهاية مؤتمرهم بيانًا مشتركًا أعلنا فيه: أن من واجب جميع الملوك أن يعملوا على حماية العرش الفرنسى وتعزيز سلطان صاحبه. كما أعلنا عن استعدادهما للتدخل ومساعده الملك الفرنسى إذا استجاب ملوك أوروبا لهذه الدعوة. ويفهم من هذا أنهما لا يتدخلان إلا إذا قبل جميع ملوك أوروبا وهو أمر لم يكن متوقعًا أو ممكنا آنذاك. كما هو واضح فقد صيغ البلاغ المذكور بلغة دبلوماسية ملتوية لم يألفها رجال الثورة فى فرنسا وجماهير باريس لدرجة أنهم اعتقدوا جمعيًا أن النمسا وبروسيا على استعداد التدخل وإعلان الحرب، مما زاد فى موقف الملك صعوبة ظهوره بمظهر المتعاون والمتضامن مع قوى أجنبية، وهذا

أعطى المتطرفين وأعداء الملكية مزيدا من القوة المعنوية والسيطرة على مقدرات الثورة.

٥- حروب الثورة الفرنسية.

في ٢٠ أبريل عام ١٧٩٢ أعلنت فرنسا الحرب على النمسا، ودخلت جيوشها بلجيكا إلا أن هذا الهجوم انقلب وبالاً على الفرنسيين أمام تقدم الجيوش النمساوية التى وصلت الحدود الفرنسية بعد أن دفعتهم داخل أراضيهم. ثم أعلنت بروسيا الحرب على فرنسا وتشكلت قيادة نمساوية بروسية مشتركة. وفى ١٩ أغسطس اجتازت الجيوش المتحالفة الحدود الفرنسية، وحوصرت فى فردون مفتاح باريس الشمالى، فانتفض الشعب الفرنسى بكل حماسة لمواجهة العدوان الزاحف نحو عاصمته، كما رفع شعار تصفية أعداء الثورة ليلقى القبض على الآلاف وليعدم الكثيرون. ومع سقوط فردون بأيدى النمساويين والبروس تصاعدت عمليات الانخراط فى صفوف الجيش واندفع المتطوعون صوب الشمال لمشاركة الجيش فى معركة المصير. وفى ممر فالمى صمد الفرنسيون بقيادة ديمورييه وأوقفوا زحف الجيوش المتقدمة بعد أن ظن الحلفاء أن الفرنسيين سيفرون من أول طلقة مدفع كما حدث فى الأراضى المنخفضة. واضطر الجيش الزاحف إلى وقف هجومه بعد اندحاره فى معركة فالمى التى أعادت الثقة إلى نفوس الفرنسيين. أما عن الجمعية التشريعية فإنها أنهت أشغالها فى ٢٠ سبتمبر بعد وصول أنباء النصر ليحل محلها المجلس الوطنى الذى كانت انتخاباته فقد بدأت فى الثانى من الشهر نفسه.

وكان المؤتمر الوطنى (١٧٩٢) بصفته الجمعية التأسيسية الجديدة المنتخبة بالتصويت العام، يمثل وحدة الأمة، ويتمتع وحده بكل السلطات فلم يكن فى مقدور كومون باريس وهى البلدية الثائرة إلا أن تختفى أمام التمثيل القومى. وفهمت ذلك فاعتدلت وذهبت إلى حد التنصل من لجنة مراقبتها.

فانقطاع صراع الأحزاب يرجع إلى الجيروند وحدها لأنها تسود المؤتمر. فالجبليون فى الواقع ضاعفوا مسايرتهم فى الأيام الأولى لأنهم أحسوا ضعفهم.

ولقد اجتمع المؤتمر الوطنى على إلغاء الملكية فى ٢١ سبتمبر ١٧٩٢. بدأت بعد ذلك محاكمة لويس السادس عشر أمام المؤتمر حيث وجهت إليه تهمة التآمر على سلامة الأمة والتواطئ مع الدول الأجنبية المعادية لفرنسا والعمل على قلب الدستور الفرنسى. لقد عارض الجيرونديون محاكمة لويس السادس عشر خوفًا من استثارة الدول الكبرى، لكن ذلك لم يكن مجديًا فقد صدر الحكم عليه بالإعدام بالمقصلة ونفذ ذلك فى ٢١ يناير ١٧٩٣، وكان وراء ذلك اليعاقبة الذين وجدوا أن التعجيل بإعدام لويس السادس عشر سيكون وسيلة لإرهاب أنصاره الذين بدأوا ينشطون بشكل ظاهر ضد الثورة التى تصاعدت حماسة جماهيرها عندما بدأت الجيوش الفرنسية تحقق الانتصارات بعد معركة فالمى حيث احتل الفرنسيون بلجيكا وولايات الراين ونيس وسافوى وأعن المؤتمر أنه على استعداد لمساعدة كل أمه تطالب بحريتها وتريد التخلص من حكامها، فأصبحت فرنسا فى نظر الحكام الأوربيين دولة غزو وتوسع، فى الوقت الذى أعلنت فرنسا تبنيها لنظرية الحدود الطبيعية التى تقول أن الراين هو الحد الطبيعى والجغرافى لفرنسا.

بعد فالمى ببضعة أسابيع، حمل النصر جيوش الجمهورية إلى الألب والراين. وكانت الدعاية الثورية والفتوحات الفرنسية تهدد مصالح دول الحكم الملكى فجاء الرد على ذلك بعقد تحالف عام ضد الأمة الثائرة فبعد احتلال بلجيكا بدأت الحكومة الإنجليزية بقيادة بت Pitt تتحول تدريجيًا عن سياسة الحياد وفى ١٦ نوفمبر سنة ١٧٩٢ أعلن المجلس الفرنسى التنفيذى حرية مداخل الأيسكوت دون الاهتمام بمعاهدة مونستر التى أغلقتها. وهى حجة

جديدة لأنصار الحرب فى إنجلترا. واكمل القرار، الذى يعد بمساعدة الشعوب الثائرة، إغضاب القادة الإنجليز. فضاعف بث الإجراءات العدائيـــة. فـــأعلن بلاط لندن الحداد لدى عمله بخبر إعدام لويس السادس عشر وأمـــر الســـفير الفرنسى الشفير ثوولان بمغادرة البلاد، وعلى أثر ذلك أعلن المؤتمر الحرب على إنجلترا وهولندة. ثم أعلن الحرب على أسبانيا فى جو مـــن الحماســـة والهتاف وتبعت ذلك القطيعة مع أسياد إيطاليا، وعلى الرغم مـــن أن أكثـــر الدول الأوروبية كانت فى حالة حرب مع فرنسا فإنها لم تكن متحـــدة، وقـــد أقامت إنجلترا التحالف بارتباطها على التعالى مع جميع المحاربين بواســـطة سلسلة من المعاهدات من مارس إلى سبتمبر ١٧٩٣، وهكذا نشـــأ بالتـــدريج التحالف الأول الذى كانت إنجلترا روحه.

ولم يكن فى استطاعة الثورة أن تعتمد إلا علـــى ذاتهـــا. علـــى أن الجيروند لم تستعد للحرب. فقررت انتصارات الحلفاء مصيرها، وقد تمكـــن هذا التحالف من إلحاق الهزائم بالجيوش الفرنسية، فانكفأت داخل حـــدودها، وقد صاحب ذلك حركات عصيان وتمرد حيث بدأ الملكيون يستولون بـــالقوة على العديد من الأقاليم الفرنسية الغربية بمساعدة قوى شعبية أضناها الجوع والتشرد. وعندما استفحل العصيان اتخذت الثورة موقفًا صعبًا لإنهاء الثورة المضادة، وظهر عليه العهد الإرهابى بقيادة اليعاقبة، والذى تميـــز بالســـعى لتصفية أعداء الثورة فى الداخل، ووقف الحرب الأهلية ثم التصدى بعد ذلك للزحف الأجنبى، ولتحقيق ذلك أنشأت محكمة الثورة للنظر فى كل قضـــية، ولجنة الأمن العام لمراقبة الجهاز الإدارى ودفعه إلى الأمام، وتنظيم الـــدفاع عن الوطن والقضاء على أعداء الثورة فى الداخل. ولكـــن سياســـة الشـــدة تحولت فيما بعد إلى حملة إرهابية دموية بقيادة اليعاقبـــة أفزعـــت فرنســـا وأرعبها، وقادت إلى تصفية رجال الثورة بعضهم لبعض، حيث تمت تصفية الجيروندويين على يد اليعاقبة بقيادة روبسبير ورغم سوء سياسة الإرهـــاب على الناس فإنها ساعدت من ناحية أخرى على قمع العصيان وإنهاء حركـــة

التمرد فى الداخل، كما تمكن الفرنسيون من استرداد ميناء طولون الذى كان الإنجليز سيطروا عليه، وقد قاد الهجوم الناجح لتحرير طولون فى ديسمبر ١٧٩٣ أيضًا الضابط نابليون بونابرت. كما أحرز الفرنسيون سلسلة انتصارات أعادتهم إلى هولندا، فدخلوا امستردام واستولوا على الأسطول الهولندى بسهولة، أما الدول الأوروبية فلم يبق تحالفها كما هو، بل خرجت بروسيا وهولندا وأسبانيا من الحرب ولم تبق سوى النمسا وبريطانيا فى الميدان. فى الوقت نفسه انتهت العهد الإرهابى بالقضاء على روبسبير وأنصاره.

٦- دستور حكومة الإدارة ١٧٩٥ وتطور الأحداث

أصبح من واجب المؤتمر أن يضع دستورًا جديدًا لفرنسا من شأنه أن يخلق توازنًا بين السلطتين التشريعية والتنفيذية ثم يضمن فى الوقت نفسه المحافظة على سيطرة العنصر الثورى المعتدل الذى انتصر فى ٢٧ يوليو ١٧٩٤. وتم للمؤتمر وضع دستور العام الثالث (١٧٩٥). وقد استمر هذا الدستور قائمًا مع إدخال بعض التعديلات الطفيفة عليه حتى قضى عليه نابليون فى انقلاب برومير Brumaire عام ١٧٩٩.

وأهم مميزات الدستور، أن حق الانتخاب أصبح مشروطًا – كما كان فى الماضى فى الدستور الأول للثورة – بالنصاب الذى يدفعه المنتخب من الضرائب، ومعنى ذلك أن الملكية كانت شرطًا من شروط المساهمة فى الحكم والعمل السياسى. كما كانت الهيئة التشريعية، تتكون من مجلسين، مجلس الخمسمائة ولا يقل سن العضو فيه على ثلاثين عامًا، ثم مجلس الشيوخ وكان يمثل الوقار والتروى فى إصدار آرائه، ولا يقل سن العضو من أعضائه عن أربعين عامًا. وكان من حق هذا المجلس أن يرفض ما يراه مجلس الخمسمائة فيعطله لمدة عام. وللمجلسين حق عقد جلساتهما فى أى مكان فى فرنسا فيما عدا باريس، وقد اتخذ هذا الاحتياط لمنع وصول تأثير

الشعب الباريسي الخطير على قرارتهما. ويعـاد انتخـاب ثلـث أعضـاء المجلسين سنويًا.

أما السلطة التنفيذية فوضعت فى يد لجنة عـدد أعضـائها خمسـة مديرين لذلك أطلق على حكومة هذا العهد اسم حكومـة الإدارة Directore وكانت الهيئة التشريعية هى التى تنتخب أولئك المديرين الخمسة، لمدة خمس سنوات، وآية ذلك أن يختار مجلس الخمسمائة خمسين اسمًا يعرضون علـى مجلس الشيوخ، فيختار منهم خمسة ويسقط منهم واحـد سـنويًا بـالاقتراع. وأغفل الدستور حق أولئك المديرين الخمس فى تعيين الموظفين فأدى ذلـك إلى شئ من الفوضى، يتأرجح الأمر فيها إلى فرض حقهم فى سلطة التعيين أو إغفال هذا الحق. ولم يكن من حق هؤلاء المديرين التـدخل فـى تنظـيم الشئون المالية، وإنما كان يعهد بذلك إلى طائفة من الموظفين ينتخبهم أعضاء الهيئة التشريعية، وكان ذلك من معوقات السلطة التنفيذيـة ولكـى يضـمن المؤتمر استقرار الجمهورية فقد اشترط أن يكـون ثلثـا أعضـاء مجلـس الخمسمائة من أعضاء المؤتمر الوطنى. ونص نظام انتخاب أعضاء مجلـس الخمسمائة على امتلاك الناخب قدرًا معينًا من العقار مما أدى إلى حرمـان حوالى ثلاثين مليون مواطن فرنسى من الانتخاب. وكان فى هذا تثبيت لسيادة ونفوذ الطبقة البرجوازية التى قضت على اليسـار المتطـرف والإرهـاب الدموى.

وكان أعضاء حكومة الإدارة الجديدة هيئة مختلطة تعمـل علـى أن تعالج الحالة الاقتصادية والمالية المتدهورة للبلاد وأن تحصل على النصـر النهائى فى حروبها الخارجية وقد عهد الجانب العسكرى إلى أحـد أعضـاء حكومة الإدارة من الذين اشتهروا بالقدرة والكفاءة فى إعداد الجيوش، كـان على فرنسا أن تهاجم النمسا فاختارت نابليون بونابرت لقيادة أحد جيوشـها الثلاث هناك بعد أن قررت مهاجمة النمسا فى ألمانيا وفينا وإيطاليا وليـدمر

جيش سردينيا وأرغمها على توقيع هدنة شيراسكو Cherasco ، ثم إلى إبرام صلح معه لم تلك المملكة فى يوم من الأيام من القوة بحيث تحاول جديًا نقضه.

ثم وجه نابليون حملته إلى لودى Lodi ملكه ولاية ميلان ونتج عن انتصاره فى ريفولى Rivoli تسليم مانتوا Mantua ، وعقد معاهدة ليوبن سنة ١٧٩٨. وهزم الجيش البابوى فى انكونا Ancona ، ونتج عن ذلك ابتزاز المال والأسلاب من الفاتيكان وإجبار البابا على النزول عن أفنيون Avigations والفينسيان The Venaissin فى فرنسا وبعض الولايات البابوية The Legations . وحولت لمبارديا Lambardy إلى جمهورية الألب الشمالية وجنوة إلى جمهورية ليجورية Liguria ، ومنح لكل منها دستور على غرار الدستور الفرنسى كقلاع أمامية للجمهورية الفرنسية.

ويجدر بنا أن نترك الآن حروب نابليون لنعود إلى بحث متاعب فرنسا الداخلية، إن تاريخ فرنسا يفقد فى الفترة ما بين سنة ١٧٩٥ إلى ١٧٩٩ تلك الأهمية التى كانت له حتى يوم حركة فندميير، فإن الصراع الذى دار بين زعمائها فى تلك الفترة كان فى معظمة صراعًا فرديًا أنانيًا. وقد بدأ الجيش يتدخل من حين لآخر فيما ينشأ من صراع وأخذ الحكم العسكرى يقترب بوضوح.

فى تلك الأثناء كان الموقف الداخلى فى فرنسا يهيئ لظهور الملكية. فقد أتت انتخابات الهيئة التشريعية المؤلفة من مجلس الخمسمائة ومجلس الشيوخ، وهى التى فرضها دستور ١٧٩٥، الذى قضى بتغيير ثلث أعضاء الهيئة التشريعية كل عام بأعضاء يمنيين يمثلون مصالح الطبقة البورجوازية والمهاجرين الملكيين الذين يريدون إنهاء الحرب وعقد السلام السريع. وقد تألف من هؤلاء البورجوازيين والملكيين والكاثوليكيين المنضمين إليهم اتحاد أو حزب يطلق عليهم اسم "حزب اللكيشيان" نسبة إلى شارع كليش الذى كان

مقرهم، فأخذ يسعى بموافقة دوق دى بروفنس والملك لويس الثامن عشر فى ١٠ مارس ١٧٩٧ للحصول على الأغلبية فى الهيئة التشريعية.

وبالفعل نجح هؤلاء نجاحًا ساحقًا فى انتخابات المجالس الابتدائية فى ٢١ مارس ١٧٩٧ والمجالس الانتخابية فى ٩ أبريل بتأمين كل من النمسا وإنجلترا، وانتخب "بيشيجرو" رئيسًا لمجلس الخمسمائة. وفى الوقت نفسه سعى هؤلاء للحصول على الأغلبية في حكومة الإدارة باستقلال دستور ١٧٩٥ الذى يقضى بسقوط عضو واحد من الهيئة التنفيذية كل عام، ولكن الجمهوريين فى حكومة الإدارة تمكنوا من الاحتفاظ بالأغلبية، وكونوا ما عرف باسم الثلاثية الدكتاتورية "المؤلفة من بارا Baras ولاريفييه ليو La Revilliere Lépeaux وروبل Reubell فى مواجهة كارنو وبارتليمى الملكيين. وبذلك نشأ تناقض بين المجلسين المكونين من اليمينيين الملكيين، وحكومة الإدارة المكونة غالبيتها من الجمهوريين، وقد حاول المجلسان التخلص من الثلاثية الدكتاتورية عن طريق توجيه الاتهام ضد الثلاثة، ولكنهم تمكنوا من احتلال مكان المجلسين والقبض على بارتليمى فى حين هرب كارنو، واستصدروا من المجلسين قرارًا بإلغاء انتخاب ١٤٥ نائبًا، ونفى ٥٣ نائبًا أخرين منهم كارنووبارتليمى وبيشيجرو، ووضع الجيش تحت سلطان وإشراف بونابرت وأوجيرو Augereau أحد قواد بونابرت وغيرهم من أصدقاء بارا Baras .

عرف هذا الانقلاب الذى قضى على حزب اللكيشيان والملكيين باسم انقلاب فركتيدور Fructidor فى ٤ سبتمبر سنة ١٧٩٧. وثبت وضع نابليون بعد إعلان تأييده لثلاثية الدكتاتورية، ووصل إلى حد إبداء استعداده لعبور الألب والعودة إلى باريس لحماية الجمهورية، وإيفاد أحد قواده وهو أوجيرو فى ٨ أغسطس ١٧٩٧ لقيادة الجنود بها.

وكان من نتيجة الانتصارات التي حققها نابليون في الأراضي الإيطالية، طلبت النمسا توقيع معاهدة كامبو فورميو (١٨ أكتوبر سنة ١٧٩٨) فحصلت النمسا بذلك على ممر إلى الأدرياتيك وظل مصير ضفة الراين اليسرى محفوظًا ولو تنازلت عن بلجيكا. وسوف يكون موضوع نقاش في مؤتمر مخصص لعقد الصلح أيام الإمبراطورية.

لقد جرى توقيع معاهدة كامبو فورميو وفى ١٨ أكتوبر سنة ١٧٩٧ وفى الواقع فى باستاريانو مقر إقامة بونابرت. رغم تعليمات حكومة الإدارة بالتنازل عن ضفة الراين اليسرى، وإعادة جمهورية البندقية، فقد تنازل بونابرت للنمسا عن اليستريا ودولماتيا ومداخل كاتارو وعن البندقية. واحتفظت فرنسا من أراضى البندقية القديمة، بالجزر الأيونية (كورفو، وزانت وسيفالونيا) واعترفت النمسا بجمهورية غربى الألب "دولة مستقلة" وتنازلت عن بلجيكا. أما الضفة اليسرى فقد وافقت النمسا بموجب بنود سريعة على ضمها وصدقت حكومة المؤتمر على المعاهدة رغم عدم رضاها عنها. كيف تستطيع المقاومة؛ فانفجر الفرح لدى إعلان الصلح فى بلاد متعبة. ولم يكن فى استطاعة حكومة الإدارة إلا الرضوخ.

وشعرت الحكومة البريطانية بالخطر حين شعرت بأنها تقف بمفردها فى وجه فرنسا التى اتسعت حدودها والتى سيطرت على هولندا، وتحالفت مع أسبانيا. ولكن الأمر لم يكن يهددها بكثير فى المحيط الأطلسى إلا فى حالة قيام أسطول طولون بالتحرك وبالانضمام إلى الأسطول الأسبانى، والوصول إلى تدعيم أسطول برست. وكان التوسع الفرنسى قد أثر على حجم الصادرات، وأثر بالتالى على الأرباح التى كانت لازمة لتمويل القروض. فكان على إنجلترا أن تعمل على عودة التكتل من جديد. ولكن كانت النمسا منهوكة القوى، وكانت بروسيا تتطلع إلى الحصول على تعويضات فى ألمانيا، فلم تظهر أية استجابة حتى وقت الحملة الفرنسية على مصر، أما بول

الأول فإنه احتفظ بموقف المتفرج، رغم عدائه للثـورة الفرنسـية، وظلـت إنجلترا خلال عام كامل، عاجزة عن الاعتماد إلا على نفسها فكان عليها إذن أن تضاعف من مجهوداتها.

وقبلت النمسا الصلح الذى أملى عليها إملاء، ولكن بريطانيا ظلـت منتصرة منيعة فى البحر، فراحت حكومة الإدارة تبحث جاهدة عـن نقطـة ضعف عزيمتها وبدأ فى بعض الأوقات أنه قد عثر علـى مرادهـا، كانـت إنجلترا تعلم وهى تقاوم فرنسا، بضرورة إشعال نار الحرب على القارة مـن جديد حتى تتمكن من التغلب على منافستها ولكن الألمان لم يكونوا مستعدين للمشاركة فى العملية، ومع ذلك فإن إرسال الحملة لمصر، وإنشاء الجمهورية فى روما، ساعدتا على إعادة تشكيل هذا التكتل ووصل بـول الأول الـذى أصبح حليفاً للدولة العثمانية على البحر المتوسط، وأصبح حاميًـا لجماعـة فرسان مالطة وحاميًا لبلاط نابولى. وتشجع هذا البلاد الأخير نتيجة لوجـود نلسون، وبدء العلميات الحربية، الأمر الذى غيَّر من الأوضاع الموجودة فى إيطاليا، ودفع توجوت إلى قبول مساعدة روسيا.

فقد كان بول الأول يكـره الثـورة الفرنسـية. وأخـذ ينفـق بعـد كامبوفورميو على جيش كونديه، وسمح للويس الثامن عشر بالإقامـة فـى ميتاو. وبلغة أن بعض رجال بولندا المعروفين كانوا موجودين فـى جـيش بونابرت، وأن سفير فرنسا فى فيينا كان يرحب بهم. وزاد التقارب بينه وبين الجزويت الذين كانوا يأملون فى تحويله إلى المذهب الكـاثوليكى، ووضـع فرسان مالطة تحت حمايته في سنة ١٧٩٧. وزاد حنقه نتيجة لسقوط الجزيرة فى أيدى الفرنسيين، وأخذ فى تسليح قواته، وانتخبه الفرسان فى أكتوبر سنة ١٧٩٨ سيدًا أعظم لجماعتهم، وعرض مساعدته على ملك نابولى حيث علم أنه كان فى موقف صعب.

ولم يكن هذا الاتجاه يدل على مجرد ميل شخصى؛ فمنذ أن كانت كاترين قد وصلت إلى البحر الأسود. اتجهت أنظار الروس صوب البحر المتوسط، وفتح بول موانئ القرن أمام التجارة الأجنبية؛ وأخذت السفن اليونانية تصل إليها، ولكنه كان يرغب أكثر من ذلك فى التوصل إلى فتح المضايق. وكانت هذه السياسة تتمشى مع عملية التوغل فى الإمبراطورية العثمانية، والتى كانت معاهدة كوتشك قينارجى قد بدأتها، بإعطائها قيصرة روسيا حقًا غير واضح للتدخل فى صالح العناصر المسيحية. وكان تفكك الإمبراطورية العثمانية يعطى فرصًا جديدة للقيصر. وكان سليم الثالث قد حاول منذ سنة ١٧٩٣، إنشاء جيش حديث، لكن سلطته كانت اسمية فى عدد كبير من الولايات. وقامت حركات انفصالية، أو على الأقل استقلالية فى ألبانيا وسوريا وجزيرة العرب، وفى بلاد اليونان وبلاد الصرب.

وساعدت الحملة الفرنسية على مصر على زيادة حركة التوسع الروسى فبعد إعلان الدولة العثمانية الحرب على فرنسا، وجدوا من الأفضل أن يوافقوا على عقد التحالف الذى عرضه بول الأول عليهم. وفتحت معاهدة ٢٣ ديسمبر ١٧٩٨ المضايق والموانئ العثمانية فى وجه الروس التى تدخل إلى البحر المتوسط بغزو الجزر الأيونية، وكانت كورفو آخر جزيرة سقطت، فمن ٣ مارس سنة ١٧٩٩ أصبح لروسيا مركزًا متفوقا فى الدولة العثمانية، خاصة وأنها كانت مجاورة لها؛ وكان فى وسع مالطة ونابولى إن أمكن علاوة على أى ملوك وأمراء فى إيطاليا أن تعطيها قواعد تمنحها السيطرة على البحر المتوسط.

وفى أثناء ذلك كانت مارى كارولين قد اقتنعت بتأكيدات نلسون وأصدرت أوامرها بغزو جمهورية روما. وزاد العمل من حماس بول الأول الذى تحالف فى يوم ٢٩ ديسمبر ١٧٩٨ مع نابولى ومع الإنجليز وتعهد بإرسال قواته إلى نابولى ولمبارديا وحينما قرر بول الأول أن يرسل أحد

جيوشه، وافق على أن يسمح لهذا الجيش بحق عبر الأراضــي النمســاوية. ومر شهر قبل أن تعلن حكومة الإدارة الحرب على الحكومة النمساوية فــي ١٢ مارس سنة ١٧٩٩، ووجدت هذه الحكومة الأخيرة نفسها منضمة لتكن دون أن توقع على أية معاهدة. وسرعان ما قام الفرنسيون بامتلاك توسكانيا وأخذوا البابا بيوس السادس إلى فالانس حيث توفى فى شهر أغسطس ولــم تدخل بروسيا هذا التحالف.

وهكذا اكتمل التحالف الثاني، ولم يدخل جوستاف الرابع ملك السويد إلى هذا التكتل إلا فى شهر أكتوبر سنة ١٧٩٩، ولم يقدم قــوات محاربــة. وكان هذا التحالف أقل صلابة من التكتل الأول. وكالعادة تكفلــت إنجلتــرا بنفقات الجيوش المتحالفة، ولكن هناك ظروف اقتصادية صعبة تمر بالروسيا وإنجلترا ولذلك لم يحقق الحلفاء أى تقدم فى ميدان التنظيم وطرق الحــرب على الرغم من فقدان فرنسا بعض الأراضى التى استولت عليها فى حملاتها بقيادة نابليون.

وكانت حكومة الإدارة تعاني صعوبات بالغة. وكانت طبيعتها مسئولة جزئيًا عن تلك الصعوبات، فقد كانت الحكومة مليئــة بالفســاد والفضــائح. فحكومة الإدارة لم تسقط بسبب فضائح الحكم دائمًــا بســبب الهزيمــة فــى الحرب. ولقد سبق لأعضاء حكومة الإدارة أن استخدموا قوة الجيش وهيبته مرتين ليبعدوا عن المجلسين نوابًا معادين لسلطانهم انتخبتهم البلاد ولكــنهم أخفقوا هذه المرة (يونيو ١٧٩٩) فى الحصول على تأييد الجــيش بعــد أن حاقت الهزيمة بالبلاد وأصبحت مهددة بالمزيد من الهزائم فتشجع المجلســان وأقالا أحد أعضاء حكومة الإدارة وأرغما عضوين آخرين علــى الاســتقالة وتألفت حكومة الإدارة الجديدة من سييزوبارا وديكوومولان وجوهيبيه وهــم آخر من تولوا عضوية هذه الحكومة فلقد أطلت اليعقوبية الديمقراطية برأسها

من جديد لأن البلاد قد اعتراها القلق فأصبحت على استعداد للتهليل لأى شخص يمنحها العزة والأمن.

وصل نابليون إلى فرنسا فى أكتوبر سنة ١٧٩٩ فاستقبل بحماسة فائقة ولم يؤخذ عليه فشل مغامرته فى مصر. فقد حدث هذا الفشل فى مسرح بعيد وفى ظروف مبهمة. فذكر له الناس فقط حروبه فى إيطاليا وكيف أرغم النمساويين على قبول الصلح، وعزز مسلكه سمعته الطيبة فقد بدأ متواضعًا متحفظًا، لا يسرف فى التباهى بانتصاراته ويخالط رجال العلم أكثر مما يخالط العسكريين. ومع ذلك فليس ثمة شك فى أنه كان يتطلع طوال الوقت إلى القيام بدور سياسى كبير، وفى أنه تدبر المشكلة وحلولها بعناية منذ وصوله إلى فرنسا.

كان من المؤكد أن تغير ما لابد أن يحدث فى الحكومة. فماذا تكون طبيعة هذا التغيير؛ لقد وطد نابليون علاقاته ببارا حليفه القديم وسييز صاحب النظريات السياسية، وتاليران الأسقف السابق واليعقوبى، أبرع مدبرى المؤامرات وأشدهم ضبطًا للنفس. وراح نابليون ينصت إليهم جميعًا وإن أبقى لنفسه الرأى الأخير. وكان أمله أن تبلغ شهرته بين جميع الطبقات حدًا يؤدى إلى المناداة به رئيسًا للدولة بصورة تلقائية، فيحكم استنادا إلى شئ هو أقرب ما يكون إلى الحق الدستورى فى الحدود التى تسمح بها أوضاع فرنسا فى عهد الثورة، ولا يضطر إلى إشهار السيف أو إراقة الدماء. ونحن نستطيع أن نفهم المؤامرة الكبرى التى أقدم عليها بوضوح أكبر، إذا علمنا أنها لم تسر وفق الخطة المرسومة، وأنه لم يكن راغبًا فى اللجوء إلى العنف، وأن حاجته إلى استعراض قوته – وأن لم يضطر إلى استخدامها – فقد تركت فى مستقبل حياته العامة أثر محسوسًا.

ولقد ساعده أن أخاه لوسيان كان رئيسا لمجلس الخمسمائة وكان نابليون يأمل أن يستخدم المجلسان حقهما الدستورى فى الانتقال إلى سان كلو

لأن باريس لم تزل – حتى ذلك الوقت مكانًا غير مناسب للقيام بثورة مضادة. وفى أن يعهد المجلسان إليه بقيادة قوات باريس، ثم يصبيوتان فى اجتماع تحيط به القوات – لصالح تعديل الدستور ويكلفانه بالإشراف على هذا العمل وتوجيهه، ولم يكن يشك فى أن هذه الخطوات ستؤدى – إن تمت – إلى انفراده بالسلطة تقريبًا، حقا إنه لابد من التخلص أولاً من أعضاء حكومة الإدارة، ولكنه كان يأمل أن يتمكن من إغرائهم بالاستقالة.

ولقد نفذت الخطة إلى نقطة معينة. فقد استقال سييزوديكو، اللذان كانا مشتركان فى المؤامرة وإن لم يكن اشتراكهما كاملاً كما كان يتصوران، على أمل أن يحذو الآخرون حذوهما. وكان بارا يأمل أن ينال نصيبًا من المسئولية والسلطة، فأصابه الكمد عندما تبين أن الدور الذى ترك له كان سلبيًا، وفى النهاية استقال هو الآخر. وقد اعتقل العضوان الباقيان بحكومة الإدارة اللذان رفضا أن يستقيلا. وفى يوم نوفمبر سنة ١٧٩٩ قرر مجلس الشيوخ الانتقال إلى سان كلو، وعهد بالقيادة المنشودة إلى نابليون وفى ١٠ نوفمبر وقعت الأزمة الحقيقية، كان نابليون يعلم أن مستقبلة كله متوقف على أحداث ذلك اليوم. وقد قال لسييز أثناء الرحلة إلى سان كلو "سينتهى بنا المطاف أما إلى هنا (مشيرا إلى المكان الذى نصبت منه المقصلة) وإما إلى قصر لوكسمبرج". وفى سان كلو ألقى خطابًا فى كلا المجلسين على التوالى، ولكن الأمور لم تعد تسير وفق الخطة المرسومة، فالمجلسان لم يتأثرا بشعبية نابليون إلى حد الذى يدفعهما إلى التصويت على إلغاء الدستور ووجودهما ذاته. وقد استمع الشيوخ إلى خطاب نابليون يردد ثم أعلنوا ولاءهم للدستور أما أعضاء مجلس الخمسمائة فقد طردوه فى شئ من العنف من قاعدتهم عندما مثّل أمامهم. فأصبح جليًا أن الشعبية والعبارات البراقة لن تحل المشكلة، واضطر نابليون إلى اللجوء مكرهًا إلى حد السيف. فعندما أخطره أخوه أن زمام المجلس قد أخذ يفلت من يديه، استدعى القوات لدخول القاعة وطرد الأعضاء وكانت لحظة عصيبة بالنسبة له، فهل يا ترى سيصوب

جنود الجمهورية حرابهم إلى حكومة فرنسا الحرة؛ لقد أطاعوا الأمـر دون تردد يذكر، فلاذ معظم أعضاء السلطة التشريعية بالفرار، بينما صوتت البقية الباقية التى كانت متواطئة مع كبير المتآمرين، لصـالح تعـديل الدسـتور، وعينت ثلاثة قناصل للاضطلاع بـذلك. وهـؤلاء الثلاثـة هـم نـابليون وسييزوديكو، وفى ١١ نوفمبر عاد نابليون إلى باريس وكان الانقلاب قد تم، فتقبلته العاصمة وفرنسا كلها بهدوء مذهل. فلم يكن ثمة من يعطـف علـى المجلسين أو أعضاء حكومة الإدارة. وأصبحت البلاد مهيـأة للـدخول فـى تجربة جديدة.

عندئذ أطلق سراح كل من المديرين السابقين "جوبيه ومولان" وظـن كل من "سييز" وتاليران وغيرهما من المدنيين ممن شاركوا بونـابرت فـى تدبير الانقلاب أنهم سينفردون بتدبير شئون فرنسا المدينة، علـى أنهـم لـم يكونوا يجهلون طبيعة بونابرت وطموحه وبراعته فى خلق السبل التى يسلكها للوصول إلى ما يريد وإن كانوا قد ظنوا فى المجال العسكرى ما يمكـن أن يشبع طموحه. ولكن أشد ما كانت دهشة "سييز" عندما تبين أن بونابرت قـد أثبت دراية ومعرفة وثيقة بكثير من الشئون المدنية، وقد توصل عن طريـق ذلك إلى قرارات معينة كان من الصعب إقناعه بالعدول عنها.

ثالثا: فرنسا من ١٧٩٩ حتى ١٨١٤م.

١- عهد القنصلية ودستورها

بعد انقلاب برومير بأسابيع قليلة وافقت البلاد بأغلبية كبيـرة مـن الأصوات على دستور جديد. خوّل نابليون بوصفه القنصل الأول – من بين قناصل ثلاثة – سلطة مطلقة على مصير فرنسا خلال الأعوام العشرة التالية.

فقد كان نابليون وليد الثورة، ومثل كثيرين من أذكياء الرجال، مكنه ذلك الإنقلاب الاجتماعى الهائل من أن يضع نفسه فى طليعة القابضين على زمام الأمور، أضف إلى ذلك أن عقله الناشئ كان قد تهذب، وأدب الانقيـاد والتمرد قد ظهر ذلك الأدب الذى نادى بالثورة، وأنذر باندلاع لهيبها. وكـان فتح باب الترقية أمام الذكاء والمواهب مما يهواه قلبه، ويحنوا إليه فؤاده ذلك الأمر الذى هو روح الديمقراطية وعماد السلطة، وسر الانتصارات الحربية التى جعلت أوروبا بأسرها تنتقض أمام الثورة.

فقد عقد نابليون العزم على الاحتفاظ بهذا الجانب من ثمـار الثـورة على الأقل. فقد يفرّط فى الحرية السياسية، أما المساواة الاجتماعية فكانت فى نظره جليلة الشأن عظيمة القدر. والحق أن التفوق العجيب الـذى أحرزتـه فرنسا على أوروبا أيام القنصلية والإمبراطورية لا تفسره عبقرية قائدها الفذة وحدها. بل يرجع أيضًا إلى الحقيقة الواقعة، وهـى أنـه بالقضـاء علـى الامتيازات وضعت تحت إمرة نابليون خيرة قرائح أكثر أمم أوروبا الغربية اكتظاظًا بالسكان، وأعلاها مدنية. فقد كان تاليران يضطلع بأعمـال وزارة الخارجية، وفوشيه Fouché مديرًا للشرطة وقلدّ رجـال العلـم مناصـب الوزارة – الأمر الذى لم يسمع بمثله فى هوايتهول (مقر الوزارات البريطانية بلندن). وكان مجلس الدولة فى فرنسا أكفأ هيئة من الخبـراء ذوى الدرايـة

والكفاية رأتها أوروبا إلى ذلك الحين. كما ترقى معظم جنرالات فرنسا الذين قادو جيوشها المظفرة – عن جدارة واستحقاق من صفوف الجند العاديين.

وبذل نابليون جهدا كبيرا فى إصلاح أمور البلاد الاقتصادية فأوقف سياسة القروض الجبرية التى كانت تتبعها حكومة الإدارة، والتـــى أثـــارت الرأى العام ونظَّم الضرائب، فوحدها وساوى بين الجميع فى تأديتها وأنشأ لها نظامًا دقيقًا يتبعه مباشرة، فكان أمر التصرف فيه لرأيه المباشر. وأنشأ إدارة جديدة للجمارك، وسجلاً خاصًا للأراضى الزراعية والغابات وجعل أمـــلاك الدولة ضمانًا للسندات التى أصدرتها، فرفع ذلك من قيمتهـــا وســـهّل بـــذلك السبيل أمام الدولة لتسديد ديونها، وأعاد نابليون نظام الغرف التجارية وضبط أمورها، وأعاد بناء الصناعات فأنقذها من الضياع والفساد. واستعان فى كل ما تقدم من النهوض باقتصاديات البلاد بجهود الخبيـــر المـــالى المعـــروف "جودان" الذى كان له الفضل فى تأسيس بنك فرنسا.

وعطف نابليون على المهاجرين، فأنصف ذوى قرباهم مما اقترفـــه المهاجرون من آثام، واستصدر بذلك قرارا قوبل بارتياح عظيم، وعفا عمن عادوا من المهاجرين، كما رحب بعودة الكثيرين ممن رغبوا فى العودة إلى فرنسا. واستدعى من الفارين بعض الشخصيات البـــارزة أمثـــال "لافييـــت" Lafayette وكارنو "Carnot"؛ فاستعان بالأخير فى تنظيم وزارة الحربية، وقد كان لكارنو الفضل فى إصلاح حالة الجـيش وإعـــداد فرنســـا إعـــدادًا عسكريا بسرعة تدعو إلى الدهشة.

أما الثوار من ذوى النزعة الملكية الذين اشتركوا فى ثورة "لافنديـــه" فإنه قد عفا عمن تابوا إليه وقدموا له فروض الطاعة والـــولاء، ثـــم أنـــزل العقاب على من تآمروا عليه منهم فأعدم زعيمهم كادودال Cadoudal بعـــد اكتشاف تآمره على نابليون عام ١٨٠٤م.

أما عن موقف نابليون من الكنيسة فمن المعروف أنه لم يكن متـديناً أو متمسكا بدين رسمى، إلا أنه كان يدرك ما للدين من هيبة وسلطان فـى نفوس جماهير أوروبا المسيحية وخاصة عند الفلاحين وسكان الأرياف فـى فرنسا وخارجها كان نابليون يؤمن بضرورة تماسك الهيئـات الاجتماعيـة، ويمقت إلى حد كبير روح التفكك والفردية التى سادت زمن الثورة، والـدين يساعد بصورة قوية، فى نظر بونابرت، على تحقيق هذا التماسـك إذا كـان يقول "إن الدين هو سر النظام الاجتماعى" لهذا سعى منذ بداية عهده لإيجـاد اتفاق بين الدولة والكنيسة يزيل القطيعة القائمة منذ صدور القانون المـدنى للأكليروس، ويحفظ للبلاد وحدتها ويعيد للأكليروس هيبتهم واحترامهم. وكان يسعى أيضًا لتحقيق هدف آخر من وراء الاتفاق مع الكنيسة، فبإتفاقـه مـع الأكليروس يضعف إلى حد كبير من العناصر المناوئـة للثـورة الفرنسـية ولحكمه، الذى طالما حصل على تأييد قوى من الكنيسة فى فرنسا وخارجها. ثم أنه كان يدرك أن البلدان التى ألحقها بفرنسا مثـل بلجيكـا والأراضـى الألمانية على نهر الراين، وكذلك الأراضى الخاضعة للنفوذ الفرنسـى فـى إيطاليا، تضم كلها مواطنين كاثوليك فى أغلبيتهم الساحقة وعلى درجة كبيرة من التدين والولاء للكنيسة. فأى اتفاق يبرم بين حكم نـابليون والأكليـروس سيعمل ولو بصورة غير مباشرة على تميكن دعائم نفوذه بين هؤلاء الناس. ثم يجب أن نذكر دومًا بأن الفرنسيين هم فى أغلبيتهم من الكاثوليك المؤمنين وأن إلتحاق الكثيرين منهم بالثورة لا يعنى أنهم تخلّوا عن ديـنهم وألحـدوا، ونابليون يرى أن دعوة الكنيسة لممارسة رسالتها المسيحية يرضى الكثيرين من الفرنسيين ويلاقى استحسانهم ولو ضمنيًا.

بعد مفاوضات طويلة وشاقة وعسيرة بين الفرنسيين والكنيسة، لقيت الكثير من المعارضة والعراقيل فى أوساط الفريقين، أمكن الوصول إلى اتفاق نهائى زمن البابا بيوس السابع. وفى ١٦ يوليـو ١٨٠١، وقـع الكاردينـال كونسالفى Consalvi نيابة عن الحبر الأعظم اتفاق الكونوردانو فى مدينـة

باريس بموجب اتفاق الكونورداتو المذكور اعترفت فرنسا بالكنيسة الكاثوليكية وسيادتها الروحية وبالكاثوليكية ديانة لأكثرية الفرنسيين وأعطى الأكليروس حق ممارسة الطقوس الدينية فى فرنسا بصورة علنية، مع السماح للسلطات الحكومية بالتدخل لتحقيق ضروريات الأمن والنظام العام.

بالمقابل اعترفت البابوية بقوانين مصادرة الأملاك الكنسية التى صادرتها الثورة وتعهدت بألا تعرقل بيع ما تبقى من أملاك الأكليروس حتى ذلك الحين بيد الدولة. على أن تتعهد الخزانة الفرنسية بتأمين مرتبات رجال الدين. ويقوم القنصل الأول بتعيين الأساقفة على أن يوافق على ذلك قداسة البابا، وعند وضع الاتفاقية المذكورة موضع التنفيذ عادت الكنيسة للعمل فى فرنسا إلا أنها فقدت استقلالها القديم وأصبحت إلى حد كبير خاضعة للسلطات المدنية، وعلى أية حال فإن الاتفاق لقى معارضة شديدة من المتطرفين عمن بقوا على قيد الحياة من زعماء الثورة ومن كبار ضباط وقادة الجيش الفرنسى الملحدين، وكذلك فى أوساط المثقين والمفكرين والفنانين الفرنسيين بالتيار الحر الذى أوجده كتاب القرن الثامن عشر، غير أن نابليون تجاوز عن هذه المعارضة ووضعها موضع التنفيذ.

أما عن دستور القنصلية فكانت هناك خمس مجموعات تشريعية Codes هى القانون المدنى، وقانون المرافعات المدنية. وقانون الإجراءات الجنائية وقانون العقوبات والقانون التجارى. وقد مرت هذه التقنيات بعدة مراحل قبل أن تصبح نافذة ملزمة فى فرنسا. وهناك هيئات كان لها الدور الحاسم فعلاً فى إقرارها: هما اللجنة الابتدائية التى وضع فيها مشروع القانون المدنى ومجلس الدولة الذى عرضت عليه الاقتراحات وترأس الكثير من جلساته نابليون بنفسه. وكان نابليون ينظر إلى واجباته بعين الجد، فحضر خمسًا وثلاثين جلسة من سبع وثمانين جلسة خصصت للقانون المدنى. وقد انحاز بطبيعة الحال إلى جانب تدعيم السلطة فى الأسرة والدولة

جميعًا فناصر فكرة السيادة المطلقة للأب داخل الأسرة على الزوجة والأطفال على حد سواء، وأيد بشدة مبدأ خضوع المرأة للرجل، وبسمح القانون المدنى للأب بأشياء كثيرة تصل إلى سجن أبنائه، وسمح بـالطلاق ولكنـه أحاطـه بالقيود، وأيد تقسيم الملكية فأصر على أن تقسم بالمساواة بين الأبناء حصـة كبيرة من التركة على الأقل؛ وأمن الكثير من المكاسب التى حققتها الثـورة ولكن نفوذ نابليون الشخصى كان مسئولاً عن تجميد كثير من الأحكام التـى أتت بها الثورة مجالاً فيما تمارس فيه نفوذها.

أما القوانين الأخرى فليس لها أهميـة القـانون المـدنى؛ فمحكمـة الإجراءات الجنائية إنما هى – من عدة أوجه – صورة للنموذج الإنجليـزى على أن نظام المحلفين قد قوبل بهجوم عنيف، وأعلن الكثيـرون أنـه فـى مصلحة المتهم بأكثر مما ينبغى وأنه يحد من سلطة الحكومة، ولكن الرأى قد استقر على الأخذ به فى النهاية، والفضل يرجع فى ذلك إلى حد بعيـد إلـى نفوذ نابليون. وقد رؤى أن تكون قرارات المحلفين بالأغلبيـة، وأن تجـرى المحاكمات علنًا، وأن يسمح بالدفاع فى جميع القضـايا. وتقـرر – رغـم معارضة الساسة الثوريين – الاحتفاظ فى التقنين الجديد بذلك الإجراء الـذى يميز المحاكمات الفرنسية وهو أن يصدر ضد المتهم قرار اتهـام تمهيـدى سرى فى الغالب من قاضى التحقيق.. وسمح فى العقوبات بعقوبات الوصـم ومصادرة الأملاك، بقيود صارمة.

أما بالنسبة للتعليم عمل نابليون على إصدار تشريع خاص بـالتعليم يتماشى مع فلسفته التعليمية. وقد طبق هذا التشريع فى جميع أنحاء فرنسـا، وأهم ما ورد فيه تأكيده على السعى بكل جهد لتحقيق مجانية التعليم الابتدائى للفقراء مما يتيح الفرصة لتعلم جميع أبناء الشعب الفرنسى وعمـم سياسـته على جميع مراحل التعليم، فأنشأ سنة ١٨٠٨ جامعة تخضع لإشراف الدولـة فى العلوم والثقافات وما زالت هذه الجامعة قائمة حتى يومنـا هـذا ولكـى

يضمن نابليون تطبيق سياسته ونشر أفكاره فقد أسس (المدارس العليا للأساتذة) دار المعلمين العالية لتكوين أطر تدريسية للمدارس الفرنسية عامة وشجع تدريس اللغة الفرنسية على حساب اللاتينية.

وفى أوائل سنة ١٨٠٠ أصدر نابليون تنظيمًا إداريًا جديدًا للبلاد واعتمد على التقسيم الإدارى الذى كانت الجمعية الوطنية قد أصدرته عند قيام الثورة. والجديد فى هذا التنظيم أن نابليون جعل حكام الأقاليم يعينون من قبل القنصل الأول بدلاً من انتخابهم من قبل سكان الأقاليم وأقام محاكم إدارية لتؤمن حقوق المواطنين فى حالة تجاوز الإدارة الحكومية عليها. ويمكن القول بأن نابليون أقام حكمًا مركزيًا مرتبطًا به مع توفير نوع من الضمانات الديمقراطية المحلية. وفى مجال الأمور المالية أنشا نابليون مجلسًا استشاريًا يهتم بالشئون المالية إلى جانب كل حاكم إقليم، ونظم الضرائب فزاد من واردات الدولة، وطهر الجهاز المالى من المرتشين. والذين أساءوا استعمال الصلاحيات المالية. ويرجع له الفضل فى تأسيس (مصرف فرنسا) سنة ١٨٠٠ الذى اعتبر من المؤسسات المالية القوية فى العالم.

أما الإصلاحات العامة، فإنه قام بفتح طرق المواصلات واستصلاح الأراضى وبتجفيف المستنقعات وبنى الجسور وفتح قنوات الرى، وشيد القصور الضخمة فأصبحت باريس بل عموم فرنسا وجهًا جديدًا أغتسل بمياه عذبة متخلصًا من دماء القتل والإرهاب التى عاشتها فرنسا فى بعض عهود الثورة لذلك منحته الأمة الفرنسية ثقتها عندما انتخب سنة ١٨٠٠ قنصلاً أول لمدة عشر سنوات، ثم فى عام ١٨٠٢ قنصلاً مدى الحياة وفى سنة ١٨٠٤ إمبراطورًا. لقد منحته الأمة الفرنسية هذه الثقة من أجل السلام لكنه خيب آمالها بتطلعاته الحربية نحو التوسع، وكانت هذه نقطة الضعف فى حكم نابليون وربما كان الهدف الذى سعى إليه نابليون منذ البداية، فكان صلح أميان والإصلاحات وسيلة لتعزيز الجبهة الداخلية كمرحلة للفتح والتوسيع.

أما بالنسبة للمجالس الخاصة بالهيئة التشريعية بمقتضى هذا الدستور أربعة.

١- مجلس الدولة: ويختص بوضع القواني وصياغتها.

٢- مجلس التربيون: ويختص بدارسة القوانين ومناقشتها.

٣- المجلس التشريعى: ويختص بالنظر فى القوانين للموافقة عليها أو رفضها.

٤- مجلس السناتو: وهو صاحب الحق فى إلقاء النظرة الأخيرة فى القوانين ليوافق عليها أو يرفضها.

١- **مجلس الدولة**: الذى بنى تشكليه بمقتضى المادتين ٥٣، ٥٤ من الدستور، فقد أخذ صورته الأخيرة بقرار من القناصل الثلاثة فى ٢٦ ديسمبر، فأصبح بذلك صاحب الحق فى اقتراح القوانين للعرض على مجلس التربيون، وكان تعيين أعضائه بما فيهم رئيسه من حق القنصل الأول الذى اتخذ لنفسه منصب الرئاسة.

٢- **مجلس التربيون**: ويضم مائة عضو، لا يقل سن كل منهم عن ٢٥ عامًا، ويسقط عشرين منهم كل عام. وكان مقره البالية رويال Palais Royal . ومهمته هى دراسة مشاريع القوانين المرسلة من قبل مجلس الدولة، دون أن يكون له حق رفضها أو قبولها.

٣- **المجلس التشريعى**: وكان عدد أعضائه ثلاثمائة لا يقل سن الواحد منهم عن ثلاثين عامًا، وكان له الحق فى التصويت على قبول القوانين أو رفضها دون مناقشتها، وذلك بعد أن يعرضها على أعضاء ثلاثة من مجلس الدولة، ومجلس التربيون. ويتجدد خمس أعضاء هذا المجلس سنويًا مثله فى ذلك مثل مجلس التربيون وكان يعقد جلساته فى "باليه بوربون" Palais Bouribon .

٤- **مجلس السناتو**: كان عدد أعضائه ثمانين، لا يقل سن الواحد منهم عن أربعين عامًا، ويعينون لمدى الحياة وكان اختصاصه ينصب على تعيين القناصل كل عشر سنوات، وكذلك أعضاء مجلس التربيون والتشريعي، وكان له حق رفض أي قانون يقدمه مجلس التربيون إذا رأى أنه غير دستوري. وقد كان كل من سييز وديكو القنصلان السابقان عضوين فى هذا المجلس بل أصبح "سييز" رئيسًا له، وهو مركز مغمور فى الحكومة الجديدة بالنسبة لكفاءته. فالرجل رأى أن يبتعد عن المناصب الرئيسية فى الدولة عندما تبين له أن نابليون لا يحترم المبادئ الجمهورية والديمقراطية. ولكنه شارك "ديكو" والقنصلين الآخرين فى تعيين أعضاء هذا المجلس الذى كان يجتمع فى قصر لكسمبرج Palais Luxambourg .

وكان هذا المجلس أهم المجالس جمعيًا، كما كان هو ومجلس الدولة وحدها موضع ثقة القنصلية. وكان أعضاء مجلس التربيون لهم وحدهم حق المناقشة والانتقاد العلنى، وكانوا يضمنون فيه حمايتهم ممن يكرهون المعارضة.

أما السلطة التنفيذية، فقد نص الدستور الجديد على وضع السلطة التنفيذية العليا بين ثلاثة قناصل ينتخبهم مجلس الشيوخ مدة عشر سنوات، أصبح نابليون بموجب هذا الدستور قنصلاً أول يتمتع بكافة الصلاحيات التى تعطى عادة لرؤساء الجمهوريات أو الملوك، بل تجاوزها أكثر من ذلك، فهو الذى يعيِّن الوزراء وكبار الموظفين ويعلن الحرب ويبرم المعاهدات ويصادق على إصدار القوانين. يضاف إلى هذا إدارته للجيش والحكومة والشئون الخارجية. أما القنصلان الآخران فكانا يساعدانه فى هذه المهام وهما لوبران وكاوبا سيرسى الذين اختارهما نابليون لثقته الشديدة بهما.

٢- نابليون والسياسة الخارجية فى عهد القنصلية.

أما جلب السلام إلى ربوع أوروبا، فكان عملاً أكثر مشقة وأبعد منالاً، فإنه رغم انسحاب بول قيصر روسيا من التحالف، وغدوة بعد قليل شديد الإعجاب ببونابرت، ظلت النمسا وإنجلترا تنازلانه، فى ميادين القتال وأغمضتا عيونهما عن رؤية تلويعات القنصل الأول بالصلح.

ولهذا السبب أختار نابليون النمسا هدفًا أول للهجوم باعتبارها أضعف العدوين مركزًا. فقد تمكن من إيقاع الهزيمة بها فى سهولة تبعث على الدهشة عند مقارنتها بحربها مع فرنسا فى العام السابق - فإن نصر مارنجو Marengo الفريد (١٤ يونيو سنة ١٨٠٠) الذى أثار فى فرنسا أشد ضروب التهليل والحماس، والذى كان باكورة الانتصارات التى أحرزتها القنصلية، كان كافيًا لإضاعة التفوق الذى كسبه النمساويون لأنفسهم، بمعونة روسيا لهم إبان غياب نابليون فى القطر المصرى.

ولم يعر أحد التفاته إلى أن نابليون قصر فى إنجاد مسينا فى جنوة، إذ أن رجعة ديزيه Desaix الفجائية من الغرب هى وحدها التى خلصت نابليون من هزيمة منكرة فى مارنجو، بل كفى الباريسيين أنه كهانيبال، وعبر جبال الألب وقذف بنفسه فى جسارة وإقدام على مواصلات العدو، وبخمسة عشر مدفعًا مقابل مائتين عند العدو، ظفر ساحق وفى الثالث من ديسمبر من العام نفسه اكتمل نصر فرنسا فى معركة هوهنلندن Hohenlinden ولم يكن النمساويين بالموفقين فى قوادهم. فقد اختير ملاس Melas الهرم ليقف أمام نابليون واختير دوق فى الثامنة عشر من عمره لينازل مورو Moreau .

وقد أدت هذه الانكسارات بإمبراطور النمسا، بطلب وقف القتال وفى صلح لينفيل Luneville (٩ فبراير سنة ١٨٠١) وافق على خريطة لأوروبا وصلت فيها الحدود الفرنسية إلى ضفاف الراين، وإعترف بالجمهوريات الأربع التى أقامتها فرنسا: وهى جمهوريات باتافيا، وهلفاتيا والألب الشمالية

واليجوريا – هذه الجمهوريات التى أنشئت لأغراض الدعاية والتأثير فى الخارج. أما وزارة بت Pitt فلم تقبل على الإطلاق الموافقة على تأليف أوروبا على هذا الوضع.

وكانت هذه الأمور تثير اهتمام بريطانيا ودول أوروبا على حد سواء، ولكن ثمة حوادث معينة كانت تمس بريطانيا مسًا مباشرًا بل وتزعجها لما تحمله من دلالة على أن فرنسا وحاكم فرنسا لم يسقطا من حسابهما بعد فكرة تحدى سلطان بريطانيا على المستعمرات والبحار.

وبدأ نابليون يفكر فى كسب حلفاء جدد لفرنسا فاستطاع بالعقل أن يستميل جودا صديق الملكة فى أسبانيا وصاحب النفوذ فيها. كما استمال إلى جانبه بول الأول قيصر روسيا، الذى بدأ يظهر إعجابه بنابليون، أما نجاحه فى أسبانيا فانتهى به إلى عقد معاهدة تحالف عرفت باسم معاهدة "سان الدفنسو SanIldefonso " فى عام ١٨٠٠، وبمقتضاها حصل على إقليم لويزيانا العظيم. وعن طريق هذه المعاهدة قرر أن يضرب البرتغال حليفة إنجلترا التقليدية، وقد زاده وثوقًا من أهمية هذه المعاهدة فى صراعه مع إنجلترا موقف الروسيا منه فى تلك الآونة. فقد أظهر قيصر الروسيا ميلاً للتفاهم مع نابليون. وزاد من أسباب ذلك ما كان ينطوى عليه قيصر روسيا من الغضب على إنجلترا بسبب رفضها تسليم مالطة لفرسان القديس يوحنا الذين كانوا تحت حماية القيصر. ونجح نابليون نجاحًا جديدًا فى توثيق أواصر الود بينه وبين القيصر حينما أعاد إليه عشرة آلاف من الأسرى أعادهم إليه فى حالة طيبة ومظهر لا يشير إلى أنهم كانوا فى حالة أسر، وأخيرًا قبل نابليون وساطة الروس فى الإبقاء على مملكة نابولى.

ومن ثم ففى ديسمبر سنة ١٨٠٠ كوَّن القيصر تحت لوائه الدانمارك والسويد وبروسيا "عصبة الحياد المسلح" League of Armed Neutrality لحماية حقوق المحايدين، وللإضرار ببريطانيا بنوع خاص وقد كانت نقطة

من نقط الضعف فى درع بريطانيا أن أسطولها كثيرًا مـا سـبب خسـائر ومتاعب لأصحاب سفن المحايدين أثناء تفتيشها فى بحثه عن بضائع الأعداء أو البضائع المحرمة.

غير أن كيفية ممارسة حق التفتيش هذا، والضوابط والتأمينات التـى تحول دون إساءة استعماله، والمجاملات والتعويضـات التـى تقـدم عنـد مباشرته، كانت ولا تزال معضلة شائكة من معضلات القانون الدولى. وكانت كاترين الثانية قيصرة روسيا قد أعلنت عام ١٧٨٠ مبـدأ "حريـة البحـار" القاضى بأن السفن المحايدة الماخرة عباب البحار فى أعمال مشروعة يجب ألا تتعرض لأى مضايقة من الأساطيل المحاربة. فجاء بول وبعث هذا المبدأ إلى الحياة سنة ١٨٠٠ وهذا مبدأ ما برح إلى يومنا هذا قضية حيَّة للخـلاف تنقسم بصددها الآراء، برغم أن الأسطول الأمريكى ضرب عرض الحـائط فى الطور الأخير من الحرب العالمية الأولى.

وكان نجاح بول الأول فى الحصول على تأييد الـدول الأوروبيـة الشمالية للدفاع عن مبادئ الحياد المسلح – توفيقًا سعيدًا لنابليون الذى أسرع فى الإفادة منه. غير أنه فى اللحظة التى شرع فيها هذا المشروع يتخذ شكلاً خطرًا على إنجلترا، حينما زحف البروسيون على هانوفر – التابعة للإنجليز وقتئذ – وأخذت الكتائب الدانماركية تحتل همبرج وليبك – فى تلك اللحظـة إنهار المشروع إنهيارًا تامًا. ذلك أن القيصر اغتيل خنقًا فى فتنة نشبت فـى القصر الإمبراطورى فى مارس سنة ١٨٠١، وفى أبريل من العام نفسه حطم نلسون الأسطول الدانماركى فى كوبنهاجن، وقد مهدت هذه الحوادث إلى عقد صلح أميان Amiens مارس ١٨٠٢ ويغلب علـى الكتـاب أن يقولـوا أن أدنجتن Addington رئيس الوزراء الجديد، الذى لم يكن بالصـلب، سـلمَّ بأكثر مما تطلبه الموقف ولكن الكتاب الفرنسيين يرون عكـس ذلـك. فقـد احتفظت إنجلترا بتفوقها البحرى على الأقل دون أن يمس بسوء، ومن بـين

فتوحاتها العديدة عبر البحار أبقت فى يدها ترينداد التى قد انتزعتها من الأسبان، وسيلان التى كانت قد اغتصبتها من الهولنديين.

وإذا كان صحيحًا أن الفرنسيين لم يكن فى مقدرتهم على الإطلاق فى ذلك الحين أن يلزموا إنجلترا بالتخلى عن الفتوح التى كانت مستعدة أن تتنازل عنها، فإنه صحيح أيضًا أن هذه الممتلكات وراء المحيطات كان من السهل إعادة فتحها بحرية متفوقة إذا ما أستؤنفت الحرب.

ولكن أسوأ نذير كان يهدد سلام المستقبل، هو عدم إبرام فرنسا وإنجلترا اتفاقية تجارية فيما بينهما، فإنه طالما بقى التجار الإنجليز يعاملون فى فرنسا كأعداء غرباء، تعذر الوصول إلى تفاهم حقيقى بين الأمتين الفرنسية والإنجليزية.

٣- عهد الإمبراطورية ١٨٠٤ - ١٨١٤.

الواقع أن نابليون طوال عهد القنصلية كان إمبراطورًا فى سلطانه لا ينقصه إلا احتفال بإعلان اللقب بعد التتويج وقد ساعدت الظروف فى الخارج والداخل على التعجيل بإعلان اللقب ففى مايو سنة ١٨٠٣ نقض صلح أميان، فاندلعت نيران الحرب من جديد بين فرنسا وبريطانيا أولاً ثم بين فرنسا وأعضاء الحلف الأوروبى الثالث. فأصبح طبيعيًا أن تلجأ فرنسا إلى مثل هذا القائد العظيم الذى لم تعرف البلاد له نظيرًا فى الحرب أو السياسة قبل أيامه.

وقد اشتد اندفاع الناس إليه واللجوء إلى ساحته عندما كشفت الأيام عن مؤامرة خطيرة يديرها "جورج كادودال" Georges Cadodoual من إقليم لافنديه. وكان ملكى النزعة ومن حوله آخرون كان من أهمهم وأعلامهم شهرة فى عالم الحروب بيشجرو Pichegeru ومورو Moreau من كبار القواد. وأخطر ما ظهر فى هذه المؤامرة عزم القائمين بها على الانقلاب الذى لا يتم أمره إلا باغتيال نابليون وظهر أن بريطانيا كانت على علم بذلك

التدبير. واستطاع بونابرت ببعد نظره وقوة عزيمته وسرعة حسمه أن يطفئ نار تلك المؤامرة قبل اشتعالها فاعدم "كادودال" ونفى "مورو" وألقى "بيشجرو" فى ظلمات السجن حيث لقى حتفه وأدى القضاء على هذه المؤامرة إلى قتل دوق "دانجان" Duke d'Enghien ، وكان أميرًا من أسرة كونديه، هاجر مع من هاجروا من فرنسا أو عهد الثورة، وكان مقيمًا فى "أيتنهايم Ethenheim " فى بادن "Baden" على مقربة من فرنسا حيث قبض عليه رجال بونابرت، وأعدموه رميًا بالرصاص "فانسين" Vincennes بالقرب من باريس وظهر بعد ذلك أنه كان بريئًا من الاشتراك فى المؤامرة. واستاءت من ذلك بعض النفوس، وعدت القضاء عليه من أخطاء نابليون الجسيمة.

ولم يبد غريبًا – بعد ذلك من تفاصيل تلك المؤامرة وخطرها على الفرنسيين فى الداخل والخارج بصفة خاصة وخطر الحروب المحتمل شنها على فرنسا بعد نقض معاهدة أميان من أن يرى الفرنسيون فى المناداة بنابليون إمبراطورًا عليهم درءًا لتلك الأخطار وتعبيرًا عن ولائهم له فلم يلبث مجلس الشيوخ (السناتو) حتى تقدم بالموافقة على مرسوم أصدره بمنح نابليون لقب إمبراطور. وكانت علاقات البابا بفرنسا يومئذ لا تشوبها شائبة من خلافات، فانتقل البابا من كرسيه بروما إلى باريس ليتوج نابليون وزوجته "جوزفين" فى كنيسة "نوتردام" وكان ذلك فى عام ١٨٠٤ وهكذا حققت الأيام حلم بونابرت العظيم.

إن الأيام قد أظهرت أن صلح أميان كان مجرد هدنة مؤقتة، فهذه إنجلترا تبين لها أن فرنسا غدت إمبراطورية تتسع أملاكها فى إطراد مستمر، فأصبحت تضم هولندا وتعمل على استرجاع مستعمرة رأس الرجاء الصالح، كما أصبحت جمهوريتا الألب الشمالية والهلفينية تابعتين تبعية مطلقة لها. وتزداد مطامع فرنسا، فتبعث بحملة لاسترداد جزيرة "سان دومنجو" فى جزر الهند الغربية. وتبين لإنجلترا كذلك أن فرنسا ما زالت تبذل الجهود

لاسترجاع مصر، وترسم مشروعاتها استعدادًا للتوسع في الهند، وتبعث بحملة يقودها الجنرال "ديكان" Decan لهذا الغرض.

ويشتد ذعر أوروبا من سلوك نابليون الذى أخذ ينقض وعوده، فبدأ ينقض عهده لبروسيا فى شأن المحافظة على حياد شمال ألمانيا، فاستولى على هانوفر. ولم يكن فى مقدور بروسيا يومئذ أن توقفه عن المضى فيما عزم عليه.

ولم تر إنجلترا بدًا من تخليص نفسها من عهدها الذى اشترطه "صلح أميان" فى عام ١٨٠٢ بشأن تخليها عن جزيرة مالطة، ذلك لأنها كانت تتوقع استئناف الحرب بينها وبين فرنسا، وأيديها فيما رأت يومئذ كل من روسيا والدولة العثمانية، كانتا تخشيان نتائج توسع بونابرت فى الشرق، وكان أمر التوسع سببًا فى قطع العلاقات بين فرنسا وإنجلترا سنة ١٨٠٣.

وخلال عامى ١٨٠٣ و ١٨٠٤ اقتصرت الحرب على احتلال الجيوش الفرنسية لبعض المرافئ فى هولندا وإيطاليا وسواحل الهانوفر. وكانت هذه المرافئ ذات أهمية كبيرة للتجارة الإنجليزية وساد فى إنجلترا خوف مرعب أن يروا ذات صباح جيوش الثورة الفرنسية ترفع العلم المثلث الألوان على البر البريطانى، ألم يكن نابليون يصرح بصورة مستمرة بأنه يحتاج فقط لست ساعات يسطر فيها على بحر المانش وينتهى كل شئ بالنسبة لبريطانيا؟ وكان الفرنسيون يرفقون تهديداتهم هذه باستعدادات واسعة للغاية فصارت ترسانات السفن الفرنسية تعمل بهمة ونشاط على بناء قوارب وصنادل لنقل الجنود عبر البحر، وأخذ الفرنسيون يتجمعون على شواطئ المانش ويتدربون يوميًا على فنون الحرب البرمائية. ومن كل المناطق الموالية لفرنسا جاءت جيوش حليفة إيطالية وألمانية وبلجيكية وهولندية لتساهم فى إذلال إنجلترا. وكان نابليون يأتى بنفسه للإشراف على هذه الاستعدادات ولإثارة الحماس فى نفوس جنوده. ولتمويل هذه الحملة لم يتردد

بونابرت فى عقد صفقة مع الولايات المتحدة الأمريكية تتازل فيها عن مقاطعة لويزيانا مقابل أموال وفيرة.

عندما بلغت الاستعدادات الحربية مداها وتجمع لدى الفرنسيين جيش يضم حوالى ١٢٠ ألف جندى من خيرة الجنود المدربين ومن أفضل ما يمكن لأوروبا آنذاك أن تقدمه، ساد اعتقاد شامل بأن نهاية الغطرسة الإنجليزية باتت وشيكة. كما أن أكثر المشككين بقدرة الفرنسيين على تحقيق حلمهم باتوا ميالين للاقتناع بأن النصر سيكون لنابليون. وضع نابليون خطة محكمة، فأوعز للأسطول الفرنسى وحليفه الأسبانى بالإبحار إلى جزر الأنتيل ومحاصرتها مما يجعل الأسطول الإنجليزى يلحق بهما هناك لضربهما. فى نفس الوقت يخلو المانش من خط دفاعه الأول أى الأسطول، وينفذ بسرعة كبيرة عملية إنزال جنوده على الشواطئ الإنجليزية إلا أن تنفيذ خطة كهذه تحتاج لذكاء نادر وخيال واسع ومرونة لا حد لها وهى أمور كان يفتقر إليها أميرال الأسطول الفرنسى فيلينوف فتردد وأبطأ فى تنفيذ الخطة مما سمح للأميرال نلسون بأن يفاجئ أسطول فرنسا عند الطرف الأغَّر أمام الشاطئ الأسبانى وينزل به هزيمة قاطعة ويحطم أكثر سفنه. تم ذلك فى ٢١ أكتوبر ١٨٠٥. بذا انهارت آمال نابليون كلها وعادت للأسطول البريطانى سيادته المطلقة على البحار وللرعايا الإنجليز طمأنتهم فى جزرهم وثقتهم ببحارتهم.

وقد حتمت معركة الطرف الأغَّر على نابليون بأن يغيِّر مخططاته كلها كانت إنجلترا منذ شهر أغسطس ١٨٠٥ قد وفقت لإقامة تحالف دولى جديد ضد فرنسا يعرف باسم "التحالف الدولى الثالث" يضم إنجلترا وبروسيا والنمسا والسويد إذ كان لكل واحدة من هذه الدول مآخذ على السياسة الفرنسية وعلى تصرفات نابليون. الحكومة البروسية لم تكن راضية عن تدخل نابليون المتزايد فى الشؤون الألمانية. والنمسا كانت تنتظر منذ أمد طويل الفرصة المناسبة للعودة إلى الحرب والثأر لكرامتها التى جرحها

الفرنسيون أكثر من مرة. وقد أثار النمسا بصورة خاصة إعلان نابليون الأخير نفسه ملكًا على إيطاليا وضم أراضى جنوى وبارم وبيامون إلى الإمبراطورية الفرنسية. والسويد أيضًا كانت ناقمة على فرنسا غير راضية عن محاولاتها على شئون غرب أوروبا بكامله. وقد عرفت الدبلوماسية البريطانية كيف تستغل مواطن الضعف عند هذه الدول وجرتها فى صيف سنة ١٨٠٥ للتعاون معها وإعلان الحرب على فرنسا.

حين شعر نابليون بما كان يدبر ضده فى أوروبا سيَّر بعض جيوشه التى كانت مرابطة فى شمال فرنسا استعدادًا لغزو إنجلترا ثم أراضى الإمبراطورية النمساوية وذلك بضرب جيوشها قبل أن تكتمل استعدادتها وقبل أن تصلها النجدات العسكرية من حليفتها روسيا. على أن يعود بعد ذلك بسرعة لتنفيذ خطته والنزول فى إنجلترا وقد وصلت الجيوش الفرنسية إلى مدينة أولم Ulm على نهر الدانوب حيث كانت تتمركز الجيوش النمساوية. وهناك جرت فى ٢٠ أكتوبر ١٨٠٥ معركة فاصلة هزم فيها النمساويون وفروا مخلفين وراءهم خمسين ألف جندى أسير بيد الفرنسيين، أما بقية الجيوش النمساوية فاتجهت نحو الشرق للاتصال بالجيش الروسى القادم وإعادة الهجوم ضد الفرنسيين. بادر نابليون للإجهاز على الجيش الهارب قبل التقائه بحلفائه.

ولما كان الطريق الأقرب إلى مواقع أعدائه يقع فى أراضى دولة بروسيا المحايدة، التى لم يكن يحمل لها ولمليكها كبير احترام وتقدير، فإنه لم يتردد فى اجتياز حدودها وخرق حيادها مما أغضب عاهلها وجعله يميل لدخول الحرب ضد فرنسا. وجرت بالفعل اتصالات بين الملك المذكور والقيصر الروسى للاتفاق على هذا الأمر.

وفى ٢ ديسمبر سنة ١٨٠٥ جرت أعظم معركة فى تاريخ الإمبراطورية الفرنسية على هضبة أوسترليتز Austerlitz فى النمسا. هناك

نازلت الجيوش الفرنسية جيوش الدولتين الكبيرتين النمسا وبروسيا وأنزلت بهما هزيمة ساحقة وسريعة قصد منها نابليون إلى حد كبير إرهاب بروسيا فلا تعود تفكر بدخول الحرب. وقد فرت جيوش الأعداء تحمل عار الهزيمة مخلفة وراءها ستة وعشرين ألف قتيل.

وكان من أبرز نتائج هذين الانتصارين أن إمبراطور النمسا بادر فى اليوم التالى لمعركة أوسترليتز إلى مقابلة نابليون وأجرى معه مفاوضات للصلح. وفى ١٦ ديسمبر سنة ١٨٠٥ وقد صلح برسبورج Presbourg الشهير الذى أذل النمساويين إلى حد كبير وأطلق يد فرنسا فى إيطاليا وجنوب ألمانيا. أما روسيا فقد انسحبت من الحرب علميا دون أن توقع معاهدة صلح كما فعلت فى المرة السابقة.

بالنسبة لبروسيا فقد استاء نابليون كثيرًا من تمردها عليه أثناء الحرب ومحاولتها الالتحاق بركب أعدائه ودخول التحالف الدولى الثالث. لذا بادر عقب انتصاراته وفرض عليها معاهدة شائنة حطت كثيرًا من كرامتها تعرف باسم معاهدة شونبرون Schoenburunn أخذ منها أراضى كليف Cleves ونيوشاتيل Neufchate على نهر الراين وجعلها إمارات مستقلة تحت النفوذ الفرنسي وسلخ عنها مقاطعة انسياخ وأعطاها لبارفاريا وبالمقابل أعطى بروسيا مقاطعة الهانوفر الهامة الغنية فأوجد بذلك سببا دائمًا للخصام والنزاع مع الإنجليز لأن المقاطعة المذكورة طالما كانت محط اهتمامهم باعتبارها موطن العائلة المالكة الإنجليزية القديم وجرى توقيع المعاهدة المذكورة فى ١٥ ديسمبر ١٨٠٥.

ولم يكتف نابليون بكل هذا بل أنه بعد عودته إلى باريس، مجللاً بأكاليل النصر والفخار محطمًا التحالف الدولى الثالث مرجعًا الإنجليز والروس إلى عزلتهما السياسية، انشأ اتحاد للدويلات الألمانية اسماه اتحاد

الراين وجعله مواليًا لفرنسا يتعهد بأن يقدم لها زمن الحرب سبعين ألف مقاتل.

اتصلت بروسيا بالروس بعد اختراق نابليون أراضيها للتنسيق معهم، إلا أنها لم تستمر بسبب انتصار نابليون في استرليتز ولأملها بأراضي هانوفر التي وعدوا بها لكن البروس شعروا بضرورة قتال نابليون بعد أن علموا أنه يفاوض البريطانيين سرًا لإعادة هذه الأراضي إليهم. فاتجهت إلى روسيا وإنجلترا والسويد لإقامة التحالف الأوروبي الرابع، وابتدأت بروسيا التحرش بنابليون بأن طلبت منه الانسحاب إلى ما وراء الضفة الغربية للراين، فهاجمها نابليون وانتصر عليها في معركة بيينا سنة ١٨٠٦ وتقدم في الأراضي البروسية ودخل برلين ظافرًا. وعندما تراجعت القوات البروسية إلى حدودها مع روسيا بقيادة القيصر فردريك وليم الثالث (١٧٩٧ – ١٨٤٠) لكي تلتقي مع الجيوش الروسية التي تقدمت لنجدتها، خاض نابليون مع الدولتين معركة فريدلاند في فبراير سنة ١٨٠٧ وحقق فيها انتصارًا جديدًا كان خاتمة لمعارك أوروبا في هذه الفترة من الحرب.

وفي ٢٥ يونيو سنة ١٨٠٧ عقد اجتماع بين نابليون وقيصر روسيا بعد أن طلبت بروسيا الصلح وتوصل القائدان إلى عقد معاهدة صلح تلست وقعت في ٥ يوليو من العام نفسه وفيها فرض نابليون عقوبات شديدة على بروسيا سواء في التصرف بأراضيها أو في فرض تعويضات حربية باهظة عليها وتحديد قواتها المسلحة وإقامة جيش احتلال دائم في أراضيها أما روسيا فقد خرج نابليون وقيصرها من الاجتماع صديقين جديدين اتفقا على عدم خسارة روسيا لأي جزء من أراضيها ومساعدتها من قبل فرنسا لتحقيق مصالحها في فنلندة والدولة العثمانية مقابل اعتراف القيصر الروسي بكل التغييرات التي أجراها والتي سيجريها في الأراضي الألمانية بموجب معاهدة الصلح مع بروسيا وتعهد القيصر أيضًا بالانضمام إلى فرنسا في تنفيذ

الحصار القاري ضد بريطانيا. أما السويد فقد هاجمتها حملة فرنسية من الدانمارك وأخرى روسية من فنلندا أجبرتها على عقد الصلح وقطع علاقاتها التجارية مع بريطانيا.

وهكذا انتهى التحالف الإوروبى ولم يبق أمام فرنسا سوى بريطانيا وقبل أن نترك هذا الموضوع لابد من الإجابة على سؤال مهم وهو لماذا انهزمت الجيوش الأوروبية أمام قوات نابليون الأقل منها عددًا وعدة. والحقيقة أن هناك أسبابا واضحة يمكن إجمالها بالنقاط الآتية:-

١- التكتل الأوروبى ضعيف من الداخل تتعامل أطرافه فيما بينهما بانتهازية قائمة على الرغبة فى التوسع على حساب الدول الأخرى.

٢- عدم وجود قيادة عسكرية واحدة للجيوش المتحالفة التى كانت أعدادها تصل إلى أكثر من ضعف جيوش نابليون.

٣- كانت جيوش نابليون متناسقة تعتمد على قيادة حازمة ومحبوبة آمن الجنود والضباط لها وكانوا يؤمنون بأنهم يحملون رسالة سامية إلى أوروبا. أى أنهم كانوا أصحاب عقيدة فى القتال لم تكن تتوفر لدى أعدائهم.

٤- قوة البناء الداخلى لفرنسا حيث كانت الجبهة الداخلية تشكل سندا قويًا للقوات المقاتلة، كيف لا وقد خلق منهم نابليون شعبًا عسكريًا مقاتلاً مؤمنًا بدور فرنسا فى نشر مبادئ الحرية والإخاء والمساواة.

٥- كان التجهيز فى القتال والإشراف على سير المعارك وإدارة التموين فى مستوى عالى جدًا يفوق كثيرًا مستوى أية قيادة فى جيوش التحالف الرابع.

٦- إن قيادة نابليون الذكية وشعبيته الواسعة وخططه البارعة وحزمه العسكرى وتعاطفه مع جنوده وضباطه لعب ذلك كله دورًا كبيرًا فى أ تجعل منه قائدًا فذًا فى نظر الفرنسيين، والمهيب الجانب الذى يصعب فى نظر أعدائه.

٤- سياسة الحصار القارى ضد بريطانيا

وقد اتخذ الصراع مع إنجلترا طابعًا جديدًا كان له أثر عميق في تعديل مجرى الحوادث فى أوروبا حتى سقوط نابليون. فقد يئس نابليون من اقتحام استحكامات بريطانيا البحرية. ولم يجد ثمة ما يشجعه على استئناف السياسة التى فشلت فشلاً ذريعًا فى الطرف الأغر ولكن هل يعقل أن يقف سيد أوروبا الأعلى عاجزا أمام أمة من التجار وأصحاب الصناعات والحوانيت؛ لقد كان يؤمن بأن قوة إنجلترا إنما تكمن فى صادراتها، وبأن الدول الأوروبية هى سوقها الرئيسية ألا يستطيع إذن الحاكم الذى بسط سلطانه على أوروبا إقصاء السفن البريطانية عن جميع موانئ أوروبا فيقضى بذلك على بريطانيا العظمى موتًا وجوعًا لقد كانت تلك سياسية فرنسية تقليدية نوعا ما، ولقد أقرتها الثورة فى أولى مراحل الحرب، ولكنها لم تكن ذلك فى مركز يسمح بتطبيقها.

وقد جاء إعلان السياسة الجديدة من برلين فى نوفمبر سنة ١٨٠٦ ولم يكن ثمة ما هو أبلغ دلالة على قوة مركز نابليون من إصداره مراسيمه من عاصمة فردريك الأكبر المهزومة. وقد نددت مراسيم برلين ببريطانيا لخرقها القانون الدولى ولأنانيتها فى سياستها التجارية، وقررت الرد عليها بنفس أسلحتها، فأعلنت حالة الحصار على الجزائر البريطانية وتحريم كل أنواع التجارة بينها وبين الأراضى التى تخضع لحكم نابليون أو نفوذه. فلم يعد مسموحًا للسفن البريطانية بدخول موانئ فرنسا أو حلفائها، وأصبحت السفن التى تدخل على الرغم من ذلك الأمر عرضة للمصادرة.

وردت الحكومة البريطانية على ذلك بمراسيمها الملكية الصادرة فى يناير ونوفمبر سنة ١٨٠٧. وفيها اتهمت فرنسا بالخروج على تقاليد الحرب وأعلنت أنه ما دام الاتجار مع أوروبا محرمًا على بريطانيا فليكن محرمًا على الدول المحايدة كذلك. وضربت بريطانيا الحصار على الأراضى

الفرنسية. وهكذا أقصى نابليون بقوته الحربية بريطانيا عن التجارة مع أوروبا، فعزلت بريطانيا ببحريتها أوروبا الفرنسية عن التجارة مع بقية العالم. ولم تكن هذه السياسة الجديدة فكرة عابرة أو تهديدًا أجوف. فقد تمسك بها نابليون باعتبارها الوسيلة القاطعة لإنزال الخراب ببريطانيا، وأرغم جميع الأمم الداخلة فى نفوذه على انتهاجها. وكانت رغبته فى توسيع مداها سببًا فى حروب أخرى. ولما كفل صلح تلست فى نوفمبر وديسمبر ١٨٠٧ تأييد روسيا وأصبحت جيوشه تقف بلا منازع، عاد يدعم ويؤكد من جديد فى مراسيم ميلانو إعلانه السابق بحظر كافة أنواع التجارة بين أوروبا وبريطانيا.

ولاريب فى أن بريطانيا قد قاست من هذا الحظر الذى سمى بالنظام القارى، فقد تفشت البطالة وكثرت حالات الإفلاس واشتد عناء الناس من سوء الحالة التجارية الناشئ عنه، غير أنه وإن كانت للأسواق الأوروبية أهمية قصوى بالنسبة لبريطانيا، فإن باقى العالم ظل مفتوحًا أمامها. ثم إن الآلات والأساليب الجديدة التى أدخلتها الثورة الصناعية فى إنجلترا قد منحتها تفوقًا كبيرًا فى الإنتاج، فقاست البلاد حقًا ولكن مكابدتها قوت من عزمها على مواصلة الكفاح بدلاً من أن تثبط ذلك العزم.

أما سكان فرنسا نفسها فكانوا يتمتعون فى تلك السنوات بالرخاء من عدة أوجه فقد فتحت غزوات نابليون لتجارتهم مناطق جديدة واسعة، وشوهدت ثمار تشريعات الثورة الاجتماعية فى ازدهار أحوال الزراعة. ولما بدأت فرنسا تقاسى من انقطاع ورود حاصلات المستعمرات نتيجة لسياسة بريطانيا، تمكن العلم الفرنسى، بمؤازرة الدولة وتوجيهها من تقديم بعض الحلول، فقد ارتفعت أسعار السكر ارتفاعًا خياليًا، ولكن العلماء الفرنسيين تمكنوا من استخراج السكر من البنجر وأصبحت هذه الصناعة الجديدة منذ ذلك التاريخ موردًا دائمًا من موارد الثورة الفرنسية، كما صنعوا النيلة أو

بمعنى آخر حصلوا على بديل. وعلى الرغم من ذلك كانت هناك بعض الصناعات لم تجد من يقبلها من عثرتها، ولكن أسوأ نتائج نظام نابليون القارى لم تكن تشاهد فى فرنسا نفسها وإنما فى الدول الأوروبية الواقعة تحت سيطرتها، وقد تجلى هذا بصورة أقوى عندما عمد نابليون إلى فرض رسم جمركى عال – وصل غالبًا إلى نصف القيمة – على جميع حاصلات المستعمرات إيمانًا منه بأن كل ما يصل منها إلى أوروبا إنما هو من تهريب البريطانيين.

وقد تأثرت هولندا التى كان يحكمها لويس أخو نابليون تأثيرًا سيئًا بسياسة الحصار القارى، ولم تلق شكواها آذانًا صاغية رغم عطف لويس على أهلها. ولم يجد لويس أمامه غير أن يتنازل عن عرشه المزعزع. ومع ذلك فإن حالة هولندا لم تتحسن، وضمت إلى فرنسا فى يوليو سنة ١٨١٠. وقد دفعت نابليون عوامل مماثلة لكى يضم الساحل الشمالى الغربى لألمانيا إلى فرنسا. وبرر نابليون هذه السياسة بأن التجارة الإنجليزية ستجد لها منفذًا إلى القارة الأوروبية، وفى الواقع أن نابليون قد أضر بنفسه وبمركزه فى الدول التى كان مسيطرًا عليها. فمن الواضح أنه لو كان هناك أى احتمال لبقاء هذه الممالك تحت سيطرته، فإن تطبيق سياسة الحصار القارى عليها كانت كفيلة بالقضاء على هذا الاحتمال؛ لأن هذه السياسة قد أساءت اقتصاديا إلى هذه الأقاليم إساءة بالغة، فجعلها تنسى ما أدخله نابليون من إصلاحات اجتماعية وإدارية.

كما أن سياسة الحصار القارى قد سببت لنابليون كثيرًا من المتاعب بل كانت سببًا فى المصائب التى نزلت به، وكانت فى النهاية العامل الأساسى فى سقوطه. ولكن نابليون لم يكن يرى بيده سلاحا لمحاربة أعدائه وفى مقدمتهم إنجلترا سوى هذا السلاح، وتعنى تطبيق سياسة الحصار القارى واقتضاه ذلك أن يبسط نفوذه السياسى على كل من إيطاليا وأسبانيا حتى

يجعل من ذلك سلاحًا ماضيًا. وقد أدى ذلك إلى إثارة الشعور الدينى والقومى فى آن واحد.

أما الصعوبة الكبرى فكانت أدبية، فإن تنفيذ الحصار الإيطالى تنفيذًا مشددًا كان ينطوى على إثارة نابليون النزاع مع البابا. ولذا كان خللاً خارقًا للعادة حسن تقدير رجل عبقرى مثله للأمور، رجل يدرك إدراكًا كاملاً أهمية احترام عواطف الكاثوليك فى إمبراطورية مترامية الأطراف، فإنه بدلاً من حيدة الفاتيكان، نفى البابا فى مايو سنة ١٨٠٩ من ولاياته، وألقاه فى السجن، وضم أملاكه، وربطها بالنظام الإدارى للإمبراطورية الفرنسية.

ومع أن الإيطاليين هم على الأرجح أقل شعوب البحر المتوسط تدينًا، إلا أن البابوية كانت فى نظرهم تمثل مجدًا من أمجاد وطنهم التاريخية ولذا استنكروا هوانها، واستثارهم تحقيرها. والحق أنه من بين أخطاء نابليون الخطيرة، لم يكن ثمة غلطة قدر لها أن تهز من الأعماق أسس سلطانه، لا فى إيطاليا وحدها، بل فى جميع أنحاء العالم الكاثوليكى، أشد من هذه الإهانة التى وجهها بلا مسوغ وبلا ضرورة للكرسى البابوى، وللتقاليد الرومانية.

كانت تلك نتائج سياسته فى إيطاليا أما فى أسبانيا فقد أثار الشعور القومى، فأسبانيا مع ما اتصفت به من ضعف إدارتها لم ترض الخضوع لحكم أجنبى كما كان الحال بالنسبة لإيطاليا، الأمر الذى سهل على نابليون غزوها، إذ اعتبره أهلها منقذا لهم من الحكم الأجنبى. لذلك أصيبت القوات الفرنسية بأول ضربة وهزيمة برية. ولو رزق نابليون يومئذ شيئًا من الحكمة والتروى لاكتفى بغزو البرتغال، ولما أقحم نفسه فى غزو أسبانيا. ولكن إصراره على تنفيذ سياسة الحصار القارى هى التى دفعته لذلك.

أما عن البرتغال فقد فشلت كل جهود بونابرت لإقناع البرتغاليين بمقاطعة إنجلترا لما بين البلدين من علاقات سياسية واقتصادية وثيقة. ونظرًا لكون مرافئ البرتغال قد تحولت إلى مراكز لتهريب البضائع الإنجليزية إلى

القارة عزم نابليون على احتلال هذه البلاد. وعقد لذلك مع رئيس الوزارة الأسبانية جودا الوصولى المفتقر إلى أبسط مبادئ الأخلاق والضمير ، المكروه لدرجة لا توصف من شعبه، اتفاقا يقضى بالسماح لجنوده بالعبور إلى البرتغال عبر أراضى أسبانيا على أن يتقاسم البلدين الغنيمة فيما بعد.

ولم يجد الجيش الذى أرسل عبر أسبانيا بقيادة الجنرال جينو Junot، أية صعوبة فى احتلال البرتغال. ذلك العرش البرتغالى. نظرًا لما كان لفرنسا آنذاك من سيطرة ومهابة ولم يفكر حتى بالمقاومة، وفرت العائلة المالكة إلى البرازيل تاركة القائد الفرنسي يتم احتلاله للبلاد دون مقاومة فعلية. وكان ذلك فى عام ١٨٠٧.

عقب احتلال البرتغال ظلت بعض القوات الفرنسية مرابطة فى أسبانيا بحجة أن ذلك ضرورى لتأمين الدفاع عن شواطئ البرتغال. إلا أنه فى الواقع وأمام السهولة التى تم بها احتلال البرتغال فكر نابليون بضم أسبانيا إلى أملاكه متجاهلاً أنها بلد حليف وصديق لفرنسا، وأن جيوش فرنسا دخلت أراضيها صلحًا وبموافقة حكامها على أن تغادرها فور تحقيق الحملة الفرنسية لأغراضها فى البرتغال. وهناك أمر آخر ربما أغراه بالبقاء وهو أن الفرنسيين اكتشفوا أن الكثير من المدن والقرى والسواحل الأسبانية كانت تتاجر بصورة سرية ناشطة مع الإنجليز وتتولى تهريب بضائعهم إلى أسواق أوروبا متجاهلة قوانين الحصار. ثم أن حكومة مدريد كانت أضعف من أن تفرض سيطرتها ورقابتها على كل البلاد لتقضى على أعمال التهريب.

وتحقيقًا لفكرته الطارئة عيَّن نابليون مورا Murat قائدًا عامًا للجيوش الفرنسية فى أسبانيا وكلفه مهمة احتلال كل أراضيها تدريجيًا. أرتكب نابليون بتصرفه هذا خطأ لا يقل فداحة عن احتلاله لأراضى البابا. فالأسبان هم أكثر شعوب أوروبا تمسكًا بالدين وأقلهم تأثرًا بالمبادئ المتحررة الشائعة فى فرنسا؛ كانوا إجمالاً متخلفين سياسيًا وثقافيًا وفكريًا. فهم رغم

استبداد ملوكهم وفسادهم وبطانتهم السيئة، وتردى أوضاع بلادهم، ما كانوا يشعرون أنهم فى وضع سيئ، وأن شيئًا مهمًا اسمه الحريات ينقصهم، وبالتالى فإن منجزات الثورة فى فرنسا لم تكن تثير عندهم أى رد فعل إيجابى. ثم أن أسبانيا بلد متماسك قوميًا لدرجة كبيرة اكتسب شعورًا قويا بالوطنية والوحدة منذ أيام صراعه مع المسلمين. والبلدان التى حاربها نابليون حتى ذلك الوقت وانتصر عليها كألمانيا وإيطاليا والنمسا والروسيا لم تكن تعرف الوحدة القومية المتماسكة ولا كانت مترابطة ولا كانت مترابطة الأجزاء. أما فى أسبانيا فكان عليه أن يواجه بلدًا موحدًا منذ قرون عديدة. وهذا أمر على درجة كبيرة من الأهمية.

وقف الأسبان منذ البداية من المحتل الفرنسى موقف العداء الشديد. وبدأت المقاومة فى الأوساط الشعبية وبين الفلاحين فى الأرياف تخلق المصاعب للمحتلين، وفى نفس الوقت كانت جيوش الاحتلال فى تزايد مستمر لتصبح قادرة على احتلال الأراضى الأسبانية. وعندما شعر الملك الأسبانى بنوايا الفرنسيين حاول مع أعوانه وعائلته أن يترك العاصمة ويستقر فى المرفأ الأسبانى الشهير قادش حيث يمكنه إذا أشتد الخطر أن يسافر إلى أمريكا الجنوبية. استاء الشعب كثيرًا فى العاصمة من هذا التصرف الذى يفتقر للشجاعة والعزة القومية فثار وأجبر الملك على التنازل عن العرش لابنه فرديناند السابع. تذرع ميرا بهذه الاضطرابات وأمر جيوشه بدخول العاصمة الأسابنية للقضاء على مقاومى الاحتلال الفرنسى ولفرض النظام والأمن فيها. ولما لم يتمكن من التوفيق بين الملك القديم المخلوع، وكان قد أقنعه بالبقاء فى العاصمة وعدم الهرب، وبين الملك الجديد الحائز على ثقة جماهير الأسبان وعطفهم، أرسل ميرا، العائلة المالكة كلها إلى بايون Bayonne فى فرنسا، حيث استعمل نابليون كل ما عنده من أسباب الحيلة والدهاء وجعل الاثنان يتنازلان عن العرش الأسبانى وعهد بتاج مدريد إلى شقيقه جوزيف الذى كان ملكًا على نابولى وأعطى عرش هذا الأخير لميرا

قائد الحملة الأسبانية؛ لم يفهم الأسبان الأحداث الجديدة، وظلوا متمسكين بملكهم الأسبانى المخلوع وبولائهم لعائلتهم الملكة، وبضرورة إعادة فرديناند إلى عرشه باعتباره الوريث الشرعى الوحيد للعرش. أما الملك الجديد جوزيف بونابرت فلم يروا فيه إلا وجه أجنبى مغتصب مستعمر.

ولما كان رجال الدين الأسبان يرون فى بونابرت واحدًا من أبناء الثورة الفرنسية الملحدة التى اضطهدت الدين ورجاله وحطمت عظمة الكنيسة الفرنسية وقوتها، فقد حملوا بقوة وشجاعة لواء التصدى للاحتلال الفرنسى وأخذوا يثيرون الأمة والولاء للكنيسة بعاطفة وطنية جامحة جعلتهم دومًا فى طليعة رجال المقاومة ضد المحتلين الملحدين. كما أنهم عملوا على إفهام الأشراف الأسبان وكبار الملاك الأراضى حقيقة المبادئ التى يمكن أن تزرعها الثورة الفرنسية بواسطة جنود نابليون فى قلوب الفلاحين الأسبان. مما قد يؤدى لانهيار امتيازاتهم. وراح رجال الدين بعد ذلك يوقظون فى عامة الأسبان العاطفة الدينية الراسخة طالبين منهم محاربة أعداء المسيح والمسيحية. ولما لم تكن أصلا فلسفة الثورة الفرنسية ومبادئ الحرية قد لاقت هوى عند جماهير الأسبان فإن صيحات رجال الدين لاقت آذانًا صاغية وهبت أسبانيا بأسرها لمقاومة الجيوش المحتلة التى تضم مائة وستين ألف جندى من جنسيات وقوميات متعددة. ولن يكون عجيبًا بعد ذلك أن تهزم القوات الفرنسية تحت قيادة "دوبون" فى واقعة بايلن Beylen أو بايلى فى جنوب أسبانيا فى يوليو سنة ١٨٠٨ وكانت هزيمة منكرة أخذ فيها القائد أسيرا ومعه حوالى ٢٣,٠٠٠ أسيرًا. وقد أثارت هذه الهزيمة دهشة أوروبا، كما شحذت الهمم على مقاومة نابليون فكانت هذه فاتحة أبواب الشر على حياة ذلك القائد الذى أرعب الدنيا حتى باتت تخشاه وبات حكامها يهابون لقاءه والاصطدام به. ولا أدل على حرج موقف الفرنسيين فى أسبانيا عقب هذه الهزيمة من أن يهتز نابليون نفسه، فيغادر فرنسا ليظاهر جيشه المنهزم فى أسبانيا ويشجعه ويعيد الثقة إلى جنده.

٥- عوامل انهيار إمبراطورية نابليون.

أفاقت أوربا من غشيتها وحاولت القضاء علي السيطرة الفرنسية واستخدمت نفس الوسائل التي تغلبت بها جيوش فرنسا على أوروبا. ويبدو أن الثورة الفرنسية حملت معها جرائيم هدمها، فلقد دخلت الجيوش الفرنسية البلاد المفتوحة بمبادئ الثورة وهى الحرية والإخاء والمساواة وحكم الشعوب نفسها بنفسها. لذا سنجد أن هذه الشعوب ستعمل على تطبيق تلك المبادئ والاحتفاظ بحقوقها. فالشعب الفرنسي كان يحارب حكومات لا قوميات. وبينما كان الشعب الفرنسى ممثلاً فى الجيش كانت الجيوش الأوربية جيوش مرتزقة لا تمثل الشعوب. ولقد وجدت شعوب أوروبا أن الحكم الفرنسي ليس في صالحها دائمًا وأن نابليون يعمل على أن يقوم كل شعب بدفع نفقات النصر الذى أحرزه وأعباء جيش الاحتلال، وقد وجد كل شعب من الشعوب الأوروبية. أن نابليون وفرنسا من ورائه لا يعمل إلا لمصلحة فرنسا وحدها. ولم يكن حكم نابليون لها حكمًا ديمقراطيًا. بل كان حكمًا قائمًا على الاستبداد. فكأن هذه الشعوب قد استبدلت حكمًا استبداديًا بأخر من نوعه. وسنجد أن هذه الشعوب التى أيقظتها صيحات الحرية ستعمل على إدخال النظم والأساليب الحربية الفرنسية حتى تحارب فرنسا بنفس سلاحها. هذه بالإضافة إلى سوء الأحوال الاقتصادية من جراء حصار إنجلترا لأوربا وحصار نابليون للجزر البريطانية. فأصبحت أوروبا مملوءة بالجنود لا تحترم إلا مصلحة فرنسا ومصلحة نابليون.

كما كانت أوروبا تشعر شعورا واحدًا إزاء فرنسا. وهو الشعور بالعداوة بعد أوسترلتز وبيينا وفريدلاند. فالعلاقات تحسنت نوعًا ما بعد تلست بين فرنسا وبروسيا ولكنها كانت ثقة مؤقتة والنمسا ولو أنها سلمت لنابليون فى صلح برسبرج إلا أنها سلمت مرغمة، وستنتهز الفرصة للقضاء على

نابليون. وسنجد الدول الأخرى مثل أسبانيا تتألب على فرنسا، وهذه الدول فى مجموعها أقوى من فرنسا من الناحية الحربية ومن ناحية الثروة، وكانت هذه الشعوب تدفع ثمن هذه الحروب عن طريق الضرائب المنتظمة وتقديم زهرة شبابها لخدمة نابليون، فإذا كانت هذه الدول تستطيع تقديم محاربين لنابليون لتثبيت دعائم حكمه الاستبدادى فى أنحاء أوروبا كان بوسعها أن تستخدم هؤلاء الشبان فى القضاء على النفوذ الفرنسى وحكم نابليون.

كما ساهمت الحملة الفاشلة على روسيا ومعركة الأمم فى انهيار إمبراطورية نابليون، فلم يسترح نابليون بعد حربه مع النمسا فقد بدأت العلاقات تتدهور بينه وبين قيصر الروسيا لأسباب عديدة أهمها أن نابليون لم يف بوعوده إلى القيصر الروسى فى تحقيق مطامعه فى السيطرة على الآستانة ومضيقى الدردنيل والبوسفور قلب الدولة العثمانية وحلم روسيا الأزلى فى الوصول إلى المياه الدفيئة.

من جانب آخر فإن الحصار القارى قد أضر بروسيا البلد الزراعى وهى بحاجة إلى المنتوجات الصناعية، إذ كانت تجارتها تعتمد على تصدير المواد الزراعية واستيراد المواد الصناعية فتأثرت التجارة الروسية وتدهور مصالح التجار والزراع مما شكل ضغطاً على القيصر اضطره سنة ١٨١١ إلى السماح بدخول البضائع الإنجليزية إلى بلاده فاعتبر نابليون هذا العمل خروجًا على صلح تلست وعملاً عدائيًا. وقد زاد من حدة العداء من جانب روسيا زواج نابليون من ابنه إمبراطور النمسا التى عارضت والدتها الروسية زواج إحدى أميرات آل رومانوف من رجل وضيع المنبت مهما كان مركزه السياسى، يضاف إلى هذا أن الأميرة أرثوذكسية ونابليون محسوب على الكاثوليك رغم أنه لم يكن متدينا، لذلك تردد الروس فى إرسال موافقتهم لنابليون وتأخروا فى الرد عليه فى ذلك فبادر نابليون إلى طلب يد الأميرة مما اعتبر إهانة كبرى بحق روسيا وعائلتها المالكة. ولا شك أن

رغبة القيصر فى أن يلعب دورًا رئيسيًا فى السياسة الأوروبية قد دفعه إلى التخلى عن تحالفه مع نابليون تحرضه وتدعمه فى ذلك الطبقة الأرستقراطية الروسية الشديدة العداء لنابليون صاحب أفكار التحرر والثورة.

فى ١٢ إبريل سنة ١٨١٢ كان القيصر الروسى قد أنجز استعداداته، وجه إنذارا إلى نابليون يطلب فيه إليه أن يتخلى عن تنظيماته فى ألمانيا وأن يأمر بجلاء جيوشه عن بروسيا. ولما كان نابليون يستعد منذ أمد بعيد لمثل هذا اليوم، ولم يكن من القادة الذين ينصاعون لأمر ويقبلون إنذار فقد غادر فرنسا على رأس جيش ضخم يتألف من سبعمائة ألف مقاتل من قوميات عديدة. كان هناك جنود فرنسيون وألمان وبولونيون وطليان وأسبان وسويسريون وبرتغاليون. ولعل فى تعدد جنسيات هذا الجيش نقطة ضعف كبيرة إذ جعلته عديم الانسجام يصعب التفاهم بين فرقه المختلفة بسبب اختلاف اللغات والقوميات وطرق الحياة. وكان جيش أعدائه الروس يتألف من ربع مليون جندى تجمعهم رغبة واحدة هى الدفاع عن أرضهم وبلدهم.

وقد استفاد الروس كثيرًا من تجارب الأسبان فحاولوا ألا يخوضوا معركة رئيسية قد تكون فاصلة ضد نابليون. فأخذوا يتراجعون نحو المشرق تاركين الفرنسيين يبتعدون عن طرق مواصلاتهم الأساسية ليستنفذوا أكبر قدر ممكن من مئونتهم ومن طاقات جنودهم. وفى أغسطس وقع أول صدام بين الفريقين عند مدينة سمولنسك Smolensk فى منتصف الطريق بين الحدود والعاصمة موسكو. انتصر الفرنسيون وأحتلوا المدينة غير أن الجيش الروسى انسحب نحو الداخل دون أن يترك لعدوه فرصة القضاء عليه. أخذ نابليون يتقدم نحو الشرق ودخل العاصمة موسكو فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨١٢ فوجدها خالية من سكانها الذين غادروها قبل وصول الفرنسيين. وفى مساء ذلك اليوم أشعلت النيران فى المدينة بأمر حاكمها. ارتد نابليون خارج المدينة وبقى هناك مدة شهر كامل ينتظر أن يعرض عليه القيصر الصلح إلا أن هذا

رفض كل صلح أو مفاوضة مع الفرنسيين. وفى أكتوبر أمر جيشه بالعودة إلى فرنسا إذ كان يخشى قيام ثورة داخلية هناك وانضمام الدول الأوربية إلى روسيا. ذلك أنه خلال غيابه عن البلاد كثرت هناك الدسائس والمؤامرت ضد حكمه الذى جرّ على فرنسا الويلات والكوارث.

فى طريق العودة مات عشرات الألوف من الجنود الفرنسيين بردًا وجوعًا وفى نفس الوقت كانت فلول الجيوش المنسحبة تتعرض لهجمات وحشية من الجيوش الروسية ومن فرسان القوازق من كل جانب. ولم يصل إلى الحدود البروسية من ذلك الجيش الضخم سوى مائة ألف جندى تقريبا. فلما بلغ أوروبا كانت شعوبها عامة قد تحولت إلى حلف يعاديه ويستعد للقضاء عليه، وكان شعب بروسيا خاصة أكثر الشعوب الأوروبية استعدادًا لمحاربته انتقامًا لكرامته. فأحاط بمليكه يستحثه على التحالف مع روسيا، فعقد معها معاهدة "كاليش" Kalish فى فبراير ١٨١٣، اتفق الطرفان على ألا ينفرد أحدهما بعقد صلح مع فرنسا، وتعهد القيصر بأن يعيد لبروسيا ما فقدته من أملاك ثم أن يرد على ألمانيا كلها حريتها، وأراد أن يستوثق من استعداد الشعب الألمانى فى قبول هذا العرض، فأعلن على أمرائه أن من يتخلف منهم عن مشاركته فى محاربة نابليون سوف يفقد فى النهاية أملاكه.

وتبدأ هذه الحرب بأن يهاجم جيش الحليفين روسيا وبروسيا القوات الفرنسية التى يقودها نابليون فتضطرها إلى التقهقر غربا. فتظفر باحتلال همبورج Hamburg عند مدخل نهر الألب ثم درسدن فى سكسونيا، ولكنها مع ذلك لم تظفر بقهر نابليون الذى لم يلبث أن انتصر على غريميه المتحالفين: فأوقع بهما هزيمتين أحدهما فى لوتزن Lutzen فى اتحاد الراين والثانية فى بوتزين Butzen بسيلزيا. ولكن انتصار نابليون فى هاتين المعركتين لم يرق بقيمته إلى المستوى الذى حققته له الظروف بعد معركتى "استرلتز" فخسائره بالرغم من الانتصار فى المعركتين الأخيرتين كانت

فادحة. وأحس أن روح الجند من حوله قد تغيرت ولم يصبح كما كان بالقائد المطاع.

وترتب على ذلك أن تحرير ألمانيا لم يكن ليتم من غير مساعدة فعلية من الإمبراطورية النمساوية. ولكن هذه الإمبراطورية وقتئذ فى جملتها دولة غير جرمانية، وقد قللت بإطراد تعهداتها فى الغرب، فتخلف عـن البلجيـك وحدود الراين وتنازلت عن ممتلكاتها القديمة فى سوابيا Swabia وشـاهدت اختفاء الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى شئ من الارتياح. وكانت تهـتم بالسيطرة على شمال ووسط إيطاليا، ومن ثم علـى الفاتيكـان، أكثـر مـن اهتمامها باستئناف هذه العمل المحفوف بالمخاطر والجحود، وهـو حمايـة ألمانيا من الاعتداء الفرنسى فى الغرب. فيما كـان الزعيمـان السياسـيان يرومان أن يطردا نابليون من ألمانيا بالطعان والنزال، ومن ثم يخلقان دولـة ألمانية متحدة، كان مترينخ Metternich (١٧٧٣ – ١٨٥٩) يرغـب فـى فرض توسطه مع الفرق المتناحرة، ويدعو إلى مؤتمر للصلح. فوافق نابليون على هذا الاقتراح.

على أية حال لم تكن النية خالصة من جميع الأطراف للصلح وانتهى ذلك بقيام الحرب بين الطرفين انتهت بهزيمة نابليون خمس مرات متتاليـة. ولم ينته الأمر على ذلك. فـالتقى نـابليون بخصـومه جمعيًـا مـن روس وبروسيين وألمان وسويدين وإيطاليين فى لينزبج لمواجهته، فتقع بينهم وبينه فيها معركة الشعوب، خسر فيها نابليون خمسين ألف من جنده، وفر البـاقين من رجاله إلى الراين. فبلغه فى ديسمبر بعد ان فتكت الأمراض بـأكثرهم، وهنا قضى على سلطانه فى شرق الراين وتتابعت المصائب تلاحق نابليون، فتنسحب قواته من أسبانيا حتى تبلغها الجيوش البريطانية بقيـادة ولنجتـنن Wellington الذى عزم على غزو فرنسا قاصدًا إليها من الجنوب وانتهـى ذلك بأن طلبت فرنسا الصلح وسقط نابليون.

المـــراجـــع

١- أ.ح. جرانت . هارولد تمبرلى: أوربا فى القرنين التاسع عشر والعشـــرين ١٧٨٩-١٩٧٠، ترجمة بهاء فتحى، مراجعة أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة، ١٩٥٠.

٢- السيد رجب حراز(دكتور): عصر النهضة، دراسة فى الحضارة الأوروبية الحديثـــة، القاهرة ١٩٧٤.

٣- جلال يحيى (دكتور): معالم التاريخ الحديث، الإسكندرية ١٩٦٧.

٤- حسن صبحى (دكتور): التاريخ الأوروبى الحـــديث/ الجـــزء الأول ١٤٥٣-١٧٩٣ الإسكندرية ١٩٨٣.

٥- حسن كامل سليم: تاريخ أوروبا الاقتصادى فى القرن التاســـع عشـــر، الإســـكندرية ١٩٥٨.

٦- زاهر رياض (دكتور): استعمار افريقية، القاهرة ١٩٦٥.

٧- زينب عصمت راشد (دكتورة) تاريخ أوروبا الحديث، منذ مطلع القرن السادس عشر حتى نهاية القرن الثامن عشر، القاهرة ١٩٩٨.

٨- زينب عصمت راشد: تاريخ أوربا فى القرن التاسع عشر، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٧٦

٩- عبد الحميد البطريق (دكتور)، عبد العزيز نوار (دكتور): التاريخ الأوروبى الحـــديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فينا. بيروت

١٠- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور): معالم التاريخ الأوروبـــى الحـــديث والمعاصر، القاهرة ١٩٨٢.

١١- عبد العزيز نوار (دكتور) عبد الحميد نعنعى (دكتور): التاريخ المعاصر، أوروبـــا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية، دار النهضة بيروت، ١٩٧٣.

١٢- عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور): أوروبا فى مطلـــع العصـــور الحديثـــة، ج١، الطبعة الخامسة، القاهرة، ١٩٨٥.

١٣- عبد العظيم رمضان (دكتور): تاريخ أوروبا والعالم فى العصر الحـــديث، جـــ٢، القاهرة ١٩٩٧.

١٤- عمر عبد العزيز عمر (دكتور): دراسات فى التاريخ الأوروبى والأمريكى الحديث الإسكندرية ١٩٩٢.

١٥- محمد أحمد أنيس (دكتور)، السيد رجب حراز (دكتور): عصر النهضة الأوروبية، القاهرة ١٩٦٠.
١٦- محمد محمود السروجي (دكتور): معالم التاريخ الأوروبى الحديث، الإسكندرية ١٩٦٧.
١٧- محمد مخزوم (دكتور): مدخل لدراسة التاريخ الأوروبى - عصر النهضة بيروت ١٩٨٣.
١٨- محمد مظفر الأدهمي: أوروبا فى القرن التاسع عشر، درساة فى التاريخ والفلسفة، الرباط، ١٩٨٥.
١٩- ول ديورانت، قصة الحضارة، روسو والثورة، المجلد الثاني والعشرون، الجزء ٤٢، ترجمة فؤاد أندراوس، القاهرة ٢٠٠١.
٢٠- نور الدين حاطوم (دكتور): تاريخ عصر النهضة الأوروبية، دمشق ١٩٦٨.
٢١- هربرت فيشر: أصول التاريخ الأوروبى الحديث من النهضة الأوروبية إلى الثورة الفرنسية، ترجمة الدكتورة زينب عصمت راشد، والدكتور/ أحمد عبد الرحيم مصطفى مراجعة الدكتور أحمد عزتِ عبد الكريم، القاهرة ١٩٦٢.
٢٢- وليم لانجر: موسوعة تاريخ العالم، جـ٤، ترجمة محمد زيادة القاهرة ١٩٦٣.

الفهارس